المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

المنهج فى تاريخ الترجمة

تأليف: أنطونى بيم

ترجمة: على كلفت

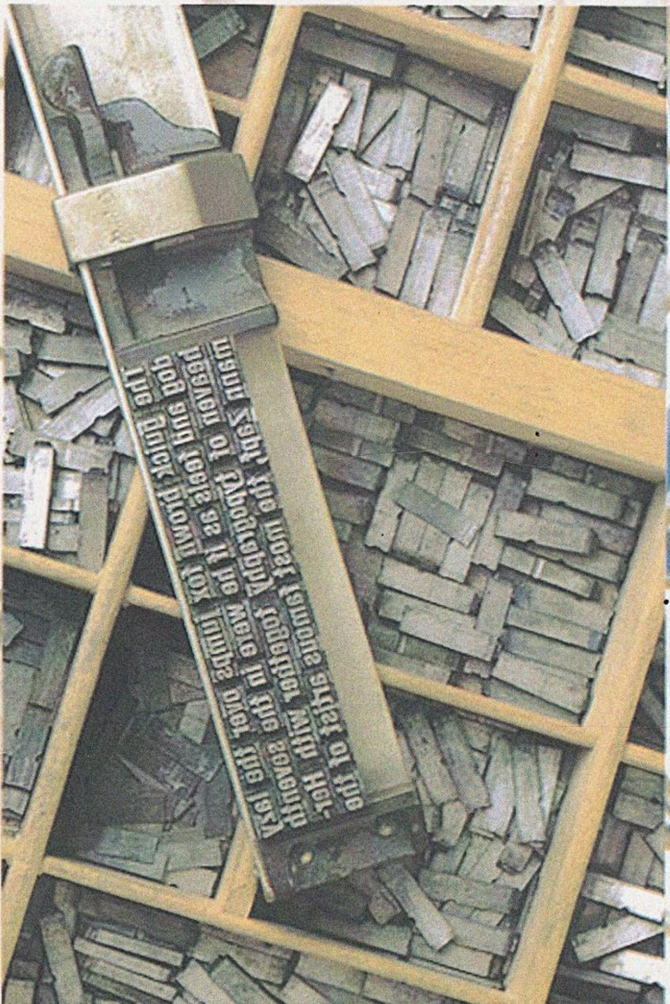

1682

المنهج فى تاريخ الترجمة

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1682
- المنهج فى تاريخ الترجمة
- أنطونى بيم
- على كلفت
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب :

Method in Translation History

By Anthony Pym

Copyright © Anthony Pym, 1998

First published by St. Jerome Publishing Ltd Manchester, United Kingdom

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

EL Gabalaya St. Opera House، El Gezira، Cairo

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

المنهج فى تاريخ الترجمة

تـــأليـف: أنطـــونى بــيـــم

تـــرجمة: علـــــى كلـــفت

2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بيم، أنطونى

المنهج فى تاريخ الترجمة / تأليف: أنطونى بيم، ترجمة: على كلفت

ط ١ – القاهرة : المركز القومى للترجمة ، 2010

٣٦٤ ص ، ٢٤ سم

١ – الترجمة – تاريخ

(أ) كلفت ، على (مترجم)

(ب) العنوان ٤٠٨,٢٠٩

رقم الإيداع ١٩٣١٩/ ٢٠١٠

الترقيم الدولى: I.S.B.N 978 - 977- 704 - 312- 0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تمهيد.. 11

شكر وتقدير.. 21

الفصل الأول: التاريخ..................................... 25

التاريخ في نطاق دراسات الترجمة.......................... 25

أقسام تاريخ الترجمة....................................... 32

الاعتماد المتبادل والاستقلال بين الأجزاء.................... 34

تاريخ وجيز جدًا لتاريخ الترجمة 40

مبررات دراسة تاريخ الترجمة............................. 50

الفصل الثاني: الأهمية.................................... 57

ما معنى الأهمية؟.. 57

في مواجهة الإمبريقية السعيدة.............................. 63

ماذا يدور هنا؟.. 65

المصالح الشخصية.. 73

البحث ومصالح الزبون...................................... 76

المصالح الذاتية والتواضع.................................. 83

الفصل الثالث: القوائم...................................... 87

مبررات القوائم.. 88

الحصول على المعلومات.................................... 92

الفرق بين الفهارس والمواد الفهرسية........................ 93

عيوب البيبليوجرافيات: أربعة أمثلة......................... 94

الكمال في التاريخ والجيولوجيا........ 104
المصادر باعتبارها تربة مغربلة........ 108
المؤرخ باعتباره قارئًا للكشافات........ 112

الفصل الرابع: التعريفات العملية........ 115
لماذا يتعين علينا أن نستبعد بعض المعلومات 116
دفاعًا عن التعريفات........ 118
التعريفات الجامعة........ 121
تعريف الترجمات من بيانات النصوص........ 125
المواد الفهرسية للحالات المتطرفة........ 131
كيف تسلل فاجنر........ 134
كيف أظهرت سالومي أهميتها........ 136

الفصل الخامس: التكرارات........ 141
الإحصائيات والأهمية........ 142
التوزيع التعاقبي........ 146
الترجمات المتكررة والطبعات المتكررة واللاترجمات........ 154
تكرار الترجمة ودوافعه........ 158
فرضية تعاقبية عامة........ 161

الفصل السادس: الشبكات 165
إعادة بناء الشبكات من الداخل 165
رسم خرائط الشبكات 174
خريطتان رخيصتان لعملية النقل........ 177
الخطوط والرموز........ 183
المحور المكاني........ 191

المدن بوصفها حدودًا........................... 195

الفصل السابع: المعايير والمنظومات.......................... 197
الترجمات المقروءة فعليًا.................................... 198
المعايير.. 204
المنظومات.. 212
قفزات اليقين.. 216
شهوة المنظومات.. 217
نثر بلا موضوع... 223
أين مكمن الذهب؟... 225

الفصل الثامن: النظم....................................... 227
ما النظم؟... 227
البدء من المناظرة.. 232
نظام لطليطلة القرن الثانى عشر............................ 234
نظام لهيومانية بدائية فى قشتالة........................... 238
نظام للمختارات فى بداية القرن العشرين.................... 246
الترجمة بوصفها تكلفة تجارية.............................. 251

الفصل التاسع : الأسباب................................... 255
السببية المنظومية والسببية الاحتمالية...................... 257
أرسطو... 264
النقل بوصفه سببية مادية................................... 266
الأسباب النهائية فى نظريتى المنظومات والأفعال القصدية..... 269
التساوى بوصفه سببًا صوريًا................................. 275
المترجمون بوصفهم أسبابًا ذات فاعلية. 278

السببية المتعددة العناصر. 278

الفصل العاشر: المترجمون.. 281
المترجمون وليس "المترجم".. 281
فى وسع المترجمين أن يفعلوا ما هو أكثر من الترجمة. 284
المترجمون لهم مصالحهم الشخصية.. 291
المترجمون يمكنهم التنقل.. 300
المترجمون قد يطلق عليهم أسماء متعددة.. 305

الفصل الحادى عشر: الثقافات المزدوجة.. 309
أين تكمن الثقافات المزدوجة؟.. 311
الترجمات أم المترجمون؟.. 317
غرباء لكن موضع ثقة.. 320
الازدواج الثقافى ونقيضه.. 324
مهن الازدواج الثقافى بصورة نسق اجتماعى.. 326
رابط أساسى بديل. 329
ما الثقافة؟.. 331

الفصل الثانى عشر: ازدواجية التخصص.. 335
مبررات ذاتية للتشاؤم.. 336
تخصص نفتقده.. 339
دراسات ثقافية.. 344
دراسات الازدواج الثقافى. 345
المراجع.. 349

إشارة من المترجم

القوسان المعقوفان [ ] في المتن والشروح والهوامش والاقتباسات جميعًا من المترجم، إلا ما أشير إلى أنه من المؤلف، حيث يتم توضيح معنى أو تفسير كلمة أو تعبير منقول من غير اللغة المترجم منها وهي اللغة الإنجليزية. ويتحمل المترجم المسئولية الكاملة عن كل ما جاء بين هذين القوسين في جميع أجزاء الكتاب.

تمهيد

تمثل مشاكل إجراء بحث عن مترجمين وترجمات لعصر مضى موضوعًا غامضًا جدًّا لا يثير إلا اهتمام الطالب الذي يتصادف أنه تخصص في هذا المجال. لكن تاريخ الترجمة قد احتاز في السنوات الأخيرة اهتمامًا أكاديميًّا متزايدًا لأنه يشتمل في الواقع على كافة الجوانب النظرية والعملية للترجمة. ومع أن المناهج التأريخية ***historiogeographical*** جزء من قضية أشمل تتعلق بمسألة الاعتماد المتبادل بين الثقافات، فإن هذه المناهج، في هذا المجال، تتجاوز تمامًا تلك المهارات الفنية الضيقة؛ فهي معنية بكثير من المعارف التي تعتمد عليها أبحاث الترجمة حاليًا، وتستطيع، في معظم الأحوال، أن تقدم لها الشيء الكثير. وقد يكون تاريخ الترجمة مصدرًا للأفكار والمعلومات الخاصة بالأبحاث السياسية أو الاجتماعية الخاصة بالعلاقات الدولية؛ وربما يكون لديه ما هو أكثر من مجرد كلمات قليلة تقال بشأن تطور السياسات اللغوية؛ ولابد أن تكون نماذجه قادرة على توجيه عمليات تدويل الثقافة السمعية البصرية بصورة متزايدة السرعة؛ كما أن في إمكانه أن يقدم خدمة جليلة لمجمل تاريخ الأدب والفكر، خصوصًا عند معرفة الطرق التي اتبعتها نماذج الفكر القومي لإقصاء المترجمين عن مثل هذه المجالات البحثية. ولذلك ينبغي أن تكون أي محاولة لتطوير منهج لتاريخ الترجمة قادرة على الأقل على طرح سؤالين مترابطين: أولهما، كيف يمكن دراسة تاريخ للترجمة (بالنسبة لمن يحاولون ذلك)؛ وثانيهما، لماذا يتعين تفضيل طريقة على أخرى (بالنسبة لمن يريدون ربط تاريخ الترجمة بالقضايا الأوسع للدراسات الإنسانية). وفي هذا الكتاب، فإننا نحاول أن نثير كلا السؤالين، وأن نطرحهما وفي ذهننا كلتا النوعيتين من القراء.

في الفصول الستة الأولى تقريبًا، ينصرف اهتمامي الأساسي إلى الجوانب العملية، مثل: كيف نحدد المشكلة المراد حلها، وكيف نعد قائمة بالترجمات، وكيف نحدد أماكن الترجمات والمترجمين على خريطة، وما الفائدة الحقيقية من ترتيب عناصر في شكل منظومة. ونظرًا لأنني لا أقر بأن تكون مناقشة الأفكار التخصصية مقصورة على المتخصصين، فقد يجد القراء الباحثون عن أفكار نظرية بحتة بعضًا من هذه الأفكار التي تتوافر في الكتب.

هناك أيضًا طائفة من القضايا بدأت تثار حول الفصل السابع حيث أقوم بإعادة النظر في المفاهيم السائدة للدراسات الوصفية الخاصة بالترجمة على أساس من العلاقات الدولية، والتلميح إلى السببية، وهوية المترجمين، والبحث عن الازدواج الثقافي، والشكوى من الافتقار إلى أي إطار ثقافي متماسك ومشترك يفي بهذه المهمة الآن. أما النصف الثاني من هذا الكتاب فإنه موجه إلى أولئك الذين يهتمون بالجانب النظري أكثر من اهتمامهم بالجانب العملي من تاريخ الترجمة. وأنا أستهدف في النهاية أن أكتشف العلاقات التي تربط بين هذين الجانبين، آملاً في أن يؤدي ذلك إلى تشجيع كل مجموعة من القراء على أن تفكر مليًّا في رؤى المجموعة الأخرى.

ونظرًا لأن هذا الهدف العام يتطلب مني أن أحدد موقفي بوضوح أكبر، فقد حاولت أن أناقش القضايا بطريقة ذاتية تمامًا معتمدًا على تجربتي الشخصية. وكان معنى ذلك أن أكتب بحثًا عن منهج وليس دفاعًا عن منهج؛ فأنا معنيّ بالمبادئ الأساسية ***postulates*** وليس بالحقائق المقررة ***axioms***. والمحصلة لا تتضمن سوى مناقشات مختصرة عن ما هو التاريخ أو ما عسى أن تكون الترجمات. ذلك لأنني لست شديد الاهتمام بقضية اختراع أسماء للأشياء.

لكنني، في الواقع، وعلى الرغم من رغبتي في التركيز على المنهجية، غالبًا ما أراني أحاول التقليل من الجوانب التي يغلب عليها الطابع النظري من تاريخ الترجمة، مصرًّا على أن المعرفة الحقيقية تأتي من دراسة التاريخ ذاته. وينبني هذا

الكتاب، في جزء كبير منه، على الرأي القائل بأنه ينبغي على المؤرخين أن يقتلوا مادتهم بحثًا قبل أن يحددوا المبادئ الخاصة بمنهجية دراستهم. ومجاراةً لهذا الرأي، قمت بتحديد الأفكار في كل مرحلة من مراحل دراستي لتاريخ المترجمين في الزمن الماضي.

فلماذا يجب عليّ- الآن- أن أعرض الأفكار نفسها كما هي؟

أحد الأجوبة هو أنني أحببت أن أحافظ على ما كتبته عن تاريخ الترجمة مستقلاً نسبيًّا عن الانطباعات النظرية. فإن كنت قد كتبت عن مدرسة طليطلة *Toledo* في القرن الثاني عشر، فذلك لأنني أعتقد أن نتائج بحثي لابد أن تتحدث عن نفسها بنفسها بغض النظر عن المنهج الذي اتبعته للوصول إلى هذه النتائج. وقد تم هذا وفقًا لأسلوب معين للتمييز بين الأقوال التي تم طرحها في الفصل الأول من هذا الكتاب.

الجواب الأفضل قليلاً هو أنني أحببت التمسك بفكرة أن التنظير ليس عنصرًا أجنبيًّا لا لزوم له في الممارسة الوصفية عند المؤرخ. فهو في ذاته عمل له طبيعته السردية الخاصة. وفكرة 'التنظير بوصفه ممارسة' يمكن قبولها من عدة وجوه: بوصفها نشاطًا مشروعًا وضروريًّا في الصراع ضد نظريات أخرى، أو كطريقة لحمل شخص ما على اتباع أسلوب معين في كتابة تاريخ للترجمة، أو كنظرة اعتراف خاطفة يتم إلقاؤها على مسرح الأحداث بعد إسدال الستار، أو كمجرد انطباع ذاتي حائر. وفيما يتعلق بهذا الكتاب، وبدون ادعاء أي مآثر تربوية، فإن تنظيري له منابعه التي تتلاطمها أمواج المياه الآنفة الذكر؛ أمواج الحيرة. لقد نبع الجزء الأكبر من انطباعاتي عن المنهج من أخطاء منهجية عملية جدًّا. وما عليك إلا أن تشق طريقك بنفسك إن شعرت أنك تائه؛ فأنا نفسي، حين شعرت بأنني صفر اليدين، لم أفعل شيئًا سوى البحث عن منهج، ذلك لأن المحتوى التنظيري، بغض النظر عن مدى وضوحه، جزء لا يتجزأ من التطبيق العملي.

هذا هو أول أخطائي: في الجانب الأكبر من الفترة ١٩٩٢ - ١٩٩٣ وجدت أنني أسعى إلى إجراء مشروعين بحثيين في آنٍ واحد معًا. كان أحدهما عن هيسبانيا ***Hispania***(*) القرن الثاني عشر؛ والآخر عن أنهار الترجمة التي تتدفق مياهها بين الشعر الفرنسي والشعر الألماني في أواخر القرن التاسع عشر. وقد بدا المجالان مختلفين كما لو أنهما لا ينتميان إلى حقل تخصصي واحد. كانت هناك معلومات قليلة عن ترجمات القرن الثاني عشر؛ والكثير جدًّا عن الترجمة في القرن التاسع عشر. وكان أحد المشروعين يستلزم العناية الدقيقة بالتقاليد المتبعة في التعامل مع المخطوطات؛ والآخر كان في حاجة إلى إحصائيات عن الناشرين. وكان المتخصصون في تاريخ القرون الوسطى يتناقشون حول الفترات الزمنية الفاصلة؛ على حين أن الحداثيين ***modernists*** كانوا مشغولين بالدفاع عن طبقات اجتماعية، وبقضايا نوع الإنسان من حيث كونه ذكرًا أو أنثى، وبمختلف الأفكار الخاصة بالتقدم والتخلف. ونظرًا للاختلاف الشديد في الموضوعات، واجه المشروعان العديد من الإشكاليات والمعالجات والمناهج المتباينة. ومع ذلك، ونتيجة لأن الدراستين كانتا معنيتين بتاريخ الترجمة، شعرت، بطريقة أو بأخرى، أنني مضطر إلى تطبيق نفس المفاهيم والخطوات في كلتا الحالتين. وكلما أمدتني خطوة بنتائج مثيرة فيما يخص القرن التاسع عشر، حاولت أن أطبقها على القرن الثاني عشر، والعكس بالعكس. كان ذلك لهوًا جميلاً، لكن بحثي سرعان ما تحول إلى مجموعة من الأشياء المختلطة.

وينطلق هذا الكتاب من الملاحظات التي سجلتها لتنظيم ذلك الخلط. كانت هذه الملاحظات بالأساس عبارة عن انطباعات سبق لي أن دونتها عن الأداء، وهي انطباعات لا تصدر عن غرور، وإنما تعتمد على التساؤل. وفي الواقع، فإنني بذلت جهدًا كبيرًا في إعادة التنظيم رغبةً في الحصول على نتيجة متماسكة ومترابطة منطقيًا، وتدرجت فيها من الأمور الأساسية إلى المفاهيم الأكثر تعقيدًا. ومع أنه لا

(*) Hispania ، كما وردت فى الأصل ، هى إسبانيا التاريخية. (المترجم)

ينبغي للإنسان أن يشعر بأنه مجبر على متابعة عمل ما خطوة بعد خطوة، فإن من الأفضل أن تتم قراءة الفصول المختلفة باعتبارها مسودات متفرقة لخطوات لم توضع بعد موضعها الصحيح، فأنا لا أدعي أنني تلافيت كل أنواع الخلط. هذا يعني أيضًا أن أمثلتي أكثر من مجرد أمثلة؛ فهي ليست مجرد إيضاحات غايتها التأكيد على نظرية كبرى. بل هي، بالعكس، جزء لا يتجزأ من الانطباعات النظرية التي لعبت دورها في دحض وتغيير أفكاري عن تاريخ الترجمة والتأكيد على هذه الأفكار أحيانًا.

وعلى الرغم من هذا المزاج العقلي المتردد، فإنه يمكنني أن أسوق أربعة مبادئ تنبثق بصورة تدريجية من خلال البحث، لكن هذه المبادئ ليست كلها على مستوى واحد أو تنطبق بنفس الكفاءة على أبحاث أخرى:

١- يقول المبدأ الأول أن تاريخ الترجمة ينبغي أن يفسر 'لماذا' تم إنتاج ترجمات في زمان ومكان اجتماعي معين. وبعبارة أخرى، لابد لتاريخ الترجمة أن يحدد القضايا التي لها سببية اجتماعية ***social causation***. لكن هذا يبدو صحيحًا إلى حين أن ندرك تمامًا أن المناهج الإمبريقية- ذلك النوع من المناهج التي نصادفها في الكثير من المداخل الوصفية المنظومية- عاجزة بصورة جوهرية عن صياغة سببية اجتماعية.

٢- المبدأ الثاني هو أن الموضوع الرئيسي للمعرفة التاريخية ينبغي أن لا يكون نص الترجمة، ولا منظومته السياقية، ولا حتى ملامحه اللغوية. فما دام البشر وحدهم هم المسئولون عن السببية الاجتماعية، فإن الموضوع الرئيسي ينبغي أن يكون هو المترجم البشري. إننا لا يمكننا أن نحاول فهم لماذا ظهر المترجمون في زمان ومكان اجتماعي معين

إلا بواسطة المترجمين ومحيطهم الاجتماعي (الزبائن *clients*، الرعاة *patrons*، القراء *readers*). لذا، فإن فهم مسألة ظهور المترجمين يستوجب علينا أن ننظر في الناس المحيطين بهم. وصحيح أن التركيز على الناس المحيطين ينبغي أن لا يضعنا تحت طائلة الحكايات والتفاصيل العشوائية: وسوف يتسع هذا الكتاب لنحو تسعة فصول لبناء نطاق من الذاتية المشروطة اجتماعيًّا كتمهيد لتاريخ المترجمين. لكن بؤرة الاهتمام الأصلية يجب أن تبقى، رغم قيود المنهج، بشرية أكثر منها نصية.

٣- وينطلق المبدأ الثالث من كل ما سبق، فإذا كان يتعين على تاريخ الترجمة أن يرتكز على المترجمين، فإنه لابد أن يبني عالمه على الأنساق الاجتماعية حيث يعيش المترجمون ويعملون. وفي وقتنا الحاضر، فإن هذه الأنساق هي، بوجه عام، الثقافات المستهدفة [المنقول إليها]. فإن كنت أترجم إلى اللغة الإنجليزية، فإنني لابد أن أكون منتميًا، بصورة أو بأخرى، إلى إحدى ثقافات اللغة الإنجليزية (فأي ثقافة منها؟)؛ بل وحتى يفترض أن أكون مدفوعًا من جانب زبائن ورعاة لغتهم إنجليزية. وفيما يتعلق بي أنا شخصيًّا، فأنا مترجم محترف ولدت في أستراليا وأعيش في إسبانيا، وأبيع الترجمات وأدرّس الترجمة في مكان أعتبره لا بالأجنبي ولا بالغريب. وانطلاقًا من هذا الوضع المهني، فأنا لا أملك إلا أن أوجه جزءًا من اهتمامي إلى ثقافة واحدة على الأقل إلى جانب ثقافتي الأصلية (الإنجليزية)، وعلى وجه الخصوص الثقافة الإسبانية/ الكاتالانية، ثقافة زبائني ونصوصي المصدرية

وتلاميذي. فيكف يمكن، إذن، أن يتم اعتباري أحادي الثقافة؟ والأهم من ذلك أنه إذا كانت الهويات الأحادية الثقافة ليست قائمة على الدوام، فإن هناك مترجمين كثيرين غيري لديهم فرصــــة لأن يجدوا أنفسهم داخل نقاط تقاطع ***intersections***، أو تداخلات ثقافية، أو فيما أحب أن أسميه 'ثقافات مزدوجة' ***intercultures***. وكما أن هناك ازدواجًا ثقافيًا افتراضيًا عند المترجمين، هناك أيضًا، بطبيعة الحال، ازدواج ثقافي عند كل أنواع الوسطاء؛ بدءًا من رجال السلك الدبلوماسي والتجار وحتى الجواسيس والمهربين. فمثل هؤلاء الأشخاص يمكنهم أيضًا أن يمثلوا مجموعات اجتماعية مزدوجة الثقافة. ولقد دانت الفرصة لأن تكون هذه الفكرة ملهمة وفي أحيان ناجعةً في الفترات والأماكن التي أتناولها بالدراسة. وأصبحت هذه الفكرة أحد المبادئ التي صرت أتبعها في دراسة تاريخ الترجمة. وأصبح المترجمون، كفرضية مقبولة بصفة عامة، يعتبرون مزدوجي ثقافة، لكن لابد من إجراء العديد من الدراسات قبل أن يكون في إمكاننا أن نعطي مصطلح 'الازدواج الثقافي' دلالة منهاجية محددة.

٤- المبدأ الرابع يتعلق بالدوافع التي تجعل شخصًا ما راغبًا في العمل في مجال تاريخ الترجمة بالذات. ووفقًا لهذا المبدأ، فإن الدوافع- وسوف أستعرض دوافعي قرب نهاية الفصل الأول- موجودة في الوقت الحالي. إننا ندرس تاريخ الترجمة رغبةً في التعبير عن الأمور التي تؤثر في وضعنا الحالي، ورغبةً في تسميتها ومحاولة حلها. لكن هذا لا يعني أننا نسلط الضوء على أحداث الماضي للفت النظر. فالماضي، على

العكس من ذلك، موضوع لابد أن نستنطقه للإجابة عن أسئلتنا، عن مقولاتنا الهامة، والحلول المناسبة التي لم نفكر فيها من قبل. إن النقطة التي تنطلق منها دائمًا هي "هنا والآن"، ولذا، ينبغي أن لا يضللنا شيء عن هذه النقطة. فأولوية الحاضر ليست فقط أمرًا لا مناص منه بل أمر ضروري جدًّا أيضًا؛ ولذلك فأنا شخصيًّا مهتم اهتمامًا ذاتيًّا وبالغًا بتاريخ الترجمة. وإذا كان لابد للبشر أن يكونوا في قلب موضوعنا، فإنه لابد أيضًا أن يتم إضفاء الطابع البشري على ذاتيتنا التأريخية.

وأعود لأسجل هنا من جديد المبادئ العامة الأربعة للتركيز على نوع معين من تاريخ الترجمة: مراعاة السببية، ومركزية المترجم البشري، وتسليط الضوء على خاصية الازدواج الثقافي لجماعة اجتماعية، وأولوية الحاضر. وهذه الأفكار ليس بينها فكرة جديدة تمامًا؛ فهي كلها تتردد في آفاق المفكرين المعاصرين. لكن ما يمكن أن يكون جديدًا هو أنني سعيت إلى وضعها معًا موضع بحث على ضوء الخبرة الحالية لتاريخ الترجمة.

فإذا كان أي من المبادئ المذكورة آنفًا مقبولاً، فلاشك في أنها كلها مقبولة ولا اعتراض عليها. أما إذا لم يكن الأمر كذلك، فلعلها تتم، على الأقل، عن قدر من التحول في دراساتنا. وأنا أظن أن تاريخ الترجمة سوف يصبح في نهاية المطاف شيئًا آخر، شيئًا أوسع، وليس بالضرورة جزءًا من الأدب المقارن المبعوث إلى الحياة من جديد (فالحياة لها وجوه كثيرة أخرى غير الأدب)، ولا هو أيضًا أحد مظاهر الدراسات الثقافية (ذلك المفهوم الذي مازال في حاجة ماسة إلى تعريف). وإذا تعلمنا أن نركز على المترجمين البشر، وأمكن النظر إلى المترجمين كأعضاء في الجماعات المزدوجة الثقافة، فإن تخصصنا يمكن أن يتسع منطقيًّا ليشمل دراسة كل أنواع الجماعات المزدوجة الثقافة، على مستوى نقاط تقاطع الثقافات. إن دراسات الترجمة يمكن أن تصبح دراسات مزدوجة ثقافيًّا؛ ويمكن أن يصبح تاريخ

الترجمة جزءًا جوهريًا من التاريخ المزدوج ثقافيًا، تمامًا كما أن البشرية، التي .ترتد حاليًا إلى أحداث التنافس على الخصوصيات الثقافية، قد تصبح يومًا ما أفضل نتيجة لهذه الأحداث. لكن تاريخ الترجمة ليس بحاجة إلى أن يكون محوره هو الماضي فقط.

شكر وتقدير

أريد أن أعبر عن تقديري الصادق للباحثين في مجال الترجمة الذين كانوا مصدر عون لي في السنوات الأخيرة، خصوصًا جيديون توري *Gideon Toury* وجوزيه لامبيرت *José Lambert* وآرمين بول فرانك *Armin Paul Frank* وهم جميعًا أساتذة. وكما قد يبرر المنطق الجدلي، فإن مخالفتي العارضة للباحثين الرواد في عصرنا تنطوي على اعترافي الكامل بأهميتهم، فأنا غير ناكر لجميل نصحهم وكريم تشجيعهم. وأنا ممتن أيضًا غاية الامتنان للسيد هارالد كيتيل *Harald Kittel* ومركز أبحاث جوتنجن *Göttingen* للترجمة الأدبية، حيث حصلت على منحة همبولدت *Humboldt* في الفترة ١٩٩٢ – ١٩٩٤. كما تلقيت أيضًا العديد من التعليقات النقدية المفيدة من كل من جوديث وودزوورث *Judith Woodsworth* وثيو هيرمانز *Theo Hermans* ومنى بيكر *Mona Baker* واوليفير خيمينيث لوبيث *Olivier Giménez López*.

ونظرًا لأن هذا النص مبني في معظمه على دراسات سابقة، فإنه يتعين عليّ أن أشير إلى المجموعة التالية من المصادر والدراسات المتنامة. تشمل الفصول الثلاثة الأولى مادة استخدمتها في محاضرات ألقيتها عام ١٩٩٦ (محاضرات *CETRA*) في ليوفين *Leuven* [بلجيكا]. والفصلان الرابع والخامس يشيران إلى بحث نشر عام ١٩٨٩ في منتدى *French Forum (14/3)* صفحات *322-311* تحت عنوان *The Importance of Salomé: Approaches to a fin de siècle theme*، وإلى عمل غير منشور عن الترجمات الفرنسية الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر تم إعداده بمركز جوتنجن بفضل منحة من مؤسسة همبولدت. والرسوم البيانية الواردة في الفصل الخامس بعضها منشورة في *Catalogues and Corpora in*

[الفهارس والمواد الفهرسية في تاريخ الترجمة] *Translation History* كما وردت في *The Knowledges of the Translator: From Literary Interpretation to Machine Translation* من إعداد مالكولم كولثارد *Malcolm Coulthard* وبات اودبر دو بوبيتا*Pat Odber de Baubeta* والصادر عام ١٩٩٦عن دار إدوين مالين برس *Edwin Mellen Press*، ص *190-167*. وظهرت خريطة *"fin de siècle"* (شكل ١١) لأول مرة في *Les notions de "réseau" et de "régime" en relations litteraire international* كما جاء في *L'Internationalité littéraire* من إعداد أنطوني بيم *Anthony Pym* كما ورد في*Paris-Barcelona: Noésis, 1988, 5-18*؛ وظهرت خريطة طليطلة (شكل ١٢) في *Alternatives to Borders in Translation Theory* كما وردت في *Koiné*. ويعتمد الفصل السابع جزئيًا على مقال *Why translation conventions should be intercultural rather than culture-specific: An alternative basic-link model* المنشور في*Parallèles* العدد*15* عام *1993*، ص*68-60*. ويلخص الفصل الثامن، الذي يتناول موضوع النظم، التحليلات المطولة التالية: كتاب *Twelfth-Century Toledo and Strategies of the Literalist Trojan Horse, Target 6/1 (1994): 43-66*؛ ومقال *Negotiation theory as an approach to translation history: An inductive lesson from fifteenth-century Castile* الوارد في كتاب *Translation and Knowledge, ed. Yves Gambier and Jorma Tommola; Turku: University of Turku Center for Translation and Interpreting, 1993, 27-39*؛ ومقال *Translational and Non-Translational Regimes Informing Poetry Anthologies, Lessons on Authorship from Fernando Maristany and Enrique Díez-Canedo* المنشور ضمن *International Anthologies of Literature in Translation, ed. Harald Kittel; Berlin: Erich Schmidt, 1995, 251-270*. وهناك مناقشة معمقة حول نظرية العمولة التي جاء ذكرها في نهاية الفصل الثامن وردت تحت عنوان *Translation as a Transaction Coast* في*Meta 40/4 (1995): 594-605*، وهي، مثل الفصل

المخصص للأسباب ***causes***، إعادة كتابة لجزء من كتاب ***Pour une éthique du traducteur*** الذي صدر عام ١٩٩٧ عن ***Artios Presses Université*** والذي قدَّم أول الأمر كموضوع حلقة دراسية عام ١٩٩٤ بباريس في ***Collège International de Philosophie***. ويشمل الفصل العاشر، الخاص بالمترجمين، العديد من الفقرات والأمثلة المأخوذة من كتاباتي في كل من ***Translators through History*** تحرير جان ديلسلي ***Jean Delisle*** وجوديث وودزوورث، مطبوعات ***Benjamins*** عام ١٩٩٥، صفحات ***152-3***، ***193***، ***195-7***؛ وقصة هنري ألبير ***Henri Albert*** في سياقها الكامل في كتاب: ***Lives of Henri Albert, Nietzschen Translator*** المزمع إصداره عن دار ***Benjamins*** في سلسلة ***Translation and Creativity***. ويعتمد الفصل الحادي عشر، المخصص للثقافات المزدوجة، على مقال ***Coming to terms with and against nationalist cultural specificity: notes for an ethos of translation studies*** المنشور عام ١٩٩٣ في ***Folia Translatologica; Prague, Charles University***، ص ***69-49***. وأخيرًا، تم الاتفاق مع مطبوعات ***Translation and Multidisciplinarity*** تحرير مارثيا إيه پي مارتنز ***Marcia A. P. Martins*** وهولويزا جي باربوزا ***Heloisa G. Barbosa***، في ريو دي جانيرو ***Rio de Janeiro: PUC, UFRJ***، على نشر نسخة موسعة من الفصل الثاني عشر تحت عنوان ***Why Translation Studies should be Homeless***. ولست في حاجة إلى القول بأنني أنتحل هذا العنوان الأخير سعيًا وراء جمع هذه الدراسات المتناثرة في كتاب واحد.

ونتقدم بجزيل الشكر لدار جون بنجامينز ***John Benjamins Publishing*** لتصريحها لنا باقتباس خريطة هولمس من الطبعة المنقولة عن كتاب خيديون توري ***Descriptive Translation Studies and beyond*** المنشور عام ١٩٩٥، ولدار روتليدج ***Routledge*** لتصريحها لنا باقتباس شكل ٣ من كتاب لورانس فينوتي ***Lawrence Venuti*** المنشور بعنوان ***The Translator's Invisibility*** عام ١٩٩٥.

الفصل الأول

التاريخ

يقدم هذا الفصل مخططًا يبين الطابع العام لتاريخ الترجمة، وبخاصة أقسامه وخلفياته وبعض أسباب وجوده. فهذه كلها جوانب أساسية في تناول الموضوع الذي نناقشه بشكل مفصل في الفصول التالية.

التاريخ في نطاق دراسات الترجمة

في محاضرته الثاقبة المعنونة *The Name and Nature of Translation Studies (1972)*، بدأ جيمس اس هولمس *James S. Holmes* يطرح دراسته رفيعة المستوى عن الترجمة. وقد قدمت هذه الدراسة خطة فكرية حددت الكثير من الأمور التي يمكن القيام بها في مجال دراسات الترجمة، وبينت ما بين هذه الأمور من ترابط؛ كما وضعت تصورًا لتخصص مستقبلي متكامل، ودعت بقوة إلى القيام بأعمال تستهدف نشأة هذا التخصص. على المستوى التاريخي، كان هذا العمل خطوة كبرى إلى الأمام، لا لأنه شن هجومًا مباشرًا على المقولات الغامضة ولكن الواثقة من نفسها، والتي طالما استخدمت في الحكم على الترجمات، ولكن بسبب شيء آخر. كانت تصنيفات هولمس بسيطة، وذات إطار علمي، ومرتبة في تسلسل هرمي: 'تطبيقي' *Applied* في مقابل 'بحث' *Pure*، وتم تقسيم الكلمة الأخيرة إلى 'نظري' *Theoretical* و'وصفي' *Descriptive*، وقسمت 'وصفي' بدورها إلى 'معني بالناتج' *Product Oriented* و'معني بالنسق' *Process Oriented* و'معني بالوظيفة' *Function Oriented*، وغير ذلك. ويبين شكل (١) إضافات مجهولة النسب إلى

صيغته البيانية زادها فيما بعد باحثون رأوا أن هذه الصيغة منطلق مناسب. ولقد وجدت الكثير من الأفكار المدهشة طريقها إلى هذه الخريطة؛ استفاد الكثير منها من التعديلات والبدائل التي تم اقتراحها منذ ذلك الوقت (نذكر على وجه الخصوص لامبيرت ***Lambert 1991a***، وإسنيل- هورنبي ***Snell-Hornby 1991***، وتوري ***Toury 1991***). وبطبيعة الحال، لا يمكن اختزال دراسات الترجمة لتشملها خريطة واحدة، كما أن الخريطة ذاتها كان يتم تعديلها بشكل متواصل تماشيًا مع المجالات التي يقال أنه يمثلها. وعلى أية حال، فإن الحقيقة اللافتة للنظر هي أنه لا هولمس ولا المعلقون على خريطته- على الأقل أولئك الذين يقرون الخريطة وبدائلها- قاموا، إلى الآن، بتحديد مجال موحد للدراسة التاريخية للترجمة تحديدًا واضحًا. هذه نقطة تستحق التمعن فيها.

ومن الممكن قراءة كل شيء وصفه هولمس بكلمة 'وصفي' على أنه تاريخي. ولكن هل هذه قراءة صحيحة لما جاء في الخريطة؟ لقد أجاز هولمس تأكيدًا أن ترجمات الماضي يمكن دراستها في نطاق ما أسماه الفرع 'الوصفي المعني بالناتج'، وقال أنه ليس هناك منطق في أن لا تدرس الوظائف التاريخية للترجمات ضمن 'الوصف المعني بالوظيفة' أيضًا. لكننا نكون هنا أمام سلسلة من المشاكل. فهل تعني خريطة هولمس أن التاريخ مجرد موضوعات وصفية؟ ألا يوجد أي تاريخ في الفجوات الواضحة اللاوصفية مثل 'نقد الترجمة'؟ وهل يمكن لـ 'الدراسات النظرية' أن تكون بطريقة ما خارج التاريخ؟ ولماذا يكون الفرع النظري عند هولمس هو فقط الذي يشمل التاريخ صراحةً باعتباره احتمالاً ممكن الحدوث لـ "النظريات المقيدة بالزمن" (خصوصًا جزئية 'ترجمة النصوص القديمة') فضلاً عن الدور البارز لهذا الفرع في 'دراسات الترجمة' بشكل عام (*1972: 72,76,79*)؟ ومهما تكن الدوافع الكامنة وراء هذه التصنيفات، فإن مجال التاريخ مجزأ بشكل يدعو إلى العجب على كلا جانبي التقسيم الوصفي/ النظري."

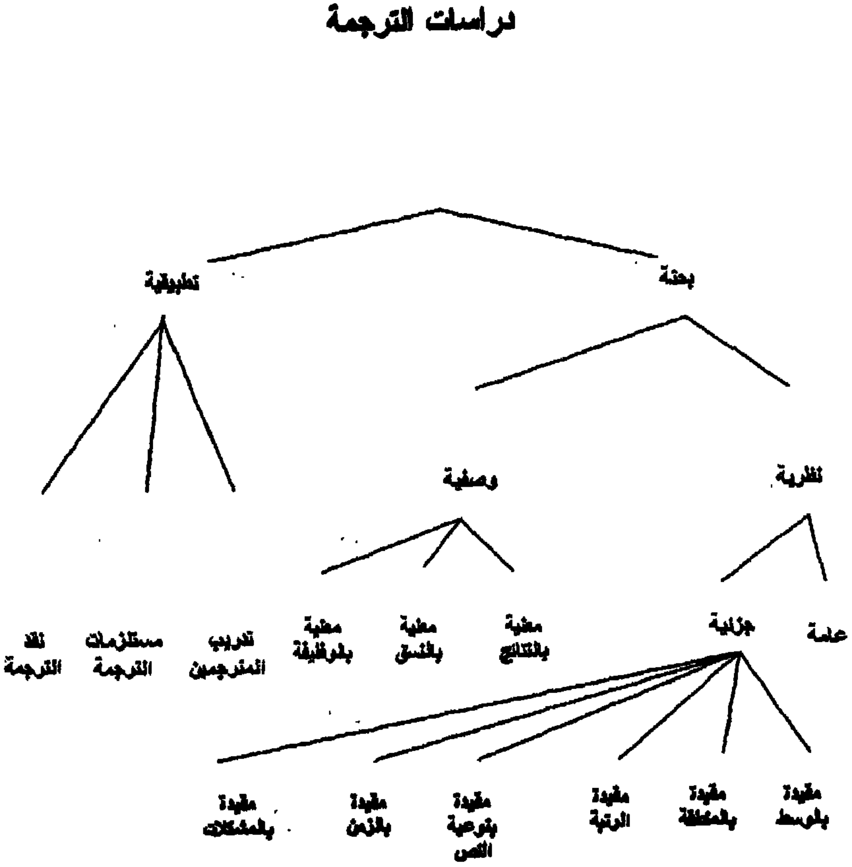

شكل ١

تصور هولمس لدراسات الترجمة (عن توري *Toury 1991: 181*)

من الطرق السهلة لتجاوز هذا التجزؤ الزعم بأن كل هذه التصنيفات مترابطة فيما بينها ترابطًا جدليًا. والمفترض أنك تضيف أو تتخيل القليل من الخطوط السهمية في طول الشكل وعرضه. فهل هذا حل حقيقي؟ وإذا كانت الخطوط السهمية تصل فعلاً بين كل النقاط وكل النقاط الأخرى، فمن الذي سيحتاج الخريطة في المقام الأول؟ إن الخرائط تعين مساحات وقفية ***Plots Consecrated*** وأسهل الطرق فيما بينها. لكن خريطة هولمس توحي بأن تاريخ الترجمة ليست له مساحات وقفية في نطاق دراسات الترجمة. ويبدو أن جميع مؤرخي الترجمة، وبخاصة مجموعة قليلة منهم، متهمون بالقفز من نقطة إلى أخرى، واصفين نواتج هنا، ومحللين وظائف هناك، ومكتشفين أنهم منشغلون بشكل هامشي فيما وراء الوصف ***Metadescribtion*** على نطاق المجال كله. كما أن خريطة هولمس تهمل الجوانب القليلة التي قد تكون ذات أهمية: فهي لا تحدد معالم أي نظرية محددة لتاريخ الترجمة، ولا للتأريخ بوصفه طريقة لتطبيق واختبار النظريات (مع أن هذا هو بكل تأكيد ما أراد منا هولمس أن نفعله). وبرغم المزايا الكثيرة لهذه الخريطة على أيامها، فإنني أرى أنها لم تعد دليلاً يعول عليه بالمرة.

إنني أثير هذه الشكوك القليلة لأن بعض الباحثين، خصوصًا جيديون توري ***Gideon Toury (1995: 10)***، يرون أن خريطة هولمس منهج ملزم لأي عمل في تاريخ الترجمة ودراسات الترجمة ككل. ويبدو أنه يتعين علينا أن نحدد أي شيء نفعله الآن على أساس المخططات التي ورثناها من الماضي. يزعم توري أننا إن فعلنا خلاف ذلك نعرض أنفسنا لخطر قبول فكرة "التطوير الموجّه" لدراسات الترجمة. فهل هناك أي داع لأن نفترض بصورة آلية أن خريطة هولمس مناسبة لما نريد أن نفعله في دراسات الترجمة الآن؟ وهل تنجح الخريطة في تحديد مواقع الفرضيات الأساسية التي نريد أن نختبرها أو المشكلات التي نحاول أن نجد لها الحلول؟ إن لم يكن الأمر كذلك، فما نوع الثمن الذي نكون مطالبين بدفعه لـ "التطوير الموجّه" في مجال معرفي متخصص؟ ومن ذا الذي يقوم بعملية

التوجيه ولأي مدى؟ ألا تكون المشاكل المطروحة لحلها ذات أهمية أكبر من مجرد الدفاع عن مجال معرفي أكاديمي؟ إن هذا المجال المعرفي، إذا فشل في بلورة القضايا الهامة اجتماعيًّا، يستحق أن يحال إلى المتاحف الأكاديمية، مثل رسوم الإبحار الأول لأرض أستراليا [في الأصل باللاتينية: ***Terra Australis***].

إن الخرائط وسائل فريدة لاستعراض السلطة. فهي تنبهك إلى النظر لجهات معينة وتصرف انتباهك عن جهات أخرى. تأمل، على سبيل المثال، الاتجاه العام لخريطة هولمس في شكلها البياني المحدد (شكل ١). انظر إلى الشكل وليس لما عليه من بيانات. ثم قارن هذه الخريطة الحديثة بالخريطة الواردة في شكل (شكل ٢) وهي محاولة لورانس همفري ***Lawrence Humphrey*** الأقدم لوضع تصور لدراسات عالمية للترجمة (نشرت للمرة الأولى عام١٥٥٩). وأعتقد أن هناك اختلافين أساسيين.

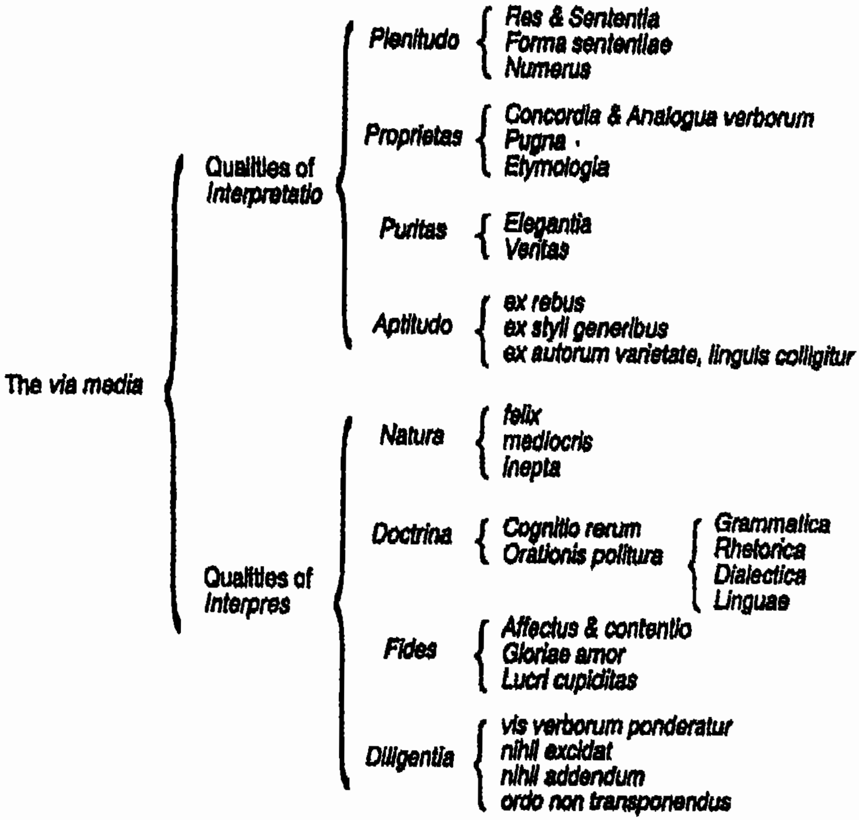

شكل ٢

رسم تخطيطي كما ورد عند لورانس همفري في ***Interpretatio linguarum***

(*Basle1559*) عن **(*Norton 1984: 12*)**

أول هذين الاختلافين، أن خريطة همفري تنظم البيانات أفقيًا، من اليسار إلى اليمين، على حين أن خريطة هولمس رأسية، وتتجه من أعلى لأسفل، مثل خارطات الشركات التجارية. وبفضل التنظيم الرأسي الحديث، تتخذ معظم البيانات النظرية بعدًا رئيسيًا بعيدًا جدًا عن التفاصيل الإمبريقية. وقد يظن أصحاب العقول البسيطة أن الخرائط الحديثة تمثل نوعًا من سلطة الأساتذة، تلك السلطة التي تخصص القمة لعين بصيرة قادرة على وضع الموضوعات الأكثر تميزًا مصفوفة عند القاع. غير أن هذا قد يكون أمرًا مضللاً: فدراسات الترجمة لا تزال عاجزة تمامًا عن القيام بمثل هذا التقسيم الجذري للعمل؛ ذلك لأن هناك قدرًا كبيرًا من العمل الشاق يقوم به نفس الأسماء التي تطل من القمة. ولكن، إذا كان في وسع كل شخص أن يكون في كل مكان، فما هي القيمة الحقيقية للخريطة؟

ثانيًا، التقسيم الأهم في خرائط القرن السادس عشر هو التقسيم بين الترجمة (*interpretatio*) والمترجم (*interpres*)، بين ناتج العملية ***Process-product*** والأداة ***agent***، على حين أن الخرائط الحديثة تقسم النواتج – الترجمات– بهدوء تام، دون إلقاء نظرة واحدة إلى أي مترجم، حي أو ميت. فأين ذهب كل هؤلاء؟ وإذا كانت الخرائط الجديدة توفر صور السيطرة التنظيمية، فلا شك أن أولئك الذين تفرض السيطرة عليهم فعلاً هم الباحثون والمترجمون، خصوصًا أولئك الذين هم من لحم ودم ويتسمون بالحركية والذاتية. يبدو أن هؤلاء قد تم استبعادهم من عالم 'البحث البحت' ***pure research***. وربما يستحقون أن يستعيدوا مواقعهم.

وأحد أهدافي من تأليف هذا الكتاب هو أن أجمع شتات بعض هذه الجزئيات أو الجوانب العامة للخرائط. وأتمنى أن أرى تاريخ الترجمة نطاقًا موحدًا لدراسة المترجمين البشر دراسة إنسانية، وكذلك مبادرتهم الاجتماعية، في إطار وخارج إطار ترجماتهم على حد سواء. وبطبيعة الحال، فإنني عند عرضي لحججي، سأطرح العديد من خرائطي، فالخرائط وسائل فريدة لاستعراض النفوذ. فهي تحدد الأشياء وتضبطها. ولذلك، فإن إزاحة السلطة في هذا الحقل لابد أن يكون مدعمًا برسم خريطة جديدة.

أقسام تاريخ الترجمة

ليس هناك شيء جديد أو ثوري تمامًا عند الرغبة في الكتابة عن تاريخ الترجمة. غير أن التقاليد المتوارثة تذكر مجموعة من المفردات الغامضة لابد من التعامل معها. وكما توحي خريطة هولمس، هناك شكوك تتعلق بكيفية تسمية الشيء التاريخي، وكيفية تسمية الحقل العام، وتحديد ما هي أنواع الأقسام الفرعية المقبولة. ولأن هذه الشكوك لا يمكن أن يتم طرحها هنا كلها، فإن من الممكن أن نقترح بعضًا من القناعات الذاتية، على الأقل لوصف الكلمات التي سأستخدمها(١).

إن تاريخ الترجمة (ومصطلح 'تأريخ' [علم دراسة التاريخ] مصطلح أقل ميزة للتعبير عن نفس الشيء) عبارة عن مجموعة مترابطة من الكتابات التي تشتمل على التغيرات التي حدثت أو جرى منع حدوثها في مجال الترجمة. ويشمل مجال تاريخ الترجمة الأحداث والعوامل التي تؤدي إلى الترجمات (أو اللاترجمات)، وأهداف الترجمات (أو اللاترجمات)، ونظريات عن الترجمة، وإلى ظواهر لا حصر لها تربطها علاقات سببية.

ومن هنا، فإن تاريخ الترجمة المتعارف عليه يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام فرعية على الأقل: 'الآركيولوجيا'، و'النقد'، وما سأطلق عليه، بحثًا عن لفظة أفضل، 'التفسير':

• آركيولوجيا الترجمة *Translation archaeology* مجموعة من السياقات معنية بالإجابة على السؤال المعقد أوعلي جزء منه 'من ترجم ماذا، وكيف، وأين، ومتى، ولمن، ولأي هدف؟'. ويمكن أن تشتمل آركيولوجيا الترجمة على أي شيء، بداية من تصنيف الفهارس وحتى إجراء أبحاث عن سير المترجمين. ومن الواضح

---

(١) في سياق اهتمامنا بنقد المصطلحات، لاحظوا أنني أستخدم كلمة "translative" للإشارة إلى عملية الترجمة أو إلى الترجمة كعملية. وأستخدم كلمة "translational" للإشارة إلى مظاهر الترجمات كنصوص. أما الكلمتان المشابهتان "translatory" و"translatorial" (وأرجو أن لا تكون هناك ألفاظ أخرى)، فقد عفى عليها الزمن.

أن مصطلح "آركيولوجيا" هنا لا يحمل إشارة قدحية، ولا يتضمن أي رؤى فوكولدانية(*)، بل يشير فقط إلى مجال ساحر يتطلب عملاً كشفيًّا معقدًا، وقدرًا كبيرًا من التضحية بالذات، وتقديم العون الحقيقي للأقسام المعرفية الأخرى.

• النقد التاريخي *Historical criticism*. وهو مجموعة من الكتابات التي تساعد على تقييم الأسلوب الذي تعمل الترجمات عن طريقها على تعزيز أو تعويق مسيرة التقدم. وهذه عملية في غاية الصعوبة ومحفوفة بالمخاطر، حيث يتعين علينا أن نحدد أولاً ما هي مظاهر التقدم. وبتعبير تقليدي، فإن النقد التاريخي يمكن أن يغطي الجانب الفيلولوجي من التأريخ *Historiography* تمامًا إذا أمكن للفيلولوجيا أن تقرن الأفكار العامة للتقدم بقيم أخلاقية (وهي تفعل ذلك في أفضل أحوالها). ولكن ليس في وسع هذا النقد أن يطبق القيم المعاصرة على ترجمات الماضي تطبيقًا مباشرًا. وبدلاً من تقرير ما إذا كانت ترجمة ما تمثل موقفًا تقدميًّا بالنسبة لنا هنا والآن، فإنه يجدر بالنقد التاريخي أن يحدد قيمة عمل المترجِم القديم في علاقته بما تحقق في الماضي من نتائج. ولعل هذا هو الفارق بين النقد التاريخي والنقد اللاتاريخي. ولحسن الحظ، قد لا يكون النقد التاريخي ولا النقد اللاتاريخي ذا أهمية كبيرة لنا في نطاق هذا الكتاب، ذلك لأن كلاًّ منهما يتطلب درجات من اليقين الأيـديولوجي الذي أنتظر رؤيا تهديني إليه. لكن بعضًا من الصفحات التالية (*169-168, 36-35*) قد توحي، مثلاً، بأن مترجِمًا فرنسيًّا معينًا لنيتشه *Nietzsche* كان في وسعه أن يشارك في صراع ثقافي لا تقدمي إلى حد بعيد. لكن ما جاء في هذه الصفحات، وهو شيء عابر وغير نهائي، ينبغي اعتباره نقدًا تاريخيًّا، أو على الأقل مؤشر كتاب يحدد الموضع الذي يتطلب النقد. وأنا أرحب بالعقول النقدية التي لديها الشجاعة الكافية لأن تقول إلى أين يجب أن نتجه وكيف يمكن أن تفيدنا

(*) النسبة إلى شارل يوجين دي فوكولد Charles Eugène de Foucauld، وهو رجل دين كاثوليكي ولد في إستراسبور (فرنسا) عام ١٨٥٨وعاش بين قبائل الطوارق في صحاري الجزائر حتى اغتيل عام ١٩١٦ برصاص بعض المارة من المجاهدين من البدو السنوسيين خارج الحصن الذي بناه لحمايته من قبائل الطوارق. وقد اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية شهيدًا. (المترجم)

الترجمات في الوصول إلى تلك الغاية. إن نشاطهم ينبغي أن يكون جزءًا من مسعانا. وفي ذات الوقت، فإن تاريخ الترجمة الذي نسعى إليه أمامه العديد من الأسئلة العملية جدًّا التي ينبغي له أن يجيب عليها قبل أن نقوم بتصنيف القيم الأخلاقية التقدمية بأي قدر من الثقة.

• و"التفسير" ***Explanation*** هو ذلك الجزء من تاريخ الترجمة الذي يحاول الإجابة على سؤال لماذا ظهرت الأشياء الآركيولوجية حينما ظهرت وأينما كانت، وكيف بدأت في التغير. فالآركيولوجيا والنقد التاريخي معنيان في المقام الأول بالوقائع والنصوص المستقلة. أما التفسير فلابد أن يكون معنيًّا بسببية مثل هذه المعلومات، خصوصًا تلك السببية التي تعاني من علاقات سلطة؛ وهذا هو الحقل الذي يمكن فيه اكتشاف المترجمين كممثلين اجتماعيين مؤثرين. غير أن هناك مستويات أخرى من التفسير قد تكون معنية بالتغير التكنولوجي أو بعلاقات السلطة بين الجماعات الاجتماعية، كما يمكنها أن تمنح ميزة لفرضيات واسعة النطاق تتعلق بكل العهود أو الشبكات. ومع أن كلمة "لماذا؟" تبدو سؤالاً صغيرًا جدًّا على مشروع يتعين أن يشمل كل الأجزاء الأخرى من تاريخ الترجمة، إلا أنها تمثل السؤال الأكثر أهمية. إنه السؤال الوحيد الذي يقود عمليات التغيير بشكل سليم؛ إنه السؤال الوحيد الغائب تمامًا عن خريطة هولمس. والتاريخ الذي يتجاهل السببية قد يكون قادرًا على وصف الوقائع والنتائج، وقد تكون له فكرة ذات بعد واحد للتقدم، ولكنه سيكون عاجزًا عن إدراك البعد الإنساني الصحيح للوثائق والوقائع باعتبارها عمليات تغير.

الاعتماد المتبادل والاستقلال بين الأجزاء

يشمل تاريخ الترجمة كله، أو يزعم أنه يشمل، سياقات من كافة التصنيفات السالفة الذكر. لكن السياقات ليست في الواقع "أجزاء" بمعنى أنه يمكن نزعها عن

السيـــاق الكـــلي. وقد يظن البعض أن هذه السياقات أجزاء يمكن أن يرددها أفراد أو مجموعات مستقلة لتكوين ألحان متناغمة وهم يرددونها. فهذه الأجزاء يمكن أن تؤدى بصورة منفصلة. ويمكن أن يكون هناك بعض العازفين أو المغنين المنفردين (سوليست). كما أن كل جزء مستقل يدعي وجود صلة بينه وبين المجموعة ككل. ويستحيل على المرء أن يحرر فهرسًا آركيولوجيًا، أو حتى أن يحدد مفردات الفهارس، ما لم تكن لديه فكرة عامة عن عملية التغير التي تجمع بين كل تلك القيم (التفسير)، وليس هناك أيضًا ما يدعو إلى هذا ما لم يكن المرء آملاً على الأقل في أن الماضي يمكن أن يفضي إلى مستقبل إيجابي (النقد). وبالمثل، قد لا يكون هناك نقد ولا تفسير بدون شاهد آركيولوجي، وقد لا يكون هناك تفسير للتغير بدون أفكار عن القيم اللازمة للتغير. باختصار، لا يمكن لأي جزء من هذه الأجزاء الثلاثة أن يدعي استقلالاً إبستمولوجيًا عن بقية الأجزاء. وكل من يعمل في مجال تاريخ الترجمة يتعين عليه أن يخوض إلى حدٍّ ما غمار الأنشطة الثلاثة معًا (فليس هناك سياق 'معرفي' أو 'وصفي' خالص، تمامًا كما أنه ليس هناك تأمل تجريدي بدون بعض الأسس الآركيولوجية على الأقل). ومع ذلك، وبقدر ما تكون الصيغ الظاهرية لطريقة العرض مختلفة تمامًا، فإن ثمة دواعي عملية عديدة لتفسير لماذا يجب أن نعتبر أن كل جزء في عزلة نسبية.

لماذا نؤكد على الفروق السالفة الذكر؟ أولاً، لأنها إحدى طرق تصنيف كتاب عن هذا الموضوع. وسوف تتناول الفصول التالية هذه المسألة، بدءًا من الآركيولوجيا إلى قضايا السببية، مع قليل من التعليقات العابرة عن النقد. وهذه طريقة مفيدة بقدر ما يكون أي ملمح فيها أفضل من لا شيء وتكون فضيلة الثرثرة فضيلة كبرى. إن البحث الشفوي يمكن بل ويجب أن يتنقل من مجموعة إلى مجموعة أخرى من الأسئلة، لكن معالجة التاريخ تستوجب أيضًا نشر نتائج البحث. هذا مهم لأن كلاً من الآركيولوجيا والنقد والتفسير يميل إلى الخلط بصورة بالغة السوء بين المستويات الأكثر عملية من تاريخ الترجمة. والواقع أن كل سياق له

شكل أمثل في طريقة عرضه، فالآركيولوجيا تناسبها القوائم؛ والنقد يناسبه التحليل والنقاش؛ وغالبًا ما يكون التفسير أفضل كلما اقترب من الحكي الجيد. وإذا أدت القوائم الآركيولوجية إلى تقليص الحكي التفسيري، فإن النتيجة المباشرة ستكون هي السأم، كما يمكن أن تنتج ثرثرة من الحكي الجيد في تضاعيف الآركيولوجيا أو من خلال التقييم المفصل. وقد يكون في إمكاننا أن نجعل الأجزاء مثيرة نسبيًّا عن طريق المحافظة على استقلالها النسبي.

يمكن لهذا المثال المختصر أن يوضح هذه النقطة. صاغ فالنتين جارسيا يبرا *Valetín García Yebra* تاريخ الترجمة في إسبانيا عام ١٩٨٣ في قالب تفسيري ونقدي معًا، ذلك فيما يتعلق بالقرنين الثاني عشر والثالث عشر حيث كان قد تم إنجاز قدر معقول من العمل الآركيولوجي قبله. ولكن، نظرًا لأنه لم يجر إنجاز إلا قدر ضئيل من آركيولوجيا القرون التالية، تحول كتاب جارسيا يبرا عن تاريخ الترجمة إلى مجرد قائمة للتواريخ والنصوص المكتوبة بطريقة نثرية اختزلت المحتوى السردي بدعوى أن الفهرس الشامل سيشغل حيزًا أكبر مما هو متاح (إن تسجيل كافة الترجمات الكبرى لهذه الفترة قد يستلزم العديد من الكتب... إلخ). النتيجة ليست مرضية تمامًا. فالقائمة الكاملة كان من الممكن أن تصبح أكثر إمتاعًا. لكن المشكلة لا تقف عند هذا الحد. فالمرجع الجامعي المعتمد على جارسيا يبرا *Pascua and Poñate 1991:2-3* يقدم بالأساس ملخصًا سرديًّا للقرنين الثاني عشر والثالث عشر (في خليط واحد باعتبارهما 'مدرسة طليطلة') ثم يتعجل في الوصول إلى حكم مبتسر للغاية: "بعد القرن السابع عشر، صارت الترجمات مشابهة للأدب" (*1991:4*). ولا شك أن هذا الحكم يعكس فهمًا معينًا لقوائم جارسيا يبرا الخاصة بالفترة المنظورة، ولكنه تاريخ غير مفيد: إنه لا يوضح شيئًا ولا يفسر شيئًا؛ وهو لا هو آركيولوجي ولا تفسيري. كان الحل الأول أمام جارسيا يبرا هو أن يضع القوائم والقصص في جزر منعزلة. القوائم للآركيولوجيا؛ وكتابات نثرية مملة لما يستغرق قرونًا لتنتمي إلى السياق التفسيري.

إن تقسيم تاريخ الترجمة إلى أجزاء منفصلة ولكن مترابطة قد يكون أيضًا مفيدًا في التنظيم الفعلي للبحث. فمع أن التاريخ يتطلب الأجزاء الثلاثة، إلا أنه ما من أحد يضطر إلى تناولها كلها بطريقة متساوية أو في وقت واحد. ومن المستحيل أن نصر على ضرورة أن يقرأ كل شخص كل شيء، وليس من المفيد غالبًا أن نطالب الآركيولوجيين المطالبين بالدقة في عملهم بالانحياز إلى موقف فلسفي في تاريخ الأفكار. فالتاريخ المتوازن والحيوي يكون بالأحرى نتاجًا لتشكيل فرق بحثية قادرة على دمج الخبرات التي تشتمل عليها مختلف فروع المعرفة ذات الصلة بمجال بعينه، ليس فقط من المنظور الفيلولوجي ولكن أيضًا بمراعاة مدركات التاريخ الاجتماعي والاقتصادي. وهكذا يمكن للأجزاء أن تصبح خطوات هادية على طريق تبادل الرأي والمشاركة والعمل الجماعي.

وليس من الصعب أن نصادف أمثلة عن الحاجة إلى العمل الجماعي في دراسات تاريخ الترجمة في شبه جزيرة أيبيريا. فعلى جاري عادتهم، انطلق المؤرخون التفسيريون، قبل أي شخص وكل شيء، يطورون الفرضيات العالمية ويتسببون في حدوث أخطاء متكررة. واعتاد الآركيولوجيون أن يكونوا في المؤخرة، يشيدون القلاع طوبة طوبة وينظرون إلى الاستنتاجات الفكرية الواسعة النطاق بريبة. القصة المشهورة تاريخيًّا هي قصة المؤرخ الفرنسي أمابل جوردين ***Amable Jourdain*** الذي ادعى أنه اكتشف "كلية المترجمين" في طليطلة بعد جهد جهيد: "إننا نعترف، بسعادة يقدرها جميع رجال الثقافة حق قدرها، بأن اكتشاف كلية المترجمين هذه قد أزال الأشواك الكثيرة التي ملأت طريقنا" (***1873:108***). فما الذي جعله مزهوًّا إلى هذا الحد؟ كان جوردين قد عثر على مخطوطين يبدو أن ترجمتيهما المختلفتين تشيران إلى شخص معين اسمه ريموندس ***Reimundus***، رئيس أساقفة طليطلة، باعتباره راعيهما. وقد كافح المؤرخ كثيرًا من أجل اكتشاف هذين المخطوطين، ولذلك فقد وجد أن الاكتشاف تعويض عادل لما بذله من جهد. لقد اكتشف مسيو جوردين ما أراد أن يكتشفه، وكان بلا شك سعيدًا سعادة بالغة لأن

ريموندس كبير أساقفة طليطلة، راعى الأدب، كان بالصدفة ضئيل الجسم وفرنسيًا أيضًا مثله مثل جوردين نفسه. لكن ماري تيريز دالفيرني، وهي عالمة فرنسية في آركيولوجيا الترجمة تستحق ثناءً صادقًا، عقدت في دراسة لها ***Marie-Trésès d'Alverny, 1964*** مقارنة بين ٤٥ مخطوطًا تم جمعها من كل أنحاء أوروبا. واكتشفت أن أحد النصين اللذين وجدا في المكان الذي حدده كبير الأساقفة كان دالاً على شيء مختلف تمامًا: كان ثمة فاصلة لا داعي لوجودها فأخطأ جوردين في قراءة الاسم الحقيقي (*Johannes* بدلاً من *Johanni*). وفيما بعد، أوضحت دراسة للمخطوطات فى تسلسلها التاريخى أن راعي إحدى الترجمتين لم يكن كبير الأساقفة ريموندس ولكن خلفه جوهانيس ***Johannes***. وهكذا، فإن التدقيق الآركيولوجي للفاصلة التي تضمنتها بنية الجملة أدى إلى هدم الصرح التفسيري بكامله. لقد أصبح كبير الأساقفة الفرنسي راعيًا لهذا النوع من الترجمة دون أن تكون له أدنى صلة بأي شيء يسمى كلية أو مدرسة المترجمين. وسرعان ما تخلت الآركيولوجيا عن التفسير، مع أن كلا المنهجين كان ضروريًا بكل تأكيد. فإن لم يكن جوردين قد عكف على صياغة فكرته الكبرى، لما أصبح خيار فاصلة دالفيرني مطروحًا كموضوع هام للبحث. بل كان من الممكن أن تظل الفاصلة تائهة تمامًا بين الآلاف من متغيرات المخطوط. لقد كان يتعين أن توجد الفكرة الأساسية أولاً ليمكن تصحيحها بكلمات بسيطة ولكن دالة. فالآركيولوجيا تتطلب التفسير.

هذا المثال ذاته يبين أيضًا الحاجة إلى فريق عمل. فإجراء أبحاث عن الترجمات في القرن الثاني عشر في شبه جزيرة أيبيريا يتطلب كفاءة عالية في اللغات العربية واللاتينية والرومانسية(*) والعبرية، وفي علوم الفلك والرياضيات واللاهوت، وفي التاريخ الاجتماعي وتاريخ الفكر. والجدير بالذكر أن قلة من الباحثين كانوا خبراء في جميع هذه المجالات. لكن يبدو أنه لم يتم تشكيل فرق

(*) اللغات الرومانسية هي مجموعة اللغات المتفرعة عن اللغة اللاتينية؛ مثل الفرنسية والإسبانية. (المترجم)

بحثية واسعة لهذه الفترة الهامة (رغم أنه كان هناك مشاركة أوسع في مجال إجراء دراسات عن المترجمين في عصر ألفونس في القرن الثالث عشر). ومازال مفترضًا حتى الآن أن الباحثين الأفراد يعرفون كل شيء عن الكثير من المجالات المختلفة التي يتم فيها تقليص المشاركة إلى مجرد استشارات تتعلق بنقاط تفصيلية عندما يكون ذلك ضروريًا. يتم هذا على الرغم من الرسالة المحفورة بشكل واضح في الموضوع التاريخي ذاته: فكما أنه كان من الضروري أن تكون هناك فرق للقيام بترجمة الأعمال الخاصة بالقرن الثاني عشر، هناك أيضًا حاجة إلى فرق لتحليل هذه الأعمال.

إن التمييز بين أقسام تاريخ الترجمة مفيد من الناحية الإبستمولوجية، فذلك يتيح لنا أن نحدد ونفهم كل سياق في شروطه الخاصة، بدون الادعاء بأن أي قسم منها يحمل كل الإجابات. لكن هذا لا يحدث دائمًا. وحين تنتقص ماري إسنيل-هورنبي ***Mary Snell-Hornby*** من قيمة تواريخ الترجمة الوصفية لأنها لم تستخدم "ذلك المكوّن التفسيري الذي يربط كتابات الماضي بالفكر الحديث وبالتالى يعمل على إحيائها" *(1988: 26)*، فإنها تأسف على واقع أن نوعًا ما من تاريخ الترجمة ليس هو نفس نوع النقد اللاتاريخي. وهذا يشبه، في الواقع، نقد علماء الاجتماع على أنهم ليسوا سياسيين. إن التعليق يتسم بضيق أفق، فالعمل الذي ينجزه علماء الاجتماع يمكن أن يصبح على الفور ذا قيمة سياسية مع أنه قد يبدو كما لو أنه غير ذي أهمية سياسية، والعمل الذي ينجزه المؤرخون الوصفيون يمكن أن يساعد على تحسين النقد وتوجيهه. يستوي في ذلك النقد التاريخي والنقد اللاتاريخي. فحتى السياقات الوصفية غير القابلة للتقييم قائمة على المقدمات المنطقية القابلة للتقييم.

إنه عبء ثقيل على أقسام تاريخنا. فهذه الأقسام يجب استخدامها عند إقرار هذا أو ذاك النوع من تقسيم العمل، ولكننا يجب أيضًا أن نعترف بأن الأقسام نفسها ليست حتمية على الإطلاق. كما أن تحفظاتنا لا تكون مفيدة إلا حين نكون قادرين على تخطيها عند الضرورة.

يؤرخ لتاريخ البحث غير المتخصص في تاريخ الترجمة بفترة ستينيات القرن العشرين، خصوصًا بعد الدراسات التي قدمها كل من كاري *Cary (1963)*، ومونين (*1965*) *Mounin*، وكلوبفير (*1967*) *Kloepfer*، تلك الدراسات التي استندت إلى الكتاب التأسيسي الذي أعده إستوريج عن النصوص النظرية الكبرى في الماضي (*1963*) *Störig*. وقد توالى صدور المطبوعات منذ ذلك الحين بصورة متواترة. فقدم كل من جورج إشتاينر (*1975*) *George Steiner* وكيلي (*1979*) *Kelly* وبيرمان (*1984*) *Berman* ونورتون (*1984*) *Norton* وفان هوف *Van Hoof (1986,1991)* ورينر*(1989)* *Rener* وبالارد *(1992)* *Ballard* وفيرمير (*1992,1996*) *Vermeer* مناقشات وتقارير مسحية، وقام بتحرير نظرية الترجمة التاريخية كل من تي آر إشتينر (*1975*) *T. R. Steiner* وليفيفير (*1977*) *Lefevere* وهورجلين (*1981*) *Horguelin* وسانتويو (*1987*) *Santoyo* ودهولست (*1990*) *D'hulst* وكوبلاند (*1991*) *Copeland* ومرة أخرى ليفيفير (*1992b*) *Lefevere* وروبنسون (*1997*) *Robinson* وآخرين ربما لم يقع عليهم نظري بعد.

لاحِظوا أن معظم النصوص التي أشرنا إليها لتونا تبحث في تاريخ نظرية الترجمة؛ فهي مهتمة بصفة خاصة بماضي المترجمين الذين كانوا يترجمون. ورغم أن النظريات القديمة لابد أن نأخذها في اعتبارنا ونحن بصدد تاريخ الترجمة، فإن الأسوأ أنها، عند فرزها وتصنيفها، تفسح في أحيان كثيرة مجالاً لما لا يطاق من تكرار وما لا جدوى له من تعميم. وعلى سبيل المثال، فإن عناية جورج إشتينر بالنظريات أتاح له أن يغربل تاريخ الترجمة تحريًا للأمانة (*1975: 261-262*)؛ ومن ثم فإن ماري إسنيل هورنبي تصف قرونًا من تحري الأمانة باعتبارها "مناظرة ساخنة" ذات أهمية ضئيلة للحاضر (*1988: 22,26*)؛ ويذهب تفكيكيون مثل روزماري أروجو *Rosemary Arrogo* إلى مدى أبعد فيضعون نفس هذه القرون ضمن مستوى غامض من مركزية المبدأ *logocentricity* ينبغي تخطيه

(*1993: 92*). التركيز على النظرية، إذن، يجعل من الممكن أن يكون هناك سبيل إلى توليد تفسيرات لها من القدرة ما يمكنها من حجب تعقيدات الماضي تمامًا، خصوصًا حين يلاحظ المؤرخون أن الأدوار الإستراتيجية، والتي كثيرًا ما تكون دفاعية، قد مورست عن طريق التنظير. فلا أحد يكتب النظرية لعرض شيء واضح؛ وقد استخدم كثير من المترجمين التنظير لتبرير، وفي بعض الأحيان لإخفاء، ممارساتهم المثيرة إلى أبعد حد في الترجمة. لكن إدراك الدور المحسوب أو حتى المضلل للنظرية يعني أن تاريخ الترجمة لا يمكن أن ينبني على أساس ما سبق قوله عن الترجمة على وجه الحصر، فالدراسة التاريخية الجيدة تتطلب إدراك ما فعله المترجمون من قبل. ولا شك أن الدراسة التاريخية الأفضل ينبغي أن تكون ناتجة عن الربط بين الأمرين؛ استقصاء العلاقات المعقدة بين نظريات الماضي وممارسات الماضي.

إذا كنا نصر على أن تاريخًا دقيقًا للترجمة لابد أن يتناول ما يفعله المترجمون بالترجمة باعتبارها ممارسة وتنظيرًا في ذاتها وليس تطبيقًا بحتًا للنظريات الخاصة بالممارسة والتنظير- فإن من الصعوبة بمكان أن نرصد مؤرخين يعوّل عليهم بما يتماشى مع التعريف. فكم عدد المؤرخين الذين وضعوا المترجمين في بؤرة اهتمامهم بصورة صادقة؟ المرشحون قليلون. فهناك قليل من الدراسات المتميزة الفريدة، مثل نورتون ***Norton,1984*** وروند ***Round,1993***، لكن العناية بالممارسات البشرية وليس بالأفكار النظرية واضحة بجلاء في دراسات المتخصصين في تاريخ العصور الوسطى بعامة. إن معظم الأعمال من هذا النوع تتناول، عن كثب، نصوصًا معينة في فترات زمنية معينة، لكن أعمالاً نادرة فقط هي التي تمتلك رؤية تفسيرية واسعة النطاق. حتى أن ما يطلق عليه "التحول الثقافي" الذي ينهمر على قيد شعرة من باسنت ***Bassnett, 1991a*** وليفيفير ***Lefevere*** (خصوصًا ***Lefevere and Bassnett, 1990***) يزعم وجود الرؤية التفسيرية بدلاً من تطويرها: فهي تتواثب بخفة ورشاقة على سطح بحور ضحلة جدًّا شاهدة على نوع

من السبب العام الذي يعترض طريق الترجمة دون إعطاء كثير من التفاصيل الجوهرية عن التاريخ الاجتماعي (وسوف أعود إلى هذه المسألة في الفصل الثالث).

ومن الناحية الأخرى، فإن الكتاب الجماعي الرائع ***Translators Through History*** [المترجمون عبر التاريخ]، تحرير جان ديليسل ***Jean Delisle*** وجوديث وودزوورث ***Judith Woodsworth*** عام ***1990***، يقدم مجموعة من التفاصيل الشيقة عن المترجمين البشر ويطالب في الواقع بالابتعاد عن التعلق بالنظرية؛ ويعتبر هذا الكتاب وثيقة تأسيسية لتاريخ في المستقبل للمترجمين. ولكن ينبغي على المرء أن يتساءل إن كان هذا الكتاب لا يتضمن أيضًا تحذيرًا هادئًا من غواية إضفاء الطابع البشري على الأشياء. فمن ذا الذي يكتب هذا التاريخ ووفقًا لأي معايير نقدية؟ وهل كل هذه المعلومات ضرورية؟ وهل هي كافية؟ لبيان ذلك، يتعين علينا أن نعرف ما هي القضايا التي سوف يعالجها كل فصل على خدة، وما هي الفرضيات الأساسية؟ ولماذا نشير إلى هؤلاء المترجمين دون سواهم؟ وكيف يتم إقرار أن شخصًا ما مترجم (من خلال الترجمات أو على ضوء النظرية)؟ وهل يختار المترجمون ما يترجمون (فإن لم يكن الأمر كذلك، فلابد أن يتم بكل تأكيد ذكر اللامترجمين)؟ باختصار، حالما نتخلى عن الطمأنينة النسبية لنظريات الماضي ونغامر بالدخول إلى عالم المترجمين الحقيقيين، تصبح المنهجية مشكلة حقيقية تتطلب أجوبة صادقة جدًا. إن القص الجيد ليس كافيًا حتى وإن كانت الشخصيات الرئيسية بشرًا.

ليس في وسع المرء أن يشرع في دراسة مجال ما بمجرد أن يتم تجميع شظايا تبدو كما لو أنها كافية لعمل دراسة في هذا المجال. لذلك يجب أن نفكر جيدًا عما نبحث عنه، وكيف يمكننا الحصول عليه، وما هي تركيبة ذلك المجال ذاته. كما يجب الاهتمام بالمنهج. والأكثر أهمية هو ضرورة أن تتم صياغة قضايا المنهج على ضوء ما تم إنجازه من قبل في مجال معين. وحتى لو كان كل شيء يسبقنا زمنيًا هراءً محضًا – وهو ليس كذلك –، وحتى إن كنا قد عقدنا العزم على

استيراد منهجيات بالجملة من علوم أخرى- ولن نفعل ذلك-، فإننا يجب أن نكون قادرين على قول لماذا كان ما تم فعله هراء، ووفقًا لأي أخطاء منهجية، وكيف سيمكن لاهرائنا أن يصحح في المستقبل تلك الأخطاء. في يقيني أنه لا يستحيل تمامًا أن ننظر إلى المترجمين باعتبارهم بشرًا (بدلاً من النظر إليهم كنظريات أو نواتج ***Products***)، وأتمنى أن ينبثق مرة أخرى نوع ما من عصر تنوير آلي. ومع أن هدفي الأول هو كتابة تاريخ المترجمين، إلا أن هذا هو السبب في أن هذا الكتاب لن يتشبث بالجوهر الحقيقي للمترجم البشري إلا بعد أن تتم غربلة نحو تسعة فصول من المنهجية بمعناها الاصطلاحي الدقيق. وحينذاك فقط يمكن أن نعرف ما الذي نبحثه وكيف يمكننا الوصول إليه. ولكن، لا توجد ثمة ثورة جاهزة؛ ومن ثم فإنه يتعين علينا أن نبذل عملاً شاقًا للانتقال من نظرية معرفة إلى نظرية معرفة أخرى.

دعوني أؤكد، بشكل عام، أن الأمر يتطلب أيضًا قدرًا كبيرًا من التواضع. فنحن لا يمكن أن نزعم أن تاريخ الترجمة أرض بكر، وأن ما تم عمله قبل الستينيات أو الثمانينيات شيء غير هام، وأن بعضًا من الأفكار الرئيسية- النظريات الخاصة بتاريخ النظريات، أو التي عن الحط من شأن الوسطاء، أو عن انتهاك النص المراد ترجمته، أو غموض النص المترجم- يمكن أن تصحح مسيرة العالم في وقتنا الحاضر. ولكن لابد أن نقلل من مستوى اليقينية الحالية. وفي الواقع، يمكننا تمامًا أن نزعم أن تاريخ الترجمة لم يكن أرضًا بكرًا في يوم من الأيام، أو على الأقل منذ فترة طويلة. فمع أن تاريخ الترجمة لابد أن يكون قد بدأ بعد مزاولة الترجمة ذاتها بدقائق على أقل تقدير، إلا أنه لم يكن هناك أي شك في الإحساس الداخلي لدى أول مترجم ('الآن أنا أقول شيئًا ما لصالح الرواة'). فحالما يشرع المترجمون أو الشهود في شرح كيف أو لماذا تمت ترجمة عمل ما- أو بمجرد أن يخبرهم أحد كيف أو لماذا تعين ترجمة هذا العمل- فإن حديثهم هذا تاريخيٌ جزئيًا بقدر ما هو نظريٌ جزئيًا.

ليس هذا تأملاً كسولاً. فاستكمالاً للمثال المذكور آنفًا، لم تكن وقائع مدرسة طليطلة في القرن الثاني عشر اختلاقًا من جانب جوردين ولا من جانب من سار على دربه فيما بعد. ففي القرن الثالث عشر، أشار جيوفري دي فينسوف *Geoffrey de Vinsauf* إلى طليطلة باعتبارها مركزًا لدراسة الكوادريفيوم(*) واضعًا إياه في مصاف جامعات باريس وبولونيا(**) وساليرنو(***)– *Pacter 1951: 8*. وهناك مراجع أقل شهرة كان يروّج لها في نفس الفترة كل من ألبرتوس ماجنوس *Albertus Magnus* وروجر بيكون *Roger Bacon*. لكن معظم الروايات يمكن إرجاعها إلى حوالي عام ١١٧٥، وهذا هو على الأرجح العام الذي رأى فيه الرحالة الإنجليزي دانيال دي مارلي*Daniel de Marlai* المترجمين، وهم يعملون في طليطلة وفضّل أن يصف نشاطاتهم بمصطلحات تربوية، وأن يؤكد بصفة خاصة على الكوادريفيوم. هذا يعني أن الأحداث التاريخية كانت قد وقعت ليس في القرن الثالث عشر ولا في القرن التاسع عشر وإنما في القرن الثاني عشر، وهي نفس الفترة التي حدث فيها النشاط التربوي المراد ترجمته. والواقع أن الحقائق التاريخية كامنة بشكل مباشر في القصص التأريخي. لكننا، بوضوح شديد، ليس بوسعنا أن نقول ما حدث في طليطلة فعلاً دون تحليل الدوافع التي أدت برحالة القرن الثاني عشر إلى ربط المدينة بالهدف التربوي للترجمة. ومما يثير القلق الشديد أن دانيال دي مارلي كانت لديه، كما حدث مع جوردين، رغبة واضحة في اكتشاف شيء ما في ختام مشواره: قال لأسقفه مبررًا قراره بالذهاب للدراسة في هيسبانيا وليس باريس "ونظرًا لأن الدراسات العربية، وهي كل شيء تقريبًا في الكوادريفيوم، ذائعة جدًا في طليطلة، فقد أسرعت بالذهاب إلى هناك للاستماع إلى الفلاسفة الأكثر حكمة في العالم" (*ed. Sudhoff 1917:16*). كان الأمر كذلك فعلاً.

(*) الكوادريفيوم quadrivium: أربعة مقررات دراسية "الحساب والهندسة والفلك والموسيقى" كانت تدرس لطلبة الدراسات العليا في جامعات العصور الوسطى في أوروبا. (المترجم)

(**) مدينة مركزية في شمال إيطاليا بين نهر بو وجبال الأبينين. (المترجم)

(***) مدينة صغيرة وعاصمة لمقاطعة تحمل نفس الاسم جنوب غربي إيطاليا. (المترجم)

ذلك هو التعليل الإستراتيجي الأكثر احتمالاً، والذي بدأ يظهر بعد قرون من الإشارة إلى "مدرسة طليطلة" وصولاً إلى "كلية" جوردين. ولكنه قد يكون أيضًا اعتذارًا مدروسًا من جانب دانيال دي مارلي لتهربه من أداء الواجب. وعلى أية حال، يبدو أن هذا النوع من تاريخ الترجمة قديم قدم تاريخ الترجمة. ولا يمكن فصل الأمرين أحدهما عن الآخر بسهولة.

إن تاريخ الترجمة ليس فقط قديمًا جدًا بل ولم يكن نادر الوجود أصلاً، على الأقل منذ ظهور الفيلولوجيا الحديثة *systematic philology*. وفيما يتعلق بترجمة الكتب العلمية من اللغة العربية (وهو ما تم في طليطلة في القرن الثاني عشر)، فقد كان البحث التاريخي على أشده بدءًا من منتصف القرن التاسع عشر[1]. وكان بحثًا جادًا لا يمت بأي صلة إلى المرحلة الـ "قبل علمية" التي تم تجاوزها إلى حد ما منذ ستينيات القرن العشرين. وقد شمل هذا العمل قدرًا كبيرًا من الأبحاث الرائدة، والفهارس الآركيولوجية [الآثارية] الدقيقة، والكتابات النقدية عن الأعمال المترجمة، والمصنفات الفيلولوجية التفصيلية، وكلها عن ذلك المجال العام ذاته الذي جمع بين ما هو آثاري ونقدي وتفسيري. ليس هناك توجه قومي واضح المعالم (لكن باحثين

(١) يمكن معرفة وتاتر العمل البحثي من خلال تواريخ الدراسات الطويلة التالية: Jourdain 1819، Libri 1838، Boncompagni 1851، Renan 1852، Jourdain 1873، Rose 1874، Steinschneider 1904-05، Berthelot 1906، Sudhoff 1914، Sudhoff 1917، Thorndike 1923، Haskins 1924، Théry 1926، Thorndike 1927، Steel 1929، González Palencia 1937، Muckle 1937، Carmody 1941، d' Alverny 1948، Clagett and Moody 1952، Minio-Paluello 1954، Clagett 1953، González Palencia 1953، Alonso 1955، Carmody 1956، O'Donnell 1958، Opelt 1959، Dunlop 1960، Schrader 1961، Lemay 1963، Kritzeck 1964، d' Alverny 1964، Clagett 1964، d' Alverny 1968، Lemay 1968، van Riet 1972، Kunitzsch 1974، d' Alverny 1982، d' Alverny 1989، Jacquart 1989، وغيرهم.

هيسبانيين(*) اثنين فقط ساهما في شيء مماثل تمامًا لما قام به المترجمون ورعاة الثقافة في القرن الثاني عشر الذين تشملهم الدراسة). وليس هناك اختلاف جذري بين تاريخ مضلِّل للترجمة وتاريخ مستنير له. بل وعلى خلاف ذلك، كما لاحظنا فيما يتعلق بجوردين، فإن 'الفرضيات' الخاطئة والتحيز للدراسات القديمة غالبًا ما كانا شرطين ضروريين لما حدث من تقدم لاحق.

على ضوء ذلك، يعتبر تاريخ الترجمة نشاطًا طويل الأمد لا تنال منه الثورات بسهولة. فالمناهج والنظريات الجديدة يمكنها بكل تأكيد أن تبدل التفسيرات وتطرح الرؤية المناسبة. لكن هذا لا يحدث بصورة آلية مع كل عقد من الزمان، فالإيقاعات الهامة للتقدم لا تواكب تمامًا عمليات التطور الشديدة البطء إلا إذا كان الموضوع المراد تفسيره يتخفى بقوة السحر. فمادة التاريخ يتعين جمعها وتقييمها؛ والتفسير في حاجة إلى علم الآثار؛ والبحث الدقيق يستغرق وقتًا طويلاً. وإذا ما تعين على تاريخ الترجمة أن يحقق نتائج طويلة الأمد، فإنه لابد أن يقدر تاريخها طويل الأمد حق قدره.

هذا ليس معناه أنه لم يكن هناك تغير جوهري على وجه الإطلاق. فعلى مستوى الرؤية طويلة الأمد، لابد من النظر إلى تأثير نظرية المنظومات باعتباره تحولاً كبيرًا في الرؤية. فالتحرك لم يكن لصالح نظرة عامة فقط- وقد حققت مجلدات ستينيات القرن العشرين ذلك بصورة جيدة- بل كان لصالح المنهج أيضًا، وخصوصًا إدراك أنه لابد أن يكون هناك فعلاً منهج لتاريخ الترجمة، منهج له مفاهيمه وطرقه ونتائجه الخاصة. ويعود هذا التغير الهام إلى الأفكار الثاقبة التي أضافها إتمار إيفن – زوهار ***Itmar Even-Zohar*** بدءًا من عام ١٩٦٩ معتمدًا في ذلك على الشكليين الروس. وقام جيديون توري ***Gideon Toury*** بتطوير طريقة بحثية شاملة تتفق مع تعاليم هولمس، منتقدًا البناء المضطرب في كتاب نشره ثيو

(*) كلمة Hispanic، كما وردت في الأصل، تدل على ما هو منسوب لإسبانيا والبرتغال وأمريكا اللاتينية، وعلى ما يتعلق بها جميعًا. (المترجم)

هيرمانز *Theo Hermans* عام ١٩٨٥ بعنوان *The Manipulation of Literature*. ونعود لننظر إلى الوراء لنجد أن التغير لم يكن في الواقع في نموذج المنظومات ذاته، ذلك الشيء الذي أدى فيما بعد إلى امتداد المزاعم العلمية إلى مجال آخر عرف باسم البنيوية *Structuralism*. لقد كان الابتكار الأعمق هو تطبيق نموذج وصفي عام على الترجمات بدلاً من تطبيقه على نظريات الترجمة (ولم يعد هناك موضع للمترجمين، كما رأينا في خريطة هولمس الآنفة الذكر). وقد كان لهذا الأمر ثلاث نتائج على الأقل.

أولاً، أدت نظرية المنظومات إلى أن تحتل شذرات من الدراسات الفيلولوجية موقعًا أوسع، وذلك بتوحيد تاريخ الترجمة دون إنكار العمق التاريخي لهذا التخصص. أفضل مثال لهذه الرؤية البنائية هو سرد ثيو هيرمانز التفسيري للترجمة في عصر النهضة الأوروبية *Renaissance Translation,1992* الذي يستعرض ليس فقط القليل من الموضوعات الجديدة ولكن الكثير من الإدراك الجيد للبحث القديم.

ثانيًا، ونظرًا لأن معظم هذه الدراسات مبنية على مجموعة كاملة من الترجمات، لذلك فإن الإصرار على البحث الإمبريقي واسع النطاق قد اتجه إلى استدعاء رؤى آركيولوجيا الترجمة بدلاً من عزل هذه الرؤى. وبدلاً من أن يجازفوا مهنيًا بالتصدي لفرضيات المفسرين، كان الآركيولوجيون مدعوين عمليًا إلى تحديد السرديات الكبرى بأنفسهم.

ثالثًا، أدى التركيز على الترجمات في مقابل النظريات إلى التأكيد على الدور المعياري للنظريات السابقة، تلك النظريات التي أصبحت بناءً على ذلك قسمًا أساسيًا في موضوع الدراسة (وفقًا لـ *Toury 1980: 62*). ويمكننا الآن أن نقول أن النظريات تلعب دورًا يتطابق مع تقاليد الترجمة على أيامها وعصورها. وفي الواقع، فإن إدراك الدور التاريخي للنظرية قد أدى أحيانًا إلى موازنة غير مفيدة بين الدراسات الوصفية والدراسات النظرية *Lambert 1988: 128, 130; 1991a: 31-32*؛ وذلك كما ورد في *Delabastita 1991*. لكن هولمس أشار بقوة إلى ما بين

هذين النطاقين من ضرورات الأخذ والرد (*1972: 78*). وبرغم أنه كان من الأفضل والأنسب في هذه الآونة أن نلفت الأنظار إلى أن نظريات الترجمة تاريخية، فإن البعض يرون بجدية تامة أن الوصف يمكن أن يوجد بدون تنظير وليس العكس بالعكس. والبعض يؤيدون الآن بجدية تامة أيضًا دراسات الترجمة الوصفية المستقلة بذاتها والتي تطمح لأن تكون خالية من دلالات بعينها أوتتظاهر بعدم التمسك بأي نظرية خلاف الطرق العملية النموذجية. غير أن مثل هذا الاستقلال غير ممكن ولا هو مرغوب فيه أساسًا.

إن هذه العوامل الثلاثة- التكامل التفسيري، والآركيولوجيا الإمبريقية، بالمعنى الضيق لكلمة "إمبريقية"، وإضفاء الطابع التاريخي [اللا أسطوري] على النظرية- تشكل تحولاً غاية في الأهمية لا يمكن تجاهله. وأنا غير راغب فى الإيحاء بأنه هناك أو كان هناك في يوم من الأيام مجموعة متماسكة من الباحثين يعكفون على دراسة الترجمات دراسة وصفية بطريقة مذهبية (فوحدة جماعة 'المعالجة' ***manipulation*** أو 'تعدد المنظومات' ***polysystems*** مظهر وهمي للمسافة، لكن هذا التماسك له فعالية في الولايات المتحدة أحيانًا)؛ وأنا على وعي تام بالعديد من الاختلافات التي تفصل بين الباحثين المذكورين آنفًا، تلك الاختلافات التي تجعلهم يتحاورون بأفضل الطرق المثمرة (ولذلك فأنا حين أذكر توري في الفصول القليلة اللاحقة لا أعني سوى توري). لكن هناك لحظة حدث فيها تحول جوهري بفضل جهد جماعي، وذلك التحول، الذي يفصله فارق زمني عن الوقت الحالي، هو التحول الذي أرغب في الحديث عنه بوصفه المساهمة الباقية حتى الآن لنظرية المنظومات. وسوف يحاول فصل لاحق من هذا الكتاب أن يقيِّم مزايا وعيوب هذا القسم الهام من تاريخنا الحديث.

الحاضر الذي أكتب عنه يتسم، إذن، بتاريخ ابتدائي للمترجمين، ذلك التاريخ الذي يولي أهمية قليلة للمنهج، كما يتسم بنظرية راسخة للمنظومات، هذه النظرية التي تولي أهمية قليلة للمترجمين. وكلاهما يروي قصصًا (فالاختلاف الجوهري هو

ذلك الاختلاف الذي بين صفات الإنسان والصفات المجردة)؛ وكلاهما قد يجري حوارًا مفيدًا ليس فقط فيما بينهما بل ومع الوقائع التاريخية لنظريات الترجمة أيضًا. ويتعلق جزء من مهمتي بطرح الطرق التي تمكنهما من القيام بذلك.

قبل اختتام هذه النظرة العامة، دعوني أؤكد أن تاريخ الترجمة له أيضًا مستقبل يمكن التنبؤ به جزئيًا. إلى أين نتجه؟ يمكن للمرء أن يتوقع قيام عمليتي تحليل الأداء والتفكيك بإتمام دوريهما حتى النهاية، وذلك من خلال إعادة تنظيم بعض المعلومات التي تم جمعها بصورة جماعية وتفسيرها من جديد. غير أن الجانب الأكبر من التحول المأمول سوف يأتي من مشاريع جماعية بعينها. وكما حاولت في هذا الكتاب، هناك على الأقل خمسة مشاريع من هذا النوع قد تم إعدادها: كتاب ديليسيل وودزوورث ***Translators through History*** الذي أشرنا إليه، وكتاب ***the Oxford Guide Literature in English Translation***، وموسوعة ***the Fitzroy Dearborn Encyclopedia of Literature Translation***، وموسوعة ***the Routledge Encyclopedia of Translation Studies***، ثم ***De Gruyter Handbuch zur Übersetzungsforschung***. وقد شملت جميع هذه الأعمال نصيبًا ضخمًا من التاريخ. وإذا كانت هذه المشاريع تشكل نوعًا من المعالم العامة لتاريخ الترجمة، فلابد أنها تفعل ذلك من خلال درجات مختلفة من العمل الجماعي والتعاون مع المؤسسات المعنية. وأنا أشك أنه يمكن أن يحدث أي قدر من الاتفاق العميق حول المفاهيم والمناهج، على الأقل بين الفرق البحثية المختلفة. لكن حقيقة أن باحثين في مجالات مختلفة سوف يتضافرون للعمل معًا في مجال تاريخ الترجمة يجب أن تدفعنا إلى تغيير المفاهيم والمناهج. وفي الحالة النموذجية، فإن الرؤية الأوسع التي اكتسبناها من خلال التعاون في العمل سوف تؤدي أكثر فأكثر إلى نشوء علاقات تبادلية مفيدة بين كل من الآركيولوجيا والنقد والتفسير.

مبررات دراسة تاريخ الترجمة

لابـد أن يستنـد أي بحـث على أساسيين على الأقل، فهو، أولاً، يجب أن لا يكون قد سبق إجراؤه من قبل. ثانيًا، لابد أن يكون القائمون عليه لهم مصلحة فيه. هذان الشرطان ينبغي توافرهما إذا أريد للبحث أن يحظى بقبول الناس. لكن أي شرط منهما لا يكفي لأن يصبح البحث نشاطًا جماعيًا مثمرًا وذا معنى. فلا يمكن لأي شرط منهما على حدة، ولا كلاهما معًا، أن يقول لماذا كان ينبغي إعداد البحث ونشره ومناقشته، ثم لماذا مولته جهة ما. إن الأمر يتطلب قدرًا أكبر من التبرير. وفيما يلي نسوق كافة المبررات المحتملة لدراسة تاريخ الترجمة.

إن تاريخ الترجمة يمكنه الوفاء بحاجة مختلف فروع المعارف الإنسانية فيما يتعلق بوصف كل ثقافة على حدة. لكن الوسائل المعرفية فرضت، عند كل نقطة تغيرت فيها ثقافة بتأثير ثقافة أخرى، أن لا تتجاوز العملية تلك الوسائل التي يتم استخدامها في العادة لوصف الديناميات الثقافية الداخلية. هذه المسألة لها أهميتها في الحالات التي عادةً ما تعمل فيها الميثودولوجيا [المنهجية] المستخدمة في وصف العمليات الداخلية بقوة على إعاقة الوضعية الجوهرية للقوى الخارجية. وقد كان بعض المؤرخين الماركسيين، على سبيل المثال، مقتنعين بأن الحقيقة التاريخية كامنة في النضال الطبقي الذاتي لدرجة اعتقدوا معها أن العمليات المزدوجة ثقافيًا غير جوهرية، وأنه يتعين أن تأتي كافة التغيرات الحقيقية من الداخل ***inside*** وليس مـن الخـارج. لكـن هناك، لحسن الحظ، ظواهر تاريخية كثيرة لا يمكن أبدًا أن لا نبالي بها بمثل هذه المعرفة الداخلية ***inside knowledge***. فهذه الظواهر تتطلب على الأقل فرضية أن يكون التغير الجوهري ناتجًا عن عمليات الازدواج الثقافي، تمامًا كما أن الماركسية الألتوسيرية كانت مهيأة لقبول أن العمليات الدولية سلسلة من 'التوجهات المستبدة' ***overdeterminations***. وهذا يعني أن مظاهر الازدواج الثقافي رغم أنها لا تحل محل المعرفة الذاتية للثقافات، يجب أن تبرر المفاهيم الملائمة ومناهج البحث الإمبريقي وتتوحد معها من خلالها. إن تاريخ الترجمة هو، إذن، إحدى طرق صياغة مثل هذه المفاهيم وصولاً إلى البحث المطلوب.

كما أن تاريخ الترجمة يمكن أن يوفر المعلومات والأفكار التي قد يثبت أنها مفيدة لصانعي القرارات السياسية في مجال اللغة والثقافة، وذلك بالإضافة إلى الترجمة (ما دامت الترجمة خيارًا لغويًّا وثقافيًّا). أحد الأمثلة الجيدة على ذلك أن الرؤى التاريخية قد أثبتت أنها حيوية أثناء صياغة السياسة اللغوية المستقبلية لقارة أوروبا. ويجب على هذه الرؤى أن تلعب دورًا حالما يتم حساب تكلفة الموارد الرمزية للترجمات في الاتحاد الأوروبي. وإذا ما تعين على المخططين أن لا يتخلوا عن هدف التدفقات الكبيرة للترجمة، فإنه يجب عليهم أن يشرعوا في بناء نظم للمعالجة بالكمبيوتر في معظم عمليات إنتاج النصوص؛ فالترجمة الآلية واسعة النطاق سوف تؤدي إلى زيادة نطاق المعلومات الأجنبية باللغة المترجمة إليها؛ وسوف يصبح النص المترجم بواسطة الإنسان نوعًا من الترف. وبطبيعة الحال، فإن مثل هذا النص سيكون بغيضًا إلى المعلمين الذين يعددون الآن مناقب الترجمات التي يتم إضفاء الطابع المحلي عليها، والذين يريدون أن تكون هذه الترجمات كلها بيد البشر، والذين يرون أن العديد من مجالات الترجمة تواجه خطر التدني لمستوى الصناعة اليدوية الريفية. لكن ظهور لغة للترجمة لا ينبغي أن يكون مقلقًا أبدًا لأي شخص يدرك أن الفلسفة والعلم الأوروبيين عملا بأساليب دقيقة للترجمة طوال قرون كثيرة وطورا طرقًا ناجحة جدًّا لقراءة لغة الترجمة واستخدامها بصورة سليمة. والمعرفة الواسعة بالماضي يمكن أن تمدنا بأطر واسعة لتقويم المستقبل.

هناك مبرر آخر لدراسة تاريخ الترجمة يخالف ما سقناه حتى الآن من مناقشات توافقية ***compatibilist***. وهو يفترض أن دراسة تاريخ الترجمة يمكن أن يمثل خدمة غير مباشرة للمجموعات الاجتماعية من الوسطاء، سواء أكانوا مترجمين أو مفاوضين أو تجارًا أو كانوا غير ذلك. لكن هذا لا يعني أنه ينبغي على التاريخ أن يعلم هؤلاء كيف يترجمون. إن خدمتنا تجريدية تمامًا. فتاريخ الترجمة قد يساعد هؤلاء على تأكيد خصوصيتهم القائمة على الازدواج الثقافي.

والأكثر إثارة للجدل أنه قد يؤكد نوعًا من الخصوصية ليست متوافقة تمامًا مع الأحداث التاريخية والنظريات التي يطلق عليها الثقافات الجلوسية ***Sedentary Cultures***، أي الثقافات المتوطنة، وهي الثقافات التي لها دول ونقود لشراء السلع.

هذه نقطة تحتاج إلى شرح.

البعض يدرسون في الوقت الحاضر تاريخ الترجمة لأنهم مهتمون بنشوء وتطور كل ثقافة على حدة، خصوصًا الحضارات الصغرى أو الإقليمية التي استخدمت عن وعي برامج ترجمة لصياغة هويات لغوية أو أدبية. وليس من قبيل الصدفة أن مختلف الخطوات الوصفية التي تلائم هذه الدراسة قد تطورت في أماكن مثل هولندا أو بلجيكا أو إسرائيل أو كيبيك حيث لا يمكن للباحثين أن يتجاهلوا مشاكل مثل هذه الثقافات. وهذا مبرر منطقي لدراسة تاريخ الترجمة (تمامًا كما أنه يبرر أيضا لماذا يتزيا الاهتمام الذاتي بلباس العلم الموضوعي). ويمكن لتخصصنا أن يقدم لأي شخص مهتم بنشأة الثقافة الجلوسية دروسًا قيمة. لكن لا ينبغي أن يكون هذا هو دعوتنا الوحيدة. فلطالما قامت المجتمعات الثقافية الجلوسية بكل أنواعها، كبيرة كانت أم صغيرة، بتسليط الضوء على خصوصيتها وجوهرها بالكتابة عن ماضيها. ولن يطرأ تغير كبير إذا قررت هذه المجتمعات الآن الكتابة عن الترجمات الخاصة بماضيها. غير أن شيئًا ما يتعلق بالماضي غير الجلوسي قد يتغير إن كتب تاريخ الترجمة بطريقة مختلفة نوعًا ما.

المشكلة الأساسية هي أن الثقافات الجلوسية قد سلطت الأضواء على الكثير من خصوصياتها والكثير من جوهرها لدرجة أن فكرة الثقافة ذاتها يصعب تصورها الآن في ظل أوضاع غير جلوسية. إن الهوية الثقافية هي ما يفترض أن يكونه المرء، الآن وهنا، أو شيء عميق الجذور بسبب المولد؛ ومن المفترض أن الترجمات تنم أحيانًا عن هذا الجوهر الأولي. لكن من النادر أن ينظر إلى الهوية على أساس ما يصير إليه المرء أو على أساس من أين جاء أو في أي اتجاه

يتحرك. فالثقافة يبدو دائمًا أنها في مكان معين (وقليلاً ما يبدو أنها في زمان معين)؛ فهي تنتسب أكثر مما تنتقل؛ ويمكن رسم معالمها الجغرافية وربطها بنطاق معين من الأرض. لفظة ثقافة ***culture*** ذاتها تدل على ذلك، فهي مأخوذة من الفعل ***colere*** ومعناه "يفلح الأرض"، أي يشتغل بالزراعة والفلاحة. فالثقافة تتحقق، إذن، بالجلوس في مكان بذاته، والاستيلاء على الأرض الزراعية لاستزراع المحاصيل وتربية الحيوان، وإقامة وجود مؤقت يستلزم نظامًا سياسيًا ودفاعًا. ومن هذا الوجود تنشأ في النهاية المراكز التجارية حيث يتم تبادل المنتجات الزراعية، وبالإضافة إلى ذلك تنشأ لغتها وما تتطلبه من ترجمة.

ووفق ما يناسب هذا التاريخ، فإن عمليات تبادل المنتجات ولغتها يجب أن تتم دائمًا بين ثقافات قائمة. وقد بدا أولئك الذين يقومون بعملية التبادل باعتبارهم ثانويين وغير ذوي أهمية بالنسبة إلى المشروع الثقافي الأولي الذي يلازم مكانًا لا يبارحه ويعيش عليه. وتعطي معظم تواريخ الثقافات أهمية ضئيلة لوسطاء منبتي الصلة بالجذور يحومون حول المناطق المحلية كأشخاص منعزلين وغير دائمين. فالوسطاء لا يعرفون إلا القليل من تاريخهم الخاص. وهم يملكون القليل من الأرض؛ وقد جاءوا متأخرًا؛ ولم يحدثوا سوى تغيرات هامشية؛ وليست لديهم سلطة طويلة المدى، وغالبًا ما لا تكون لهم حقوق الاقتراع. إنهم، في أفضل الأحوال، يجلبون الأخبار والتنوع. وفي أسوأ الأحوال، ينشرون المرض، ويحدثون قلقًا، وينهبون الأرباح.

لكن الزعم بأن الوسطاء، مثل المترجمين وبالإضافة إليهم جنبًا إلى جنب، لهم ثقافة- أو حتى نوع خاص من الثقافة- هو قول قد يتناقض مع علم أصول اللغة *etymology*. لكنه، برغم ذلك، ليس قولاً عديم الجدوى جملةً وتفصيلاً. فنحن يمكننا على الأقل أن نتخيل أن الوسطاء لديهم ثقافات ازدواجية مؤقتة، حتى بدون زراعة. وهناك كثيرون قد يكونون على ذات السفينة المترنحة. فلقد قام المواطنون الأستراليون بحظر الاستيلاء على الأراضي بغرض الـزراعة أو التعدين، ولكنهم

لا يملكون، مع ذلك، ما يسميه معظمنا ثقافة. ومن وجهة النظر الأنثروبولوجية، فإن الثقافة البدوية توفر لحركة الوسطاء مبرر الادعاء بأن لها الأولية على الزراعة الجلوسية. وربما كان الوسطاء يعيشون بكل رضا بين الصيادين وجامعي الغذاء الذين يعيشون حياة أطول ويتمتعون بصحة أوفر أكثر من الفلاحين. فالبدو كانوا موجودين قبل الفلاحين وقد يبقون بعدهم كذلك. لقد كانت هناك حركة طبيعية في البداية ويمكن أن توجد كذلك في النهاية. ولتاريخ الترجمة الحق في إعادة سرد أحداث تلك الحركة. وينبغي عدم اختزال هذا الحق لمجرد الرغبة في الانتماء إلى الجلوسية.

هناك مبررات كثيرة لمسألة لماذا ينبغي على التاريخ العام أن يهتم في هذه الأيام بأمور الازدواج الثقافي وحركة النقل الثقافي. ولأن الإنتاجية آخذة في الاقتران أكثر فأكثر بالمعرفة وليس الأرض، فإن رسم خريطة للثقافة الجلوسية تتزايد صعوبته حيث يتعذر تبرير الاستقلال الفكري والحدود التاريخية لهذه الثقافات. وأصبح التغير الثقافي حقًا يحتكره أولئك الذين يصنعون المعرفة. لكن هؤلاء، وبعضهم مترجمون، لديهم أفكار غامضة عن مسألة من أين أتوا ومن هو صاحب مجموعة المصالح التي يتعين عليهم أن يحققوها.

والتاريخ الأمثل الذي يجعلني راغبًا في دراسة تاريخ الترجمة لا يتعلق بالثقافات الجلوسية بالدرجة الأولى. إنه يتعلق بحركة الناس والنصوص. وقد يكون هذا التاريخ قصة من قصص الجوالين، أو سكان الحدود، أو أبناء الأسر المختلطة ثقافيًا، أو المولّدين. ومع أن هؤلاء الجماعات المزدوجة الثقافة لا تملك ماضيًا مكتوبًا بشكل مترابط، إلا أنها تمتلك رؤية واضحة إلى حد ما عن وضعها الحالي وإمكاناتها في المستقبل. ولذلك، وبدلاً من مجرد استكمال كتابة الأحداث التاريخية للثقافات الجلوسية، ينبغي لتاريخ الترجمة أن يعمل على كتابة مستقبل لاجلوسي.

ذلك هو ما يدعوني لأن أدرس تاريخ الترجمة. وهو أيضًا ما جعلني مهتمًا، بطبيعة الحال، بخرائط المشروع. لكن لا أحد في الجانب الآخر من الحدود في حاجة إلى خرائط إلا السائحين.

الفصل الثانى
الأهمية

ينبغي، بادئ ذي بدء، أن نقول إن أول الأشياء التي تحتاجونها عند دراسة تاريخ الترجمة هو سؤال لابد من الإجابة عنه. لكن السؤال ينبغي اختياره بعناية، فهو منطقيًا سؤال لابد أن يكون بصورة ما إشكاليًا، أو سؤال له عواقبه، أو سؤال مهم وحسب. وعادةً ما يكون سؤال واحد فقط كافيًا لأي مشروع؛ فسؤالان أو أكثر سرعان ما يمكن أن يؤدي إلى تعقيد الأمور رغم أن أي باحث يبدد في العادة وقتًا منتقلاً من سؤال إلى سؤال، ومن تجربة إلى خطأ، قبل أن يتوصل إلى أي شيء ينم عن أهمية. لكن الخطأ الأكثر شيوعًا هو أن لا يلتفت المرء مطلقًا إلى الأهمية، وينصرف إلى الإجابة عن العديد من الأسئلة غير الهامة، وإنتاج كميات ضخمة من المعلومات والتحليلات، فحينذاك لا تكون متابعة عمله أكثر من مجرد النظر في رفوف مختارة، هذا عيب خطير في تاريخ الترجمة، حيث لا تكون الكثير من مجالاته غامضة بصورة لا يمكن أن ينكرها إلا حفنة من الخبراء الغامضين كذلك. ومنذ البداية، ينبغي أن نلقي نظرة إلى الأهمية ***importance*** حتى لا نسير وراء شيء لا نهدف إليه. ولكن، كيف يتأتى لنا أن نكون على يقين من أننا نوجه سؤالاً مهمًا؟ كيف يمكننا أن نحدد هذه الأهمية؟ وكيف يتسنى لنا أن نتأكد من أن الأهمية لا تخصنا وحدنا؟

ما معنى الأهمية؟

دعنا نفترض أن هناك بحثًا يرتكز على سؤال نريد أن نعرف إجابته. هذه مسألة سهلة. على سبيل المثال، لدينا مخطوطة منسوخة بها العديد من الكلمات المتباينة الهجاء، ونعتزم أن نسأل عما يمكن للمترجمين أن يكونوا كتبوه. لقد رأينا كيف وجهت ماري تريز دالفيرني هذا النوع من الأسئلة المتعلقة بالفاصلة والاسم

الحقيقي، حتى توصلت لإجابة مقنعة إلى حدٍّ ما: الاسم ***"Johannes"*** يعزى عادة إلى راعي المترجمين (كبير الأساقفة جوهانس الطليطلي ***Johannes of Toledo***) وليس إلى المترجم الذي يُعتقد أنه ***Johannes Hispanensis*** (أو جون أوف سيفيل ***John of siville*** [جون السفيلي] أو جون الإسباني). تم توجيه السؤال، وأجيب عنه في هذه الحالة على صعيد الآركيولوجيا. ولكن لماذا كان هذا السؤال بالذات ذا أهمية؟ كانت مخطوطات العصور الوسطى مليئة بعدد لا يحصى من الكلمات ذات الهجاء المتباين؛ وكان يمكن توجيه العديد من الأسئلة المشابهة؛ لكن القليل من هذه الأسئلة هي التي تستحق كل ما بذلته دالفيرني من جهد في تحليل هذه العبارة بالذات. فلماذا تكون بعض الأسئلة مهمة؟

في مثال دالفيرني، كان السؤال مهمًّا ليس لأنه كان من الصعب الإجابة عنه، ولكن لأن باحثين آخرين أجابوا عنه بأشكال مختلفة. تعجل جوردين في قبول أحد الأجوبة (أن جوهانس ***Johannes*** هو المترجم) وذلك كيما يعزز مكانة كبير الأساقفة الفرنسي ريموندس (الذي كلف ***Johannes Hispanensis*** بإعداد ترجمة أخرى). وكان بإمكان دالفيرني أن تبحث عن إجابة أخرى للسؤال الخاص بدور ريموندس كمؤسس لمدرسة طليطلة، وبالأحرى للسؤال الخاص بفكرة مدرسة طليطلة بكاملها. ولنلاحظ بدقة: لقد أصحبت إجابتها أسلوبًا سائدًا في التساؤل، أسلوبًا ينتهك العلاقة بين الأسئلة وأجوبتها. ويمكن القول أن التفاصيل الفيلولوجية كانت لها تبعات تفسيرية كبرى. تشير دالفيرني في نهاية تحليلها إلى سبب صعوبة الإجابة عن سؤالها الأولي. إن الاسم الصحيح الذي أسيء فهمه لم يرتبط فقط برئيس طائفة المترجمين بل أدى أيضًا إلى إخفاء هوية المترجم الأكثر رجحانًا، وكان شخصًا يدعى أفندوث ***Avendauth***، وكانت دالفيرني قد أشارت إليه باعتباره يهوديًّا. كانت القضية، كما افترضت دالفيرني، هي أن التأثير اليهودي على طليطلة القرن الثاني عشر قد أدى إلى إخفاء عقود من المؤرخين ومعدي المخطوطات المسيحيين الذين اعتادوا القيام بأعمال التنقيح لصالح المؤثرات الهيسبانية والفرنسية الأكثر أصالة: وتتعجب دالفيرني فتقول "أفلا ينبغي أن نتساءل إن كان لعمليات

التركيب العقائدي لإسرائيل دافع مبكر ومباشر؟ *(1964: 43)*. إن هذا السؤال المتشعب يخص النقد التاريخي إلى حد بعيد؛ إنه يعكس بواعث الباحث للتساؤل عن الفواصل والأسماء الصحيحة، وينشئ نوعًا آخر من الأهمية. إذن، كان السؤال الأصلي الذي طرحته دالفيرني هامًّا لاعتبارين على الأقل: أولهما أنه كان بوسعها أن تجيب عنه بطريقة لم يكن بمقدور الآخرين اتباعها، وثانيهما أن إجابتها استتبعت سؤالاً متشعبًا فشل الآخرون في طرحه.

يتضمن هذا المثال معظم العناصر التي نحتاج إليها لفهم أساسي للأهمية. فمن ناحية، هناك عدد لا يحصى من القضايا الجزئية وقضايا الهوية يتعين حلها أو عدم حلها. وهناك، من ناحية أخرى، أسئلة تتعلق بالقضايا بعيدة الغور القابلة للاختلاف والجدل. وأنا أرى: ١- أن المستوى الثاني من التساؤل قد يعطي أهمية لأسئلة لا علاقة لها بالمستوى الأول ٢- أن الإجابة في المستوى الأول يمكن أن تدعم الأسئلة الأخرى بالمستوى الثاني ٣ - أن هذا يمكن أن يحدث بطريقة تتجنب معظم علاقات الربط المباشر بين كل سؤال وجواب. وعند اجتماع هذه الشروط الأولية الثلاثة، فإننا نكون إزاء سؤال له أهمية. ففرضية التعالي على اليهود جعلت اسم يوهانس *Johannes* شيئًا ضروريًّا، وأوضحت لماذا فشل الآخرون في توجيه أسئلة عن هذه النقطة بالذات. وهكذا، فإن الأسئلة الكبرى قد تجعل من الأسئلة الصغرى أسئلة ضرورية، ويمكن لهذه العملية أن تؤدي بالتالي إلى أسئلة جديدة لها أهمية[1].

---

(١) حتى يمكن وصف هذه العملية بصورة أكثر منهجية، يجب تحديد ما الذي يجعل من هذا السؤال "أكبر" (أو "أشمل") من ذاك السؤال، على الأقل في المواضع التي يكونان فيها متلازمين ويمكن إلى حدٍّ معين المقارنة بينهما. ونحن قد نرى أن هذا الحجم النسبي هو في آن واحد معًا موضوعي (مقدار البشرية الذي يتعين على المرء أن يتفحصها كيما يجيب على السؤال) وذاتي (عدد الناس أو الأوضاع الاجتماعية التي يمكن أن تكون مهتمة أو متأثرة بالسؤال). وسوف يفترض الجزء الأكبر من نقاشي هنا أن هذين الجانبين متطابقان، ذلك لأن مثل هذا السؤال الذي يشمل قدرًا كبيرًا من البشرية سوف يهم الكثير من الناس أو يؤثر فيهم بصورة تلقائية. وقد يكون هذا صادقًا تمامًا ما لم تكن ثمة أشياء مثل المجالات وتخصصاتها المناسبة.

ما هي الأهمية بشكل محدد؟ من الواضح أن صفة النوعية ***quality*** ليست كامنة في أي موضوع ***object*** بالذات. فأي شيء لا يمكن أن يكون هامًّا أو عديم الأهمية إلا بالنسبة إلى شخص معين؛ ونظرًا لأن العلاقة الظرفية ***situational relation*** الخاصة بالشخص المدروس ***subject*** علاقة تتعلق بالجوهر، فإننا قد نفترض بصورة ميكانيكية أن هناك شيئًا ما مهمًّا بالنسبة إلينا إذا كنا مستعدين لبذل جهد للحصول عليه أو الاحتفاظ به أو تفاديه. والواضح أن دالفيرني اعتقدت أن سؤالها مهم بما يكفي لتحمل مشقة التفتيش في ٤٥ مخطوطة لنفس الترجمة. لكن حقيقة أنها تجشمت كل هذه المشقة لا تعطي في ذاتها مقياسًا للأهمية. فالجهد الفردي قد تكون له صلة وثيقة بنظرية ذاتية تتعلق بقيمة الحرمان ***deprivation-based value***، تلك النظرية التي يمكن بواسطتها قياس قيمة أي موضوع على ضوء ماذا يمكن للمرء أن يضحي به مقابل الحصول أو الإبقاء عليه. وهناك عدد لا يحصى من الباحثين يحرمون أنفسهم من الحياة الاجتماعية والنقود والنوم الهانئ وينتجون كتبًا عن أسئلة قليلة الأهمية برغم ذلك. حقًّا إن مفتاح النجاح ليس مجرد المعاناة.

ما يجعل سؤال دالفيرني هامًّا جدًّا هو حقيقة أن شخصًا آخر كان من الممكن أن يعتقد أنه هام. ففي العصور الوسطى المبكرة- هكذا يمضي النقاش- كان من الممكن لأيدٍ خفية أن تعتبر دور المترجمين اليهود هامًّا ويتعين إخفاؤه. ومن ثم فقد كان في إمكان مؤرخ فرنسي في القرن التاسع عشر أن يستفيد من هذه النظرية المتعالية لابتداع أسقف فرنسي نبيل المحتد مازالت المصادر المختلفة وغير المتخصصة تصفه على أنه مؤسس مدرسة طليطلة. ولابد أنه قد تم على الأقل بذل جهد ما لتجنب الرد على ما قامت دالفيرني بإقامة الدليل عليه. ذلك هو السبب في أن إجابتها كانت هامة بصورة لا تبررها القيمة الذاتية بالمعنى الضيق للكلمة. إنها إجابة قادرة على دحض إجابات الآخرين.

بهذا الفهم، يمكن النظر إلى الأهمية باعتبارها مقدار الجهد الذي يبذله بعض الناس للإجابة عن سؤال ما بطريقة يكون آخرون راغبين في تجنبها(١). فالأهمية لا تخص شخصًا واحدًا فقط وإنما تتعلق أيضًا بشخص آخر؛ فهناك دائمًا درجة ما من التنافر أو الصراع المتبادل بين الناس. وبطبيعة الحال، فإن عدم إجراء أي نوع من دراسات تاريخ الترجمة قد تكون له أهمية عندما يكون هناك تعالٍ على الترجمات أو تتم مناقشتها على مضض. ولكن بمجرد أن يتفق الجميع على نقطة معينة، على سبيل المثال أن الفاصلة الموجودة لابد من إزاحتها، وقراءة كلمة *"Johannes"* على أنها *"Johanni"*، فإن هذا السؤال ذاته سيصبح غير ذي أهمية. وحينذاك، ستتجة عناية الباحثين نحو موضوعات أكثر إلحاحًا.

وعلى سبيل الإجمال، فإنني أرى، بالإضافة إلى الشروط الثلاثة الأولية التي سبقت الإشارة إليها، أن السؤال يكون مهمًا عندما يكون هناك اختلاف وحين يؤثر هذا الاختلاف على الإجابة عن سؤال أكبر بين الأسئلة المطروحة للنقاش. وما دامت الأهمية ذات علاقة بموضوع تاريخ الترجمة وبالهدف منه معًا، فإننا سوف نعود إلى هذه المبادئ عند مناقشة دور المترجمين القدامى ومنظري الترجمة.

إنــك بمجــرد أن يكون لديك سؤال مهم، تحاول أن تحدد بصورة منطقية ما نوع الإجابة التي تتوقعها. والإجابة المتوقعة لابد أن تكون في شكل فرضية؛ فرضية لا تزيد عن كونها تعبيرًا عما يتم إثباته أو دحضه. وهذه بعض الفرضيات الوثيقة الصلة بالمثال السالف الذكر: 'هذه الترجمة قد أعدت لصالح *Johannes*'، 'المتــرجم كــان يهوديًا اسمه *Avendauth*'، 'دور المتــرجمين اليهــود مطموس أو مسكوت عنه' وهكذا. والفرضيات يمكن أن تكون على أي مستوى، بدءًا من

---

(١) يرجع الفضل في اهتمامي بالأهمية إلى آي ايه ريتشاردز (I.A. Richards, 1924: 47-51) الذي ساوى بين المصطلح ومقدار التنافر الذي تولده مشاعر حب أو كره في مواجهة مشاعر حب أو كره أخرى. ومع عدم إقراري لكل المبادئ السيكوميكانيكية psychomechanistic التي ينطوي عليها هذا القول، فإنني راغب في إعادة صياغة هذا التصوير بما يتلاءم مع العلاقات الاجتماعية، مع التركيز على عنصر "التنافر".

الفرضيات الأركيولوجية إلى الفرضيات الميتافيزيقية. ويمكن أن تصاغ كافتراضات إيجابية أو سلبية (الترجمة لم يجر إعدادها لصالح كبير الأساقفة ريموندس... إلخ). وكقاعدة عامة، فإن الشكل الإيجابي أو السلبي للفرضية يتطابق في كل الأحوال مع الإجابة التي تتوقعها أو تريد أن تجدها، الإجابة التي تريد أن ترهن جهود بحثك بها. في مثل هذا النوع من الممارسة، يمكن إثبات أو دحض الفرضيات الأولية لدرجة معينة فقط، وغالبًا ما يتطلب الأمر صياغة فرضية جديدة تؤدي إلى إجراء مزيد من الاختبارات على الموضوع، ثم صياغة فرضية أفضل جدًّا، وهكذا. فتتضاعف الفرضيات. وفي نفس الوقت، فإن النتائج التي تحققت على أحد الأصعدة (اسم *Johannes* مثلاً) قد تتطلب تعديلات في صعيد آخر (دور المترجمين اليهود مثلاً).

وسرعان ما تنفتح عملية السؤال والجواب وتتمخض عن شبكات من الفرضيات التي يعتمد بعضها على البعض الآخر وتقدم تفسيرات على مستويات عدة في آن واحد معًا. ونظرًا لأن مثل هذه الشبكات تستعرض العديد من الأوجه التفسيرية للموضوع، فإن من الممكن أن نسميها نماذج *models*. دالفيرني، على سبيل المثال، لديها نموذج كامن حيث تربط بين التعالي على المترجمين اليهود وسوء تفسير نصوص معينة ونفوذ أيديولوجيا هيسبانية معينة. وهناك نموذج مضاد يفترض أن المترجمين اليهود كانوا هامشيين، وأن المفكر الرئيسي لطليطلة في منتصف القرن الثاني عشر كان الهيسباني الذائع جونديسالفي *Gundisalvi*، وأن السؤال الخاص باسم شخص بعينه لا علاقة له بالأمر من الناحية الكمية. وعلى هذا، فإن الإجابة عن أي سؤال هام – إضافة إلى الأسئلة العادية التي تولد الفرضيات– قد تتطلب بناء واختبار نموذج محكم ليس إلا. ويجدر بنا أن نطلق على القفزات التي تحرزها هذه العملية، بما في ذلك فرضيات وبناء النماذج، مصطلح ثمار الفكر التأملي الذي يعتبر جزءًا جوهريًّا في أي ممارسة للمؤرخ. كل هذا معروف جيدًا. إنه المادة الخام الأولية في البحث المعتمد بشكل عقلاني على الملاحظة والاختبار الإمبريقيين [التجريبيين].

النقطة الرئيسية هي أن المحرك الكامن خلف عملية البحث بكاملها لابد أن يكون السؤال الهام الذي تتعين الإجابة عليه. فإن غاب ذلك عنك، تكون فرضياتك ونماذجك معرضة لخطر أن تصبح غير هامة. لكن المناهج الإمبريقية غير كافية بمفردها.

في مواجهة الإمبريقية السعيدة

كل من أعرفه تقريبًا لديه مشاكل: الأسرة، الصحة، الحب، الأطفال، الحروب، البيئة، هموم المستقبل، هموم الماضي، الأشياء التي يريدها كل هؤلاء، الأشياء التي لا يريدونها، سلسلة من الأشياء والأهداف التي يعتبرونها هامة. فمن جانب إذا ما تعين إنجاز عمل فكري بعزيمة صادقة ولهدف يتجاوز مجرد التأمل الجمالي، فإن الهدف لابد أن يكون بكل تأكيد الإجابة عن أسئلة الأهمية. وعلاوة على ذلك، إذا ما تعين إنجاز مثل هذا العمل بقدر من الاستغراق أو حتى بقدر من الانفعال، فإن الهدف يجب أن يكون توجيه الأسئلة الوثيقة الصلة بحياتنا. والواقع أن مؤرخي الترجمة ليس لديهم مبرر حقيقي لأن يكونوا مختلفين في هذه النقطة.

البعض يرى أن تطور الفرضيات يتطلب حكمًا منزهًا أو موضوعية أو هدوءًا أو علمًا أو على الأقل قوالب مهجورة من العلم تبدو في شكل استفهام خالٍ من العاطفة. ويتعين على هذه الرؤية أن تدلل على أن البحث الجيد ينطلق من مجرد أن تنظر إلى العالم وتبلغ شخصًا ما بما تراه. وطبقًا لمثل هذا الموقف الوصفي الأمثل، ليس ثمة أسئلة أولية هامة بصورة صريحة، وأي اشتباك ذاتي غير متحفظ من الممكن أن يؤدي إلى فصل الباحث من منحة دراسية جادة. ومن الممكن أن لا تصبح الفرضيات والنماذج سوى طرق للبحث التجميعي ***synthesizing research*** (كما ورد في: *Frank, 1992*). وقد يوحي هذا الشكل من التناول بضرورة أن نقرأ كافة الكتب قبل أن نفكر في إدراك معناها، أو بالأحرى

قبل أن نفكر مليًا لماذا يتعين علينا قراءتها أصلاً. إن ثقافة الباحثين واسعي الاطلاع تميل حقًا لأن تقع واقفة على قدميها، وتجمع من الاستنتاجات ما يكفي للتحفيز على أكبر قدر من الاطلاع. لكن الوقت والعينين يمثلان لنا شيئًا ثمينًا؛ ولذلك لا يمكننا قراءة كل شيء؛ كما أن سعة الاطلاع عند الآخرين قد تثير إعجابًا عارضًا وقليلاً أيضًا. ومن منظورنا النفعي ***pragmatic***، هناك ما يدعو للارتياب في أن الفرضيات والنماذج لا تأتي إلا في اللحظة الأخيرة لاصطناع مغامرة مفتوحة النهاية عبر النصوص. فالاعتقاد الشائع بأن أشياء منهجية من هذا النوع تمثل شكل التخطيط النهائي قد يكون مرتبطًا بـــ "مغالطة وصفية" واسعة الانتشار: مغالطة تفترض بصورة زائفة أن تاريخ الترجمة سيأتي إلينا دون أن نحاول نحن أبدًا الذهاب إليه. وما علينا إلا أن ننتظر ونصف.

ومن جانب آخر، أولى البعض اهتمامًا بالغًا لمفاهيم ومناهج "الأداء الميداني" ***field formation***، فصاغوا أسئلة هي في الواقع إجابات قبل أن يجري وصف أي شيء وصفًا حقيقيًا. وقد يؤدي هذا العمل إلى تقريب الباحث من الحياة الاجتماعية ولكنه غالبًا ما يشكل قيدًا على الأهمية المثمرة. المثال التوضيحي لذلك هو الزعم البدائي بأن الترجمات هي حقائق تخص الثقافات المستهدفة [المنقول إليها] فقط، تلك الثقافات التي تمهد السبيل إلى بناء موضوع يشمل الترجمات "باعتبارها حقائق الثقافة المستضيفة لهذه الترجمات" ***(Toury 1995: 24)***. وغالبًا ما يعني هذا الافتراض بداهةً أن كافة الفرضيات والنماذج التالية لها تؤكد بالضرورة نقطة الانطلاق، حتى لو تطلب الأمر تجاهل آراء المترجمين التاريخيين وملاحظاتهم. وسوف نعود لهذه النقطة فيما بعد. لكن من الممكن أن نسوق مثالاً لمنطق مشابه على النحو التالي: الترجمة هي، بحكم التعريف، عمل غائي ***teleological***؛ فدعنا إذن نتمعن في الترجمة كعمل غائي؛ انظر! إننا نرى أن عملية الترجمة كلها عمل غائي بغض النظر عما يظن مختلف المترجمين أنهم يفعلون (فبعضهم يظنون أنهم يلتزمون ما تمليه النصوص الأصلية من مقتضيات). وأحد الأمثلة الأكثر التفافًا

يرى أنه: ينبغي أن يكون تاريخ الترجمة علمًا إمبريقيًّا؛ هذه هي إذن طريقة لاصطناع العلم الإمبريقي؛ ومن ثم فهي طريقة اصطناع تاريخ الترجمة. وهذا مثال آخر، مثال من عندياتنا: موضوع تاريخ الترجمة هو مجموعات مزدوجة الثقافة تتميز بديناميتها؛ ونحن نبحث عن مثل هذه المجموعات؛ ونرى أنها تغص بالمترجمين. أو بصورة أعم: الترجمة لها أهميتها؛ دعنا إذن نتمعن في الترجمة؛ انظر، الترجمة لها أهمية، أليس كذلك؟

ماذا يدور هنا؟

مثل هذه الطريقة في التفكير عنصر من عناصر الأداء الميداني. هذا مفهوم تمامًا: إذا كانت المجموعات المزدوجة ثقافيًّا (أو الثقافات المستهدفة [المنقول إليها] والغايات ... إلخ) هامة بالنسبة إلينا، فإننا نتمعنها بانتباه شديد؛ ونميل إلى النظر إلى المناطق الأخرى بانتباه أقل. وقد يقال نفس الشيء أيضًا عن العصور التاريخية: فليس من قبيل الصدفة أنني مهتم بالأحداث العالمية في أواخر القرن التاسع عشر؛ أكثر من اهتمامي بالحركة الرومانتيكية الكبرى للنصف الأول من القرن التاسع عشر؛ ونماذجي أكثر نجاحًا في مجال أكثر من مجال آخر. ومن المتوقع من جانب أي باحث أن يركز على الجوانب التي تتأكد صحة افتراضاتها الأولية. إلا أن هذا الميل لا ينبغي بكل تأكيد أن تخصص له مهلة طويلة الأمد. فعند نقطة ما، يجب أيضًا صياغة الفرضيات الأساسية للأداء الميداني باعتبارها أسئلة هامة. وإلى أن يحدث هذا، تظل فكرتنا بشأن الأهمية تعمل بطريقة إجابة مقابل سؤال، معطية إجابات مباشرة عن كافة أسئلتها، ومنتجة لكميات ضخمة من الحشو المتكرر على مستوى النظرية، وجارفة الكثير مما تحت البساط.

أحد الطرق المؤدية إلى فخاخ الوصفية وفخاخ الحشو هو الإصرار على الطابع المتعدد الطبقات للأهمية بما يحدثه ذلك من توتر بين المستويات المختلفة.

فقبل قراءة جميع الكتب ووصفها، أو قبل افتراض أن الترجمات تنتمي إلى الثقافات المستهدفة، أو أنها أعمال غائبة، أو أن العالم في حاجة إلى علم إمبريقي أو ترجمات أو غيرها، لابد أن يكون في مستطاعنا أن نقول أي نوع من أسئلة الأهمية ينبغي أن نوجهه من خلال مجموعة معينة من كتب (وليس كتب أخرى)، أو من خلال البحث في الثقافات المستهدفة فقط (وليس الثقافات المزدوجة أو العلاقات بالثقافات الأخرى)، أو من خلال إعطاء الأولوية للأسباب النهائية (في مقابل الأسباب الأرسطية الأخرى، مثلاً)، أو من خلال المساواة بين الموضوعات (وبالتالي إعطاء وقت أقل للتفكير الأخلاقي أو التأملي)، أو من خلال الارتكاز على الثقافات المزدوجة (وليس الثقافات المستقلة المصدرية[المنقول منها] أو المستهدفة [المنقول إليها])، أو من خلال دراسة الترجمة (وليس اكتساب لغة ثانية، على سبيل المثال). ونظرًا لطبيعتها الخلافية، يجب على أسئلة الأهمية أن تحدد ما هي الدروس المستفادة من إجاباتنا، وبالتالي ما هي الجوانب التي ينبغي أن نلاحظها في الموضوع. وإذا أصبحنا مدركين لهذا، ومفعمين بالأمل عن طريق توسيع حيز أسئلتنا الخاصة بالأهمية، وغالبًا ما يكون في وسعنا أن نتفادى السلبية الوصفية ونظرية الحشو، يكون في متناول الباحثين أن يكتشفوا أن لهم موقفًا بالفعل، سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوا.

هناك طريقة أكثر صرامة لتفادي أسئلة وأجوبة أسلوب جواب مقابل سؤال، وذلك بالتأكيد على صياغة الفرضيات والنماذج بحيث يمكن اختبار نوعية الأدوات بشكل دقيق حين تخفق هذه الفرضيات والنماذج. إن كثيرًا من الافتراضات الأولية يمكن إخضاعها لاختبارات لدحضها بدلاً من تبريرها على الدوام. على سبيل المثال، افتراض أن كل المترجمين ينتمون إلى الثقافات المستهدفة يمكن اختباره بسهولة تامة إذا كانت الألفاظ المستخدمة (حينما تكون هذه الألفاظ مستخدمة) معرّفة بوضوح. ويصدق نفس الشيء على الفرضيات المتعلقة بالثقافات المزدوجة في الظروف المشابهة. ومن ناحية أخرى، فإن قضية مثل "كل المترجمين غائبون"

لا تخضع بسهولة لأي اختبار داحض؛ بل يمكن السماح لها بأن تظل قائمة إذا كانت ومتى تكون ذات أهمية ما في سياق أوسع (إذا أنكر شخص ما ومتى أنكر القضية إنكارًا تامًا)، ومن الممكن تجاهلها في هدوء حين لا تكون لها ذات الأهمية (أو حين يرفض المرء تصديقها). وقد تكون الدائرية ***circularity*** اللازمة لبناء المجالات والتخصصات أكثر تأثيرًا من التزييف البوبرياني(*) ***Popperian*** الشامل. لكن معايير الأهمية تستلزم، كلما أمكن، أن تتخذ كفاحاتنا على الأقل طريقًا ما صوب أرض العدو، واجتياح المجالات الراسخة، واقتحام النظم الأكاديمية عند الضرورة.

وبعيدًا عن المغالطات الأساسية، هناك ثلاثة ملامح مميزة للدراسات الإمبريقية الحالية لها صلة قوية بفكرتنا عن الأهمية. فأولاً، غالبًا ما تكون المبادئ الإمبريقية قد تمت صياغتها دون تمييز فيما بين العلوم الإنسانية والعلوم غير الإنسانية. ثانيًا، يتم تعزيز البحث الخالي من السمات الشخصية عن طريق الاحتكام إلى مقياس القابلية لاختبار الازدواجية الذاتية ***intersubjective testability***. ثالثًا، وكنتيجة ملموسة، تنطوي بعض المناهج على زهد اجتماعي غريب، كما يتبدى في توكيد خيديون توري ***Gideon Toury*** بأن "التخصص العلمي لا يحدث تغيرات في عالم التجربة" (*1995: 17*). فالعلماء الإمبريقيون لا يفعلون إذن شيئًا سوى الجلوس في مكان ما وطرح تصورات، تكون كيفما تكون، هامة أو غير هامة. فدعنا نقلّب هذه الجوانب جانبًا بعد الآخر.

لماذا لا ينبغي التمييز بصورة جوهرية بين العلوم الإنسانية والعلوم غير الإنسانية؟ ألا يحدث شيء خاص جدًا كلما شرع الناس في التعامل مع أعمال

(*) من الواضح أن النسبة هنا إلى الفيلسوف البريطاني كارل بوبر Karl Popper. ويبدو أيضًا أن المؤلف يشير إلى نظرية القابلية للتزييف falsifiability عند بوبر حيث يرى أن الحقائق تكشف أخطاء النظريات ولا تثبت صحتها وأن النظرية الصحيحة ليست هي التي يتم التحقق من صحتها ولكنها القابلة للتزييف. (المترجم)

الآخـــرين أكثر من التعامل مع الموصلات الجيدة ***superconductors*** أو الكواركات(*) أو الأخشاب؟ إن تاريخ الترجمة، أردت أم لم ترد، يضعنا في نفس العالم الواحد، مثلنا مثل المواد التي نتعامل معها. فنحن ننتمي، بشكل لا مهرب منه، إلى علوم البشـــر، العلوم الإنسانية، ذلك الجزء من المشروع الذي تكون فيه ذاتية البـــاحـــث- أو الذاتية الازدواجية ***intersubjectivity*** لمجتمع البحث - اجتماعية وتاريخية تمامًا كما هو الحال عند المترجمين الذين نتناولهم والترجمات التي نكون بصددها. لكن من السهل إخفاء هذه الحقيقة بالتركيز على العناصر النصية الجميلة ***textual artefacts***، ثم تشتيت الموضوعات داخل منظومات، كما لو أن الماضي كان متسمًا بانعدام الطابع البشري. ومن السهل أيضًا أن نبحث عن منهج يعمل كنوع من المعالجة الآلية، بالفرضيات والنماذج القادرة على تقسيم الموضوع التاريخي إلى أجزاء يمكن معالجتها وإعادة ترتيبها بطريقة يمكن فهمها بشكل مباشر. فإذا كان المنهج صحيحًا، فإن من الممكن أن يطبقه أي شخص على أي موضوع دون أي اختلاف ما دام اختبار الازدواج الذاتي ***intersubjective testing*** سيعمل على التأكيد على نفس النتيجة. لقد قيل لنا، من غير أدنى ريب، أن كل تطبيق للفرضية يعمل على اختبار وتنقيح المبادئ التحليلية، مؤديًا إلى نوع من الحقيقة الشاملة. فأين إذن الموضوع المعروف بأنه إنساني بوجه خاص في هذه العملية؟ وإلى أين تتهادى المناهج الإمبريقية القويمة بالمنطلقات القائمة؛ أسئلة البداية التي هي بكل تأكيد الشرط الحقيقي لأي نتيجة يمكن قياسها للازدواجية الذاتية؟

وعلى سبيل التأكيد على الأهمية، أقترح منهجًا يمكن إعداده مع بداية أي مشروع بحثي لاختيار السؤال الهام وما يصاحب ذلك من اهتمام بذاتية الباحث. وليس بوسعنا حقًا أن نخرج بعض الترجمات من داخل قبعة عند تطبيق المنهج

(*) الكوارك quark هو أحد المكونين الافتراضيين للمادة طبقًا لنظرية النموذج القياسي لفيزيـــاء الجسيمات عند عالم الفيزياء موري جليمان. (المترجم)

المقترح، فلابد أن يكون لدى المرء مبررات قوية لمعالجة موضوع بالذات بطريقة بالذات. ولابد أيضًا أن تكون المبررات في كلتا الحالتين، معنية، على الأقل، بالناس، وبالقيم الإنسانية، وليس بالنتائج المجردة(١).

هذا يقودنا إلى مشكلة توري الخاصة بمسألة هل ينبغي أو لا ينبغي على المنحة التعليمية أن تحاول تغيير 'عالم الخبرة'. فإذا كان لديك سؤال مهم، أو كان العالم الاجتماعي من حولك يوجه أسئلة ذات أهمية، أفلا يبدو أن من الحيوية بمكان أن نحاول الإجابة بكل دقة عن تلك الأسئلة وليس عن أسئلة أخرى؟ ثم ألا يؤدي مثل هذا النشاط بالضرورة إلى نوع من التغير، سواء أكان هذا التغير مباشرًا أم كان غير مباشر؟(٢) إن إحدى المفارقات في كتاب توري هي أنه يمتلك سجلاً حافلاً يستحق التقدير من الأسئلة ذات الأهمية. فعندما كان الجميع يقومون عمليًا بتحليل محددات النص المصدري [المنقول منه] من خلال الترجمات، أصر هو على أن الترجمات محددة على أساس دورها في الثقافة المستهدفة [المنقول إليها]. وحينما زعموا أن الترجمات يمكن بل ويجب أن تُدرس مثلما تُدرس النصوص غير المترجمة، كان هو أحد الذين قالوا أن المجتمع قادر على تحمل لغة الترجمة بالذات ('التداخل'). وعندما أصر التربويون إصرارًا شديدًا على أنه يتعين على الباحثين أن

(١) هذا الأمر ينطوي على مشكلة أخلاقية كلاسيكية يمكن توضيحها كالتالي: يكتشف باحث في المجال الطبي علاجًا لمرض استوائي؛ يتم تطبيق العلاج؛ يتزايد السكان؛ يصبح الطعام أقل توافرًا؛ ينخفض المستوى المعيشي للسكان. فما الذي كان أكثر أهمية: المرض بوصفه مجالاً طبيًا أم المستوى المعيشي للسكان؟ أنا أشك أن شيئًا مشابهًا يحدث في بحوث الترجمة حيث يكون المجال مهيأ لحل مشكلات النصوص المترجمة دون أن نقارن أبدًا بين تكاليف الترجمة وتكاليف تعلم اللغة أو تطوير المجتمعات متعددة اللغات.

(٢) التناقض الذي ينطوي عليه ادعاء توري يصبح صارخًا عندما يؤكد أن "أنشطة الترجمة ونتاجاتها ليس يمكن فقط أن تُحدث بل هي تُحدث بكل تأكيد تغيرات في الثقافة المستهدفة" (1995: 27). فإذا كان هذا الزعم ينطبق تمامًا على الماضي، فلماذا لا ينبغي أن ينطبق بنفس القدر على أنشطة البحث ونتاجاتها في الوقت الحالي؟ إن فشل توري في إضفاء الطابع الذاتي على تاريخ الترجمة يؤدي إلى التغاضي الاختياري عن مكانه في التاريخ.

يكتشفوا طرقًا لتطوير معايير جيدة للترجمات، كان إصراره أشد على أنه يتعين على الباحثين أن يصفوا الترجمات بصورة مستقلة عن أي معايير قياس مسبقة. ويمكن للمرء أن يضيف إلى ذلك اهتمامات توري الخارجة عن الإجماع *semi-heretical* مثل اهتمامه بالترجمات الزائفة *pseudotransltions* وبالمترجمين 'أولاد البلد' *native translators*، فضلاً عن عمله كمترجم للرسائل العبرية وكناقد لترجماتها. غير أن المسألة واضحة تمامًا. إننا هنا أمام باحث لا يريد بكل وضوح أن يتسبب في أي تغير نوعي بل ومهتم باستمرار بالأسئلة المهمة بالمعنى المشار إليه آنفًا. فعلى أي نحو يتعين علينا أن نفهم دعوته إلى الحياد الإمبريقي؟

لعلنا نجد أحد الأجوبة عند السوسيولوجي الفرنسي بيير بورديو *Pierre Bourdieu*. فعندما سئل هل السوسيولوجيا 'علم' بحق، أجاب بأن لها خصوصية 'علم يثير القلق' تقريبًا *science qui dérange*. فلماذا تثير السوسيولوجيا [علم الاجتماع] قلق الناس؟ لأن السوسيولوجيا، كما يقول بورديو:

> **تكشف أشياء خفية وأحيانًا *مسكوتًا عنها*، مثل حقيقة أن النجاح في المدرسة يرتبط ليس بـ "الذكاء" بل بالخلفية الاجتماعية، وبدقة أكبر بالرأسمال الثقافي المورث للفرد من جانب أسرته. وهذه حقائق لا يحب التكنوقراطيون والإبستموقراطيون - أي عدد كبير من أولئك الذي يقرأون ويمولون السوسيولوجيا- أن يسمعوها.***(1980 : 20)*.

هـذا الوصف ينتمي بكـل تأكيد إلى ثمانينيات القرن العشرين في فرنسا. إلا أنه ينطبق بشكل مدهش على اهتمامات بحوث توري التي لابد أنها تثير فعلاً قلق الكثير من أولئك الذين يقرأون ويمولون دراسات الترجمة. وقد ينطبق أيضًا على آركيولوجيا دالفيرني التي نشرت نتائجها أول الأمر ضمن مجلد مشترك كال فيها الآخرون - كلهم تقريبًا - المدائح للمترجمين المميزين بهسبانيتهم. ولا شك أن

التنقيب عن أحد أسئلة الأهمية يعني بكل تأكيد أن الناس سوف يصيبهم القلق. غير أن بورديو ليس مهتمًا بأن يكون أكاديميًا صارمًا. لقد أصر، كما أصر توري، على العلم الوصفي. ومع أن شروط الحقيقة عنده تتجاوز الموضوعية أو الحيادية الباردة، إلا أنه يعلن أحيانًا أن هذا العلم يوصل إلى الحقيقة:

> **إمكانات الوصول إلى الحقيقة تعتمد على عاملين رئيسيين: اهتمام المرء بأن تكون لديه المعرفة الحقة (أو، على العكس، قدرته على إخفائها عن الآخرين وعن الذات)، ومقدرة المرء على الوصول إليها. وكما يطرح باتشيلار *Bachelard*، فإنه لا يمكن أن يكون هناك علم إلا ذلك العلم الخفي. والسوسيولوجيون يتسلحون للكشف عما خفي عندما تتدانى لهم أفضل الأسلحة العلمية... وهم يكونون أكثر "حسمًا" عندما يكون مقصدهم الواعي أو غير الواعي أكثر قدرة على التدمير، وعندما يكونون أكثر اهتمامًا بإظهار ما يتم رقابته أو طمسه في العالم الاجتماعي.** *(1980: 22-23)*

بورديو يرى أن الباحث يهتم بصورة واعية أو غير واعية بتوجيه أسئلة بعينها وبالإجابة عنها بطريقة بعينها. ومن هذا المنطلق، فإن العلم السوسيولوجي، بكل أدواته من استبيانات وإحصائيات ومفاهيم، يصبح سلاحًا يمكن استخدامه لكسب المعركة، بنفس الطريقة التي يضفي بها توري صفات مثالية على العلم الإمبريقي ليستخدمه كوسيلة لدحض معتقدات الآخرين عن الترجمة. ولا داعي لرفض استخدام هذه الأدوات (ولا استخدام الأدوات الأخرى: فالتفكيك، على سبيل المثال، سلاح فعّال يمكن تقريبًا أن يتم تصويبه في أكثر من اتجاه. والأسلحة الفكرية جزء في أي منهج. لكن المقصود هو أن ذاتية الباحث ليست في حاجة لتسويتها بهذه الأسلحة. ومن الخطأ الاعتقاد بأن الشخص الذي يمتهن علم الاجتماع هو سوسيولوجي وليس شيئًا آخر، أو أن باحث الترجمة يؤمن بفضائل الترجمة

دون غيـرها. فالـوسائل (الأدوات، الأسلـحة، الخطوات) لا تعطي نتائج هامة إلا عندما تستخدم للإجابة عن الأسئلة الهامة فحسب. كما أن الذاتية القائمة على أساسٍ من ازدواج الذاتية لابد أن تؤثر في أسلوب طرح هذا أو ذاك السؤال، وهو ما يجعل الاختيار على أساسٍ من الأهمية. إن ذاتية الباحث هي إذن البداية السابقة على الوسائل. وعلى ذلك، وبغض النظر عن مدى الحيادية الذي يحب الخبراء المتلفعون بثياب بيضاء أن يظهروها- وبورديو يسلم بأن السوسيولوجيين لديهم مصلحة شخصية كبرى في الظهور بمظهر المحايدين- فإن قرار اختيار مجالات معينة دون غيرها راجع دائمًا إلى المصالح الفردية أو الجماعية عند الناس الذين يجرون البحث. وفي هذا الصدد، وبالرغم من ادعاءات توري بشأن الحيادية، فإن الباحث لابد أن يكون لديه قدر من الرغبة الجوهرية في إحداث تغير في العالم، حتى إن كان التغير الوحيد هو أن يبدو الآخرون وكأنهم يفكرون مرتين.

فهل حقًا يريد بورديو إحداث تغير في العالم؟ أجل، فهو طبعًا يريد ذلك مادام أنه يقر بأن الباحثين لهم مصالح فردية وجماعية يغامرون بها. ومن جانب آخر، فإن بورديو يعرف أيضًا أن التغيير لا يأتي نتيجة لجهود السوسيولوجيين وحدها. إن مذهب السوسيولوجي الأمثل أداة يعبر من خلالها مجموعات اجتماعية قد تكون مهملة أو مستبعدة من المناظرات العامة عن آرائها. لكن هذا يمكن أيضًا أن ينطبق على تاريخ الترجمة الذي قد يكون معبرًا عن مترجمين منسيين. لكن، مثل هذه الرؤية لا تنطبق للأسف على مذهب توري، ذلك المذهب الذي يتظاهر ليس فقط بعدم التحيز لما يمكن أن يستنتجه الناس بل يعطي أيضًا حيزًا ضيقًا للمترجمين من حيث هم موضوعات للدراسة. ونظرًا لأن هذه المنهجية الوصفية تعجـز أو تعـارض توجيـه الأسئـلة المهمة من منطلقاتها الذاتية، فإنها تعجز أو تعارض بصورة غريبة توجيه أسئلة مهمة عن الذاتية الكامنة وراء النصوص التي يطلق عليها ترجمات.

الدرس المستفاد هو الآتي: قبل أن نتبنى مناهج الآخرين، ينبغي لنا أن نمعن النظر في السؤال الذي نريد الإجابة عنه، وأن نحدد وجه أهميته. ومثل هذه النظرة لابد أن تصبح جزءًا من المنهج ذاته.

المصالح الشخصية

لقد دأب مؤرخو الترجمة على توجيه أسئلة عن الأهمية، وأنا لا أريد بكل تأكيد الإيحاء بأننا يجب أن نطيح بالرغبات الشخصية في إبداء إجابات معينة وإخفاء إجابات أخرى. ولا شك أن درجة ما من الارتباط بالذاتي شيء جميل وهام ما دامت الرغبة تكون قليلة بدونه. غير أن أول نقد لأسئلتنا المثيرة لابد أن يكون نابعًا من الوعي الميّال إلى النقد الذاتي لسؤال لماذا نريد دراسة جزء معين من التاريخ. لكن هذا النقد قد يكون له جانبان، سلبي وإيجابي. على الجانب السلبي، يمكن أن يصبح النقد المتواصل من جانب الفرد لدوافعه وأفكاره نوعًا من الكسل الفكري الذي يؤدي إلى تجميد دراسة التاريخ وليس توجيهه التوجيه السليم. وعلى الجانب الإيجابي، إذا كنت تبحث عن سؤال هام، فإن النقد غالبًا ما يساعدك على أن تسأل لماذا أنت تنظر في هذا الاتجاه دون سواه.

وأنا لو تأتى لي أن أحدد ما كان عندي من دافع ذاتي وأنا أدرس مدرسة طليطلة، لكان في مستطاعي الآن أن أعود بذهني إلى الوراء لأعرف كيف اخترت هذا الموضوع في المقام الأول. لكنني، كما يحدث غالبًا، عثرت على هذا المجال بالصدفة تقريبًا. لقد طلب مني أن أكتب مقالاً في الأنسيكلوبيديا عن تاريخ الترجمة في إسبانيا؛ لم تكن عندى خبرة خاصة بالترجمة في القرون الوسطى؛ وكان يتعين عليّ أن أبدأ من الصفر. وكلما طالعت، بدأ الشك يخامرني أكثر فأكثر في أن معظم الدراسات السابقة التي تم إجراؤها تمجيدًا للقومية الإسبانية تقدم عرضًا وافيًا جدًّا

لدور الجماعات المزدوجة الثقافة مثل اليهود والمترجمين الموزاراب(*)، وكذلك الرحالة الإيطاليين والإنجليز على اختلافهم. وكان ما قالته دالفيرني في هذا الشأن في منتهى الأهمية. ولكن لماذا تعين عليّ أنا، وأنا فرد، أن أوجه اهتمامًا لهذا الأمر؟ على المستوى الذاتي، لم يكن في قدرتي أن أفعل شيئا سوى مجرد الرغبة، ذلك لأنني كنت في ذلك الوقت أعمل كمترجم أجنبي في إسبانيا، وأدرّس بقدر من المعاناة داخل الأطر الحاكمة للمدرسة الإسبانية للترجمة. لكن المشكلات التي واجهتها في الحاضر قد حتمت عليّ أن أغير نظرتي إلى الماضي. فعندما سألت، فيما يتعلق بقشتالة القرن الثاني عشر، 'كيف تسنى لمترجم أجنبي أن يُقبل عضوًا في مدرسة إسبانية للترجمة؟'، صغت سؤالي على ضوء موقفي أنا، لكنني حاولت أن أجيب عنه على ضوء علاقة خيراردس كريمونينسيس ***Girardus Cremonensis*** بكاتدرائية طليطلة. أعددت السؤال؛ وردّ التاريخ بنوع ما من أنواع الإجابة (أعتقد أن جيراردس قد تم قبوله باعتباره شخصًا يمثل خطرًا). هذه حالة متطرفة من الربط الذاتي ربما يتعين التخلص منه على الفور، ويمكن لعلماء النفس أن يغضوا النظر عنها باعتبارها مجرد وهم من أوهام العظمة عند الباحث. ولكن هل يؤدي الاهتمام الشخصي إلى تاريخ زائف بالضرورة؟

في هذه الحالة، لا أظن أن النتائج كلها كانت بذلك السوء. كان السؤال الأولي شخصيًا. ولكن كان يتعين عليّ أن أعبر عنه في شكل فرضيات يمكن اختبارها (كانت الفرضية المركزية هي 'تمت دراسة الترجمة في قشتالة القرن الثاني عشر بواسطة مجموعات مزدوجة الثقافة بالأساس')؛ وكان يتعين عليّ أن أحدد الموضوع من خلال جمع معلومات عن ترجمات المترجمين؛ ثم كان عليّ أن أكتشف دليلاً وافيًا داخل الموضوع لاختبار فرضياتي، مع إعادة صياغتها عند الضرورة؛ وأخيرًا، توصلت إلى النموذج الذي أتمنى أن يكون ذا أهمية تفسيرية على نطاق واسع لجوانب عديدة من هذا الموضوع التاريخي الهام. باختصار،

(*) الموزاراب Mozarbs جماعة من المفكرين والجدليين المسيحيين وجدت فى شبه جزيرة أيبريا بين عامى ١٠٥٠ و١٢٠٠، وقد أقرت هذه الجماعة بعضًا من جوانب الثقافة العربية الإسلامية ومارست عبادة مسيحية معدلة. (المترجم).

جاءت نتيجة البحث شيئًا أكبر من مجرد المصلحة الشخصية التى بدأت منها. ومع أنني طرحت الأسئلة وأنا أفكر بضمير المتكلم، فقد جاءت الإجابات كلها بضمير الغائب. فانطلقت بمشكلاتي إلى الناس بحثًا عن الحلول.

وفي الوقت الذي كنت قد حققت فيه جزءًا كبيرًا من هذا البحث لأحصل على نتيجة تجريبية ***tentative***– ومازال عندي قدر كبير من المصلحة الشخصية للاستمرار في العمل الخاص بالقرن الثاني عشر– كانت دراستي قد أخذت شكل فرضيات الأداء الميداني التي تستهدف طرح أسئلة أكثر بكثير من تلك الأسئلة التي قمت بتحديدها. ما طبيعة ودور المجموعات المزدوجة الثقافة؟ كيف استطاعت هذه المجموعات أن تستحوذ على اهتمام المؤرخين أصحاب النزعة القومية؟ كيف يمكن لهذه المجموعات أن تقيم حوارًا مع ثقافات جلوسية؟

عند المرحلة التي تصبح فيها الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ممكنة، يمكن للباحث أن يأمل في الحصول على نوع من الدعم الاجتماعي. هذا شيء جوهري. فقدر من العون، بغض النظر عما يرمز إليه هذا العون، ضروري بصفة دائمة، ناهيك عما يبديه المتشبثون بمناصبهم الأكاديمية من تباهٍ باستقلالية البحث. إن التاريخ المهم ليس فقط ينبغي أن يهتم به أكثر من فرد واحد بل يجب أن يهتم به أكثر من فرد ليتم تغييره، لكي يعطي عائدًا جيدًا لقاء الزمن والجهد المبذولَين. ولكن من سيقبل مقايضة أفكار عن قشتالة القرن الثاني عشر مقابل أي شيء؟ إن حاجة السوق ليست آلية. ومن المرجح أن عددًا قليلاً من القوميين الأسبان يمكنهم أن يــدعموا بحثًا عن مثل هذه المشكلات (وقد كان هذا مقياسًا للأهمية السلبية). ولا شك أن إسبانيا التي ما زالت تعيد اكتشاف ماضيها متعدد الثقافات معنية بذلك حتى الآن. والأكثر مدعاة للتفاؤل أن مجلة علمية للروائع العالمية، التي يقوم بتحريرها مؤرخو الترجمة المزدوجة ثقافيًا، تبينت مصلحة ما في إصدار طبعة أولى من دراستي. وفي النهاية، فإن المشكلة الأولية أدت بصورة مشجعة إلى نتائج بحثية استخدمت بصورة تدعو إلى التفاؤل مقياسًا للأهمية تتجاوز اهتماماتي الشخصية تمامًا.

البحث ومصالح الزبون

أيًا ما كانت مصالحنا الشخصية، لابد أن تكون الأسئلة التي نطرحها هامة بالنسبة لبعض الناس أو عند مجموعة اجتماعية. فحتى قبل أن نستخدم المناهج التي تؤكد على أننا لا نستطيع أن نفرض مجرد رغبة شخصية على الناس، هناك نوع من التقييد الأولي يتجسد في واقع أن البحث يعتمد على شيء أكثر من وجود باحث يعلن عن نفسه بنفسه.

وسواءٌ أردنا أم لم نرد، فإن شخصًا ما يقوم بدعم بحثنا مباشرة أو بصورة غير مباشرة. وقد يأتي الدعم من جانب جامعة أو حكومة أو منظمة دولية أو مؤسسة محلية أو ناشر أو جماعة بحثية أو أسرة تقرر أن تشاركنا العناء، أو بشكل يدعو إلى التفاؤل من جانب القراء المهيأين أيضًا لأن يعيرونا الوقت والاهتمام. ودعوني أجمع كل هؤلاء معًا وأطلق عليهم لفظ 'زبائن'، وهي لفظة أعني بها أنهم أناس يتعين علينا، عاجلاً أم آجلاً، أن نبيع لهم بحثنا، حتى ولو على سبيل المجاز، بمعنى أن نجعلهم يطعموننا ويؤووننا. فبدون دعم خارجي، سيظل الباحث يغمغم في عزلته. إن الحاجة إلى هذا الدعم الواسع من جانب الزبائن يعني، بطبيعة الحال، أن المشاكل الشخصية لا تمثل أبدًا مبررًا كافيًا لإجراء بحث. فلابد أن يكون ثمة اعتبار ما لمصالح الآخرين. فهم أيضًا لهم نصيب من الأهمية(١).

والعلاقات بين مصالح فردية تمامًا (الأمر الذي يعتبره الباحث هامًا) ومصالح الزبون (ما يعتقد الآخرون أنه هام) مخادعة تمامًا. فهناك أولويات مختلفة

(١) ما يمكن استثناؤه هنا هو نوع الأهمية الذاتية التي ينادي بها الأساتذة المتنفذون: هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أفهم بها استخدام فيرمير Vermeer لضمير المتكلمين في عبارة مثل "وظائف التفسير في نطاق موقف (نا)، في النطاق الذي يكون منطقيًا بالنسبة لي إن كان مثمرًا" (1996:7)؛ أو "التفسير [تفسير المعلومات التاريخية] هو تفسيري *أنا*" (1996:9؛ هناك تشديد على الضمير "نا" و"أنا" في الأصل، وعبارة "تفسير المعلومات التاريخية" من عندي). والنزعة الفردانية لهذه "الأنا" التفسيرية قد تكون مجرد غطرسة إن لم تكن تظهر في ذات الوقت خصائص تاريخ يؤلفه أفراد متنفذون بنفس القدر.

بصورة غير عادية في حاجة إلى نوع من التوصل إلى حل وسط. هذا يمكن شرحه كأفضل ما يكون الشرح بأمثلة من المختبر.

كما ذكرت من قبل، جعلتني سلسلة من الأحداث الصغرى أفكر جديًا في كتابة مقال 'التراث الإسباني' لموسوعة روتلدج لأبحاث الترجمة ***Routledge Encyclopedia of Translation Studies***. لكنني لم أرحب بهذا العمل: فقد كان يتعين عليّ أن أغطي نحو ثمانية قرون من تاريخ الترجمة في ٥,٠٠٠ كلمة. المشكلة الحقيقة كانت، مع ذلك، هي العنوان. فيكف أكتب 'التراث الإسباني' إذا كان يخامرني شك بأنه ليس هناك شيء من هذا القبيل أصلاً؟ لقد عبّر جوليو- سيزار سانتويو ***Julio-César Santoyo*** ذات مرة عن شديد أسفه من أنّ نظريات الترجمة الهسبانية "لا تمثل تراثًا؛ ذلك لأن أجزاء موروثاتها الجينية غير معتمدة على بعضها البعض" (*1987:19*)، وأنا بدوري لم يكن لدي الوضوح الكافي للإيحاء بأن هناك استمرارية فعلية على صعيد ممارسة الترجمة. الأسوأ من ذلك أن الفرضية الكامنة في عنوان زبوني وهي فرضية 'هناك تراث إسباني' لم تكن مطلقًا هي الفرضية التي أردت تتبعها (فقد كنت مهتمًا بالثقافات المزدوجة). ولكن كان مهمًا جدًا، بالنسبة إلى الزبون، أن يكون هذا الجزء التاريخي من الموسوعة مقسمًا إلى بلدان لها تراث في الترجمة، مثل أمم متحدة لبلدان جلوسية. وإلا فكيف يمكن تنظيم العالم؟

عارضت في البداية من خلال طرح عنوان 'الترجمة في شبه جزيرة أيبيريا'. وكنت قد عززت هذا الاقتراح بمقالة تمهيدية شرحت فيها كيف أن إسبانيا، المكونة من لغات وثقافات عديدة، والتي شاركت البرتغال في ماض هام، كان لها، في حدود علمي، موروث قليل الأهمية في الترجمة. كانت مسودة النص نوعًا من الحل الوسط حيث سلمت بشكل عام بفرضية الزبون وبدأت في محاولة إثبات بطلانها. وفي أثناء ذلك، أخذت أيضًا، بطبيعة الحال، أعدل افتراضاتي الأولية، واجدًا أن خمسة قرون من سطوة اللغة القشتالية قد شملت ممارسات في الترجمة

يمّكن اعتبارها راسخة إن كانت تمثل تراثًا مختلفًا. غير أن العنوان ظل قائمًا حتى وإن سلّمت بلفظة 'تراث'. ثم نشأ نوع من الجدل حول انتماء 'إسبانيا' (فالدولة الحديثة لا يمكن بكل تأكيد أن تتطابق مع ماضي قشتالة). لكن هذه الخلافات، المزعجة في البداية، تلاشت تدريجيًا. لقد توصلنا مرة أخرى إلى حل وسط، فاتفقنا على أن يكون العنوان 'إسبانيا، الترجمة في" (لدواعي الترتيب الألفبائي) وتخليت عن محاولة تفسير لماذا يظل أصدقائي من الباسك وكاتالونيا وجاليشيا كارهين لكلمة 'إسبانيا'. وفي النهاية، أصبح زبوني راضيًا، ودُفعت لي مستحقاتي، وهو ما يُعتبر نجاحًا في آخر الأمر. إن المرء عليه أن يتعلم أن يأخذ ويعطي؛ فالمرء يتعلم بالأخذ والعطاء.

ثمة تتمة لهذه القصة. فبينما كنت أكتب، وجدت أنني أضع نفسي موضع الزبون أو وكيل الزبون المسئول عن كتابة فصل شبه جزيرة أيبريا في الموسوعة العالمية لدراسات الترجمة ***De Gruyter Handbuch zur Übersetzungsforschung***. أجل، لقد تخليت عن كلمة 'إسبانيا' هذه المرة وظفرت بكلمة 'أيبيريا'! لكن ذلك لم يكن سهلاً. لقد أثارني أن المقالة التي تصورت في البداية أنها 'الترجمة في إسبانيا' لم يخصص لها سوى جزء ضئيل من الصفحات التي خصصت لترجمة الثقافات الألمانية والإنجليزية والفرنسية، وقد حدث هذا عمومًا على أساس أن المترجمين الإسبان لعبوا دورًا في التاريخ الأوروبي. لكنني، كباحث، كنت مهيأً لإحباط آمال زبائني. لكن هؤلاء الزبائن أغروني بمكر شديد فدعوني إلى إعادة صياغة المقالة في شكل فصل مطوّل، مع إعطاء التعددية الثقافية ما تستحقه من اهتمام، ولم يضعوا شرطًا مسبقًا هذه المرة، مشكورين، بوجود أي تراث قومي أو تراث له شروط لغوية. وحينذاك، كان عليّ أن أجبر مختلف المؤرخين على الإسهام في هذا الفصل. وهذه هي النقطة التي بدأت عندها المشاكل.

وأنا أحاول رسم إطار للفصل، أردت أن أطرح أسئلة حول الأدوار التي لعبتها المجموعات المزدوجة الثقافة في التدفقات المعقدة التي حدثت بين مختلف

اللغات الأيبيرية (التي تشمل تاريخيًا العربية والعبرية واللاتينية). ثم قمت بإعداد هذا الفصل في شكل مقالات متسلسلة تسلسلاً تاريخيًا. وعندما استشرت المؤرخين المتخصصين، وجدت أن قليلين منهم كانت لديهم رغبة شديدة في العمل بهذه الطريقة. فالخبراء البرتغاليون كان لديهم ما يبرر كتابة مقالة مستقلة عن البرتغال؛ والاختصاصيون الكاتالونيون أرادوا نفس الشيء لكاتالونيا؛ وفعل الجاليشيون نفس الشيء بالنسبة إلى جاليشيا (لكن الباسك لم يكونوا يصرون حينذاك على شيء). على حين أنني كنت أحاول أن أستخدم نموذجًا من الثقافات المتداخلة تمامًا، كان الباحثون الحقيقيون يظنون أن الأكثر أهمية هو فرضية انقطاع تطور الثقافات شبه المستقلة القائمة بطول الحدود السياسية الحالية لإسبانيا، مع تحول هذه المناطق إلى وحدات حكم ذاتي ***autonomias*** شبه مستقلة أو إلى أقاليم تتمتع بالحكم الذاتي. ما كان منطقيًا من وجهة نظري لم يكن كذلك بالنسبة إليهم، والعكس بالعكس. إن قدس الأقداس لا يستسلم إلا بعد جهد جهيد! وفي حالتنا هذه، فإن الحل الوسط الضروري قد أصبح كرة في يد المؤرخين المتخصصين، ذلك لأن إحدى مهام موسوعة ***Handbuch*** هي نشر البحث المكتوب فعلاً، وكانت هناك الكثير من الأبحاث التي كتبت حديثًا على أساس الثقافات المنفصلة. كذلك فإن الكثير من المنح البحثية المتاحة حاليًا في إسبانيا لا تمولها الحكومات الإقليمية بلا مبرر. كما أن ثقلي كزبون أقل مما أنا عليه كدارس للثقافات شبه المستقلة التوّاقة إلى إعادة اكتشاف مترجمي ماضيهم. وأعود وأكرر من جديد : عليك أن تأخذ وتعطي.

هذا يعيدني إلى أحد أهم العناصر في إعداد أي مشروع بحثي: فن الحصول على تمويل. وصحيح أن هناك الكثير مما يمكن بل ولابد أن يقال عن المهارات الوضيعة الخاصة بتدبيج مقترحات بحثية ما دامت هذه المهارات تشكل جزءًا لا يتجزأ من عملنا. كما أن حيل المؤسسات التجارية معروفة جدًا. فمن الممكن أن تحصل على الكثير جدًا من المراجع التكنيكية للمشاكل المنهجية، وعلى ببليوجرافيات شاملة وشذرات من المصطلحات الغامضة؛ وباختصار؛ يمكنك

الحصول على أي شيء يجعلك تبدو كخبير يثق فيه الزبون. ولكن يتعين عليك، أولاً وقبل كل شيء، أن يكون في قدرتك دائمًا أن تقول، بأبسط الألفاظ منذ اللحظة الأولى بالذات، ما أهمية عملك بشكل عام وما أهميته بالنسبة إلى من تتوقع أن يدفع لك النقود. إن الزبائن [اقرأ : جهات التعاقد] الغنية يرغبون أحيانًا في توجيه أسئلة بعينها؛ وغالبًا ما يرغبون في تجنب أسئلة أخرى؛ كما أنهم بارعون في تحديد الأهمية. وفي كل هذه الجوانب الأساسية- اختيار وصياغة سؤال الأهمية- لا يوجد حياد موضوعي خالص.

لكن إقرار مصالح الزبون لا يعني أن تبيع روحك. وأنا أؤمن بأن البحث الصادق عن الحقائق الهامة سوف ينجح دائمًا في نهاية المطاف، وتأتي فرصته مهما يكن الأمر. إلا أنه قد تكون هناك، ونحن بانتظار الإنصاف، عديد من المخططات الإستراتيجية وحلول وسط بارعة، علاوة على الأساليب التكتيكية من سلع ثمينة لم تفكر في شرائها يومًا ما. إن الفن الحقيقي يكمن في القدرة على الإجابة عن بعض الأسئلة العويصة حقًّا والجديرة بالدعم الاجتماعي. فهل أحست أي مؤسسة تمويلية- أو أحس وكلاؤها الاجتماعيون- بالانزعاج أو القلق حول قضية من قضايا مدرسة طليطلة؟ وفيما عدا القليل من الأكاديميين، من ذا الذي يعنيه في الواقع مسألة كيف تمت ترجمة فاجنر ونيتشه إلى اللغة الفرنسية في نهاية القرن الماضي؟(*) كما يمكن أن تكون صياغة المشكلة مبررًا لغموض معين نظرًا لطريقتها الدفاعية. أما على الجانب الإيجابي الأمثل، فإن حاجتنا إلى بيع بحثنا سيجبرنا، برغم كل ذلك، على ضمان أن تكون أسئلتنا جديرة حقًّا بالدعم؛ وعلى ذلك، يجب أن نكون قادرين على صياغة الأسئلة التي تجد صدى في نفوس أولئك الذين يقدمون المنح المالية. هذا هو أحد مبررات لماذا يَربط مفهوم الأهمية الأسئلة الصغرى بالأسئلة الكبرى ما دامت الأسئلة الكبرى هي الأسئلة التي يمكن أن يفهمها معظم الناس.

(*) المقصود نهاية القرن التاسع عشر. (المترجم)

المثال الذي أسوقه هنا يتعلق بترجمات الأدب الفرنسي الألماني في تسعينيات القرن التاسع عشر. فكيف أحرزت فيه نجاحًا؟ كان المسار في هذه الحالة أكاديميًّا منتظمًا أكثر منه عملاً عارضًا. ففي أعقاب عملي الخاص بطليطلة، وبعد العديد من غيرها من دراسات الحالة، قمت بصياغة فرضية عامة قلت فيها أن الترجمة لها معايير مزدوجة ثقافيًا. ولكي أختبر هذه الفرضية، أردت أن أشتغل في موقع للترجمة يشمل ثقافتين متمايزتين جدًّا؛ بحثت عن موضوع في مكان لا يوجد فيه مجتمع يتميز بالازدواج الثقافي وتتسم معايير الترجمة فيه بالخصوصية الثقافية. ذلك لأنني أردت أن أختبر فرضيتى بشكل دقيق كلما بدا أنها ضعيفة، فإذا استطعت إقامة الدليل عليها هنا، فإنها ستكون فكرة بالغة الأهمية في مجالات أخرى.

كانت القضية في حد ذاتها قضية أكاديمية بالمعنى الواضح للكلمة، قضيـــة لا تتضمن هوىً شخصيًّا أكثر من اهتمامي الصادق بالازدواجية الثقافية. لكنني كنت بحاجة إلى دعم، لمنحة من مؤسسة همبولدت ***Humboldt*** في ألمانيا (التي أثني عليها، بهذه المناسبة، كل الثناء). ففي زمن غير موات، كيف كان من الممكن أن أجعل مشكلتي الأكاديمية تبدو وكأنها قضية أقيمها نيابة عن الزبون أيضًا؟ كالمتوقع، كان طرحي يرتكز على إبراز أهمية الترجمة في التفاهم بين الثقافات، خصوصًا في سياق عملية التكامل الأوروبي (كان ذلك مواكبًا لإقرار معاهدة ماسترخت) وبوجه خاص في سياق المصالحة ***rapprochement*** أو التقارب ***annäherung*** الفرنسي الألماني. وقد اتضح أن ذلك كان يمثل قضية تشغل بال الألمان؛ ولذلك فقد لقي طرحي قبولاً أكبر من مجرد طرح أكاديمي. وبمعنى من المعاني، كانت قضيتي الشخصية متطابقة مع ما وصفته بتعبير قضية بالنيابة عن الزبون. ولهذا السبب أو لغيره من الأسباب– وقد كانت المقتضيات الأكاديمية البحتة كافية لمؤسسة همبولدت– قرر الألمان دعم بحثي. تلك هي قصة نجاحي.

الشيء الغريب في هذه المرة هو أن مصلحة الزبون المخطط لها (الثقافة الألمانية في سياق التكامل الأوروبي) أصبحت في النهاية أكثر أهمية من قضيتي الشخصية (الازدواج الثقافي). وبعد نحو عام من الدراسة الممولة، أصبحت متيقنًا من أن فرنسا وألمانيا كان في إمكانهما تشكيل نوع من التحالف في ١٨٩٥ – ١٨٩٦ (الشاهد الرئيسي على ذلك هو تقرير ثقافي شهير صدر متزامنًا في صحيفتي ***Mercure de France*** الفرنسية و***Neue Deutsche Rundschau*** الألمانية إبان المفاوضات المكوكية ***touch-and-go*** بين الطرفين). ويمكن أيضًا تصور أن الاتحاد الأوروبي قد بدأ منذ قرن مضي، وذلك باستثناء كوارث الحربين العالميتين! وكانت المسألة الأكثر جوهرية هي التعرف على الأسباب التي حالت دون ذلك التحالف الممكن. ماذا كان يفعل المترجمون الفرنسيون والمترجمون الألمان في ذلك الوقت؟ هل كانوا مع المصالحة أم كانوا ضدها؟ لقد أصبحت هذه القضية أكثر أهمية من أي تأمل مجرد بشأن المترجمين المزدوجين ثقافيًا.

ما حدث هو أن اكتشافي ذا الطبيعة الانتهازية لمصلحة زبون محتمل قد أصبح فعليًا مصلحتي الشخصية. ونظرًا لأنه لم يكن من المألوف مطلقًا تناول مثل هذه المسألة في مقترح دراسي بصورة مستقلة، إلا أنها ظلت تستثيرني لفترة طويلة. كما أن صياغة الفرضية ومتابعتها تأثرتا بالأحداث السياسية التي وقعت في السنوات التي أنجزتُ فيها دراستي، فقد تحول الحماس إلى ماسترخت إلى خيبة أمل كبيرة، وكانت الأصوات القومية متقلبة بشأن الاتحاد الأوروبي، وبدا أن حرب البلقان لانهاية لها (وهو ما حدث أيضًا منذ قرن مضى). وهكذا فقد صارت الفرضية قضية شخصية حتى أنني وددت أن يصبح المترجمون، بكل إنتاجهم الذي ربما يكون معطلاً بسبب حماقة حفنة من السياسيين، قوة تدفع إلى تفاهم متبادل. كانت هذه هي رغبتي. وما لم أكن أرى قتلى وجرحى بوسنيين على شاشة التليفزيون طوال فترة البحث، لما أصبحت ميالاً إلى اعتبار أعوام ١٨٧١ – ١٩١٤ فترة طويلة مـن السلام الأوروبي، تلك الفترة التي ربما تبين صورة السلام أثناء الحرب الباردة التي نشأت خلالها. لقد كانت هناك جثث (ولو على جانب واحد فقط).

ولأنني لم أستطع رؤية أعوام التسعينيات من القرن التاسع عشر إلا كفترة مليئة بالتوتر والمفاوضات، فقد اهتمت فرضياتي بالعلاقة بين الترجمة والحرب وليس بينها وبين السلام.

إن نتائج ذلك البحث معقدة وسوف يتم تناولها جزئيًا في موضع لاحق من هذا الكتاب. ولكن، فليسمح لي القارئ بأن أعترف هنا بأن رغباتي الشخصية قد صارت رغبات مخلصة. لقد وجدت بما لا يدع مجالاً لأي شك أن كثيرًا من المترجمين يعملون في مواقع مزدوجة الثقافة، خصوصًا في الألزاس واللورين. لكن اللاعبين الأساسيين، على الجانب الفرنسي على الأقل، كانوا مصابين، على نحو لافت للنظر، بداء كراهية كل ما هو ألماني ***Germanophobe***. وقد كانوا جزءًا من أولئك الذين يلحقون ضررًا بالغًا بأي مشروع يدعو إلى المصالحة. وكان لايزال في متناولي أن أستمر في بحثي الأكاديمي عن طريق تعديله ما دام الكثير من المترجمين من أصول مزدوجة الثقافة. لكن القضايا الأيديولوجية الأخرى كان مصيرها الفشل. فنظرًا لأنها كانت عرضة للتزييف، فقد جرى تزييفها فعلاً. لقد أجاب التاريخ على أسئلتي بطرق لم أتوقعها ولم أكن أرجوها بكل تأكيد. ولكن حين تكون أسئلتنا مهمة، فإن إخفاقاتنا هي الأخرى قد تكون مهمة.

المصالح الذاتية والتواضع

في الفصل السابق، قلت أنه يتعين على تاريخ الترجمة أن يعطي مساحة أكبر للمترجمين بوصفهم بشرًا. فبمعنى من المعاني، يجب إضفاء الطابع الذاتي على الموضوع (على حد تعبير بورديو). لذلك فإن من الطبيعي أن أقول في هذا الفصل أن من الضروري أيضًا أن تتاح نفس المساحة للباحثين بوصفهم بشرًا. وهذا يعني أننا يجب أن نضفي الطابع الموضوعي على الذات (على النحو الذي طرحه بورديو). لكن هناك ما هو أكثر من مجرد الصيغ الشكلية.

إذا ما اعترفنا باهتمامنا الذاتي بالبحث، فإن أشياء كثيرة ستكون ممكنة. فنحن، أولاً، نستطيع أن نوجه لأنفسنا نقدًا ذاتيًا فيما يتعلق بمصالحنا الشخصية، مصححين بذلك انحيازنا أو جهالتنا عند الضرورة، باحثين أحيانًا عن معايير باطنية للأهمية يمكن أن يكون مرد مبرراتها إلى سؤال لماذا قررنا في مرحلة معينة أن ندرس العلوم الإنسانية. ثانيًا، يمكننا أن نكون أكثر تبصرًا بمصالح الناس وإستراتيجياتهم في نطاق موضوعنا التاريخي، مصالح المترجمين في الزمن الماضي، واضعين أنفسنا في موقفهم (ولا سبيل إلى اكتشاف لماذا نحن لسنا في موقفهم). ثالثًا، وربما كان هذا هو الأكثر جوهرية، أننا نميل إلى إلقاء الأسئلة بشأن ذاتية باحثين آخرين، ليس لتبيان زيف استنتاجاتهم كأفكار مجردة بل لكي نعبر عن إدراكنا لواقع أنه ربما كانت لديهم مبررات واضحة جدًا لشغل مواقع لا يمكننا مشاركتهم فيها. على سبيل المثال، عندما كنت أعمل مع زبائن أو زملاء كاتالونيين، كان يتعين عليّ باستمرار أن أضع في اعتباري أن التأكيد على ثقافتهم القومية، رغم إهمالها طويلاً في الماضي والحاضر، يشكل بالنسبة لهم أهمية كبرى أكثر مما تشكله بالنسبة لي. إن نتائجهم صحيحة تمامًا، ومناهجهم الإمبريقية دقيقة، لكن يبدو أن الأسئلة التي بدأوا بطرحها غير مطابقة لأسئلتي الابتدائية. ويجب على المرء أن يتفهم الاختلاف ويحترمه. هذه هي طبيعة العمل مع الآخرين.

قد يرى البعض أن هذا النوع من الأهمية الذاتية يعزز التعالي من جانب الباحثين. لكن مثل هذا النوع من الاتهام لا يقلقني، ذلك لأنني أظن أن عكس ذلك يمكن أن يكون صحيحًا بنفس القدر. فإذا كنا مستعدين أن نضفي على أبحاثنا الكثير من أنفسنا، فإن أبحاثنا سوف تقترب من أبحاث أولئك الباحثين المتواضعين. فدعنا، إذن، نحاول النظر إلى الناس من خلال أعينهم قبل أن نتفق على عدم الاتفاق. إذا كـــان ذلك ممكنًا، فلن يكـــون هناك حاجة إلى مواقف متعارضة تعارضًا جذريًا، ولا إلى إجابة ساذجة على الأسئلة المهمة بقولنا صح وخطأ. إننا جميعًا بشر نحاول أن ننظر إلى الآخرين من مواقعنا نحن، مع أن المواقع كلها قابلة للتغير من خلال الحوار. وبغض النظر عن تصور التفكيكيين للآخرية التامة ***radical otherness***،

فإنني أؤمن بأن هناك تشابهية *sameness* أصيلة، ولكن غير متماثلة، يمكن الانطلاق منها لفهم كل أنواع الأهمية والتعامل معها. ويمكن تطبيق هذا المبدأ على علاقاتنا مع العصور الأخرى، والثقافات الأخرى، والباحثين الآخرين.

إن مهمتنا الحالية هي أن نكتشف لماذا كان عمل المترجمين ذا أهمية في الماضي.

الفصل الثالث

القوائم

مشكلاتنا تكون أحيانًا أسئلة عن الأهمية. وبعض الأسئلة يمكن حلها بسهولة تامة، بمجرد تأملها أو النظر إلى الأماكن التي أتت منها. لكن هناك أسئلة أخرى تتعلق بنظام القياس الكمي حيث يتعين علينا أن نعرف أكثر عن الواقع الذي أدى إلى ظهورها. وأسئلة كهذه يتعين الإجابة عنها على أساس معرفة أكثر مما نعرفه الآن. وبمجرد أن يكون لدينا سؤال من هذا النوع، يتعين علينا بالضرورة أن نحدد نوعًا من الموضوع ***object*** قد يساعدنا على الإجابة عن السؤال بطريقة أو أخرى. وفي تاريخ الترجمة، يشمل الموضوع عادةً وثائق النص المترجم (سواء أكانت الترجمات في شكل وثائق أم وثائق عن الترجمات). هذا لأن الوثائق هي كل ما لدينا في مكتباتنا، ولأنه غير حقيقي أن كل من أنتج مجموعة من النصوص المترجمة يصبح مترجمًا. والحق أن المترجمين يؤدون كذلك أعمالاً أخرى كثيرة، فهم بشر أيضًا. لكننا، في هذا المجال، لا يسعنا أن نصل إلى تلك الأنشطة الأخرى ولا إلى تلك البشرية إلا من خلال وثائق النصوص المترجمة. فالبشرية ليست شيئًا جاهزًا. بل إن القضية الحقيقية، خلافًا لذلك، هي كيف نختار الترجمات التي سنضمنها في موضوعنا، هذا الموضوع الذي لابد أن يكون عالمًا مجهولاً. فكيف يمكننا أن نحدد هذه الترجمات ونغربلها؟ وما هي المخاطر المتوقعة إن بدأنا من العروض التي تكون في متناول يدنا، أي قوائم الترجمات التي نجدها في كتبنا ومكتباتنا؟

هناك مدخلان أساسيان لتناول هذه القضايا. كل منهما له مزاياه الخاصة؛ ولكنه لا يستبعد الآخر. يشمل المدخل الأول استخدام القوائم ***lists*** لاستخلاص

المواد الفهرسية الكاملة ***corpora*** التي قد تتعرض لسلسلة من العمليات التي تشمل تطبيق التعريفات المناسبة، والفرز والتوزيع على أساس المكان والزمان، وعمليات التحليل التفسيري للنماذج المستخلصة. ويمكن أن يطلق على هذا الأسلوب "المنهج الاختزالي" ***reductive***، وذلك لأنه يبدأ بقائمة ضخمة ويسعى لاختزالها لأصغر حيز يشمل أهم المعلومات؛ وعادةً ما يطلق على الشكل المألوف (وليس الوحيد) لهذا المنهج مصطلح "استدلالي" ***deductive***، وهذا هو المنهج الذي أتبناه في هذا الفصل وفي الفصلين التاليين. وهناك منهج آخر يمكن الإشارة إليه باعتباره "المنهج التدرجي" ***incremental***، وهو منهج يلغي من الناحية النظرية الحاجة إلى القوائم من خلال التدرج من نطاق ضيق إلى نطاق أوسع، وذلك باتباع أسلوب غالبًا ما يكون (ولكن ليس دائمًا) استقرائيًا ***inductive***. وقد يلجأ أي شخص قُضي بتحريم قوائمه ومناهجه الكمية للقفز مباشرةً إلى هذا المدخل الثاني الذي يتم تناوله بنوع من التوسع بدءًا من الفصل السادس. وبالنسبة للبقية منا، فإن القوائم هي التي تمثل الآن الطريق إلى تلويث أيدينا.

أنواع القوائم التي أوليها اهتمامي تشمل بالأساس المعلومات الببليوجرافية الخاصة بالترجمات (ماذا تم ترجمته ومتى)، لكن المبادئ الأساسية يمكن تطبيقها على أي قوائم تجيء ثمرة لجهد المترجمين، وأماكن النشر، ومذاهب الترجمة، ومؤسسات إعداد المترجمين. وسوف أعقد بعد قليل مقارنة بين بطاقات الفهارس ***catalogues*** ومجموعات الفهارس ***corpora*** كنوعين مختلفين من القوائم. أما الآن فإنني سوف أتناول، من خلال الفكرة الأساسية لهذا الفصل، الطابع العام للقوائم من حيث هي أدوات أساسية لأركيولوجيا الترجمة.

مبررات القوائم

يمكن أن يتم تفسير فترة تاريخية قصيرة عن طريق تحليل الترجمات المنفصلة. لكن الأسوأ هو أن ينتج تاريخ سطحي تمامًا من فرضيات يتم طرحها بعد إجراء اختبار موجز على حالة أو حالتين فقط. إليك إحدى هذه الفرضيات: ظهور الآلة الطابعة بالتزامن مع التعالي على المترجمين باعتبارهم كتابًا غير

أصلاء. هذا استنتاج استخلصته سوزان باسنيت ***Susan Bassenett*** التي بدا أنها آمنت تمامًا من كل قلبها ***(1991b:23)*** "***Sono assalutamente convecuda ...***" وقد بدا هذا الاستنتاج هامًا نتيجة لأنه أوحى بالفرضية السببية المثيرة القائلة بأن الآلة الطابعة قد أدت إلى نظرة التعالي، وأن التكنولوجيا أدت إلى الأيديولوجيا، تمامًا كما يقال عن التطبيقات الحديثة لعلم الميكانيكا. فهل هذه فرضية تاريخية صحيحة؟ إنها كذلك بكل تأكيد إن كانت المراجع الوحيدة للترجمة في القرون الوسطى هي المثلان اللذان ذكرتهما باسنيت: شعراء تروبادور غير معروفين، وتشوسر. فإن كان هذان المثلان نموذجين، فإن المترجمين الذين أنجزوا أعمالهم قبل ظهور الآلة الطابعة لا يعتبرون مؤلفين من طبقة أدنى؛ وهذا معناه أن الدونية جاءت فيما بعد؛ وعلى هذا فإن الآلة الطابعة كانت هي العلة ***cause***، وهو المطلوب إثباته. لكن النظرة الأشمل للترجمة في القرون الوسطى ليست لديها في الواقع مشكلة حقيقية في تحديد الحالات التي كان المترجمون يعانون فيها من الإحساس بالدونية المزدوجة في ظل الممارسات الدينية والفلسفية لمدة قرون سابقة على ظهور الآلة الطابعة– انظر: ***Norton 1984: 59-89; Copland 1991: 52-53***. والواقع أن أيديولوجيات القرون الوسطى الخاصة بدونية المترجمين بدأت في الظهور كشكل من أشكال الدفاع الذاتي المهني: فقد كان كتاب المعارف البازغة المخالفون في رؤاهم في حاجة إلى حماية أنفسهم بادعاء أنهم مجرد مترجمين، وهذا تقريبًا ما حدث مع الباحثين في مدرسة طليطلة الذين استعانوا بموارد الكنيسة على نقل العلم العلماني المناهض. ومثل هذه المبررات لا علاقة لها بالآلات الطابعة؛ وبالتالي فقد ظهرت الدونية قبل ظهور التكنولوجيا التي ربما تكون بالعكس قد ظهرت لتكون قاعدة لها. لإدراك ذلك، يتعين علينا أن نضع تحت بصرنا عددًا أكبر من الحالات وليس القليل من الحالات المنفصلة. وبدون أن تتم عملية فحص، لا تكون مثل هذه المخاطرات الجدالية إلا مجرد وسيلة لإثبات الذات.

ويمكن القول أن هناك صيغًا أفضل لنفس هذه العملية تتضمنها مناهج البحث المطبقة في كتاب مثل ***Oxford Guide to Literature in English Translation*** أو مثل ***Fitzroy Dearborn Encyclopedia of Literary Translation***، وهما من الكتب التي يجري تصنيفها كما يُصنِّف ما أكتب. كانت الخطوة الأولى في مشروع

كل من هذين العملين هي إعداد قوائم لأهم المؤلفين الأجانب والأنواع الأدبية، وتلا ذلك تقييم كافة الترجمات الإنجليزية لكل نوع. ولا شك أن مثل هذا الإجراء يناسب الكتب الإرشادية تمامًا. ولكن الإرشادية إلى أي حد؟ من الواضح أنه، في ظل غياب أي قدر من الفهرسة الحقيقية لترجمات الماضي، لا يمكن للكتب الإرشادية أن تدلنا إلا لمعرفة ظنية تمامًا عند المحررين حول من هم أهم المؤلفين الأجانب. وإذا ما ترك المنهج في هذا الموضع، فإنه سيكتشف بكل تأكيد أن وراء ذلك العالم الذي يعرفه من قبل عالم مادي صغير قائم على تدبيج الادعاءات في شكل معرفة تاريخية أو حتى موسوعية. ومع ذلك، فإن قدرًا من الانتقادات سوف تنهال عمليًا وبكل تأكيد على الجانب المزدوج الذاتية من المشروع، وسوف يعترض الخبراء الذين عكفوا على تحرير المقالات على ما جاء في عجالاتهم؛ ولابد أن الحوار سيؤدي إلى عدد لا حصر له من المراجعات فيما يتعلق بالادعاءات الأولية؛ وسوف يبذل فريق عمل قصارى جهده من أجل بناء أساس إمبريقي سليم. وسيظل إطار هذه الانتقادات والمراجعات، مع ذلك، الإطار المنهجي المتحضر للمسلمات غير القابلة للقياس الكمي. لكن مثل هذه البراجماتية، مع أنها إنجليزية تمامًا، ليست بالضرورة أفضل أسلوب ينبغي اتباعه.

وعلى ذلك، فإن أول مبرراتنا لإعداد القوائم يتعلق بمشاكل تحدد الإطار. فكما أن أي نص يكتسب معناه ووظيفته من نوعه وسياقه، كذلك فإن الوثائق المترجمة، خصوصًا تلك الوثائق التي يمكن أن نستبعدها من مسلماتنا، ينبغي من الناحية المنهجية أن توضع في إطار السياق الذي تحدده الوثائق المترجمة الأخرى. يجب أن يتيح هذا للباحث رؤية أوسع، رؤية تتيح إجراء اختبار واستبعاد الفرضيات البحثية الضعيفة. حقًا إن معرفة السياقات لا يتطلب بالضرورة تصنيف قوائم طويلة (فنحن في غير حاجة إلى قاعدة بيانات مفصلة للارتياب في فرضية باسنيت بشأن الآلة الطابعة). لكن القوائم تدفعنا إلى سرعة تمييز السياقات، وتفعل

ذلك بطريقة تمكننا من مراجعة الانطباعات التي يمكن التخلص منها على الفور. ويمكننا أن نوضح هذه النقطة من خلال حادثة صغيرة.

في إحدى المراحل، كنت مفتونًا بعدد الأسماء المستعارة التي استخدمها المترجمون الذين كانوا يعملون بين فرنسا وألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر، وظننت أن استخدام المترجمين لأسماء مهنية يمكن أن يساعدني على تمييز نوع من الازدواج الثقافي. كان هناك قاعدة بيانات من نوع ما يمكن الحصول عليه مباشرة من كشافات المترجمين والمؤلفين التي تشملها ببليوجرافيتي بيل/ إبتنج ***Bihl/ Epting*** وفروم ***Fromm*** (الموضحتان أدناه). وأدى فحص هذه القوائم إلى سلسلة من الفرضيات العجيبة استعانت كل منها بمجموعات مختلفة من البيانات: فبعض المترجمين استخدموا أسماء مستعارة لأنهم اعتبروا ترجماتهم أقل شأنًا من مؤلفاتهم الأكثر إبداعًا، واستخدمها آخرون ليظهروا بمظهر الأجنبي؛ وغالبًا ما كان يخفي من يترجمون إلى اللغة الفرنسية أصولهم الألمانية؛ وكان الذين يترجمون إلى الألمانية يدعون أحيانًا أن لهم أصولاً فرنسية؛ وترجمت نساء بأسماء رجال؛ وترجم رجال بأسماء نساء، وهكذا. لكنني حين أعددت قوائم أشمل نسبيًّا بالأسماء المستعارة للمترجمين والمؤلفين، وصولاً إلى مواد فهرسية قمت بإعدادها خصيصًا للإجابة على أسئلتي، لم أجد اختلافات إحصائية واضحة بين العمودين (عمود المترجمين وعمود المؤلفين). كما أنني لم أجد أيضًا فروقًا دالة بين الفترات الأربع المستخدمة لتغطية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين[1]. وقد تكون هذه

(١) عدم وجود فروق كرونولوجية قد يرجع إلى إخفاق محاولات أخرى في رصد فروق دالة في جانب مجموعة المؤلفين في القرن العشرين. وقد أعد ألتك Altick 1962 قائمة تضم نحو ١١٠٠ كاتب بريطاني، وحلل خلفياتهم الطبقية فقط، واستنتج أن "طبقة المؤلفين اتسمت بالثبات النسبي في تركيبها" (403). وقد كان الأحرى أن يتوقع المرء، خلافًا لذلك، أن مجموعة المؤلفين قد اتسعت وفقًا لتغيرات اجتماعية دالة جدًّا في مجموعة القراء: وقد أوضح لورنسون Laurenson 1969، الذي بحث مجموعة صغيرة قوامها ١٧٠ كاتبًا، أن هناك انخفاضًا حدث في النسبة المئوية لكتّاب الطبقة العليا (314). ولنلاحظ، رغم ذلك، أن كلتا هاتين القائمتين تغفلان الازدواجية الثقافية، وقد حدث ذلك في قائمة ألتك باستبعاد صريح لـ "الكتّاب الذين لم=

الفرضيات مثيرة للاهتمام، ولكن لم يكن من الممكن إثباتها على ضوء أي نوع من الانحراف أو الشذوذ الكمي. وبالتالي فقد عدت إلى مائدة الاستنتاج. إن الوظيفة الأساسية للقوائم هي تكذيب الانطباعات الأولى. ولذا يتعين عليك أن تعرف متى تقبل بأقل الخسائر تمامًا كما يحدث في المقامرة الذكية.

الحصول على المعلومات

المشكلة الأساسية الخاصة بالقوائم هي أنه يتعين عليك أن تكتشف أشياء مناسبة لوضعها فيها. فهذه المسألة تمثل مشكلة في الثقافات التي يكون أساسها الببليوجرافي ضعيفًا. في إحدى هذه الثقافات، أبدى ما لا يقل عن ثلاثة باحثين في البرازيل (*Paes, 1990*، *Milton, 1993*و *Wyler, 1993*) أسفهم من ضآلة المراجع المتاحة حول تاريخ الترجمة في بلدهم. اشتكى كل كاتب، في الواقع، من أن مختلف الباحثين لم يضعوا كل ما هو ضروري في البنية الأساسية. وسوف تفسح هذه الشكايا الفردية المجال، عاجلاً أو آجلاً، لفرق بحثية مستعدة لتصنيف البيانات الناقصة.

وبرغم وجود عدد كبير من الببليوجرافيات المتخصصة في الترجمات، هناك مشكلة أكثر خطورة تخص القوائم، وهي أن هذه القوائم يتحتم عليها أن تعتمد على قوائم سابقة عليها، وخصوصًا الفهارس ***catalogues*** التي قام بتصنيفها الناشرون

=تكن الخلفيات الثقافية لعائلاتهم إنجليزية ولم يكن الجانب الأكبر من تعليمهم إنجليزيًا" (1962:390). وليس بوسعي إلا أن أشك في أنه حدث إهمال عدد كبير من المترجمين بهذه الصورة. وبقدر ما أعلم، لم يجر حتى الآن تصنيف الهويات الاجتماعية للمترجمين. ومن الممكن عمل قائمة من هذا النوع بالاستفادة مما تم إنجازه في مجال التأليف، خصوصًا من معالجات مثل معالجة بونتون Bontan 1973 الذي لم تكن أسئلته معنية بسؤال من أين أتى الكتّاب ولكن بالسؤال عما أصبحوا (على سبيل المثال، الاعتراف الرسمي للكاتب، الجوائز، ... إلخ).

أو المكتبات العامة[١]. وللأسف، يبدو، عند مناقشة العلاقة المنطقية بين هذه الأنواع من القوائم، أن هذه العلاقة ضعيفة، خصوصًا فيما يتعلق بالببليوجرافيات المتخصصة. إن هذه القوائم بعضها أكثر اكتمالاً من بعضها الآخر، ذلك كل ما في الأمر. ولتعويض هذا النقص، أعتزم أن أبين بعض العيوب في هذا الجانب الكمي من تاريخ الترجمة.

الفرق بين الفهارس والمواد الفهرسية

الأعمال الأربعة التي سأتناولها حالاً كلها تسمى نفسها ببليوجرافيات.(*) هذا لا اعتراض عليه. والببليوجرافيات تشمل مراجع المستندات المكتوبة أو المطبوعة، وهي الترجمات في حالتنا هذه. لكن بعض الببليوجرافيات تسمى "فهارس" ***catalogues*** وبعضها معروف جدًّا باسم "المواد الفهرسية" ***corpora***.

ودعنا نعتبر أن فهارس الترجمة هي قوائم الترجمات في نطاق حقل معين هدفه النموذجي هو الحصول على بيانات كافة الترجمات. والوظيفة الرئيسية للفهرس

---

(١) مع أن نقاشي هنا سيركز على المجالات الحداثية، حيث غالبًا ما تكون المشكلة هي كثرة البيانات وليس ندرتها، إلا أن دور القوائم كاختيارات أيديولوجية مسبقة تؤثر أيضًا على ترجمات العصور الوسطى. ومعلوماتنا عن الترجمة في قشتالة القرن الثاني عشر، على سبيل المـثـال، معتمدة بشـدة على قائمة ترجمات جيراردس كريمونينسيس التي أعدها تلاميذه (أو socii) بعد وفاته عام ١١٨٧ (McVaugh 1974). ومن المحتمل أن يكون جيراردس قد نسب إليه، بفضل هذه القائمة، الكثير من الترجمات بصورة تفوق ما قام به أي شخص آخر في القرن الثاني عشر، وحاز بذلك مرتبة عالية، فهو "ربما كان أعظم مترجم في العصر كله" (Van Hoof 1986:10). لكن هناك شكوكا قوية تتعلق بعدد هذه الترجمات التي أعدها بنفسه (Jacquart 1989:110)؛ وبكل تأكيد فإن بعض الترجمات قد نسبت إليه خطأ d'Alverny 1964:34. والواقع أن هذه القائمة تركز بشكل غير منصف على هذا المترجم بالذات بحيث يبقى عمل الآخرين باهتا. ويتعين علينا قبل استخدام هذه القائمة أن ندقق كثيرًا في المبررات التي جعلت تلاميذه his socii يعدونها بعده، وفي هوية أولئك الـ socii.

(*) الببليوجرافيا bibliography قائمة بأسماء وبيانات ومعلومات تتعلق بأي مجال أو موضوع. (المترجم)

هي أن يقترب من أقصى حد للكمال بحيث يمكنه توفير أي معلومة تفصيلية. وعلى جانب آخر، يفضل اعتبار المواد الفهرسية قوائم للترجمات تم إعدادها طبقًا لمعايير محددة جدًّا- قد يكون أحدها أن يتوافر أو لا يتوافر حد الكمال النسبي- غايتها إخضاع فرضية أو مجموعة من الفرضيات للاختبار. ويتعين على درجة الكمال الضرورية لكل مادة فهرسية ***corpus*** أن تعتمد على طبيعة الفرضيات المراد اختبارها (وسوف نناقش هذه النقطة بعد قليل بتفصيل أكبر).

قد يقول قائل أن المادة الفهرسية ***corpus*** فهرس ذو غرض خاص وأن الفهرس ***catalogue*** مادة فهرسية ذات غرض عام. وهذه المقارنة ليست فجة جدًّا. لكن الانتقال من الفهارس إلى المواد الفهرسية يستلزم في الواقع تحديد موضوع الدراسة؛ ويستلزم كذلك الاعتراف بضرورة صياغة التاريخ رغم أن المعلومات الآركيولوجية موجودة. كما أن الفهارس بمفردها لا توفر معرفة تاريخية وافية.

عيوب البيبليوجرافيات: أربعة أمثلة

نظرًا لأن طموح البيبليوجرافيات إلى الكمال يجعلها تتظاهر بالقضاء على الذاتية، لذلك فإن البيبليوجرافيات تعتبر أحيانًا محايدة أيديولوجيًّا. لكن كافة البيبليوجرافيات تتضمن معايير تتعلق بشيء أكبر (أو أقل) كثيرًا من الكمال. وهذا يعني أن القوائم المشابهة للفهارس البحتة غالبًا ما تكون مواد فهرسية غير قصدية؛ لكنها تحمل أجندات خفية تقريبًا. ونظرًا لأن هذه المظاهر غير مدركة في أغلب الأحوال- وهناك جدال غير محسوم بشأن البيبليوجرافيات في ذاتها- ولأن ثمة أشياء كثيرة ينبغي عملها في الحقل البيبليوجرافي- خصوصًا في مجال ترجمات اللغة الإنجليزية- فإن الصفحات التالية تتناول بصورة أكثر تفصيلاً المعايير الأربعة لبيبليوجرافيات الترجمة. فليستمر غير المتخصصين في الاستماع لما أقول. أما للآخرين فأقول إنني أطرح تعليقاتي من منظور يفي بمتطلبات المستخدم العادي وحسب.

• ببليوجرافيا أنسيلم إشلوسر

Anselm Schlösser, Die englische Literatur in Deutschland von 1895 bis 1934. Jena: Verlage der Frommannschen Buchhandlung Walter Biedermann, 1937. 6,493 entries. 535 pp.

يبدأ إشلوسر بدراسة كيفية استقبال 'أدب' إنجليزي (كل ما هو غير أمريكي) في 'ألمانيا' (حيثما يتحدثون الألمانية، وهو تعريف كان له بعض الأهمية في عام١٩٣٧). ونظرًا لأن المعلومات المأخوذة من المجلات والمقالات الأدبية تلقي الضوء على طريقة استقبال كتّاب النقد الأدبي فقط، فإن إشلوسر يختار الاعتماد على فهارس الناشرين التي ظن أنها تبين إجمالي جمهور القراء. إنه يعدُّ، إذن، قائمة تشمل كافة الترجمات المفهرسة، وكافة الأعمال المنشورة بالإنجليزية في ألمانيا والمدرجة في قائمة مستقلة (أي الأدب الإنجليزي غير المترجم من اللغة الإنجليزية). وتم تحليل القوائم على أساس: النصوص المصدرية (أدب حديث/ قديم)، النوع الأدبي، المؤلفون الأكثر نشرًا (المفترض أنهم المقروءون أكثر من غيرهم)، دور النشر، كبار المترجمين. وتم تفريغ التحليلات في شكل جداول ورسوم بيانية وسرد تفسيري. وكان من الممكن لهذه الدراسة أن تعتبر نموذجًا يحتذى لو أننا فقط عرفنا أي سؤال هام يطرحه ليجيب عليه.

يبدو أن الشيء المهم الوحيد في فرضية إشلوسر هو أن فهارس الناشرين تكتسب أهميتها من أنها تبين بطريقة ما إجمالي 'جمهور القراء'، غير أن هذا الاعتقاد لم يتم اختباره أو طرحه كسؤال حتى عندما تبين عدم صحته بصورة واضحة عقب الصراع الذي نشب بين داري نشر ونتج عنه إغراق السوق الألمانية بالكتب المطبوعة باللغة الإنجليزية عام ١٩٣٣. فإذا كان إغراق السوق ممكنًا، فإن فهارس الناشرين لا يمكنها في هذه الحالة أن تبين بشكل مباشر جمهور القراء. فنحن لكي نصل من الفهارس إلى الجمهور بأي درجة من اليقين (مع أننا لا نعرف لماذا يتعين أن نفعل ذلك)، لابد أن ندخل في حساباتنا إستراتيجيات الناشرين باعتبارهم من الأسس الأكثر أهمية في التوصل لحل وسط.

وفي غياب أي سؤال واضح يتعين الإجابة عنه، عرّف إشلوسر القوائم على ضوء الفهارس، وذلك بهدف التغطية الكاملة للمجال. لكن المشكلة هي أن المجال معرّف عن طريق استبعاد المادة المفهرسة في مكان آخر. فقد قام سيجمان ***Sigmann*** بدراسة النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقام فولمر ***Vollmer*** بدراسة الرواية الأمريكية في ألمانيا في الفترة ١٨٧١ – ١٩١٣؛ وقام شوكينج ***Schücking*** بتغطية كيفية استقبال شكسبير. وهكذا يتجنب إشلوسر الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر، ويهمل الأدب الأمريكي، ولم يكلف نفسه حتى بالإشارة إلى شكسبير. قد تكون هذه طريقة مناسبة لإعداد فهرس مفيد (حيث يتعين على المرء أن يفعل شيئًا لم يفعله أحد من قبل). لكنها في الواقع طريقة غريبة جدًا للحصول على مادة فهرسية لدراسة كيفية الاستقبال ما دام أنه لا يوجد شيء يضمن تمامًا أن لا تكون المعلومة الأكثر أهمية هي المعلومة التي تم إهمالها. فهل يمكننا أن نكون على يقين من أن الأدب الأمريكي خضع لعملية استقبال مختلفة في ألمانيا؟ وما فائدة التمييز بين الأدب المعتمد ***canonized*** والأدب الحديث إذا أهمل المرء أهم مؤلف معتمد؟ إننا برغم كل هذه التحليلات، وبرغم أنه فهرس خالٍ تمامًا من عيوب الدراسات التالية عن نفس الفترة، أمام مادة فهرسية قليلة الفائدة.

- **ببليوجرافيا ليزيلوته بيل وكارل إبتنج**

Liselotte Bihl and Karl Epting, Bibliographie französischer Übersetzungen aus dem Deutschen 1487-1944. Bibliographie de traductions frabçaises d'auteurs de langue allemande. 2 vols. Tübingen: Max Niemeyer, 1987. xviii + 1311 pp. 12,289 entries.

في تصديره لهذا العمل، أشار لاندفيرماير ***Landwehrmeyer*** إلى أن ببليوجرافيا بيل/ إبتنج للترجمات من الألمانية إلى الفرنسية هي أهم جزء في

العلاقات التي تحاول هذه الترجمات أن تقيمها. وكان كارل إيتنج قد وضع المخطط الأول لهذه البيليوجرافيا حين كان مديرًا للمعهد الألماني في باريس أثناء الاحتلال النازي. وكانت المصادر البيليوجرافية الفرنسية خاضعة للجانب الألماني، ولكنه كان يمكن تصنيفها من جديد بأيد ألمانية. فكان لابد أن تظهر الفكرة الأصلية باعتبارها فكرة إيتنج بمفرده؛ وتم عمل أول كشاف للبطاقات ***card-index*** تحت إشرافه. لم تكن هذه العملية، في حد ذاتها، منفصلة تمامًا عن مصلحة مباشرة في الترجمات، فقد عكف المعهد الألماني في باريس على نشر ترجمات لأعمال هولدرلين ***Hölderlin*** عام ١٩٤٣ في أعقاب الذكرى المئوية لوفاة الشاعر. وقام إيتنج ليس فقط بالتفكير في فهرس لكنه أضاف إليه عناوين أيضًا. ويبدو أنه كان يعلق أهمية على مكانة الأدب الألماني باللغة الفرنسية.

روجع المخطط الأول الذي وضعه إيتنج فيما بعد في جامعة توبينجن ***Tübingen***، وقام ليزيلوت بيل بالدور الرئيسي لهذا العمل بدءًا من عام ١٩٧٩. وتمت مراجعة البيانات على فهرس المطبوعات ***Catalogue des Imprimés*** بالمكتبة القومية في باريس وعلى المطبوعات ذاتها حينًا آخر، فأضيفت مداخل عديدة وتم تصحيح مداخل أخرى كثيرة.

وقد جاء التصنيف على أساس الفترات والنوع الأدبي مطابقًا لمخطط إيتنج الأصلي. تبدأ الفترات بظهور الآلة الطابعة وتتتابع على أساس السياسية الفرنسية، وسنوات التقسيم هي أعوام ١٧٢٩ و ١٨١٥ و١٨٣٠ و١٨٤٨ و١٨٧٠ و١٩١٨، وبطبيعة الحال عام ١٩٤٥. وبرغم أنني أثنيت في موضع آخر على هذا النمط من التقسيم الفتري ***periodization*** نظرًا لأن التقسيمات تؤثر في كلتا الثقافتين المعنيتين، فإن الاستخدام اللاحق للفهرس أثبط همتي. فالتقسيم الفتري يميل إلى إخفاء آثار التفجرات السياسية، وذلك نظرًا لأن عمليات إعادة البحث تستلزم رصد الترجمات قبل وبعد كل فاصل تاريخي مباشرة. كما أن الفترات تجعل من عملية متابعة تاريخ الترجمة الخاص بكل عمل على حدة أمرًا صعبًا. وهناك مشكلات

مشابهة تتولد داخل أقسام الأنواع الأدبية الستة.(*) لكن لا يتم، بشكل أساسي، استبعاد أي نوع أدبي، الأمر الذي ينتج عنه أميال من أدب الأطفال والروايات الشعبية والكتابات الاستهلاكية التي لا تشملها الفهارس الأخرى، وهي كتابات لها عناوين براقة تجذب القراء. غير أن تقسيمات النوع الأدبي ذاتها تشكل أحيانًا عائقًا. على سبيل المثال، تكوّن 'الآركيولوجيا' مع الأدب (النوع الأول)، على حين أن 'ما قبل التاريخ' يتم تصنيفه مع الجغرافيا (النوع الثاني)، و'الأنثروبولوجيا' مع الرياضيات (النوع الرابع)، و'السوسيولوجيا' مع القانون (النوع الخامس). وأي مادة فهرسية يتعين استخلاصها من هذه الفئات لابد من انتزاعها من بين ركام المواد التي لسنا في حاجة إليها.

برغم ذلك، يمكن التغلب على مثل هذه المشاكل ما دامت نظم معالجة المعلوماتية تمد الببليوجرافيا بكشافات للمؤلفين والمترجمين والناشرين. وبدون هذه الكشافات، يصبح طابور النوع الأدبي وتقسيمه فتريًا غير ذي نفع. وبها، يكون كل شيء ممكنًا. فيمكن أن ننتقي المعلومات التي نكون في حاجة إليها ونصنفها من جديد، ولو بصورة يدوية.

الدرس الواضح الذي يتعين تعلمه هو أن التقسيم على أساس الفترات والنوع الأدبي لا يفيد الفهارس فعليًا. كل ما نحتاج إليه حقيقةً هو أن تتيح الكشافات لمستخدمها معلومات ليعيد معالجتها ويستخلص المواد الفهرسية. وفي الواقع، لا يمكن لفهرس بيل/ إيتنج أن يصبح كتابًا. فهو لا يصلح إلا أن يكون نوعًا من قواعد البيانات يمكن تحريرها عند الطلب. وعلى المرء أن يكون قادرًا على اختيار المجالات على أساس التواريخ الصحيحة والكلمات المفتاحية في العناوين بدلاً من متابعة أقسام فترة بعينها أو نوع أدبي بذاته.

(*) الأدب له مفهومان؛ أحدهما ضيق يحصره المؤلف في نطاق الشعر والمسرح والقصة ونقدها، والثاني واسع يمتد ليشمل الكتابات المختلفة في المجالات المعرفية المختلفة. والمؤلف حين يتكلم عن الأنواع الأدبية الستة ينطلق من هذا المفهوم الواسع للكلمة. (المترجم)

ما يجذب في الببليوجرافيا في هذه الحالة هو كماله النسبي كفهرس مستخلص من الفهارس. لكن لا ينبغي أن تكون ثمة أوهام عن التغطية الكاملة حتى بعد سنوات من العمل. فالمداخل ***entries*** قد لا تتم مطابقتها بشكل منهجي منتظم على كشافات المكتبة القومية الفرنسية *(xvii)*، الأمر الذي يسمح بوجود الكثير من الـ ***terra incognita*** [الأرض المجهولة]. وعند معاينة مادة فاجنر الفهرسية للترجمات الفرنسية (المشار إليها في نهاية الفصل التالي)، لم أجد عناءً حقيقيًا في اكتشاف أن هناك ٢٣ طبعة تم إهمالها في فهارس بيل/ إبتنج. ولذلك، فإن المواد الفهرسية لابد أن يتم إعدادها بحيث تكون قادرة على تخطي حدود حتى أكثر الفهارس إثارة للإعجاب.

• **ببليوجرافيا هانز فروم**

Hans Fromm, Bibliographie deutscher Übersetzungen aus dem Französischen 1700-1948. 6 vols. Baden-Baden: Verlag für Kunst und Wissenschaft, 1950-1953. 27,790 entries.

تم تصنيف ببليوجرافيا فروم في الفترة ١٩٤٦ – ١٩٤٩، وذلك في وقت كانت المكتبات الألمانية تعاني فيه، بطبيعة الحال، من فوضى شديدة. أهم بياناتها مأخوذة ليس من المكتبات ولكن من فهارس الناشرين، تمامًا كما حدث في ببليوجرافيا إشلوسر. ألم يكن الأفضل الانتظار حتى يتم إنشاء المكتبات؟ لكن اللحظة التاريخية كانت تتطلب أن تكون هناك ببليوجرافيا كمجرد عملية لإعادة التنظيم وبناء توجهات جديدة. فجاءت الببليوجرافيا التي أشرف على إعدادها المندوب السامي الفرنسي في ألمانيا كجزء من محاولة أوسع لتسوية نزاع قديم عن طريق المصالحة الثقافية. ومما يثير الدهشة أنه تم نشر ما لا يقل عن سبع

مجموعات من مختارات الشعر الفرنسي باللغة الألمانية بين عامي ١٩٤٦ و١٩٤٨. ومثلها مثل المختارات، اهتمت ببليوجرافيا فروم بتبيان وإبراز مكانة الأدب الفرنسي في الثقافة الألمانية.

يستبعد فروم الموضوعات التي لا يمكن التحقق من عناوينها الفرنسية الأصلية (فاستبعد بذلك ليس فقط الترجمات المزيفة بل استبعد كذلك المطبوعات العرضية العابرة غير الواردة في الفهارس الفرنسية المجهولة الاسم). كما أنه يهمل ذكر كل الكتب الموسيقية والمزودة برسوم، تلك الكتب التي تكون لنصوصها أهمية عرضية أو ثانوية (واضعًا بذلك منطقة رمادية فيما يتعلق بالأوبرا، وهو ما سوف نعود إليه في الفصل التالي).

يلاحظ أيضًا أنه تم تضمين العناوين باعتبارها ترجمات من اللغة الفرنسية، بغض النظر عن جنسية المؤلف (فرنسي، بلجيكي، سويسري، كندي). وهذا يثير مشكلة فيما يخص العديد من الألمان الذين كانوا يكتبون بالفرنسية منذ عهد فريدريك الثاني. فعلى أي جانب كان ينبغي أن يكونوا؟ حل فروم المشكلة بوضع هذه المجموعة في قائمة منفصلة ولكن غير قصيرة (نحو ٥٥٣ كتابًا ألفها بالفرنسية كتّاب ألمان). ومن الواضح أن المعيار العام للجنسية لم يكن مهمًّا، على حين أن معيار الجنسية الألمانية كانت في غاية الأهمية. لقد كانت هذه الببليوجرافيا بلا قيمة على الإطلاق.

• ببليوجرافيا يوزف يورت ومارتين إيبل وأورزولا إرتزجرابر

Joseph Jurt, Martin Ebel, Ursula Erzgräber. Französischsprachige Gegenwartsliteratur 1918-1986/87. Eine bibliographische Bestandsaufnahme der Originaltexte und der deutschen Übersetzungen. Tübingen: Max Niemeyer Verlag, 1989. 908 pp.

دراسة هذه الببليوجرافيا الخاصة بالترجمات الألمانية من الأدب الفرنسي 'المعاصر' تم إجراؤها في الفترة ١٩٨٤ – ١٩٨٧ بجامعة فريبورج **Freiburg** كجزء من مشروع أكبر حول مدى ترحيب الألمان بالأدب الفرنسي. ومن الواضح أن المصنفين، رغم علمهم بالتواريخ، لم يلتفتوا إلى أي مسافة زمنية بينهم وبين موضوعهم. قد يكون هذا غير مثير للدهشة بعد أن رأينا شيئًا مشابهًا في ببليوجرافيات إشلوسر وإبتنج وفروم. فقد كانت هذه القوائم كلها 'في' تاريخ الترجمة. لكن ما يثير الدهشة هو طريقة المصنفين الذين يفترضون في هذه الحالة أن عملهم ينبغي أن يؤثر في الموضوع مباشرةً.

كانت الببليوجرافيات قائمة على أساس 'الإيحاء بأن نقل الأدب الفرنسي المعاصر إلى ألمانيا الغربية ***stark defizitar*** '*(ix)*، وهو ما فهمت أنه يعني 'مقدار ضئيل جدًا لا يمكنه إحداث عجز في الميزانية'. ولا شك أن السياق الاقتصادي لكلمتي 'عجز/ الميزانية' سياق مراوغ جدًا. فالإشارة إلى 'العجز في الميزان التجاري' تعني أن ألمانيا تتلقى بضاعة فرنسية أكثر مما تتلقاه فرنسا من البضاعة الألمانية. كما أن عبارة 'عجز الميزانية' تعني أنه يتعين عليك أن تصدر أكثر. لكن العبارة تعني هنا بوضوح تام أن ألمانيا يجب أن تستورد أكثر نظرًا لأن استيراد الثقافة شيء حسن جدًا (ولكن لمن؟ وإلى أي حد؟).

تواصل الببليوجرافيا تعزيز هذا الرأي باتخاذ مقاييس فظيعة للجودة الأدبية المطلقة، تقول: إن 'ميزانية الاستقبال' هو الشيء الوحيد الذي له معنى واضح فيما يتعلق بـــ 'الأدب الجيد كيفيًا' *(x)*. على هذا النحو، تحاول الببليوجرافيا أن تضع كل ما هو جيد في الأدب الفرنسي المعاصر في القائمة، مشيرة إلى الأعمال التي تمت ترجمتها إلى الألمانية وإلى تلك التي يتعين ترجمتها على الفور. وبطبيعة الحال، كانت ثمرة هذه العملية كميات كبيرة من العناوين التي لم تتم. فهل كان يتعين أن تتم ترجمة كل هذه العناوين لمجرد سد العجز الواضح في الميزانية؟

والمنهج المتبع في اختيار الأعمال الفرنسية الأفضل ليس سليمًا بالمرة. فالمصنفون يحاولون أن يقيسوا نتائج الأعتماد على الأدب الفرنسي قياسًا كميًّا، ثم ينتقدون هذا الاعتماد باعتباره نوعًا من التمركز على كل ما هو فرنسي ***Francocentric (xvii)*** وفي النهاية يضيفون خمسين من أعمالهم المفضلة بمجرد أن يـــدركوا أن ٥٠٨ من المؤلفين المعتمـــدين مـــؤلفون ينتمون إلى فترات سابقة ولا يمكن بحال وصفهم بأنهم معاصرون. والنتيجة مقتطفات أيديولوجية من الكتابات المنهجية والمقالات النقدية، الأمر الذي يمثل إحدى مخاطر الخطابات المختلطة التي أشرنا إليها في الفصل الأول.

والببليوجرافات التي استخدمتها أو تمنيت أن أستخدمها لا حصر لها(١).

إن تصنيف الفهارس نشاط مشروع ومفيد للغاية. وإذا ما تم التعامل معه بوصفه عملاً آركيولوجيًّا، فإنه سيلقى ترحيبًا من جانب أولئك الأشخاص الأقل استعدادًا للتضحية بالذات من أمثالي ممن يتلمسون النتائج الجاهزة التي توفرها مواد فهرسية نوعية. والفهارس، برغم مطامحها التي لم تصل بعد إلى حد الكمال، ضرورية في تكوين المواد الفهرسية. ولكن، إذا ما تسنى للفهارس أن تصبح أكثر فعالية في هذا المجال مستقبلاً، فسوف يكون في استطاعة البعض الاستفادة مما يأتي من القوائم الموجزة التي تلبي أمنيات المستخدم:

---

(١) حتى لا تعطي التعليقات السالفة الذكر انطباعًا بأن الببليوجرافات تصبح أسوأ مع الوقت، لابد من الإشارة إلى بعض الببليوجرافات المتميزة جدًّا عن الترجمات الألمانية من الأدب السويدي والأدب الإيطالي (Quandt 1987-88, Hausman 1992). لكنني لا أريد أيضًا أن أعطي انطباعًا بأن كل الببليوجرافات المهمة من إعداد المانيين. فهناك الفهارس الشهيرة التي أعدها أشخاص من غير الألمان (مع أن مورجان Morgan 1922 ودوميريل Duméril 1934 مازالا معنيين بترجمات الأدب الألماني)، فضلاً عن كشاف النص المترجم Index Translationum، ومشروع لويفن Leuven عن الترجمات الفرنسية من كافة المصادر، والكثير من قوائم المراجعات Checklists والمواد الفهرسية Corpora.

أولاً، لابد أن يعمل الفهرس كقاعدة بيانات وكقاعدة بيانات فقط. ونظرًا لأن المواد الفهرسية يمكن أن تستخلص من مثل هذه القاعدة، لذا فإن التقسيم على أساس الفترات والنوع الأدبي لا ضرورة له، وإذا كان هذا التقسيم مستخدمًا فلابد أن يتم تجاوزه. وهذا يعني أنه يتعين على المرء أن يكون قادرًا على استخلاص المواد الفهرسية المبنية على أساس الاختيار من الأقسام البديلة. وعندما يتيسر التوصل إلى أسماء الكلمات المفتاحية والتواريخ والمؤلفين والمترجمين، فإن بناء المواد الفهرسية سيكون أمرًا يسيرًا إلى حد كبير.

ثانيًا، إذا كان المفترض أن يكون الفهرس فهرسًا فحسب، فإن التغطية ينبغي أن تكون متكاملة بقدر الإمكان، بدون معايير للكيف أو الكم، وفي نطاق أوسع الحدود الممكنة. هذا أمر حيوي في الدراسة ذات الطابع الغنائي، حيث غالبًا ما تكون الترجمات التي يتم نشرها في المجلات والمختارات أكثر تأثيرًا من تلك التي يتـــم نشـــرهـــا فـــي كتب مستقلة. وحين يشمل فهرس على مثل هذه المعلومات ولا يشتمل عليها فهرس آخر (على سبيل المثال، فروم يضمن الفهرس مثل هذه المعلومات، على حين أن بيل/ إيتنج لا يفعل ذلك)، فإن المواد الفهرسية التي تتطلب الفهرسين تعترضها معايير اختيار غير منطقية.

ثالثًا، تجب الإشارة بوضوح إلى احتمال وجود ثغرات، بالإضافة إلى اتباع إجراءات صارمة في تصنيف الفهرس. فحين يحدث ذلك، فإن مستخدمي الفهرس سوف يكونون على الأقل على دراية بالأجزاء التي تكون فيها المواد الفهرسية المستخرجة في حاجة إلى المراجعة في جانب أكثر من جانب آخر.

تلك هي كفاءة الفهارس. فهي مفيدة إلى حد أنها متكاملة إلى حد كبير. لكن هل هناك كمال مطلق؟ وعودةً إلى النقطة الأساسية، على الأقل فيما يتعلق بأناس مثل أصدقائي البرازيليين، كيف يمكننا أن نجري بحثًا تاريخيًا في المواقع التي نعرف أن بياناتنا عنها ليست كاملة ولا حتى بقدر ضئيل؟ وماذا يمكن أن نقول

لباحثين آخرين كثيرين لا يدركون مطلقًا أي احتمال لعدم الكمال فيما يخص دراسة المجالات الأكثر غموضًا؟

الكمال في التاريخ والجيولوجيا

ادعى المصنفون الذين أعدوا الببليوجرافات الآنفة الذكر أنهم يجعلون تاريخ الترجمة نقديًا أو تفسيريًا. وبرغم ذلك، حشدت الجماعات المعنية بالدراسات الوصفية، خصوصًا في كل من لويفن ***Leuven*** وجوتنجن ***Göttingen***، موارد ضخمة لإعداد قوائم قيل أنها منطلقات لشيء يفوق الآركيولوجيا الخالصة. ومن المعتقد أن هذه القوائم لا تزال أفضل الفهارس التي تم التوصل إليها نظرًا لأن الجانب الأعظم من معاييرها الخاصة بعملية الاختيار قد بلغ، فيما أعتقد، غايته في الوصول إلى المسعى الأولي نحو الكمال المستهدف، وليس هناك إلا القليل من الإشارات عن سمات نموذجية صارمة للاختيار. لقد شرع الباحثون في وضع كافة ترجمات لغة معينة ضمن نوعية أدبية معينة لفترة معينة. وكان قد تم تحديد الهدف من مشروع لويفن النموذجي الخاص بالترجمات الفرنسية في بداية القرن التاسع عشر على أنه "دراسة" المجال ***(Lambert, D'hulst and Van Bragt 1985:149)***. وبالمثل، يفترض مشروع جوتنجن الخاص بمختارات الترجمات، الذي رسم إطاره فرانك وإسمان ***Frank and Essmann 1990***، أن التصنيفات الوثيقة الصلة بالموضوع ستنبثق من خلال إنشاء القوائم الآركيولوجية الشاملة. وفي كلتا الحالتين، يبدو أن إنشاء القوائم له أولوية على توجيه أي من الأسئلة الهامة، وبذلك يبدو واضحًا أن هناك حاجة إلى مواد فهرسية محددة المشاكل. وهذا بدوره سيسمح بأن يمتد هدف الكمال إلى شيء يتجاوز النطاق الضيق للفهارس ليشمل معيارًا لإنتاج تاريخ للترجمة التفسيرية ذاتها. لكن القفز الحادث من الكم إلى الكيف، وهي مسألة إخلاص بالدرجة الأولى، موضوع يستحق التعليق عليه.

إن الرغبة في الكمال مرتبطة ارتباطًا شديدًا بهدف البحث الإمبريقي الخالي من الذاتية. لكن الدرس الذي يتعين استخلاصه من تقريرنا الموجز الخاص بالببليوجرافيات هو أن هناك دائمًا أجندة ذاتية يجري الرهان عليها. فحتى إذا كانت القوائم كاملة تمامًا، فإن خطوط حدودها، إن لم يكن هناك شيء آخر، ستظل تجيب على الأسئلة التي قيل أنها هامة، حتى إذا لم يتم طرحها كما هي.

هناك رغبة أشد وضوحًا ترتبط بادعاء ليفن دولست ***Lieven D'hulst*** أن "هدف أي تحليل، سواء أكان جزئيًا أم كان شاملاً، هو اكتشاف القوانين المنظومية" ***(1987:17)***. ونظرًا لأنه يُعتقد أن القوانين المنظومية ***systemic*** موجودة بصورة مستقلة عن الباحث، فإن هدف التحليل يجب أن يكون مستقلاً بنفس القدر، مانعًا أي تأثير ذاتي في تشكيل القوائم. يقول دولست ***D'hulst***: "إن كانت أهداف الباحث هي التي تحدد معاييرها في الاختيار، فإن أي تحليل لأي منظومة سيظل "غير كامل" ***(1987:17)***. لا قدّر الله!

انتظروا قليلاً. ألم يكن هدف الباحث محددًا على أساس أنه فقط "اكتشاف قوانين المنظومة"؟ أولم يستخدم هذا الهدف لتحديد أحد المعايير الضخمة ألا وهو "الكمال" ذاته؟ من الواضح أنه إذا كان للباحث أي هدف آخر- حيث أن قوانين المنظومة ليست مثيرة لكل الناس- فإن من المحتمل أن تكون هناك معايير أخرى صحيحة للاختيار، بما في ذلك تلك المعايير التي تستند إلى مصالح الباحث. إن قبول عدم الكمال هو القبول بمعايشة ذاتية الباحث. كما أنه يعني التخلي عن الذاتية عند عمل القوائم التي يتم تصنيفها حتى بأدق المواصفات، خصوصًا الذاتية المثقفة التي تدعي حقها في كبح ذاتية الآخرين.

لا ينبغي لشيء مما سبق أن يوحي بأن الكفاح من أجل الكمال بلا قيمة. بل ومن الواضح أن هذا الكفاح من أجل الكمال يعتبر من القيم الرئيسية للفهارس. لكن ماذا عن المواد الفهرسية التي تم تخطيطها لبلورة أسئلة واضحة؟ إذا كان أقصى عدم الكمال نوعًا من المجادلة التي أشرنا إليها في مستهل هذا الفصل (حيث تم

اختصار موضوعات القوائم إلى عنصر أو عنصرين)، فإن هناك بكل وضوح درجات من الكمال النسبي الذي يدفعنا لأن نتجاوز بصورة مفيدة توقعاتنا الذاتية المباشرة. أما أنا، فقد وجدت أثناء إغارتي على الأسماء المستعارة للمترجمين أن القوائم المتاحة كاملة لدرجة تغاضيت معها عن القليل من الفرضيات الصغرى، لكن هذه القوائم كانت مع ذلك ناقصة لدرجة تأكد معها أن الفرضيات يمكن اختبارها وطرحها جانبًا بأقل جهد. ولم يكن ثمة داع لأن أبحث بحثًا دقيقًا في قائمة طويلة من الأسماء. ولو صارت فرضياتي شيئًا مهمًا، لأصبح لدي مبرر لتصنيف قائمة أفضل من شأنها تعزيز أو دحض أو تصحيح الفرضيات. وربما كان باستطاعتي أن أقوم بتصنيف قائمة أكبر، وأن أمضي في طريقي حتى أفرغ تمامًا من الأهمية أو الفرضيات القادرة على البقاء أو المفردات الموضوعية المتاحة أو المصلحة الذاتية في المسألة.

إن المشكلة لا تكمن في وجوب أو عدم وجوب أن تكون المادة الفهرسية كاملة بل هي هل تمثل أو لا تمثل أسئلتنا أهمية بالنسبة إلينا لنوظفها بدرجة معينة من الكمال. ومن الوضوح بمكان أنه كلما كان للسؤال أهمية أكبر كلما زاد الجهد الذي ينبغي بذله في تصنيف مادة فهرسية قادرة على إعطاء إجابات على ذلك السؤال.

اعتقادي الخاص بهذه المشكلة، وكذلك الخاص بمناهج القياس الكمي بصفة عامة، مصدره ارتباطي السابق بحقل العمل الجيولوجي. وفي الوقت الحالي، فإنني أخوض غمار وظيفة مشابهة مُنت على استقامتها.

لقد تجولت لسنوات عدة عبر الهضاب وسهول السافانا في كل من أستراليا وجنوب إفريقيا أحول رأس المال متعدد الجنسيات إلى بحث غير فاشل عن الذهب. في كل مرحلة من مراحل التنقيب كان لابد أن تجري الموازنة بين تكاليف تصنيف المعلومات والقيمة المتوقعة للنتائج. فالمرء ليس في حاجة إلا إلى ما يكفي فقط من المعلومات ليقبل أو يرفض الفرضيات ذات الصلة. على سبيل المثال، إذا كنت

راغبًا في أن أتحقق من الوجود العام للذهب في منطقة جبلية واسعة، فإن إحدى أكفأ الطرق الكمية هي الطريقة التقليدية لغسيل عينات التربة في المجاري المائية، لكن المعلومات تكون غير منهجية ***unsystematic*** وغامضة، مع أنها رخيصة وتعطي مؤشرات جيدة عن المكان الذي يمكن أن توجد فيه معلومات إضافية. وفي واقع الأمر، فإن باحثين مثل أمابل جوردين ***Amable Jourdain*** وسوزان باسنيت ***Susan Bassnett*** يبحثون عن الذهب في مجاري مياه تاريخ الترجمة. إن فنهم هو فن نافع لا ينبغي التفريط فيه. وفي الواقع، ما من أطروحة ينبغي الفصل فيها قبل أن تنقي ترابها كلُّ تيارات المياه المتاحة.

المستوى الآخر من الاختبار يمكن أن يكون الفحص الجيوكيميائي. وهذا الفحص يشمل أخذ عينات التربة من نقاط تقاطعات يتم تحديدها بصورة منهجية ***systematic*** على مساحة واسعة وتحليلها لاستخلاص المعادن (لا بحثًا عن الذهب بالذات، لأن تكاليف استخلاصه مانعة). ومع أن عملية الفحص تعطي معلومات أكثر دقة مما يعطيه غسيل عينات التربة، إلا أن هذه الدقة لا تصل مطلقًا إلى حد الكمال. إنها نوع من اختيار العنوان المختصر لكل عاشر ترجمة واستخدام المتغيرات البارانصية(*) المختارة (التنويه بالمترجم، الألفاظ المستخدمة في الترجمة، وغير ذلك) كمؤشرات سطحية لظواهر أكثر عمقًا. وأنا أسلك في كتابي عن القرن التاسع عشر مسلكًا فظًا لتحديد هل ينبغي ترجمة الشعر نظمًا (مقفى أم غير مقفى) أو نثرًا، فقد كانت المعلومات سهلة المنال (ولم يكن من الضروري أن أقرأ القصائد من البداية للنهاية) وكان من الممكن أن تدل على وجود عمليات ثقافية أكثر أهمية (خصوصًا العلاقة بين الترجمة والأسلوب الغنائي للكتابة النثرية في القرن التاسع عشر). وبعض القوائم مفيدة لا لأنها كاملة بل لأنه يمكن تصنيفها بطريقة أسهل نسبيًا. ولاشك أن أربحية التكلفة ***cost-effectiveness*** [أكبر عائد لأقل تكلفة] لابد أن يحسب حسابها.

(*) كلمة البارانصية paratextual صفة لبيانات النصوص paratexts، فهي إذن تدل على ما يخص هذه البيانات. (المترجم)

المصادر باعتبارها تربة مغربلة

لكن لابد من الحذر من مد أوجه الشبه على استقامتها! فلو أن دراسة التاريخ كانت مثل دراسة الجيولوجيا، لكنت مازلت هناك أبحث عن الذهب. إنها ليست كذلك، وأنا لم أعد أبحث عن الذهب. وهناك أسباب لهذا.

أحد الاختلافات بين العلوم الإنسانية والجيولوجيا هو أن المعلومات في العلوم الإنسانية لا تكون ملقاة على الأرض بانتظار مقدمك. فإعداد القوائم يتطلب أن يقـوم أفـراد أو فرق عمل بعمل ضخم. كما أن مثل هذا العمل يكون جماعيًّا أو مشتركًا بصورة تعاقبية؛ فهو يكون متحققًا بأكثر من فرد واحد، حتى عندما نظن أننا بمفردنا داخل المكتبة. ذلك لأن أي قائمة للترجمات لابد أن تكون معتمدة إلى حدٍّ ما على القوائم السابقة، وتكون بذلك معتمدة على معايير شخص آخر. وكنتيجة، لا يمكن أبدًا أن يوجد ضمان للكمال المطلق لأن هناك دائمًا مبررات لعدم الثقة أو لعدم الاتفاق مع نتائج عمل شخص آخر. والأهم أن الاعتماد الضروري على الآخرين يعني أننا لابد أن نكون حذرين فيما يتعلق بعمل كل ما بدا لنا سهلاً. ومع أن القـوائم تنتقي مفردات معينة وتسمح لها أن تنتقل عبر المكان والزمان انتقالاً لا يتاح للمفردات غير المنتقاة، إلا أنها تمثل صيغة خاصة جدًّا من صيغ الوجود الغير المشروع (ولذلك فإن المفردات المدرجة في القوائم ربما تكون موجودة إلى الآن في مكتباتنا) بل موجودة وجودًا معززًا تمامًا (فنحن يمكننا أن نعين أماكن مفردات مسجلة بالقوائم على حين أن هناك مفردات أخرى يتعين علينا تفتيشها تفتيشًا دقيقًا). وخلافًا لأربحية التكلفة، فإن القوائم الأسهل في إنشائها هي غالبًا القوائم الملفقة سلفًا تلفيقًا أيديولوجيًّا.

وقد يصدق هذا الوضع على مشروع لويفن ***Leuven*** الآنف الذكر، ذلك المشروع الذي حاول أن يصححه دولست ***D'hulst*** حين أعد ببليوجرافيا بالترجمات الفرنسية للفترة من ١٨١٠ إلى ١٨٤٠ ***(Bragt 1996)***. وهو مشروع نموذجي جدير بالثناء، خاصةً لأن إجراءات جمع البيانات واضحة جدًّا ***(Bragt 1989)***.

والببليوجرافيا متداولة على سي دي روم *CD-ROM*. فما نوع الكمال الذي يصل إليه؟ كل معلومات الفهرس مأخوذة من فهرس سابق هو الببليوجرافيا الفرنسية. وكان هذا المصدر قد تم إعداده هو الآخر وفقًا لقانون إيداع المطبوعات الفرنسي ***French dépôt légal*** الذي يلزم الناشرين بإيداع نسخ من مطبوعاتهم. إن مصدر هذا الكمال الاستثنائي هو إذن شكل من أشكال سيطرة الدولة المركزية على النشر. فسلطة الدولة ذاتها لا تخول للباحثين حق صياغة موضوعاتهم وأهدافهم على ضوء المنظومات. وعلى ذلك، فإن المكتبة الفرنسية قد تم تأسيسها ليعاني من "نسبة مئوية صغيرة من الثغرات وعدم الدقة والتناقضات" ومن قدر ضئيل من عدم الكمال ضاعفة بصورة لم يكن من الممكن تفاديها الاعتماد على موهبة الباحثين في تحديد هوية العناوين المترجمة ***(Bragt 1989:174)***. والنتيجة هي فهرس يتغيا "الإحياء الكامل" ***(173)*** بل فهرس يرسخ لمبدأ النموذج نظرًا لأن النتيجة موصوفة بأنها "على الأقل نموذج للترجمات المنشورة ككتب" ***(174)***[1]. حقًا، ليس هناك كمال مطلق.

من الواضح أنك حين تعتمد على مصدر سابق واحد فقط تعتمد في ذات الوقت على المعايير المستخدمة في ذلك المصدر. والواقع أن نظام إيداع المطبوعات الفرنسي الذي بدأ في الفترة ١١٨٠ – ١١ يضع قيودًا على ببليوجرافيا لويفن. وكان ذلك النظام بعيدًا عن متناول الباحثين تمامًا. لكن قانون إيداع المطبوعات كان، رغم ذلك، مقياسًا لسيطرة الدولة التي ترسخ حدودًا جيوبوليتيكية لا يمكن تفاديها: فنتيجة لأن الفهرس يستبعد ترجمات اللغة الفرنسية التي نشرتها جهات نشر غير قائمة في فرنسا، فإن هذه اللغة ليس في وسعها أن تزعم أنها تمثل اللغة الفرنسية في هولندا أو سويسرا أو في أيٍّ من المواقع الأخرى المزدوجة ثقـافيًا (وعلينا أن نتذكر أن فهرس فروم يسجل ٥٥٣ عملاً كتبها ألمان في فرنسا

---

(١) "La restauration Complète" ... "au moins représentative des tradictions publiee en volume".

أو قاموا بترجمتها إلى الفرنسية وتم نشر العديد منها في دول جرمانية). وهذا التقييد ليس أمرًا ثانويًّا؛ إنه بكل تأكيد ليس جزءًا يمكن أن يفقد أهميته بالنسبة للباحثين الذين يعدون دراساتهم في بلجيكا. فلابد أن 'منظومة' هذه الترجمات موروثة من الشكل السياسي للدولة الفرنسية الذي ولّد معايير قومية باستبعاد مساحات الثقافات الازدواجية. وقد يكون ثمنًا أيديولوجيًّا عاليًا يتم دفعه كمقابل للكمال النسبي.

على الطرف المقابل، قد يجلب النأي السعيد عن الكمال مغبة دفع ثمن باهظ، خصوصًا في الأوضاع التي لا يمكن أن تتم فيها معادلة التحيز المتوارث من مصادر سابقة. هذا الوضع يتعلق بدراسة مثل دراسة بول سان بيير ***Paul St-Pierre*** التي شملت ٢٧٥٠ عملاً اختيرت عشوائيًا من بين الأعمال المترجمة إلى الفرنسية والإنجليزية (*1993*) حيث يجب على كافة الاستنتاجات المستخلصة على أساس إمبريقي أن تظل مشكوكًا فيها ما لم يقل لنا أحد بوضوح ماذا تعني عبارة 'مختارة عشوائيًا'. ففي الدراسات الإنسانية، حيث قام أناس مفعمون بالحيوية بتطوير كل مصدر من أجل أغراض حيوية، لا يوجد أبدًا شيء من نوع 'اختيار عشوائي' للنصوص. وإذا كان قد تم إجراء عملية إحصائية صريحة، فما هي المعلومات التي اعتمدت عليها هذه العملية؟ وما هي الفهارس التي سيستخدمها الباحث؟ وما هي معايير الاختيار التي تم استخدامها في هذه الفهارس؟ المشكلة ليست كبيرة بحيث تنطبق عبارة 'الاختيار العشوائي' على مسار أدنى تعارضًا (فالمادة الفهرسية المنشأة على عجل في مقدورها دائمًا أن تطرح فرضيات هامة لأبحاث جديدة). المشكلة هي أنه يتعين علينا أن نعرف ما مقدار الاختبارات اللازم عملها، وبأي نوع من المواد الفهرسية المعدلة، قبل أن ترشدنا مثل هذه المعاينات لأي نوع من الذهب. أما في الدراسات الإنسانية، فإن الخطأ الحقيقي هو أن نتصرف كما لو أن المعلومات ملقاة على الأرض، تتلألأ كلها بنفس أهميتها الحالية.

قد يقول قائل إن بقايا التحيز الموروث تتلاشى تدريجيًّا كلما أصبحت المواد الفهرسية كبيرة، وصولاً إلى الحد الذي يكون فيه التميز شيئًا لا قيمة له بين الركام

الهائل من المواد السهلة الاستخدام في وقتنا الراهن. ومع أن هذا القول مازال غير مؤثر على تاريخ الترجمة (والمادة الفهرسية "العشوائية" عند سان بيير أصغر كثيرًا من الببليوجرافيات التي تناولناها)، فإنه بلاشك يجد تعبيره في المادة الفهرسية اللغوية، خصوصًا بشأن تحليل المادة الإنجليزية. المشكلة الوحيدة هي أن المواد الفهرسية الضخمة في حاجة إلى تمويل يكفل المصالح القومية أو مصالح الدولة. وكما تدعو المكتبة الفرنسية إلى أن يضع المرء في حسبانه الحدود السياسية لفرنسا كإطار وثيق الصلة لعملية التحليل، كذلك تضع المادة الفهرسية القومية في بريطانيا (الخاصة بنصوص اللغة الإنجليزية) الحدود القومية التي لا يصح تجاوزها. أما الجماعات المزدوجة الثقافة، والمفتقدة لمثل هذه الوسائل التمويلية غالبًا، فإنها تعاني من وجودها في الأطراف. وإذا ما تعين اقتلاعهم من الثقافات الجلوسية التي تحوي بياناتهم فإن الأمر يتطلب جهدًا جهيدًا.

إن الكمال نسبي ومشروط دائمًا بالمصالح التي تمتد إلى ما هو أبعد من مصالح كل باحث على حدة. ويجب أن تكون مهمتنا أن نتعامل مع المصادر الناقصة غير الكاملة بنفس الطريقة التي يتم بها تحويل الفهارس إلى مواد فهرسية مفيدة. وفي كل مرحلة، لابد أن تكون تكلفة التحويل متناسبة بطبيعة الحال مع أهمية ما نريد أن نصل إليه. وقد يؤدي التشابه المتواصل إلى ما نصبو إليه.

لكن استكشاف الذهب له سلسلة من مناهج البحث الغالية الثمن التي تتجاوز تكاليفها تكلفة عمليات التنظيف والشبكات الجيوكيميائية. وفي وسع المرء أن ينقب ويأخذ عينات من الخنادق ويحتفر المنطقة المستهدفة، لكن عملية التعدين الفعلي هي الوسيلة الحاسمة الوحيدة للحصول على أي نوع من المعلومات الكاملة عن المقدار الحقيقي للذهب الموجود في هذا أو ذاك الموقع. وفي كل مرة، يجب أن تكون تكلفة منهج البحث أقل من قيمة المعلومات التي تم الحصول عليها. وفي التحليل الأخير، لابد أن تكون تكاليف تعدين الذهب أقل من قيمة الذهب ذاته. فإن لم يكن الأمر كذلك فإنه لا داعي مطلقًا لأن نتطلع إلى أي نوع من الكمال.

وكما أن هناك مناطق صغيرة فقط هي التي يتم البحث فيها عن الذهب، كذلك لابد أن يتم تحليل مناطق صغيرة نسبيًا من تاريخ الترجمة كلمة كلمة وفاصلة فاصلة. وفيما عدا ذلك، فإن غاية الفن ومنتهاه هو أن نعرف متى نكون في حاجة إليه.

المؤرخ باعتباره قارئًا للكشافات

أود أن أنهي هذا النص بأن أوضح بصورة موجزة طريقة القراءة في قوائم الترجمات. الواقع أنه، حتى في أساليب البحث الأكثر موضوعية والخالية من الطابع الشخصي، لا يزال هناك شخص متأمل منشغل بالعملية. ولا يدهشنا أن ما تثيره فينا القوائم من ملل لا يمكن تفاديه يعني أن قدرًا كبيرًا من الفكر الذاتي جدًّا للإنسان موجه نحو الأجهزة الموفرة للجهد. فأنت تتصفح الفهارس السابقة ثم، حين تكون هناك دوريات، تتصفح القوائم الأصغر، مثل الكشافات وقائمة المحتويات وما شابه. تصبح قارئًا للكشافات. فإذا كان لديك أي قدر من الخبرة الإنسانية، فإنك سرعان ما ستشعر أنك مذنب لتركك أجزاء كبيرة من النص دون قراءتها. لقد بدأت بحساب عدد النصوص بدلاً من قراءتها. وتركت كلمات قد يكون لها نوع من الحياة في مقبرة الأشياء.

وأنا كلما مضيت في فحص أعداد ***fin de siècle***، محصيًا عدد الصفحات النثرية، وعدد صفحات الشعر، والصفحات المترجمة في كل حالة، لم أجد ما يكفي من الوقت لقراءة الكثير من الكلمات. لكن ذلك يحدث أحيانًا. ففي عدد من مجلة ***Die Insel*** الألمانية الأدبية عام ١٩٠١ ***(2.4:261)***، قرأت قصيدة ***Hälfte de Lebens*** للشاعر هولدرلين ***Hölderlin***؛ أذكر أنني قرأت القصيدة للمرة الأولى منذ خمسة عشر عامًا؛ تساءلت إن كان الوسط الهندسي لحياتي مرتبط بهذا الكشاف؛ ولاحظت أن القصيدة غير مسجلة في قائمة المحتويات المناظرة- فهل هي جاءت متسللة خصيصًا من أجلي عقابًا لقارئ الكشافات؟- ثم بدأت أقلب الصفحات،

أتحسر في صمت على الصفحات التي أحصيت عددها دون أن أقرأها. فهل نحن حقًّا نريد أن نحوّل الدراسات الإنسانية إلى صيغ رياضية في سبيل نتائج يمكن اختبارها بذاتية مزدوجة؟ وكيف أتحمل الذنب الذي أستشعره تجاه كافة القوائم؟

دفاعًا عن القوائم، حتى تلك المعبأة في صناديق مشبوكة مع المواد الفهرسية والإحصائيات، دعنا لا ننسى أن هناك أيضًا تجربة حية تتجاوز قصة النضال والتقدم داخل نطاق مجموعة بشرية بعينها في مكان وزمان محددين؟ إننا حينما نراقب خطوط المنحنيات تتحرك مثل ماء ينساب في مجرى مائي، في هذا الاتجاه حينًا وفي ذلك حينًا آخر، متموجة بين قطبين مثل الشعر والنثر، فإننا يجب حينذاك أن نفتش عن الشيء الذي تستجيب إليه الحركات، وعما يمكن أن تقوله هذه الحركات كمبرر عملي تذرعت به ذات جماعية متغلغلة. إن الأرقام إذا قرئت بلغة إنسانية فإنها، مثل قصيدة هولدرلين، قد تُظهر شيئًا ما إنسانيًّا في التاريخ. كما أنها ستقدم شيئًا ما من الماضي يمكن قراءته بلغة حاضرنا. وبرغم أن هذه الأرقام عديمة الشاعرية تمامًا، فإن قصتها مازالت تروى كتجربة حية. وقد تكون هذه إحدى مهام تاريخ الترجمة.

الفصل الرابع
التعريفات العملية

تعبير "التعريفات العملية" *working definitions* أعني به المعايير الواضحة المستخدمة في اختيار مفردات المادة الفهرسية. وهذا غالبًا ما يعني إقرار ما الذي يمكن أو لا يمكن اعتباره ترجمة أو أحد أعضاء جنس أدبي معين، إنه يعني تطوير وتطبيق بعض المفاهيم الخاصة بالموضوع قيد الدراسة. ومن قبيل الاستطراد، فإن المشكلة العامة للتعريفات العملية تتعلق أيضًا بالعمليات الفنية مثل ترسيم الحدود الكرونولوجية أو الجغرافية أو الثقافية لقائمة ما. وهذه المشاكل الأخيرة سنشير إليها هنا بإيجاز ثم نتناولها بتفصيل أكبر في الفصول التالية. وفي هذا الفصل فإن اهتمامي يتركز على طرق تعريف الترجمات.

ومن الحصافة أن يتم حل المشكلات المتعلقة بالتعريفات قبل التصنيف الفعلي للقوائم؛ فعليك أن تقرر دراسة حقل معين قبل أن تبدأ العمل وتبتكر المادة الفهرسية الخاصة بذلك الحقل. لكن معظم المشاكل الهامة الخاصة بالتعريفات تظهر فجأة عند التطبيق في مجرى العمل الإمبريقي الفعلي. هذا لأن الوظيفة الحقيقية للمشكلة موضع البحث هي أن تبحر بنا بعيدًا عن العالم الذي نعرفه من قبل. كما أنه ليس بوسعنا أن نتنبأ بكل الأوضاع الحدودية التي يتعين علينا أن نحدد لها هذه أو تلك الطريقة، والنوعية الحقيقية للأدوات التي غالبًا ما تبدل شروط أي تعريف ناشيء. ولكننا إذا عرفنا بالضبط أين وكيف يمكن الإجابة على معظم الأسئلة الهامة، فلن يكون هناك مبرر أولاً وقبل كل شيء لتصنيف قوائم. وبرغم كل شيء، فإن التعريفات المستقرة تميل لأن تكون مصاغة على أساس بقية العمل الخاص بالمواد الفهرسية. هذا هو السبب الذي جعلني أهتم بالمشكلات العامة للقوائم (في الفصل السابق) قبل التفكير في كيفية حل المشكلات النوعية للتعريفات العملية.

لماذا يتعين علينا أن نستبعد بعض المعلومات

المشكلة العملية الرئيسية الخاصة بالقوائم لا تتعلق بأنها غير كاملة (فإن كنت تعلم لماذا هي غير كاملة فإن الأمر لا يشكل مشكلة كبرى) لكنها تتعلق بأنها سرعان ما توفر معلومات تفوق قدرة الباحث على الاستفادة منها على أساس أربحية التكلفة. وفي الوقت الذي تبدأ فيه الحفر في منطقة بعينها، فإنه سيكون في إمكانك أن تحصل على ترجمات أكثر مما توقعته، خصوصًا عندما تتخطى المصادر التقليدية الثانوية وتبدأ التنقيب في الببليوجرافيات المتنامة، وفهارس الناشرين، والأبحاث المنفردة، وما شابه. وعادةً ما تعتبر الوفرة الوافرة عييًا بسبب الأعداد غير المريحة من الحالات المتطرفة. فما حجم "المحاكاة" أو "المواءمة" أو "إعادة الكتابة" أو "التغيير" أو غير ذلك مما يمكن أن يكون متضمنًا بوصفه ترجمة؟ وهل هناك فروق حاسمة بين الترجمة في إطار اللغة الواحدة ***intralingual translation*** والترجمة من لغة إلى أخرى ***interlingual translation***؟ وكيف يمكن ترسيم حدود النوع الأدبي بشكل مسبق حين يكون أحد الأشياء التي يصنعها التاريخ هو حدود تغير النوع الأدبي؟ وأين ينبغي أن نضع حدود الفترات؟ وطبقًا لأية معايير؟ وهل ينبغي أن يكون الاختيار على أساس الثقافة المستهدفة ***target culture*** (التي لابد أن يتم تعريفها) أو اللغة المستهدفة (ونادرًا ما تكون الثقافة المستهدفة نفسها) أو على أساس خليط من اللغة المستهدفة مع ثقافات مصدرية منتقاة و/ أو لغات مصدرية ***source languages***؟ كما رأينا في الفصل السابق، غالبًا ما تتم الإجابة عن هذه الأسئلة كيفما اتفق. وفي معظم الأحوال، لا يمكن حل هذه المشاكل إلا حينما تتم صياغة فرضية قوية. فعليك أن تعرف بالضبط ما الذي يتعين فحصه– وتعيد الصياغة كلما لزم الأمر. وعليك أن تعرف ما نوع الذهب الذي تبحث عنه.

دعني أوضح المسألة على ضوء الفروق المطروحة في الفصل السابق. إنك حين تكون محاطًا بالتفاصيل، يكون أمامك بصورة أساسية مخرجان: إما أن تستمر في عمل القائمة على أكمل وجه ممكن (فهرسًا للباحثين في المستقبل) أو أن تختزل

القائمة لحدود معينة بحيث تناسب حل مشكلة بعينها (مادة فهرسية لأغراضك الخاصة). فإما أن تنتج فهرسًا أو تنتج مادة فهرسية. إن كنت تريد فهرسًا، أضف إليها تفاصيل. أما إذا كنت تريد مادة فهرسية، فاستبعد التفاصيل عنها. هذا لو كان البحث الذي بين يديك من النوع البسيط.

والتعريفات العملية تخص المعايير الأساسية التي تكونت على أساسها الفهارس والمواد الفهرسية. ونظرًا لأن عملها يكون أكثر كفاءة عندما تمضي بك هذه التعريفات من فهرس إلى مادة فهرسية، فإنها تعتبر السبل التي يمكن من خلالها التخلص من التفاصيل. ومن الخطأ افتراض أنه يمكن القفز مباشرة من فهرس إلى مادة فهرسية، أو أن تعريفًا عمليًا واحدًا يصلح لكل الوثبات التي نتغياها عمليًّا، الفهارس مستخلصة من فهارس أخرى، تمامًا كما أن المواد الفهرسية الصغيرة مستخلصة من مواد فهرسية ضخمة، وكما أن الفهارس والمواد الفهرسية الكبيرة معتمدة في بنائها على الفهارس أو المواد الفهرسية الصغيرة. ونظرًا لاحتمال وجود العديد من القفزات، هناك مدى للعديد من التعريفات العملية، والتي ليست في حاجة لأن تصبح كلها من نوع واحد.

وسأحاول فيما يلي البرهنة على أن هناك نوعين رئيسيين من التعريفات العملية: التعريفات الجامعة ***inclusive*** والتعريفات المانعة ***exclusive***. ويستخدم النوع الأول من التعريفات في تجميع أكبر قدر ممكن من عناصر أي قائمة (مثلاً، للاحتفاظ بالترجمات الواردة في قائمة الكتب)؛ وعادةً ما يكون هدف ذلك هو بناء مادة فهرسية أولية أوسع من المجال الذي يريد المرء أن يدرسه. أما التعريفات المانعة فهي، بالعكس، تنتقي العناصر ذات الأهمية التي تحتويها المادة الفهرسية الأولى.

قد يكون من اليسير أن نوضح الطريقة التي تسلكها هاتان العمليتان فيما يتعلق بالتقسيم الفتري ***periodization***. فعندما أشرع في دراسة الترجمات الفرنسية والألمانية، فإنني لابد أن أبدأ بما يشار إليه في العادة بفترة ١٨٧١ – ١٩١٤ التي

تحدد الحروب حدودها. لكن مادتي الفهرسية الأولى للترجمات، المستخلصة من الفهارس السابقة (بيل/ إيتنج وفروم)، كانت عن الفترة ١٨٣٠ - ١٩٤٥، متجاوزة بذلك وبصورة عمدية الفترة المحددة بعقود عديدة. وهذه المادة الفهرسية كان قد تم وضعها باستخدام تعريفات جامعة في المقام الأول، وذلك نظرًا لأنني أردت أن ألقي نظرة أولية عامة على الرقعة بقدر ما تتيحه المادة البحثية. وعلى أساس من هذه المادة الفهرسية، استطعت أن أحدد بدقة العديد من ظواهر الأهمية الحادثة في الفترة ١٨٩٢ - ١٩٠٤، تلك الفترة التي أصبحت موضع اهتمامي. وللوصول إلى هذه المادة الفهرسية الأكثر تحددًا، تعين عليّ أن أستبعد الكثير من المادة البحثية باستخدام سلسلة من التعريفات المانعة. واكتشفت أن حدود الترجمات ليست الحروب. وحددت الموضع الذي يستحق أن أنقب فيه.

بفضل هذه العملية، يمكنك أن تبدأ وفي ذهنك موضوع واحد، وعليك أن تتجاوز نطاق هذا الموضوع لتتأكد، ثم عرّف هذا الموضوع من جديد على أساس ما ينتج عن هذه العملية. والتعريفات الجامعة تتلوها تعريفات مانعة. ويمكن اختزال المواد الفهرسية الكبيرة لتصبح في أحجام يسهل التعامل معها، كما يمكن أن تتم عملية الاختزال على أساس ما تبينه المواد الفهرسية ذاتها. هذا يكون واضحًا تمامًا حينما نتحدث عن التقسيم الفتري. أما حينما يتم تطبيق الفكرة على التعريفات المستخدمة في الترجمات (أو الثقافات الخاصة بها)، فإن نفاية المناقشات التي لا طائل تحتها سرعان ما تحيط هذه العملية بغموض شديد.

دفاعًا عن التعريفات

نظرًا لأننا نناقش تاريخ الترجمة، فإنني سأسلط الآن الضوء على الحد الذي غالبًا ما يخص كل مشاريعنا البحثية. عند نقطة معينة، لابد أن نحدد الفارق بين الترجمات واللاترجمات. فلابد أن يتم تشذيب المجموعات الحدودية، حيث يذهب

بعضها إلى المادة الفهرسية للترجمة، وتتكدس بعضها ضمن كومة اللاترجمات، وتبقى بعضها كما هي- لم لا؟- لتشكيل قائمة خاصة بالمجموعات الحدودية. إن أية معايير نبتكرها لحل هذه المشاكل لابد أن تتضمن تعريفًا عمليًا لمسألة ما الذي ينبغي على النص أن يتضمنه ليصبح النص ترجمة ('المنقولية' *translationality* مصطلح مجرد)، ليس كحقيقة صالحة إلى الأبد ولكن كمجموعة من العلامات الفارقة المؤثرة جدًا والتي تعتبر ملائمة لمسألة بمفردها وقابلة لتطبيقها على مادة فهرسية بمفردها، وقابلة للتغير إن أصبحت غير ملائمة. لكن المسألة المحبطة هي أن معسكرات عديدة تعترض على فكرة تعريف الترجمة ذاتها. وهنا نسوق لمحة سريعة للاعتراض:

- أنصار النزعة الوصفية بكل ألوانهم يميلون إلى انتقاد التعريفات المانعة بوصفها لا يمكن إلا أن تكون ظنية من حيث أنها تتضمن بعض الانطباعات التقديرية حول ما ينبغي أن تكون عليه الترجمة، فهناك في الواقع فارق بين الترجمات الجيدة والترجمات الرديئة. ولتجنب رائحة الظنية، يحاول بعض الوصفيين إعفاء الباحث من أي مسئولية تتعلق بهذه المسألة، وذلك بالتظاهر بأنهم يخضعون تعريفاتهم كلها للدراسة.

- بالنسبة لأنصار النسبية بكل أصنافهم، تميل التعريفات لأن تكون إمبريالية *imperialist* من حيث أنها تفرض تصوراتنا عن الترجمة على تصورات الثقافات الأخرى. وعلى هذا الأساس، فإننا لا يمكن أن نعرف تمامًا حدود الترجمات في الثقافات الأخرى لأننا لا يمكن مطلقًا أن نتحرر تمامًا من إسار الأساليب الفكرية الخاصة بثقافتنا.

• وبطريقة مشابهة، يميل التفكيكيون والمتعاطفون معهم إلى النظر لكل التعريفات على أنها تعريفات جوهرانية(*) *essentialist* بصورة غير مقبولة، وللتعريفات المانعة على أنها رجعية تمامًا.

إزاء هذا الهجوم الثلاثي، هل لا نزال قادرين على أن نميز فيما بين الترجمات واللاترجمات؟ نعم بالطبع، بل ولابد. فأيًا ما كان الاعتراض الذي نريد أن نتشبث به، مازلنا مضطرين لأن نستخدم نوعًا من التعريف حتى يمكننا أن نقلل من حجم قوائمنا. إما أن نفعل ذلك أو نقلع عن البحث الكمي جملة وتفصيلاً. ومادمنا نجد بعض المزايا في القوائم، فإن إحدى وظائف التعريفات العملية لابد أن تجنبنا العمل غير المجدي أو المتعذر، وهي بتعبير آخر التعريفات التي تسمح لنا أن نسعى إلى عمل يستحق العناء. لابد أن تكون هذه التعريفات تعريفات عملية بمعنى الكلمة. وأفضل طريقة للرد على كل المتزمتين هي، إذن، أن نلفت الأنظار إلى أنه، عند صياغة وتطبيق الحدود المانعة، حيث يمكننا على الأقل أن نرى أن يدينا تتلوث، يتعين علينا أن نعرف الكثير عن العمل الذي نريد له أن يكون هامًا. صحيح، أننا نستخدم نوعًا من التقييم الأوليّ (اخترناه لمجال أوليّ)، وصحيح أننا نوجه ما يخصنا نحن من الأسئلة الهامة (وليس تلك الأسئلة المطروحة في ثقافات مجهولة)، لكن صحيح أيضًا أن تعريفاتنا هي أشكال من التدخل المثير التي لا تفيد إلا العمل مع أو ضد عمليات التغيير التاريخي (فتعريفاتنا تتحرك من مكان إلى آخر عبر العالم). كل هذا ناتج عن رغبتنا في معالجة الأسئلة الهامة. كما أننا، في عملية تطبيق التعريفات الجامعة المانعة، ومعها أي عدد من القيود اللازمة، يمكننا أن نتخطى على الأقل بعضًا من تقديراتنا التي لا يبررها منطق ومضاتنا الثقافية غير الملموسة. أما إذا كانت التعريفات العملية مصاغة ومطبقة بصرامة تفوق مجرد الفطرة السليمة، فإنها ستدفعنا في الواقع إلى ضبط أفكارنا المسبقة بدلاً من

(*) من essentialism ومعناها الماهوية، وهي نظرية تقول، على خلاف الوجودية existentialism، بأولية الماهية (أو الجوهر) على الوجود. (المترجم)

أن نفرضها مباشرةً على البشر. وبقدر ما نتحرر من أوهام ما نفعله، وبقدر ما تكون التعريفات العملية مطبقة بشكل صارم وأعيدت صياغتها بصورة واضحة، فإنه لن تحدث جريمة كبرى- مع أننا قد ندان دائمًا بإمبريالية البحث عن المعرفة واشتراكية الاعتماد على المكتشفات البشرية.

التعريفات الجامعة

أوجدت محاولات يبدو أنها ذات سمات وصيفة قدرًا كبيرًا من الاضطراب الذي من شأنه عدم تعريف الترجمة. الواقعة ذات السمعة الأسوأ هي ما ذهب إليه جيديون توري من أنه، عند تصنيف القوائم، تؤخذ "الترجمة"، باعتبارها منطوق أي لغة مستهدفة، ذلك المنطوق المطروح أو المنظور إليه باعتباره كذلك [أي باعتباره ترجمة]، أيًا ما كانت خلفياته" (*1985:20*). ويبدو أن هذا نوع من رفع المسئولية عن باحث الزمن الحاضر وإلقائها على عاتق الثقافة المستهدفة في الماضي. يبدو أنه نوع من سماحة النسبويين، طريقة مهذبة لتجنب المسئولية، طريقة تجعل الموضوع(*) المفعول به ***object*** مسئولاً على حين أن الفاعل ***subject*** "يصف" فقط. فهل الأمر كذلك؟

وقد انتقد تعريف توري العملي كثيرون بينهم ايرنست- أوغسط جات ***Ernest-August Gutt*** الذي قال عنه أنه مهتم فقط باستخدامات الكلمة الإنجليزية '***translation***' (*1991:7*)، وبصراحة تامة، فإن هذا صواب، فتوري يصنع كلمة 'ترجمة' بين قوسين، مشيرًا إليها باعتبارها كلمة من اللغة الإنجليزية. وكما أوضح توري حينذاك (*1995:33*)، فقد كان مقصده هو أن الموضوع ***object*** يشمل وظائف معينة لكلمة '***translation***' ويمكن للثقافات الأخرى أن تضمنها ما يحلو لها من

(*) الموضوع والمحمول تعبيران من تعابير المناطقة العرب يدلان على الفاعل/ المسند إليه والمفعول به/ المسند على التوالي، لكن الموضوع جاء في استخدامنا، كما هو واضح، بمعنى المفعول به. (المترجم)

ألفاظ. وبناءً على هذا، فقد أجرى توري تعديلاً على العبارة السابقة في طبعة عام ١٩٩٥ فأحل محل كلمة "الترجمة" عبارة "الترجمات المزعومة" (العلامتان المحددتان للعبارة من عندي!)، دون أن يذكر للأسف من ذا الذي يزعم.[(١)][(*)] إن توري يظن أنه حل المشكلة. لكن هناك العديد من المشكلات الأخرى المرتبطة.

المشهد الرئيسي هو أن توري، بعد أن يصف وظائف "الترجمة المزعومة" مباشرةً، يعطي تعريفًا يمكن فرضه على كافة الثقافات.[(٢)] فالباحثون الوصفيون كان يتعين عليهم أن يصلوا إلى مجتمع أجنبي، مثل لغوي الأدغال عند كواين ***Quine*** (*1960*)، ويطلبوا أن يروا ليس "الترجمات" (بقوسين على الكلمة الإنجليزية) ولكن أي شيء يساعدهم على إدراك ماذا عساها تكون الترجمة (الوظائف الفعلية). وهذا يعني، على ضوء تجربة فكرة كواين، أنهم يحاولون تحديد نوع الأرنب الوظيفي الذي يمكنهم تحديده بما هو عليه قبل أن يسألوا كيف يعين المجتمع الأجنبي نوعه كأرنب. وفي مثال توري، فإن هذا يعني أن ننظر إلى

> ... أي نص لثقافة مستهدفة له ما يبرر أن نفترض جدلاً وجود نص آخر، في ثقافة أو لغة أخرى، يُظن أنه مستمد منه عن طريق عمليات النقل ويرتبط به حاليًا بروابط معينة.(*1995:35*)

هناك تعريف عملي، بل وتعريف جامع على وجه التحديد، مناسب تمامًا لفهرس أكثر مما يناسب مادة فهرسية. ولا شك في أن هذا التعريف يناسب الأغراض البحثية كما يحددها توري؛ فهو له مزاياه. لكن النقطة المتواضعة التي

---

(١) "... الترجمات المزعومة؛ وهي [...] كلها أقوال معبر عنها أو منظور إليها بما هي [أي باعتبارها ترجمات] في الثقافة المستهدفة، بغض النظر عن الخلفيات" (32 :1995).

(*) الأقواس التي داخل العبارة المقتبسة لأنطوني بيم. (المترجم)

(٢) كان هذا واضحًا في كتابة المنشور عام١٩٨٥: "... مناهج الترجمة يجب النظر إليها باعتبارها معترفًا بها عالميًا في المواقع التي تم فيها إجراء عملية الترجمة بالفعل" (23 : 1985).

أريد توضيحها هي أن تعريفات من هذا النوع لابد أن يحددها الباحث وفي الحال. لكن عملية البحث، برغم سماحتها البادية، ليس في وسعها أن تتيح لكل ثقافة أن تعد لنفسها مجموعة مختارة مما يمكن اعتباره ترجمة. لا وجود هنا لنسبوية حقيقية.

الواقع أن هناك مشاكل عويصة تطفو على السطح حين نكون بصدد استخدام التعريفات لنستبعد نصوصًا معينة؛ ويبدو أنه لا بد من استدعاء التعريفات الجامعة من أجل استبعاد قليل من هذه النصوص. فلنحاول إذن اختبار تعريف توري بالأمثلة التالية:

• الترجمات الزائفة ***pseudotranslation*** (النصوص الأصلية ***original texts*** التي يتم تقديمها وتلقيها على أنها ترجمات على غير الواقع): أجل، فإذا ظنت ثقافة مستهدفة في لحظة ما أنها ترجمات، فإن قوائم الترجمات ستكون مشتملة على ترجمات زائفة. وفي هذه الحالة، تكون قوائم (الترجمات المزعومة) مشتملة على نصوص يعتقد من يتلقونها في الثقافة المستهدفة أنها ترجمات.

• الترجمات عديمة الشهرة أو ذات الأصول المزيفة ***pseudo-originals*** (وهي نصوص مترجمة يتم تقديمها وتلقيها على غير الواقع على أنها أصول): أجل مرة أخرى، فإذا كان في وسع الباحث أن يحدد الأصول الأصلية فإن هناك ما يبرر أن نفترض جدليًا مشروعية الأصل المزيف كنص مترجم. مثال: كنت أتلو على ابنتي حكاية كاتالانية من حكايات قبل النوم، وكانت مترجمة ترجمة صحيحة إلى اللغة الإنجليزية، إلى أن وصلت إلى الأسطر التي تقول ***Correu! Correu tant com pugueu! / No em podreu agafar, / perquè sóc l' Home de Massapà!*** (وهي موزونة بالكاتالانية). وبعد أن تعثرت قليلاً، جاءت ترجمتي الإنجليزية على هذا النحو: "اجر، اجر، بأسرع ما يمكنك،/ لن تقدر أن تمسكني/ فأنا كعكة الزنجبيل!"(*) (وجاءت موزونة في الإنجليزية أيضًا). ومع أنه لا شيء في الكتاب

(*) في الأصل: I'm the Gingerbread Man. (المترجم)

الكاتالاني يبين أن النص مترجم، إلا أنني لم أكف عن اعتبار النص الكاتالاني ترجمة لقصة تليت على مسامعي بالإنجليزية وأنا صغير. ولذلك، كان لدي ما يبرر أن أظن أنها مترجمة. ولكن حذار: أنا لم يكن لدي مبرر آمن لافتراض أن القصة لم تكن كاتالانية قبل أن تكون إنجليزية، ولا أنها لم تأت من لغة ثالثة. فلابد أن يكون هناك دائمًا شك فيما يخص تصنيف الأصول الزائفة. وبطبيعة الحال، فإن 'الترجمات المزعومة' في هذه الواقعة هي النصوص التي يزعم الباحث أنها ترجمات، والتي تعمل على توسيع نطاق معايير الثقافة المستهدفة ذات الصلة بواقعة الترجمات الزائفة.

• الترجمات قليلة الشهرة بين التطرفين السالفي الذكر: هناك سلسلة من الوقائع التي تنطلق منها شكوك هامة ويصبح تعريف توري بشأنها مؤشرًا غير كاف. على سبيل المثال، لدي فيما يتعلق بهذه النقطة فهرس لنحو ٣٧١ ترجمة من مطبوعات ***fin de siècle*** لموضوع سالومي ***(Dottin 1983)***. بعض هذه الترجمات لها شهرة واسعة كترجمات، وبعضها ليس لها هذه الشهرة، ولكن يمكن في كل الأحوال تقريبًا تتبع عناصر سردية تعود إلى سوابق أو 'تقاليد' تخص ثقافات أخرى (كانت الراقصة في أواخر القرن التاسع عشر هي سالومي ***Salomé*** أو أمها هيروديا‌س/ هيروديا‌د ***Herodias/ Herodiade***، ومن أهم الكتب المرجعية كتابا وايلد ***Wilde*** وفلوبير ***Flaubert***). كل أنواع التحولات موجودة هنا، بدءًا من التغيرات في النوع الأدبي ووسائط التعبير إلى إعادة الكتابة بصورة جذرية والمحاكاة الساخرة للمأثورات الأدبية. فعند أي نقطة بالضبط تكف هذه التحولات عن أن تكون 'علاقات نقل' وتصبح إبداعات أصلية؟ وبعبارة أخرى، وعلى أساس ما سبق من تعريف، أين النقطة الفارقة بين الترجمات واللاترجمات؟

يمكن استخدام المعايير عند توري للادعاء بأن أي شيء يظل من الناحية العملية ترجمة حتى يثبت العكس، لكن توري لا يقول لنا في الواقع كيف يمكن البرهنة على أن النص ليس ترجمة. إن المرء يمكنه أن يعتبر أن كل الكتب

الخاصة بموضوع سالومي ترجمات لنصوص أصلية في الكتاب المقدس (مرقص ٦ ، ١٧ - ١٩؛ متى ١٤ ،٣-١٢)، خصوصًا إذا سلمنا بأن عمليتي الإضافة والحذف من الإستراتيجيات المشروعة لعملية الترجمة (توري يقر بهذا). لكننا لو ضيقنا على كل شيء، فإننا نكون بذلك قد بدأنا بكل تأكيد في الإعداد لموضوعات مقارنة وليس لتاريخ الترجمة، أليس كذلك؟ وبالأحرى، فإن موادنا الفهرسية سرعان ما تصبح متضخمة لدرجة أنه لا يمكننا في الواقع أن نفعل شيئًا ذا بال. هذا هو أحد المبررات التي تجعلني أقول أننا لابد أن نكون أكثر حزمًا من توري. ولذلك، يجب أن نكون قادرين على أن نستخدم بشكل سليم تعريفات مانعة للترجمة عند إعداد المواد الفهرسية، وسوف أقوم حالاً بعرض واحد منها.

تعريف الترجمات من بيانات النصوص

تعريف توري العملي، الآنف الذكر، من النوع الجامع المعتاد ("الترجمة هي/ تكون x وy وz"). ويتعين علينا الآن أن نحدد نوعًا من التعريف يمكنه أن ينص صراحةً على ما لا ينبغي أن تكونه الترجمة ("الترجمة ليست/ لا تكون x وy وz"). لكن هذا أشد صعوبة وأقل انتشارًا. ومع ذلك، هناك ما هو أكثر من المبررات العملية لمسألة لماذا ينبغي عمل ذلك.

المبرر الأول سبق ذكره من قبل: فبغض النظر عن عدد الباحثين الذين يوسعون تعريفاتهم الخصوصية ثم يبحثون عن الوظائف وليس الكلمات، هناك من يفعل هذا الشيء بشكل دائم تقريبًا. هذا هو درس القوائم: جميع قوائمنا تعتمد عمليًا على قوائم سابقة، ولذلك لابد أن تواجه تعريفاتنا العملية وربما تتسق مع معايير الاختيار السابق. وإذا تأملنا جيدًا، ليس هناك في الواقع أرانب حقيقية تركض حول تاريخ الترجمة. لقد ماتت جميعًا، أصبحت محنطة في شكل وثائق، إلى أن نجعلها تركض نحونا. هذا يعني أنه ليس هناك وظائف يمكننا التوصل إليها إلا من خلال

اللغة أو، بتحديد أكثر، من خلال المصفاة اللغوية للقوائم. ومن هنا، فإنه يتعين على توري، حين يتحقق ليرى إن كانت معاييره الثلاثة وافية عند تطبيقها على أي حالة بعينها، أن يعتمد على الكلمات المستخدمة في إعداد وتلقي الترجمة باعتبارها ترجمة (أو باعتبارها شيئًا آخر). وفي المصادر- القوائم- التي لفتت نظره إلى هذه الحالة[1] وفي وسعنا أن نخترع ما شئنا من التعريفات كما نريد، لكنه ليس في وسعنا أن نفرض معاييرنا مباشرةً على العالم المادي. سنحاول، لكن هناك دائمًا شخصًا ما يصل إلى هناك قبل الجميع.

إحدى الطرق لتبين الحقيقة الفعلية للموضوع ***object*** هي الإبقاء قدر الإمكان علــى مستواه السطحي، ألفاظه، قبــل اختزاله إلى سلسلة من الوظائف التي تلائم أو لا تلائم تعريفاتنا. وفي حالة الترجمات، تكون هذه الشذرات السطحية المفيدة جدًا هي "بيانات النصوص" ***paratexts***، وهو مصطلح استخدم من جانب جينيت ***Genette (1978)*** ليشمل كل المادة النصية التي تجعل النص نصًّا حقيقيًا (غلاف الكتاب، اسم المؤلف، العنوان، كلمة الناشر، قائمة محتويات الكتاب، وما إلى ذلك، غير أن هناك إهمالاً غريبًا من جانب جينيت لاسم المترجم أو السمات الأخرى للترجمة والتي تعتبر بكل تأكيد أجزاء من بيانات النص)[*]. ويجري الاحتفاظ بعناصر بيانات النص- وليس "النص الحقيقي"- ضمن فهارس الناشرين وفهارس المكتبات، وضمن كل أنواع القوائم التي وصلت إلينا هذه العناصر من خلالها في نهاية المطاف. وبكل وضوح، فإن العناصر التي تم الاحتفاظ بها ليست "وظيفة" النص بوصفها ترجمة أو لاترجمة ولكنها الكلمات التي تم تسجيلها بها بهذه الصورة. وبقدر الإمكان، ينبغي إعادة إنتاج الكلمات في قوائمنا. فإذا أشارت بيانات

(١) هذه هي النقطة التي يصبح عندها نقد جات Gutt وثيق الصلة بالموضوع، ويفشل عندها توري في فهم النقد. ومن منظور تفكيكي، يقترف توري الخطيئة الكبرى الخاصة باعتبار أن الكلمات الجلية لدى جميع الناس في هذه الحالة "وظائف".

(*) وبذلك، فإن مفهوم "بيانات النص" أوسع من مفهوم بيانات النشر، فبيانات النص تشمل بيانات النشر ولكنها تشمل أشياء أخرى كما يوضح المؤلف. (المترجم)

النص إلى كلمة 'محاكاة' أو إلى عبارة ***frei nach Zola*** أو ***wortgetreu in deutsche Prosa*** أو إلى أي كلمات أخرى، فإن ذلك هو بالضبط ما ينبغي أن يظهر في موادنا الفهرسية، مستقلة تمامًا عن الوظائف التي يمكن أن ننسبها إلى هذه المصطلحات أو نستمدها منها.

من الممكن أن تساعد المراقبة اللصيقة لبيانات النصوص على اكتشاف الاختلاف الأساسي بين الترجمة واللاترجمة. على حين أن الدراسة المقارنة للمحتويات تؤدي إلى الكشف عن التدرج المستمر للتحولات الممكنة- كما في مثال سالومي- وعن وظيفة بيانات النصوص في السياق الذي تكون فيه فجوة بين مواقع موضوع البحث. وكقاعدة أساسية، إذا كانت بيانات النص تميز بين المترجم والمؤلف، فإن النص المصاحب يعتبر ترجمة. وبدقة أكبر قليلاً، إذا كانت بيانات النص تسمح بوجود مسافات مختلفة ومطردة لكل من المؤلف والمترجم، فإن النص يمكن أن يكون ترجمة (تعريف عملي!). وإلا فلا (تعريف عملي مانع!).

فلنلاحظ بدقة ماذا يحدث هنا: فجوة التعريف في الترجمة هي أنه ليس على مستوى أسمانية[*] ***nominalism*** اللغة الخارجية ('هذه ترجمة لأن الغلاف يقول ذلك')؛ بل وظيفة لمقول نحن نتلقى ('هذه ترجمة لأن الشخص الذي يقول (أنا) غير معرَّف باعتباره منتج القول'[1]). فالألفاظ موجودة، أيًا ما كانت اللغة، لكننا نحن الذين نفسرها بوصفها إشارات لوظائف معينة نلجأ 'نحن' إلى تعريفها باعتبارها أحد مقومات الترجمات. وهذا قريب جدًا من تعريف توري الآنف الذكر، إلا أن تعريف

(*) مذهب فلسفي يرى أن المفاهيم المجردة (الكلية) مجرد أسماء لا وجود حقيقيًا لها في الواقع. (المترجم)

(١) فبالنسبة إلى سلسلة الشروط الأكثر قبولاً للتغير: هناك إشارات إلى نص سابق لغته مختلفة أو قديمة (الترجمة موجودة بوصفها شيئًا ما)؛ وليس هناك علامات دالة على تغير كميّ جذري (فالملخص أو قائمة المحتويات لا تعتبر ترجمات)؛ والترجمة الذاتية self-translation مقروءة على ضوء ذاتيتين متوافقتين. وقد يتطلب الأمر شروطًا لتسربات في المستقبل، ولكن ليس الكثير منها: فالتعريف ليس في حاجة إلا لأن يفي بالغرض المحدد له كأداة بحث.

توري يركز على الفجوة التي تنتج من التحديد الواضح للمعنى؛ فنحن نتعامل مع تعريف نحدد وجهته؛ ولا يهمنا بشكل خاص ما هي المفاهيم التي يمكن أن تستخدمها أي لغة أو ثقافة أخرى عند التحدث عن الترجمات (مع أن مثل هذه الأسئلة لها فوائدها بكل تأكيد). وكل ما نحن في حاجة إلى تصنيفه هو استقبالنا لفجوة التعريف (أو لوظيفة أوسع قليلاً إن أردنا أن يكون جامعًا). ويمكن لبعض الأمثلة أن توضح لنا الطريقة التي يمكن لهذه الفجوة أن تفصل بها الضأن عن المعز.

لنتأمل في مثال ترجمة تارشيتي ***Tarchetti*** الإيطالية لقصة ماري شيللي ***Mary Shelley*** (وهي واردة في كتاب فينوتي ***(Venuti 1995:161-167***): فقد سقط اسم ماري شيللي من بيانات النص، وبقي اسم تارشيتي، وتم تذييل النص بعبارة '***dall' inglese***' (أي 'من الإنجليزية') في إحدى الترجمات وبعبارة ***imitazione dall inglese*** (أي 'مأخوذة من الإنجليزية') في الترجمة الأخرى. وقد يدل هذا إلى قضية الانتحال، موضوع الاهتمام الرئيسي عند فينوتي. ولكن هل هي فعلاً ترجمة؟ فينوتي ليس واثقًا من ذلك. فبيانات النص عنده "لا تعطي إلا أقل إشارة عن العلاقة بين ترجمته الإيطالية وحكاية شيللي" ***(1995:162)***. أما بالنسبة لتعريفنا العملي فإنها ترجمة بكل تأكيد، حيث تشير عبارة '***dall' inglese***' إلى فراغ لم يملأه تارشيتي، فأعطاه دور المترجم. وفي هذا المثال، فإن تعريفنا يميل إلى أن يكون جامعًا أكثر مما توخاه فينوتي، لكن ذلك لا أهمية له في الواقع. إنك أنت الذي تصوغ التعريف، وتستخدمه كآلة، ولعلك ترى ما هي النتيجة التي يؤدي إليها ذلك.

ما أكثر الحالات التي يصعب حلها في نصوص العصور الوسطى، تلك النصوص التي تمثل حقل ألغام بالنسبة لأي تعريف مانع للترجمة. فهل يتعين علينا أن نميز بصورة حاسمة بين المترجمين وغيرهم ممن يُعِدُّون الكتب (المحررون والكتّاب) الذين يشاركون أيضًا في إعداد سلاسل النصوص المحوّلة؟ وماذا نفعل إذا كان المترجم المزعوم مؤلفًا أصليًا أيضًا وناشرًا عديم الرحمة في ذات النص

الواحد؟ الخطر الأكبر هو، بطبيعة الحال، أننا نستخف بالنتيجة تمامًا كما هو مطروح عند جانيت بير *Jeanette Beer* "الذكرى الألفية لنشاط الترجمة برغم ألف عام من اللاترجمة" *(1989:2)*. لكن التعريف المانع لبيانات نصوص الترجمة قد يكون في وسعه أن يخوض غمار العصور الوسطى ويخبرنا عن بعض ممارساتها، بحيث يمكن لتعريفاتنا العملية أن تركز في هذه المرحلة على النواتج، والنصوص، وليس الشخص أو النشاط المنتج (وسوف نتناول خصوصية المترجم في الوقت المناسب).

فيما يتعلق بالنص السابق، يمكن ملاحظة أنواع مدهشة من الفجوات بين السياق المترجم من العصور الوسطى ومختلف بيانات النصوص المكتوبة بضمير المتكلم. فهل هناك أهمية نظرية في أن تصبح بيانات النصوص هذه (والتي غالبًا ما تتم الإشارة فيها إلى "أنا المترجم" أو إلى "عزيزي المؤلف") تعليقات جانبية عن المؤلف مبعثرة خلال النص كله، وليصبح المترجم داخل نوع من أنواع أدلة السارد أو القارئ؟ قد يكون من أمثلة ذلك ترجمة جين دي ميون *Jean de Meun* لرسالة أبيلار هيلواز *Abelard-Heloise (Brook 1991)* أو معالجة الشاعر ويس *Wace* لتاريخ جيوفري مونماوث *Geoffrey Monmouth* في كتابه*Roman de Brut* *(Durling 1989, Alien 1991)*. والمثال الأكثر تطرفًا هو ترجمة إنجليزية تنتمي للقرن الخامس عشر من الفرنسية القديمة حيث يتعين على القارئ أن ينتظر أكثر من ٢٠٠٠ سطر قبل أن يقطع المترجم أوصال القصة ليذكر أن النص، هكذا بمحض الصدفة، ترجمة *(Hosington 1991:234)*. أفليس جميلاً أن نعرف! أن المقاطعة هي بيانات النص بشكل مؤكد، تمامًا مثل كافة التعليقات الجانبية، والتعليقات السردية، وملاحظات الهوامش، وحتى التغير في الألوان وطرائق الكتابة بخط اليد والتي اشتهرت بها بعض مخطوطات العصور الوسطى، مما يشير إلى الفجوات بين صوت (خاوٍ) لعملية الترجمة المقنّعة *covert translating (non) voice* والمعلّق/ المترجم الصريح *overt* باعتباره إطارًا صوتيًا *framing voice*؟

وأن هذه الأمور هي بكل تأكيد أعقد حالات الظواهر الخاصة ببيانات النصوص التي نلاحظها في عصرنا؟ إن الاختلافات بين الصوتين ستكون بكل تأكيد أكثر أهمية لنا نحن الباحثين من تلك الأهمية التي أولوها للقراء والرعاة ***patrons*** في العصور الوسطى (ربما كان قراء ذلك العصر يبحثون عن القصة أو المعلومات؛ لكن اهتمامنا الأكبر يدور حول كيفية وصول القصة أو المعلومات إليهم). لا مبرر لمسألة لماذا ينبغي على التعريف المانع للترجمة أن يعتبر العصور الوسطى منطقة الأعراف ***purgatory*** الخاصة باللاترجمة.(*) وفي الواقع، فإن التعريف المانع يمكن أن يوضح تمامًا ما أهمية خصائص العصور الوسطى لعموم دراسات الترجمة.

هناك سؤال هام لا يزال قائمًا. هل من الممكن أن تحدد فجوتنا هوية الأعمال غير المترجمة بشكل ثابت؟ أجل، فنحن لو أجرينا العملية عميانيًا، فسوف يتم تصنيف أي عمل أصلي أو "مدعي أصلية" باعتباره عملاً غير مترجم، حتى حين توضح البيانات الأركيولوجية أنه منتج عن طريق عمليات ترجمة. لكن الأمر الغريب اللافت للنظر في الجزءين الأخيرين من ***the Bläter für die kunst; 1914, 1919***، أنه تم الحصول على الشكل الأنقى للتعبير الجماعي من بيانات النصوص بدون أسماء، لا أسماء مؤلفين ولا أسماء مترجمين. وبنفس هذه القيم الصفرية، طمست بيانات النصوص كافة المؤشرات الاحتمالية للوضع القانوني للنص المترجم. فوفقًا لمعايير بيانات النصوص، لا توجد ترجمات في هذين الجزءين[1].

(*) الأعراف أو المطهر في العقائد الدينية، موضع انتظار للآثمين يفصل بين الجنة والنار، والله أعلم. (المترجم)

(١) عندما قمت بإعداد المواد الفهرسية الخاصة بالقرن التاسع عشر، تبين أن هذا المعيار كافٍ جدًا لفهرسة النصوص الغنائية نظرًا لأن قوانين حقوق النشر، التي تم تطويرها في منتصف القرن التاسع عشر، قد جعلت اتفاقيات التأليف الأدبي أقوى نسبيًا. وقد أعطت القيود التي تم فرضها على النصوص الغنائية دفعة قوية لاتفاقيات التأليف نظرًا لأن النوع الأدبي كان قائمًا بالأساس على التعبير عن الذاتية حتى ذلك الوقت. وهذا يدل على أنه لم يكن هناك في الواقع نصوص ضعيفة التأليف في النطاق الخاضع للدراسة (لا شيء مما لا يوقع عليه مثل الدليل السياحي أو الكتب الخاصة بوصفات طهي الطعام). فبقدر ما تكون حقوق التأليف فعالة يكون الوضع القانوني للترجمات متسمًا بفعالية مساوية.

هذا الاستنتاج غير مرضٍ بطبيعة الحال. فالمعرفة المتكونة لدى الباحث لابد أن تلعب دورًا إن عاجلاً أو آجلاً؛ ومن الممكن أن يتم تطبيق أنواع أخرى من التعريفات. فإن كان لدينا مبررات آركيولوجية صارمة للاعتقاد بأن *A* ترجمة لـ *B*، حتى في غياب بيانات نص تعطي هذا الانطباع، فإننا سنبتكر حينذاك بياناتنا النصية، مصنفين *A* بوصفه ترجمة إذا لاءم وحين يلائم ذلك أغراض بحثنا. ولعلنا نتذكر أن الفجوة الأساسية لابد أن يتم تفسيرها بواسطتنا نحن. غير أن هذا لا يعني أننا يمكن أن نترك مسألة بيانات النصوص برمتها. إن الحالات التي كان يتعين علينا أن نزود فيها بيانات النص ليست هي نفس حالات النصوص المترجمة التي تكون فيها الفجوة مدرجة بوضوح. فالأصل الكاذب ***pseudo-original*** هو ترجمة بالنسبة إلى المحلل الذي يسميه الأصل الكاذب (آسف لهذا!)، ولكنه أصل كاذب. فإذا تغاضينا عن بيانات النصوص، فإننا نتغاضى عن هذا الاختلاف.

المواد الفهرسية للحالات المتطرفة

التعريفات العملية يجب أن تكون، مثل الحب، غامضة بقدر الإمكان، ودامجة قدرًا من الابتداعية أو اللاعقلانية المحسوبة داخل شكلها المعبر عنه بألفاظ منتقاة. وكلما كان التعريف مانعًا كلما استطاع أن يدفعنا إلى عمل تصنيفات تخالف العرف. ومن الممكن أن تعطينا فجوة بيانات النصوص، على سبيل المثال، لاترجمات بارعة ناتجة عن عمليات ترجمة لا غير، وترجمات بارعة ليست كذلك. فأي منهج يقر مثل هذا الجنون؟

من المحتمل، بطبيعة الحال، أن يكون هذا المنهج غامضًا مثل تعريفاتك تمامًا. ويمكنني أن أقول أن موضوعي يشتمل فقط على الترجمات التي يتم تقديمها واستقبالها بوصفها ترجمات، وأن البقية لا تهمني، وأنني سأستخدم معيار فجوات بيانات النصوص مهما كلفني ذلك، لكن الأفضل لك أن تفكر فيما فعله موضوعك

لتعريفك (والعكس بالعكس). إنه يمكنك أن تفعل هذا بتجميع كل الأجزاء المتقطعة، وكل الحالات المستعصية الحل أو الغريبة، وإعداد مادة فهرسية مختصرة وذات قدرة إرشادية عالية.

لقد أقر توري من غير ريب بأهمية الحالات الشاذة في تحليله للترجمات الكاذبة التي أوضح أنها أدوات مفيدة جدًا في تحديد ما يتوقعه المجتمع من الترجمات *(Toury 1995: 41-52)*. ويمكن للمرء أن يجمع الأعمال الأصلية الكاذبة معًا وأن يتساءل لماذا جاءت النصوص المترجمة مشتتة. كل أشكال "المحاكاة" و"المواءمة" وغيرهما ينبغي أيضًا أن تعطينا معلومات عن وضعية الترجمة التي يتضمنها الموضوع. وبالإضافة إلى ذلك، فإن وضعية بيانات النصوص الخاصة بأسماء المترجمين والمؤلفين في مثل هذه الحالات، وكذلك الإشارات المرجعية القليلة إلى المصدر الأصلي للنصوص، يمكن أن تبين الطرق التي أشار بها المترجمون إلى انتمائهم للثقافة أو الثقافة المزدوجة. وأيًا ما كانت الحالة، فإن المواد الفهرسية المنفصلة تكون مفيدةً جدًا في دفع الباحثين إلى إعادة النظر في أهدافهم، وقد يصل الأمر أحيانًا إلى حد إعادة صياغة طريقة الدخول إلى المجال الأولي ذاته.

فلأوضح هذا بمثال من بحث خاص بتدريب المترجمين، وهو الأمر الذي أعتقد أنه لابد أن يكون جزءًا حقيقيًا من تاريخ الترجمة الذي يرتكز على المترجم (ذلك لأن المؤسسات، رغم أنها أقيمت في الأعوام الأخيرة فقط، لديها تاريخ في غاية الغنى والتعقيد، وهي قد تُعرّف المترجمين تمامًا كما يفعل أي نوع من أنواع بيانات النصوص على نحو صارم). وعند تصنيف قائمة لـ "مؤسسات تدريب المترجمين"، تعين علينا أنا ومونيك كاميناد ***Monique Caminade*** أن نقرر ما إذا كان ينبغي أن نحصر كافة المؤسسات أم نحصر فقط تلك المؤسسات التي استجابت لاستبياننا. ومع أنه كان بإمكاننا أن نفترض تشكيلة مرفوضة من جانب مثل هذه المؤسسات (وقمع عدد من المؤسسات الأوروبية والأمريكية الشمالية الكبرى لهذا

التشكيلة) إذا ما طبقنا تعريفًا جامعًا شاملاً (مثلاً 'كافة المؤسسات التي تنظم دروسًا في الترجمة')، إلاّ أنه كان لابد أن نسجل في القائمة كل الأقسام الجامعية للغات على مستوى عالمي لتتحقق التعددية التي لم تكن لتدهش أحدًا، ولكن سرعان ما استنزفت طاقتنا أثناء إجراء هذه العملية. ومن ناحية أخرى، فإن الالتزام بتعريف مانع وضيّق النطاق (حوالي ٢٣ مؤسسة، والتي أصبحت حاليًا أعضاء في الاتحاد العالمي للمؤسسات الجامعية للمترجمين والتراجم *CIUTI*(١)) كان لابد أن يعني ليس فقط إعادة إنتاج قائمة موجودة مسبقًا بل الالتزام أيضًا بمعايير أولئك البشر الذين اعتقدنا أنه ينبغي علينا مساءلتهم. وربما كان الحل الوسط هو إعداد قائمة شبيهة بقائمة توري الخاصة بوظائف الأرانب (مثلاً؛ 'وضعية الجامعة'، 'برنامج السنوات الأربع'، 'التعليم اللغوي المحدود'). غير أن هذا قد يتضمن معايير اعتباطية في عملية التقييم ويضفي على المعلومات التي أرسلت إلينا قيمة صدق مؤقتة (حيث تبدو بعض برامج 'تدريب المترجمين' عظيمة على الورق ولكنها ذات أهمية ضئيلة جدًّا للترجمة من الناحية العملية). بين هذه الحلول الممكنة، كانت إستراتيجيتنا هي أن لا نحصر إلا المؤسسات التي تمنح درجة الدبلوم أو شهادة تذكر فيها عبارة 'ترجمة' أو 'مترجم' أو 'تفسير لغوي' أو 'تراجمة' أو أي عبارة مشابهة. كان هذا هو تعريفنا العملي المانع الذي نتجت عنه قائمة طيعة ولكن ذات حجم مدهش (حوالي ٢٧٠ مؤسسة)، وتجنبنا عمل تقييمات وظيفية (سجلنا الألفاظ التي أرسلت إلينا ليس غير) فظهر أنها تخلو من مشاكل تحديد ألفاظ مساوية لكلمات مثل 'ترجمة' و'مترجم' (فهو لحسن الحظ حقل مغلق على لغتين *(interlingual*). وقد طبقنا التعريف العملي بشكل عشوائي بسبب تلك المبررات العملية جدًّا. إننا، بطبيعة الحال، ندور بحقيبة مليئة بخليط من أشياء مهملة. فماذا يمكننا أن نعمل بشأن مؤسسة استبعدها تعريفنا ولكنها أحد أعضاء الاتحاد العالمي

---

(١) تم تأسيس الاتحاد العالمي للمؤسسات الجامعية للمترجمين والتراجمة رسميًا عام ١٩٦٤ خصيصًا لتدريب المترجمين والتراجمة وضمان جودة المؤسسات الأعضاء.

للمؤسسات الجامعية للمترجمين والتراجمة؟ وبماذا نفسر أوضاعًا مثل وضع اليابان حيث يبدو أن المترجمين والتراجمة مدربون دون أن يكون هناك أي مؤسسة تنطبق عليها معاييرنا؟ وما العمل مع المؤسسة البريطانية للغويين التي تنطبق عليها معايير تعريفنا (لأنها تمنح دبلومات) ولكنها لا تقدم برامج تدريبية حقيقية (فهي تنظم امتحانات ليس إلا)؟ وبعد دراسة هذه الأوضاع الشاذة، اضطررنا لأن نتراجع ونعلن من جديد مبرراتنا للالتزام الصارم بالاستبيان. ونظرًا لأننا أردنا إظهار التباين، كان لابد أن يتم تضمين كل هذه الأمثلة باعتبار أن لكل منها ما يميزها. ولذلك، فقد أعددنا سلسلة من التعريفات العملية الثانوية أو أحكام البطاقات الشاذة *wild-card* (مثلاً، في البلاد التي يُعطى فيها التعريف رقم "*1*" بيانات عددها "صفر" مع أن المترجمين مدربون، يمكن تخفيف شرط شهادة الدبلوم). فهذه الحالات الشاذة التي لها ما يبررها تم إدراجها في قائمتنا حتى وإن تم تمييزها بنجمات.

وقبل أن نختتم هذا الفصل، أود أن أروي كيف تم وضع الفرضيات العملية في شكل مشروعين مختلفين تمامًا سنتعرف عليهما فيما بعد. الأمثلة ليست حسنة المظهر إطلاقًا نظرًا لأن التعريفات العملية تتجنب بطبيعتها الأناقة الفكرية وتتجنب بالتالي النجاح الفائق. إن التعريفات العملية تكون مفيدة فقط في التعامل مع مادة فهرسية بعينها، وتتعلق بتصورات مسبقة معينة، وتكون على ضوء نتيجة تتسم بأربحية التكلفة. لكن القليل من المادة التالية سيرى نور الصباح في إطار تاريخ تفسيري حقيقي.

كيف تسلل فاجنر

كان بحثي عن الترجمات بين الفرنسية والألمانية في نهاية القرن التاسع عشر يركز في البداية على النصوص الغنائية، ذلك لأنني كنت أحاول في إحدى المراحل أن أتحقق من مسألة أنّ الترجمة لها علاقة سببية بعملية تحويل النوع

الأدبي إلى نثر (راجع: ***Pym 1992b***). لكن الحقل الذي كان يتعين تعريفه بطريقة كمية وكيفية تم وصفه بطريقة فظة على أنه "ترجمات لنصوص/ كنصوص غنائية"، وبالإضافة إلى ذلك كانت الفهارس التي كنت أعمل بها (بيل/ إبتنج وفروم) غير دقيقة بالمرة. ولذلك، لم تكن مهمة صياغة التعريفات سهلة ولا حاسمة.

ومع العلم بأن هناك جوانب قصور في الفهارس، كان لابد من تحديد المادة الفهرسية على العامل المشترك الأصغر، مع التخلي عن الطبعات المتكررة والترجمات التي تظهر في المختارات والمجلات. وفي إطار هذا القيد، أصبح ينظر إلى "الترجمة" باعتبارها أي نص يرد في قائمة أي ببليوجرافيا، وذلك نظرًا لأن تطبيق التعريف الوظيفي أو المانع في هذه المرحلة قد استلزم جهدًا كبيرًا له مردود قليل جدًّا. كما أن "النصوص الغنائية" تم تعريفها بطريقة قُصد منها أن لا تكون وافية، وذلك من خلال قبول أي ترجمة من الحالات الشاذة موصوفة بأنها "***Poème***" أو "***Poésie***" أو "***Chanson***" أو "***Ballade***" أو "***Lied***" أو "***Gedicht***" أو "***Lyrik***"(*) وغيرها، كعمل منظوم، وباستبعاد الفروق الواضحة بين النظم والنثر، وذلك لأن أحد أهداف البحث كان اختبار الفرضيات الخاصة بالترجمة النثرية للنصوص النظمية. وأنا لم أجد حالات لترجمات نظمية من مصدر غير نظمي، لكنني لم أكن أبحث أصلاً عن مثل هذه الأشياء.

غير أن هذه التعريفات العملية، برغم فظاظتها، قد أعطت نتائج كمية جيدة جدًّا، تاركة إيّاي مع مادة فهرسية من الترجمات في الاتجاهين ضخمة جدًّا ولكنها مع ذلك سهلة ومتوازنة (٢٥٢ + ٢٩٨ عنوانًا). الأهم من كل شيء أن ذلك جعلني أعيد النظر في مجالي الأصلي. وكما ذكرت في الفصل الأخير، كان فهرس فروم متناقضًا بشأن الاحتواء على الأعمال الموسيقية، وكنت أنا بدوري أخشى تصنيف الأنواع الأدبية التي لم أكن أعتبرها بصورة تلقائية تعبيرات أدبية لها ذاتية. أنا/

(*) هذه الألفاظ كلها تدور معانيها حول : قصيدة، قصيد، أنشودة، نشيد، أغنية، غناء، غنائي، ...إلخ. (المترجم)

نحن. وهكذا صيغ تعريفي العملي بنفس الطريقة التي يتم بها استبعاد معظم أنواع الموسيقى والأوبرا (فعلى سبيل المثال، قمت بشطب الموضوعات التي تم تسجيلها في فهرس بيل/ إيتنج بوصفها علامات موسيقية). وهو ما جعل العمل أسهل وجعلني أكثر سعادة، إلى أن واجهت حالة غريبة وشديدة الأهمية: نص أوبرا فاجنر في الترجمة الفرنسية، ويطلق عليها ***poèmes de opéra*** [قصائد أوبرالية]. فهل أنا أريد حقًا أن أدرس فاجنر؟ لا، أنا لا أريد ذلك في الواقع (هذا إقرار هام). ومع ذلك، فقد أمكنني، بفضل مصطلح قصيدة ***(poème)*** في بيانات النصوص المترجمة، أن أجعلها تتطفل على قائمتي، نظرًا لأن تعريفي العملي حدد أن أي شيء يطلق عليه اسم قصيدة يصلح تمامًا لأن يسجل مع مادتي الفهرسية باعتباره قصيدة. واضطرتني مناهجي الإمبريقية إلى أن أتأمل في فاجنر باهتمام أكبر. ثم أصبحت بعد ذلك ممتنًا لتعريفاتي العملية على الدوام. فمع أن هذه التعريفات غير وافية بصورة متفق عليها، إلا أنها أنقذتني من إعطاء تفسيرات قد تكون شديدة القصور (وسوف يتم استكمال هذا الموضوع في الفصل اللاحق).

كيف أظهرت سالومي أهميتها

هذا المثال الأخير الذي أسوقه هنا مختلف تمامًا. إنه يستعرض فائدة إحدى طرق التعريفات العملية للترجمات في إجراء دراسة موسعة عن تأثيرات الثقافات الأخرى ذات الصلة.

وكما ذكرت آنفًا، حاولت ذات مرة أن أكتشف لماذا كان موضوع سالومي مدويًا في نهاية القرن التاسع عشر. كان يتعين على فرضياتي الأولية أن تكون وثيقة الصلة بالدور الاجتماعي للنساء والأهمية النسبية للفنانين الرجال، وذلك على الرغم من أنني تمنيت أيضًا أن يبين الموضوع كيف أقامت مختلف الأشكال القومية من الحركات الحداثية علاقات متبادلة فيما بينها. كان هناك فهرس في متناول اليد

(Dottin 1983)، واستطعت أن أضيف إليها ١٧ نصًّا مترجمًا لأنتهي إلى مادة فهرسية ذات ٣٨٩ فقرة. وكان هذا العدد مناسبًا لمنحنيات التوزيع ***distribution curves*** (انظر الفصل اللاحق) ولكنه كان أكبر في الوقت الذي كان يتعين عليّ أن أنتهي فيه من قراءته أو تحليله، وذلك نظرًا للطابع العام والمتواضع لفرضياتي. كان بإمكاني أن أصوغ تعريفًا جامعًا مناسبًا لـــ "الفقرة" الوظيفية الأساسية المفهومة بوصفها بنية حسابية لكافة المتغيرات على مستوى العملية كلها. وقد أتاح ذلك أن يصبح الفهرس متضخمًا في حالة مهمة واحدة على الأقل(١). لكنني كنت أنشد مادة فهرسية وليس فهرسًا. وكان لابد أن يتم استبعاد شيء ما.

في هذه الحالة، وبعد قدر كبير من التجريب، تم استخدام تعريفي العملي ليس لاستبعاد أجزاء من المادة الفهرسية (القصائد، المسرحيات، القصص،...إلخ) ولكن لتحديد موضع الطبعات المتكررة بصورة ما أو رئيسية أو حتى هامة. وأقرّ التعريف أن الطبعات المتكررة "هي تلك الطبعات الأكثر تواترًا بين الـــ ٣٨٩ فقرة التي تشتمل عليها المادة الفهرسية"، حيث تم تعريف التواتر بوصفه نوعية النص الذي يقوم مقام المصدر أو المرجع الذي يشكل الأساس في فجوة بيانات النصوص في نص إضافي (ولا يكون هذا النص الإضافي في هذه الحالة نصًّا مترجمًا بالضرورة). وكم تمنيت أن يعطيني هذا التعريف النصوص التي كنت في حاجة إليها؛ وكان من المتعيّن أن يتم تحديد مواضع تلك النصوص التي كانت بصورة أو بأخرى الأكثر أهمية لعلاقات الثقافات ذات الصلة ***cross-cultural relations***. ومن الناحية العملية، اضطرني التعريف لأن أتأمل عن قرب طرق الارتباط فيما بين الترجمات المختلفة لقصة سالومي. في بعض الحالات، كانت الارتباطات واضحة

---

(١) كانت الفكرة الأساسية محددة على النحو التالي: أربع شخصيات– النبي، الملك، الزوجة الثانية للملك، ابنتها– تتناولهم القصة إلى أن يتم قطع رأس النبي بتحريض الزوجة و/ أو الابنة. وقد روعي أن تكون ترجمة الفكرة الرئيسية بحيث يمكن لترجمة أي نص تم تلقيه لأي جزء من هذه البنية أن يُنشّط كافة الأجزاء الأخرى. وقد كان النص الهام الذي أضيف، هو رواية بودلير النثرية لا فانفارلو La Fanfarlo.

جدًا، وكانت الحالة الصفرية للارتباط، كما شاعت الصدفة، ترجمات أمينة. فعندما ترجم هوفيه *Hovey* قصة ملارميه (هيروديادHérodiade* (*عام ١٨٩٥ في بوسطن، وترجمها برينان *Brennan* في سيدنى ١٩٠٤، وترجمها جورج *George* في برلين عام ١٩٠٥، كان للنص دون أدنى شك بعض الأهمية في تلك اللحظة بالذات وداخل الأوساط المهتمة الضيقة جدًا. غير أن الأشكال الأخرى من إعداد النصوص يمكن أيضًا أن تُظهر الأهمية. فقصة سالومى التي ألفها لافورج *Laforgue* وترجمها ازرا باوند *Ezra Pound* عام ١٩٢٠، بتصرف كبير، أظهرت أيضًا الأهمية صعيد بيانات النصوص، سواء استطاعت أم لم تستطع هذه الترجمة على إثبات أنها ترجمة سوية. حدث نفس الشيء بالنسبة لأوبرا اشتراوس *Strauss* المأخوذة عن مسرحية وايلد. وبعد قدر من التردد، قررت أن التعريف العملي يمكن أيضًا أن ينطبق على كل أنواع الأداء الواردة بطريقة ما في فهرسي المتوارث (من خلال البرامج أو النصوص الموسيقية *Libretti* أو غير ذلك)، بنفس الطريقة التي اعتبرت بها أوبرا اشتراوس تكرارًا مقحمًا لأنها عرضت في كل من باريس وميلانو ونيويورك في عام واحد (١٩٠٧). لا شك في أن تعريفي كان صالحًا جدًا لمعظم الأغراض، خصوصًا لأنني فشلت في التمييز بين ما هو ترجمة وما هو أداء. ومع ذلك، فقد كانت النتيجة مفيدة في هذه الحالة بالذات: فقد استخلصت قائمة صغيرة قوامها ١٥ ترجمة متواترة اعتمد في تحليلها على المقارنة بين المتغيرات الأكثر أهمية للموضوع الرئيسي والتوزيع الفعلي للشبكة. وبالإضافة إلى ذلك، كان من الممكن أن يتم تحديد مقدار هذه الترجمات المتواترة على أساس عدد النصوص الثانوية التي تتولد عنها، وذلك بإعداد مادة فهرسية رئيسية قابلة للزيادة يمكنها أن تشمل ثلاثة نصـــوص فقط (تزيد بنحو ٥ أو أكثر) أو سبعة (تزيد بنحو ٤ أو أكثر) أو عشرة (تزيد بنحو٢ أو أكثر)، أو الخمسة عشر كلها. وكان من الممكن أن يتم إعداد المادة الفهرسية بحيث تستوعب كافة البيانات التي كنت أريد أن أضيفها إليها. أذكر هذا المشروع لأنه كان ذا علاقة خاصة بالأهمية. وفي الفصل السابق قلت أن الأهمية هي أحد مقاييس الفجوة، تلك الفجوة

التي قد تكون إيجابيَّة وسلبيَّة في آن واحد (إيجابيَّة للبعض وسلبيَّة للبعض الآخر). وبتطبيقه على مشكلات التعريفات العملية، فإن هذا المفهوم يساعدنا على أن نضع في اعتبارنا ليس فقط المفردات التي تصبح متواترة في أي قائمة من خلال التكرار الإيجابي (الكاشفات ذات الأهمية الموجبة) بل والمفردات التي حظر تواترها تمامًا بطريقة ما(الكشافات ذات الأهمية السالبة). ويجب أن نضع في اعتبارنا النطاق الكامل للترجمة المحظورة أو الأداء المحظور، بدءًا برقابة الدولة على المطبوعات ووصولاً إلى المطبوعات الممنوعة. ويجب أن نوجه عناية خاصة إلى هذا أو ذاك القدر من التغييرات الجذرية التي يتم إجراؤها لتجاوز الخطر أو الحد منه. مثل هذه الحالات كلها لابد أن تبين نظريًا الجانب السلبي للأهمية، نظرًا لأنها كلها تتضمن موقفًا تكون فيه الترجمة المطلوبة (أو الأداء المطلوب) هامة جدًا لدرجة لم يكن هناك معهما شخص غير راغب في إجرائها. في حالة المادة الفهرسية لسالومي، تتعلق الأهمية السلبية بترجمات قليلة فقط: تم منع أوبرا ماسينيت ***Massenet*** في باريس عام ١٨٨١، ووجهت مسرحية وايلد ***Wilde*** بهجوم شرس في لندن عام ١٨٩٢، وكذلك أوبرا اشتراوس في فيينا عام ١٩٠٥. والواقع أن هذا القدر من التواتر السلبي يدعم توزيع التواتر الإيجابي بشكل لافت للنظر: معظم المفردات المحظورة هي التي غالبًا ما تم أيضًا ترجمتها و/ أو أداؤها أكثر من غيرها. إن الأهمية بادية في كلا الجانبين[٨].

---

(١) لاحظ أن الكشافات التي لها أهمية سلبية في هذه الحالة تسلط الضوء على مادة فهرسية لها إشارات إيجابية (النصوص التي وصلت إلى الجماهير في مكان آخر أو زمان آخر)؛ وعلى ذلك، فنحن لا نبحث عن النصوص التي تم حظرها بصورة كاملة. ومن الممكن تصور إعداد مادة فهرسية سلبية تمامًا (النصوص ممنوعة لم تجد طريقها إلى النشر مطلقًا) ولكن ذلك قد يتطلب جهودًا بحثية واسعة نظرًا لأن هناك القليل من القوائم السلبية التي يتعين البدء منها. وبرغم ذلك، تم تصميم خطط لمثل هذه الوقائع السلبية (انظر: Coste1988). ويستفيد فينوتي بصورة جيدة من الكشافات الواردة في تقارير القرّاء التي أدت إلى حظر المطبوعات – 1995: 253-260.

إن هذا النوع الخاص من الأهمية، المقيس جزئيًا بالترجمات والموزع حول الموضوع التاريخي، نادرًا ما يُعزى إلى الباحث الذي يحتال بجملة من التعريفات الذاتية تمامًا. إن شيئًا ما هامًا كان قد تمخض عن الموضوع ذاته، كما أن التعريفات، الفظة ولكن الفعالة، كانت قد أتاحت لتلك الأهمية أن تظهر على السطح.

الفصل الخامس

التكرارات

عندما تم تصنيف القوائم، كان منحنى التكرار *Frequency Curvè* هو أحد الأشياء القليلة التي يمكنك أن تغيرها مباشرة. فأنت تخطط لتوزيع الترجمات عبر الزمن. والرسوم البيانية الناتجة قد لا تكون دالة دائمًا مع أنها تعطي إحساسًا مريحًا بالتحكم فـي المعلـومات التي يصعب معالجتها. والمنحنيات يمكن أن تؤكد على أو تنفي ما لا حصر له من الفرضيات الثانوية أو الشكوك أو الأحاسيس الداخلية التي تطفو على السطح كلما حاول المرء تصنيف القوائم. كما أنها تريح من ملل المعلومات الببليوجرافية. ولكن هناك ما هو أكثر من مجرد الراحة الكسولة ينبغي أن نبحث عنه.

وفيما يلي، أود أن أتطرق إلى بعض طرق التلاعب بالتوزيعات التكرارية، بالإضافة إلى بعض الطرق التي يمكنك من تجنبها. وستكون المناقشة بسيطة جدًا وبدون ذكر لأي شيء يمت بصلة إلى الرياضيات. لكننا ننصح أي شخص يخطط لإجراء توزيعات تكرارية، وهي الأساس في التفسير التاريخي، بأن ينال بعض الخبرة من مرجع معياري أو من زميل مؤهل. غير أن اهتمامي الرئيسي منصرف، في الوقت الحالي، إلى الصور والصياغات البارعة التي تظهر بها الإحصائيات. فالقوائم تصبح أرقامًا، لكنها تصبح أيضًا لغة مقدسة *iconic* ومألوفة *natural*.

الإحصائيات والأهمية

يقوم الجانب الأكبر من انطباعنا الحديث للعلوم الاجتماعية على أساس من علم الإحصاء، خصوصًا النسب المئوية واتجاهاتها. ونحن نعتقد أنه يمكن أن نعبِّر رقميًا عن مجتمع معين منقسم إلى جماعات، فنقول: " ٣٠ بالمئة من العاطلين تحت سن ٢٥"، و"أولاد الطبقة العاملة ينجحون في المدارس بنسبة تقل بنحو ٣٠ بالمئة عن أولاد الطبقة الوسطى"، وهكذا دواليك، في إطار سخط عام يندلع في التقارير الإخبارية، وفي مناقشات عامة، وفي أي شكل من أشكال التماس الموضوعية.

لكن الاستخدام الأيديولوجي والاستخدام السيئ للإحصائيات له سمعته غير الطيبة. فالكثير من هذه الإحصائيات تعتمد على عبارات تخمينية، مثل " ٣٠ بالمئة فقط" أو "نسبة تصل إلى حوالي ٣٠ بالمئة"، توحي بأن النسبة المئوية دالة على شيء يتعلق بتوقع لا تفسير له. فإذا كان " ٣٠ بالمئة فقط من العاطلين تحت سن ٢٥" فإن معنى ذلك إما: أ) نوع من التحيز مؤداه أنه كان من المتوقع أن يكون الرقم أعلى (ربما في مقابل ٥٠ بالمئة للعام السابق)، أو ب) أن الباحث يشعر أن الرقم لابد أن يكون أعلى من ذلك (ربما لأن البطالة تأخذ بالخناق و تمهد أرضية الثورة، أو تفعل أي شيء آخر). وكلا المعنيين له صلة بالتحيزات: في الحالة الأولى، يستند التحيز إلى معلومات سابقة، وينشأ في الحالة الثانية من احتمال صارم. وفي كافة الأحوال، بدءًا من الحالات الأكثر وضوحًا في موضوعيتها وحتى الحالات الأكثر وضوحًا في ذاتيتها، فإن التحيز المختار يقيم علاقة سببية بين نسبة الـ "٣٠ بالمئة" الضئيلة ومسألة الأهمية المناسبة. والواقع أن الإحصائية لا تكتسب دلالتها إلا في علاقتها بمسألة الأهمية. فإن لم تكن هناك علاقة واضحة من هذا النوع، فإن الإحصائية لا تعدو كونها مجرد رقم.

ويستلزم الانتقال من الأرقام إلى الأهمية، دائمًا، درجة عالية من المعالجة الاختيارية. وهذا يعني أنه يتعين على قارئ التكرارات أن ينظر باهتمام شديد لما يقال الآن. لورانس ڤينوتي ***Lawrance Venuti***، على سبيل المثال، لا يترفع عن إطلاق جمل ذات مقدرة عالية على التلاعب كما يلي:

> تضاعف إنتاج الكتب البريطانية والأمريكية أربع مرات منذ أعوام الخمسينيات، لكن عدد الترجمات بقي بين ٢ بالمئة و٤ بالمئة تقريبًا من إجمالي الكتب. *(1995: 12)*

فلنلاحظ كلمة "لكن". إن فينوتي يريد بكل وضوح أن يرتفع عدد الترجمات؛ إنه يريد أن يجد هذه الأرقام ويستشهد بها، لأنه يظن أن نسب الترجمات إلى اللاترجمات منخفضة جدًا (مع أن ما يترتب على الزيادة في إنتاج الكتب غامض جدًا). وهو، تعزيزًا لرأيه، يستعرض رسومًا* بيانية تظهر أعداد الكتب المنشورة بأعمدة سوداء طويلة جدًا والترجمات المنشورة بأشكال بيضاء صغيرة جدًا (وقد تم نقل رسومه هنا بالشكل٣). كما أن التعبير بالرسوم البيانية محاولة للتلاعب. أجل، فنسبة ٢ بالمئة و٤ بالمئة مقادير تافهة جدًا. ويبدو أن الطرح مقنع إن كفّ المرء عن التفكير بشأن طبيعة القيم التي تتم معالجتها. وطبقًا لرسوم فينوتي، فإن صناعة الكتاب زاد بنحو أربعة أمثال ٣,٩٤ وزاد عدد الترجمات بنحو ثلاثة أمثال ٢,٩٢ طوال الفترة المعنية. معنى ذلك أن صناعة الكتاب زادت وصناعة الترجمة زادت. "و" وليس "لكن".

رغم ذلك، يحاول فينوتي تسويغ كلمة "لكن" عن طريق مقارنة انخفاض النسبة المئوية للترجمة الإنجليزية (٢ بالمئة ٤ بالمئة) بأكبر ارتفاع في النسبة المئوية في كل من فرنسا (٩,٩ بالمئة) وإيطاليا (٢٥,٤ بالمئة). فما الذي تريد أن تقوله هذه الأرقام في الواقع؟ هل هي تعني أن ثقافات اللغة الإنجليزية محرومة من الترجمات؟ أو أن هناك أنواعًا أخرى من القيم يجري الرهان عليها؟ تأمّل هذه الواقعة المتسقة تمامًا: في الأعوام الواقعة في الفترة التي يشير إليها فينوتي (١٩٦٠ – ١٩٨٦).

كانت قوائم كشاف النص المترجم ***Translationum*** أكثر بنحو ٢,٥ ضعف من الترجمات في كل من بريطانيا والولايات المتحدة ١,٦٤٠,٩٣٠ أو فرنسا ٦٢٤,٨٣٠ أو إيطاليا ٥٧٧,٩٥٠. ونحن لعلى يقين من أن الترجمات إلى الإنجليزية أكثر كثيرًا مما ترجم إلى الفرنسية أو الإيطالية. لكن هذا شيء يخفيه

عنا فينوتي مع أن له نفس دلالة النسب المئوية لمجمل صناعة الكتاب. وعلى الرغم من أن نسب الترجمات إلى اللاترجمات أقل كثيرًا، إلا أنه لا يتوافر لقراء الإنجليزية عدد من الترجمات أكبر بكثير مما هو متوافر لقراء الفرنسية أو الإيطالية. فمن الأكثر فشلاً إذن؟ وما نوع الثقافة التي يريدها لنا فينوتي؟ وما هو السؤال الذي يجيب عنه؟

ليس هذا هو المكان المناسب لتناول كل آراء فينوتي. ويكفي أن نقول أنه، مثل باحثي فريبرج ***Freiburg*** المشار إليهم عند مناقشتنا للقوائم، شديد القلق بشأن الاختلال الواضح في "الميزان التجاري" بين الترجمات من وإلى الإنجليزية، مع أنه لا يقول لنا بشكل محدد ما الشكل الذي ينبغي أن يكون عليه الميزان التجاري المتوازن جدًّا للترجمات. هذا أمر يستحق قدرًا من التفكير.

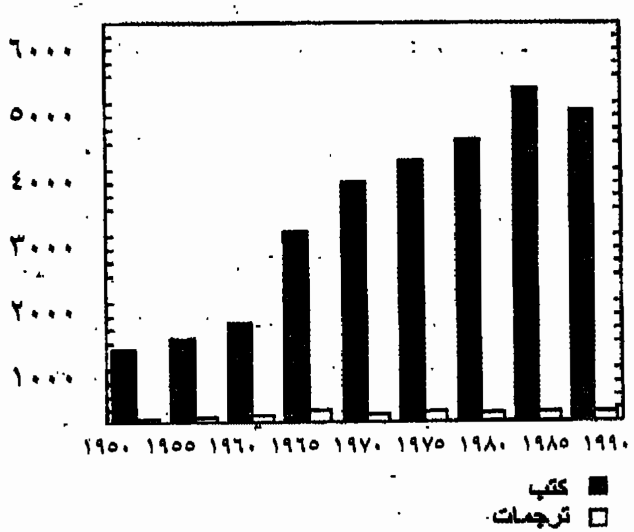

شكل ٣

النشر الأمريكي: "إجمالي مخرجات الكتب مقابل الترجمات"

(من: Venuti 1995:13)

إذا كانت كافة اللغات يتحدث بها أعداد متساوية تمامًا من الناس ومستخدمة لتحريك نفس المقادير من الرأسمال الثقافي، فلابد أن فينوتي كان سيستأثر عن طيب خاطر بنحو ٢٥ بالمئة من نسبة الترجمة كلها. ولأصبح المترجمون في كل أنحاء العالم سعداء للغاية ومتكالبين على أعمال الترجمة. غير أنه، نظرًا لأن اللغات ليست متساوية في مدى استخدامها وغير متساوية بصورة أكبر في مدى وصولها إلى النشر الدولي، فإنه لا مبرر إطلاقًا للمقارنة بين معدلات الترجمة فيها. وبدلاً من توقع تساوي النسب المئوية، بادعاء وجود محددات تبادل مماثلة تخص الثقافات الأخرى المعنية، فإن الأفضل والأكثر إقناعًا هو افتراض أنه كلما كان استخدام اللغة ضيقًا كلما زادت نسبة الترجمات إلى اللاترجمات في تلك اللغة.(١) لكن لا يوجد فردوس على مستوى الكوكب نفترض فيه نسبًا معيارية للترجمة في خصص "الميزان التجاري".

فكن على حذر من الإحصائيات. واسأل أي الأرقام أكثر دقة، وهل هي معقولة بالمعنى الدراج للكلمة؟ على سبيل المثال، رسوم فينوتي البيانية توحي بأن الكتب التي نشرت في بريطانيا أكثر مما نشر في الولايات المتحدة برغم أن التعداد السكاني في الولايات المتحدة حوالي أربعة أضعاف التعداد السكاني في بريطانيا. فهل يعني هذا أن البريطانيين يقرأون أربعة أضعاف الكتب التي يقرؤها الأمريكيون؟ أم أن الكتب البريطانية يتم تصديرها إلى مكان ما؟ ولماذا لم يخبرنا فينوتي عن هذا؟ وما مصلحته في التعامل مع بريطانيا والولايات المتحدة باعتبارهما ثقافة واحدة؟

---

(١) تخيل عالمًا فيه ٩٠ نصًا باللغة "A" و١٠ نصوص باللغة "B". فإذا تم ترجمة نصف النصوص في كلتا اللغتين إلى اللغة الأخرى، فإن نسبة المترجم إلى اللامترجم في اللغة "A" تكون ٥,٥ بالمئة، وتكون هذه النسبة في اللغة "B" ٤٥ بالمئة. وحتى لو كان مستخدمو اللغة "A" بلهاء وكان واحد فقط من نصوصهم يستحق الترجمة، وكان كل نصوص اللغة "B" رائعة لدرجة أنه تمت ترجمتها جميعًا، فإن المعدل لن يتعدى ١١ بالمئة بالنسبة للغة "A" في مقابل نحو ١٠ بالمئة بالنسبة للغة "B"!

الواقع أنه لا يوجد توزيع إحصائي للترجمات، سواء في الزمان أو في المكان، محايد تمامًا.(٢)

التوزيع التعاقبي

لا يحتاج رسم منحنى توزيع تعاقبي إلا لجهد قليل. كل ما عليك أن تفعله هو أن تختار فترات زمنية تناسب التفاصيل اللازمة والفرضيات محل النظر. والواقع أن هذه العملية يمكن أن تكون منحازة ما شاء لها الانحياز. تأمل الشكلين ٤ و٥ اللذين يبينان تواريخ إنشاء مؤسسات تدريب المترجمين المشار إليها في الفصل الأخير (*Caminade and Pym 1995*). الشكل ٤ يقسم التواريخ إلى ٣٠ فترة *period* أو وحدة *bin*؛ ويقسم الشكل ٥ نفس التواريخ إلى ٣٢ وحدة، وهو ما يعني أن كل فترة من فترات التحليل أقصر قليلاً. فإذا ما أردت أن أبرهن على أن إعداد المترجمين على أشده وله مستقبل مشرق، فما عليّ إلا أن أستخدم الشكل٤. أما إذا كنت مقتنعًا بأن التوسع في إعداد المترجمين قد بلغ ذروته في ١٩٩٢ - ١٩٩٣، وأن إعداد المترجمين يواجه مستقبلاً غامضًا، فما عليّ إلا أن أستخدم شكل٥. بنفس البيانات ولكن بفرضيات مختلفة. ويلاحظ أنه لا يوجد هنا خداع كبير، ذلك لأن الرؤية التفاؤلية للشكل ٤ تضيف بلا تمييز البيانات الأحدث إلى كل بيانات ما بعد عام ١٩٩٠، على حين أن الرسالة التشاؤمية للشكل ٥ تأتي من الافتراض الساذج بأن الباحثين الذين شاركوا في العمل عام ١٩٩٤عالجوا على الفور كافة

(١) هناك تلاعب مماثل يتعلق بالارتفاع السريع في أعداد الترجمات خلال العقود الأخيرة. وفي عدد لاحصر له من كراسات إعداد المترجم والنصوص التمهيدية لهذه المادة، تأخذ الترجمة بعين الاعتبار: أننا في عصر الترجمة، وأنه ينبغي علينا أن ندرب عددًا أكبر من المترجمين، ونفكر في عدد أكبر من الترجمات، ونحصل على موارد مالية أكبر لتمويل الأبحاث. وإذا ما نظرنا في إطار إحصائي أوسع، فإن هذا العصر، برغم كل شيء، هو عصر إنتاج النصوص الذي تعتبر الترجمة مجرد جزء منه. وينبغي على التربويين والنظريين أن يواصلوا تتبع النتائج.

البيانات الخاصة بعامي ١٩٩٣ و١٩٩٤. وعلى حين أن الأمانة المطلقة هي أفضل سياسة، فــإن العــرض البيــاني للتكرارات لا يفيد إلا في التعبير عن ميل معين بطريقة أو بأخرى.

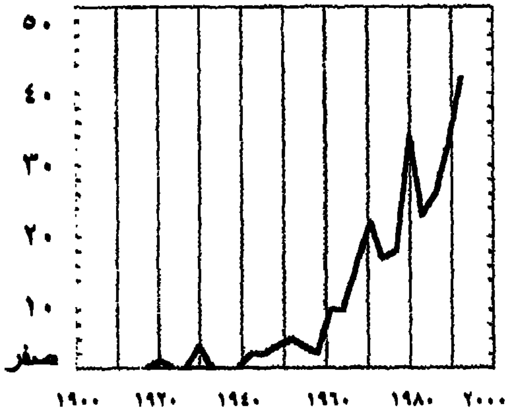

شكل ٤

مؤسسات إعداد المترجمين

عينة قوامها ٢٧٠ من جميع البلاد

تكرارات الأساس في ٣٠ وحدة (***bins***)

لكن هذا لا يعني أن المنحنيات التكرارية تنثني بصورة آلية وفقًا لرغبات الباحث. فأنت تبدأ عملك بأسئلة معينة؛ تصوغ الفرضيات على ضوء الإجابات التي تتطلع إليها، لكن المخطط الفعلي للتكرارات معيار ثابت لكل من الفرضيات الأولية والرغبات التي تنبني عليها هذه الفرضيات. وكما أن أفكارنا الأولى عن الكون يمكن أن تكون خاطئة؛ كذلك فإن بعض الحشود الإحصائية تكون كبيرة جدًا لدرجة لا يمكن معها لأي قدر من خيارات التقسيم الفتري المشار إليه هنا أن يجعل

المنحنى ينثني بأي طريقة مغايرة. ولاحظ، على سبيل المثال، أن التباطؤ الذي حدث في الثمانينيات [ثمانينيات القرن العشرين] قد ظهر في كلا الشكلين السابقين. وما دمنا نستعرض آراءنا على نطاق واسع، فإنه يجب علينا أن نتوقع اعتراضًا على تعديل توقعاتنا الأولية.

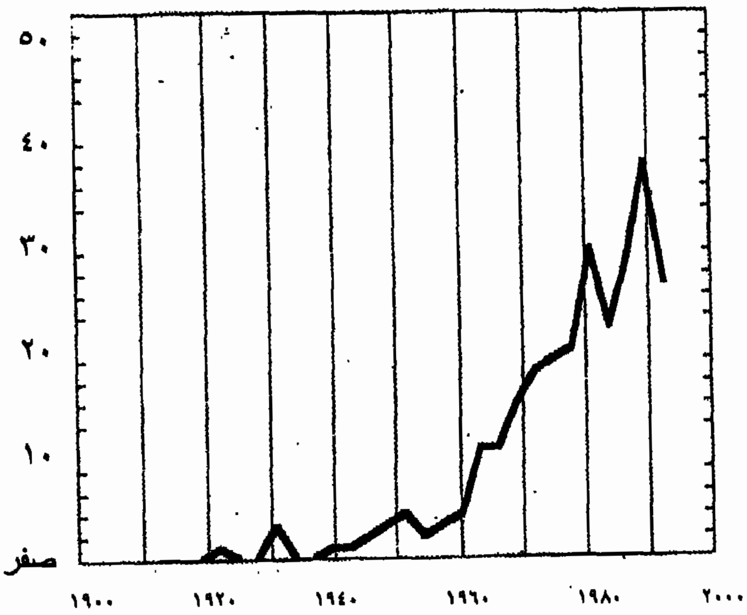

شكل ٥

مؤسسات إعداد المترجمين

عينة قوامها ٢٧٠ من جميع البلاد

تكرارات الأساس في ٣٢ وحدة *(bins)*

في حالة مادتي الفهرسية الخاصة بسالومي، كان يمكن لأي قدر من التقسيمات الفترية *periodization* أن تعطي من الناحية العملية ذروة واضحة جدًا للمنحنى في تسعينيات القرن التاسع عشر (شكل ٦ مصمم على أساس فواصل زمنية مقدارها عشرون عامًا). وقد أكد هذا الحشد إحدى فرضياتي الأولية الواضحة جدًا، وهي أن سالومي، أحد موضوعات ***fin de siècle*** [نهاية القرن]، موضوع إلهام رؤيوي ليس إلا. غير أنني عندما حاولت إجراء التوزيعات بالنسبة إلى ثقافات مختلفة، أصبحت الأمور أقل ابتذالاً إلى حدّ ما ولكن على درجة عالية جدًا من الفوضى. وسرعان ما أصبحت عندي سلسلة من منحنيات توزيع ثانوية شمل القليل منها من البيانات ما يكفي لتحديد أي شيء ذي دلالة. وكان الحل الوحيد هو العمل بطريقة التجربة والخطأ، تجريب مختلف الفرضيات ومجموعات البيانات حتى يصل الجميع إلى إقرار أن هناك ما يهدد نوعًا ما من الدلالة. في هذه الحالة، تحول القسم المعنوي تمامًا ليكون بين الترجمات الفرنسية وغير الفرنسية. وبمجرد أن تم تخطيط هذا الفرق تعاقبيًا، أصبحت قصة معينة واضحة على الفور، واضحة جدًا في واقع الأمر لدرجة أن غبيًا مثلي هو فقط الذي فشل في إدراكها منذ البداية. لقد أبان التوزيع أن سالومي كانت ذائعة بترجمات فرنسية تعود إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر وبدايات تسعينياته قبل أن تتغلب عليها الترجمات الألمانية بعد عام ١٩٠٠ عندما اندفعت سالومي بقوة نحو المحيط في دائرة شديدة الاتساع. هكذا أدى إصلاح منحنيات التكرار إلى دفع نتائجي بعيدًا عن فرضياتي الأولية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الفرضيات الأكثر وضوحًا كانت مستندة إلى العديد من حجج تلك الفترة، وبخاصة ذلك التعليق الشهير الذي أدلى به فوكير ***Vaucaire*** عام ١٩٠٧ والقائل بأن ترجمتي أوسكار وايلد ***Oscar Wilde*** وريتشارد إشتراوس ***Richard Strauss*** قد تم تجاوزهما بكل تأكيد "إن ترجمتنا لسالومي فرنسية تمامًا" ***(1907: 144)***.

وهناك حالات أكثر تعقيدًا. ويبين شكل ٧ المنحنيات التكرارية الأساسية المستخدمة في بحثي الذي يدور حول ترجمة النصوص الغنائية في أواخر القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من مشكلات الفهارس المستخدمة كمصادر (انظر الفصل ٣)، فإن توزيع هذه المادة الفهرسية على وجه الخصوص قد تغير تمامًا فأصبح دقيقًا بشكل مضلل. إن من الواضح أن حركة الترجمة من الألمانية إلى الفرنسية تصل إلى ذروتها في تسعينيات القرن التاسع عشر، وتلقي عليها حركة الترجمة من الفرنسية إلى الألمانية والتي بلغت ذروتها في حوالي عام ١٩١٠ بظلالها القاتمة. هذا الطراز من الذرا (الذروتان التوأميتان) لافت للنظر من ناحية أنه إذا ارتفعت ذروة انخفضت الأخرى، بما يوحي بأن شيئًا ما قد انتقل من الألمانية إلى الفرنسية ثم، بعد بعض التحولات، من الفرنسية إلى الألمانية. وبطبيعة الحال، فإن المنحنيات لا تقول لنا كثيرًا عما يحدث هنا. ويتعين على المرء عند نقطة معينة أن يعود إلى المواد الفهرسية.

الفحص الدقيق في القوائم التي تشكل هذه الذرا يبين أن الجانب الأكبر مما هو منقول إلى الفرنسية يتضمن ترجمات قصائد فاجنر الأوبرالية، وهي على وجه الدقة ما أردت أن أسقطه من حسابي منذ البداية. وهناك بطبيعة الحال الكثير من النصـــوص الأخـــرى تصب في المجرى العام، لكن تكرار ترجمات ليبريتي (١٠٧ عناوين) يعطي برغم ذلك أشكالاً من القطع المكافئ ***Parabola*** (انظر شكل ٨).

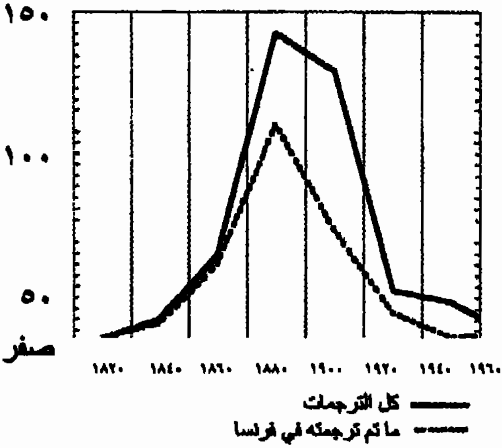

شكل ٦

التوزيع التعاقبي لعدد ٣٧١ ترجمة لموضوع سالومي

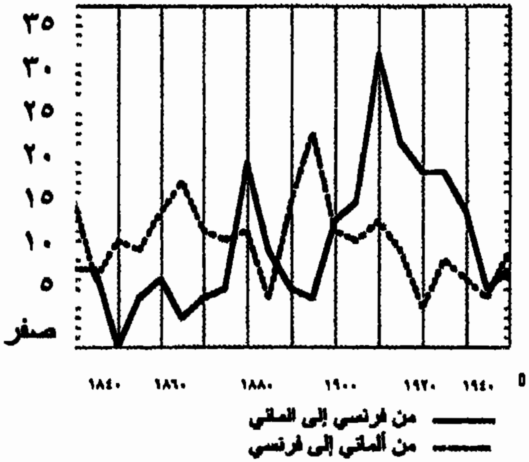

شكل ٧

ترجمات النصوص الغنائية، عن بيل/ إبتنج وفروم

(مبينًا الذروتين التوأميتين)

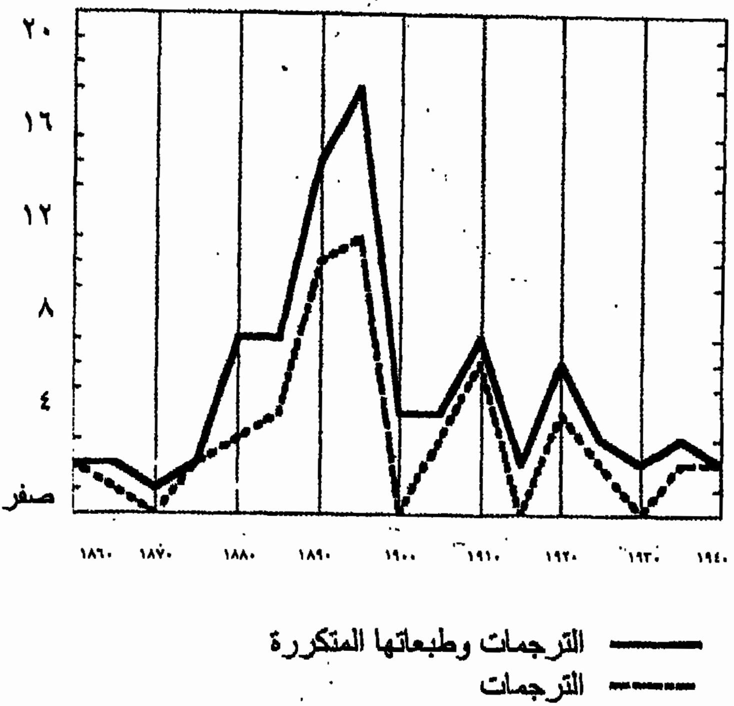

شكل ٨

الترجمات الفرنسية لقصائد فاجنر الأوبرالية

ومع أن الذروة تأتي هنا تالية للمجرى العام المبين بشكل ٧، إلا أنها تتطابق تمامًا مع تفسير مثير للحركة برمتها. ويمكن للمرء أن يفترض أن فاجنر تم ترجمته إلى الفرنسية، وأن الترجمات أثرت في علماء الجمال لفترة ما بعد الرمزية، وأن نتاج الترجمة قد أعيد ترجمته إلى الألمانية. لكن لا شيء من هذا تنبأت به في فرضياتي الأولية، تلك الفرضيات التي كان أساسها فكرة عامة ساذجة

عن الشعر بوصفه عملاً من أعمال الشعراء وليس الموسيقيين. لكنهم كانوا يفكرون في أواخر القرن التاسع عشر بطريقة أخرى. كان فاجنر في نسخته الفرنسية مصنفًا كشاعر. كما أن فرضية أن تأثيره قد امتد خلال فترات ما بعد الرمزية وعاد إلى الألمانية تستند إلى قراءة في كتابات ماكس نوردو ***Max Nordau 1892-3 I:267-332*** الذي عارض الحركتين، وإدوار دوجاردان ***Edouard Dujardin*** ***(1931: 94, 166,190)*** الذي زعم أن نفوذ فاجنر لم يؤد فقط إلى تحويل النظم الفرنسي إلى نثر بل استطاع أن يصل في النهاية إلى ذروته عند جويس ***Joyce*** وغيره. ليس ذلك لأن نوردو ودوجاردان كانا مراقبين محايدين تمامًا لهذا النفوذ، فقد كانا الممثلين الرئيسيين لطرفي معادلة الأهمية. نوردو مناهض للحركتين على حين أن دوجاردان يعمل على إذاعتهما وتعزيزهما. وقد كانت ظاهرة القياس الكمي غير متوقعة بل وربما كانت وهمية تمامًا.

إن المنحنيات التكرارية يمكنها في آن واحد أن تزيف فرضيات وتوحي بفرضيات مختلفة.غير أن هذا لا يعني أن كل شيء يمكن عمله بتخطيط الرسوم البيانية، تلك البيانات التي هي في واقع الأمر لا تعدو عمليًا عن كونها البيانات التي يستعرضونها. وفيما يتعلق بأواخر القرن التاسع عشر، بيَّن بحث لاحق أن الوظائف الثقافية للترجمات الغنائية تتناسب مع الدوريات ***(Petites revues)*** أكثر مما تتناسب مع نشر الكتب. وقد كانت خطوتي التالية هي أن أستخرج المواد الفهرسية من خلال قراءة منظمة في المجلات الأدبية الرئيسية للفترة المعنية، بدءًا بمقال دوجاردان ***Revue Wagnèrienne (1885-1888)***. ولم تكن التوزيعات التي تمت على أساس الفهارس العامة للكتب المترجمة تحتوي إلا على القليل جدًّا عند هذه المرحلة من البحث. ولكن ما كان بإمكاني أن أصوغ فرضيات جديدة بدونها؛ لأنني ما كنت لأنتبه أصلاً إلى فاجنر. ومع أن مناهج القياس الكمي في ذاتها لا تستطيع أن تكتب تاريخًا وافيًا، إلا أنها تستطيع بكل تأكيد أن توجهنا الوجهة السليمة.

الترجمات المتكررة والطبعات المتكررة واللاترجمات

ربما تكون قد لاحظت أن شكل ٨ يتضمن منحنى تحليليًا للطبعات المتكررة لترجمات فاجنر (أي الحالات التي أعاد فيها نفس الناشر أو ناشر مختلف نفس الترجمة أو نشر طبعة ثانية أو ثالثة أو غير ذلك). وهذا المنحنى يتتبع بدقة توزيع "كافة الترجمات". ويرتكز القرار الخاص باستخدام بيانات هذه الطبعات المتكررة على نفس الحجة التي يرتكز عليها استخدام التداخل بوصفه كشافًا للأهمية في حالة سالومي (انظر الفصل السابق). وفي هذا الشأن، فإن المنحنى الناتج يساعد إلى حد بعيد على إقرار ترجمات فاجنر بوصفها ظاهرة من ظواهر ***Fin de siecle***. والواقع أنه كان هناك في تلك الفترة ليس فقط ترجمات كثيرة بل كان هناك أيضًا إعادة طبع لترجمات سابقة. وهذا لابد أن يعتبر كشافًا وافيًا بالطلب العام. غير أنه يجب أن يشير بدقة أكبر إلى نوع من الأهمية المشتقة من الموضوع ***Object-derived importance***.

ويمكن تبرير الطبعات المتكررة على اعتبارين. أولهما، على أن البيانات، في هذه الحالة، موجودة في قوائمنا، ولذلك فإنها عمليًا لا تكلف شيئًا في الحصول عليها. ثانيهما، على اعتبار أن البيانات المتاحة لهذه الفترة لا تتضمن إحصائيات عن مسارات الطباعة أو المبيعات الحقيقية، ولذلك فنحن لا نملك طريقة مناسبة لحساب أي عدد من الترجمات ذهب لأي عدد من الناس. وهكذا فإن تكرار الطبعات المتكررة يمكن أن يحل محل المعلومات المفقودة، وذلك عن طريق إعطاء تقدير تقريبي أولي حين يكون هناك طلب عام، كما أن ذلك النوع من الترجمات يكون الطلب عليه كثيرًا. وهذه طريقة غير مكلفة في الحصول على نتائج لافتة للنظر.

وكما يمكنك أن تتوقع، فإن التكرارات الدقيقة والمناسبة كالتي في شكل ٨ تميل إلى الإيحاء بأن هناك شيئًا ما تم تلفيقه. تأمل بدقة فيما تبينه المنحنيات. أليس من المؤكد أن يتوقع المرء أن الطبعات المتكررة تتركز عند نقاط تأتي في أعقاب قمم الترجمات؟ لقد انبثق الارتباط السحري، بطبيعة الحال، إثر قرار ضم الترجمات والطبعات المتكررة بدلاً من الفصل فيما بينهما، مما أدى إلى إخفاء

مختلف أنواع التغير الكرونولوجي. كما أدى ذلك إلى إخفاء المعلومات الخاصة بالطبعات الأولى، التي توارت تمامًا في طوايا المادة الفهرسية الضخمة، بالإضافة إلى التوزيع النوعي للترجمات، تلك الترجمات التي لا تتبنى بصورة حتمية نفس المنطق الداعم للطبعات المتكررة. وحتى لا يكون أي شيء خافيًا، فإن شكل ٩ يبين توزيعات الطبعات المتكررة كلٍ على حدة؛ الترجمات الأولى، ثم الترجمات المتكررة (أي ترجمات نصوص الأعمال الأوبرالية ***"libertti"*** التي كانت مترجمة من قبل إلى الفرنسية). لكن الصورة ليست دقيقة بالقدر الكافي.

وهنا نكتشف العديد من الإزاحات. الترجمات الأولى تم إجراؤها قبل أن يصل الطلب عليها إلى ذروته، ذلك الطلب الذي لا يزال قائمًا في مكان ما عند منتصف العقد العاشر من القرن التاسع عشر (مُنحنيا الترجمة وإعادة الطبع المانعان لأحدهما الآخر يؤكدان أحدهما الآخر تمامًا عند هذه النقطة). وفي الواقع، فإن الترجمات الأولى جاءت في أعقاب الترجمات الألمانية الأولى. ولكن حين نشبت حرب عام ١٨٧٠ – ١٨٧١؛ وانهزمت فرنسا، واحتفى فاجنر بالهزيمة في مسرحيته الهزلية ***Une Capitulation*** [استسلام] ؛ لم يكن الفرنسيون سعداء، ولم تنشر أي ترجمة لفاجنر في باريس بين عامي ١٨٦٩ و١٨٧٩. وقد ساعد هذا الانقطاع على نشر عدد هائل من الترجمات والترجمات المتكررة في بروكسل في سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر بل وعكف البلجيكيون على إنجاز عدد كبير منها (ونخص بالذكر كلاً من ويلدر ***Wilder*** وكوفيرات ***Kufferath***). وبهذا، لم يكن هناك فقط فجوات تعاقبية لها دلالتها كنتيجة للهزيمة الفرنسية بل كان هناك أيضًا إزاحة جيوبوليتيكية نحو وسطاء بلجيكيين. وللأسف، فإن الضوء الذي يسلطه الشكل البياني على العلاقات التعاقبية يفشل في تبيان هذه الظاهرة الثانية. بل إنه، في الواقع، يعمل بشدة على إخفائها بتجميع كل الأشياء معًا بدون تمييز على أنها "فرنسية".

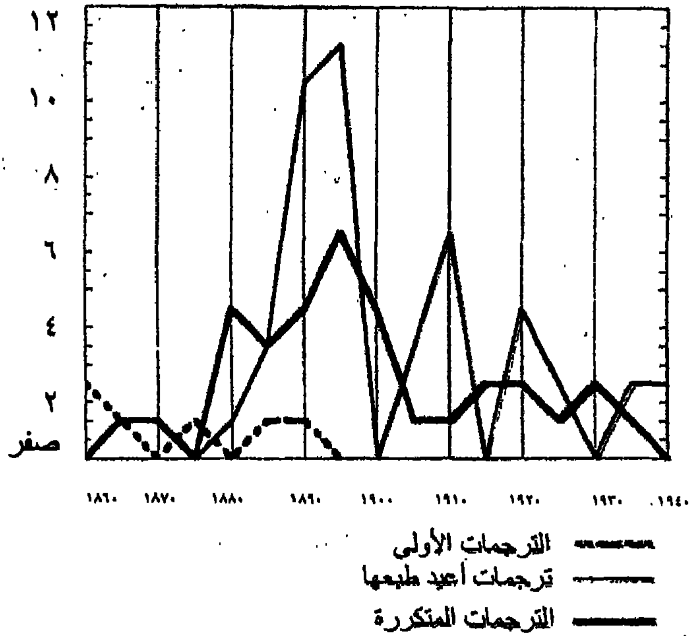

شكل ٩

الترجمات الفرنسية لنصوص أوبرا فاجنر

الترجمات الأولى، والترجمات المتكررة، والترجمات المعاد طبعها

هناك أيضًا عناصر أخرى تم إخفاؤها أو ملاحظتها بهذه الطريقة في التحليل. على سبيل المثال، اللحظة التي ينطلق فيها المنحنيان "المتداخلان" (الترجمة المتكررة وإعادة الطبع) تتطابق تمامًا مع صدور الجريدة الأنيقة ريفيو فاجنريان ***Revue Wagnérienne*** أعوام ١٨٨٥ – ١٨٨٨. فكيف يمكن تفسير هذا التطابق؟ دعنا ننفذ إلى صميم الموضوع. لماذا يتم تفسير ذلك بمصطلحات القياس الكمي؟ لقد حركت ريفيو فاجنريان القليل من الموجات من خلال تفسير

فاجنر لجماعات أدبية بعينها في باريس. لكن الدوريات لم تنقل، للأسف، سوى ترجمات من النصوص الأوبرالية (٢٠ صفحة في السلسلة كلها)، تلك الترجمات التي كانت على أية حال غير مدرجة في مادتنا الفهرسية الأصلية (فهي لم تكن منشورة في شكل كتاب). كما أن ريفيو فاجنريان كانت تفتقر إلى شبكة التوزيع المناسبة (فقد كانت تباع على مدخل حفلات لاموريه ***Lamoureux*** الموسيقية في باريس) وظلت تباع بنسب تافهة. وهي حتى إن كانت قد أُدرجت، فإنها ما كانت لتحدث انبعاجًا ***dent*** في الشكل السابق. إن دور تحليل القياس الكمي في هذه الحالة هو اختبار الأهمية المزعومة لمثل هذه الظواهر.

هل يمكننا مع ذلك أن نرى أن ريفيو فاجنريان هي السبب في أن تثب منحنيات "التداخل" فجأة لأعلى؟ إنها في الواقع لا تشغل المكان المناسب في الوقت المناسب. ومرة أخرى، لابد، مع ذلك، من الاحتراس من الوصول إلى استنتاجات متسرعة من واقع البيانات الإحصائية المحضة. فهناك العديد من العناصر التي توجه الأرقام. والأكثر أهمية هو أن دار إسكوت آند زون أوف مينز ***Schott & Söhne of Mainz*** هي التي احتجزت حقوق ترجمة فاجنر ووقعت اتفاقًا بذلك مع المترجم البلجيكي ويلدر عام ١٨٨٥، وهو نفس العام الذي بدأ فيه إصدار ريفيو فاجنريان. أخذ ويلدر يترجم ويعيد الترجمة؛ وأخذت إسكوت تصدر مطبوعات ثنائية اللغة ومتعددة اللغات في كل من باريس ولندن وسيدني ومينز وبروكسل وليبزج (عبر بريتكوف ***Breitkopf***)؛ وأخذت المنحنيات تتواثب في كل الأنحاء. ويبدو أن عملية التداخل قد جاءت نتيجة للاتفاقيات الدولية للنشر. وقد يكون أفضل تفسير هو، بطبيعة الحال، النظر إلى كلا العاملين على اعتبار أن ثمة علاقة سببية تربط كلاً منهما بالآخر، حتى أن الريفيو فاجنريان الباريسية ذات الطابع النخبوي جاءت معارضة لنسخة ويلدر "المبتذلة" لفاجنر، وبذلك بدأت مناظرة حول الأهمية استمرت طوال العقد العاشر من القرن التاسع عشر (حين جسدت المعارضة

ترجمات ايرنست المتمسكة بالمعنى الحرفي للكلام). وقد اتخذت هذه المناقشات أبعاد الحروب في باريس العقد العاشر من القرن التاسع عشر، وهو ما يفسر لماذا كانت هناك ترجمات كثيرة جدًّا، وكذلك لماذا يصبح منحنى إعادة النشر شديدة الغرابة.

ومع أن منحنيات التوزيع يمكن أن تساعدنا على أن نرصد وعلى أن نحدد الظاهرة الكمية أحيانًا، إلا أن الواضح أنها لا تستطيع أن تخبرنا بالقصة كلها. لذلك يجب علينا الاهتمام بالبيانات ذات الأهمية الكيفية مع أنها غير دالة من الناحية الكمية (جريدة *ريفيو فاجنريان*)، وكذلك يجب الاهتمام بالأسباب الحقيقية لظواهر مثل الطبعات المتكررة والترجمات المتكررة. إن الأرقام بمفردها قد تشير إلى نوع من التشويش، لكنها لا تستطيع أبدًا أن تفسر الأسباب.

تكرار الترجمة ودوافعه

التحليل المتسرع لمادة فاجنر الفهرسية توحي بأن الترجمات المتكررة كانت ثمار نوع من المناظرة حول كيفية توصيف نص بعينه. فحين تكون هناك خلافات تتعلق بإستراتيجيات الترجمة، فإن من المحتمل أن تكون هناك العديد من الترجمات للنص الواحد، خصوصًا حين لا يحتمل النص اختلافات كبيرة في الترجمة. فهل يمكن تعميم مثل هذه الفرضية؟

دعني أدقق الألفاظ بعض الشيء. إن تكرار ترجمة نصوص مثل الكتاب المقدس ***the Bible*** بشكل دوري يبدو ظاهرة مختلفة تمامًا، على الأقل حين تكون هذه الترجمات المتكررة بينها فواصل زمنية وجغرافية واسعة نسبيًّا وتكون استجابة لعمليات تغير لغوي أو ثقافي طويل الأمد في المجتمع المستهدف. وقد تم تطبيق منطق مشابه على النصوص التي تعاد ترجمتها والتي تفصل فيما بينها حدود تزامنية (جيوبوليتيكية أو لهجية)، حيث يحتمل أن يكون هناك قدر من التنافس بين

الترجمات المختلفة دون أن تتعارض مفاهيم الترجمة هنا أو هناك. ويمكن أن يطلق على هذه الترجمات المتكررة تعبير "ترجمات متكررة سلبية"، على الأقل إلى الحد الذي تحدث فيه بعض هذه الترجمات تشويشًا على بعضها الآخر. غير أن الترجمات المتكررة، التي لها نفس الموقع الثقافي أو المنبت الواحد، ينبغي أن تستجيب لشيء آخر، خصوصًا حين تعطي قطوعًا مكافئة واضحة مثل تلك القطوع الظاهرة في الشكل السابق. فلنلق نظرة قصيرة على ثلاثة أمثلة من هذه الظاهرة الأخيرة التي يمكن أن نطلق عليها تعبير " إعادة الترجمة الإيجابية".

•في هيسبانيا ***Hispania*** القرن الثاني عشر، كان من الممكن أن يظهر نوع من التكرار الإيجابي للترجمة حيث يقوم مترجم واحد بإعداد ترجمات عديدة لنص واحد. ويوحي تحليل كلاجيت للمخطوط المنسوخ (***Clagett 1953***) بأن ***Adelardus*** ***de Adelard of Bath to his friends) Bada*** [أدلارد الباثي إلى أصدقائه]) أنتج ثلاث ترجمات من كتاب العناصر لإقليدس ***Euclid's Elements***: كانت الترجمة الأولى من النص العربي مباشرةً، والثانية تضم تعليقات تربوية وتسقط الكثير من الحجج، والثالثة تعيد الحجج المحذوفة إلى مواضعها. ويبدو أن الترجمات الثلاث قُصد منها تلبية وظائف تربوية مختلفة لقراء مختلفين. ومن هنا كان لتكرار الترجمة هدف إيجابي.

•في قشتالة القرن الثالث عشر، حدثت واقعة بارزة لإعادة الترجمة الإيجابية عام ١٢٧٧ حين عهد ألفونسو العاشر ***Alfonso X*** إلى كل من بيرنالدو الـ أرابيجو ***Bernaldo el arabigo*** وأبراهام الفقي ***Abraham alfaqui*** بإعداد ترجمة ثانية من كتاب الزرقالي(*) "الصفيحة"، يتم فيها تصحيح الترجمة التي كان قد أمر بها وتلقاها

(*) أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى النقاش الزرقالي ١٠٢٩ – ١٠٨٧ أحد رواد الرياضيات العرب والفلكي الأبرز في زمانه، عاش في طليطلة قشتالة (الأندلس/إسبانيا حاليًا). وكان الزرقالي قد اخترع نوعًا جديدًا من الأسطرلاب شرح تركيبه وطريقة عمله في كتاب حظي باهتمام كبير=

منذ حوالي عشرين عامًا من فيراندو الطليطلي *Ferrando de Toledo* – انظر: *Ballesteras Beretta 1984: 817*. إنه نفس الراعي ونفس النص وعمليًا نفس اللغة المستهدفة [المنقول إليها]، لكن يبدو أن الملك عاد الآن إلى مشروع الترجمة تحدوه رغبة عارمة من جديد في تصحيح اللغة القشتالية عند المترجمين. ومن هنا كانت التوصية بتكرار الترجمة.

في إسبانيا *Spain* القرن الخامس عشر، تم ترجمة كتاب فرنسي عن الحرب *Bouvet's Arbre des batailles* إلى القشتالية مرتين، مرة لصالح مركيز دي سانتلانا *Marquès de Santillana*، ومرة أخرى، في نفس الفترة تقريبًا، لصالح ألفارو دي لونا *Alvaro de Luna* المنافس السياسي الأول للماركيز – *Schiff 1905: 379, Alvar and Gómez Noreno 1987* ومع أن المترجمين كانا مختلفين، إلا أنه يبدو أن إستراتيجيتي الترجمة لم تكونا مختلفتين إختلافًا كبيرًا. إن ما أخذ بعين الاعتبار هو بلاشك محتوى الكتاب، ذلك المحتوى الذي لم يرد أيٌّ من الراعيين أن يكون حق نشره مقصورًا على الآخر. ومن هنا كان تكرار الترجمة.

هذه الأمثلة الثلاثة تثبت بكل تأكيد أنه لا توجد سببية واحدة وراء التكرار الإيجابي للترجمة.إنها، على العكس، توحي بتنوع الأسباب الاحتمالية. ففي كل مثال، لا تمثل واقعة تكرار الترجمة الرغبة المجردة في إعادة النشر. وفي حين أن إعادة النشر قد يعني إقرار صلاحية ترجمة سابقة، فإن تكرار الترجمة يمثل اعتراضًا صريحًا على تلك الصلاحية، ويُدخل بذلك في نفس الوقت سلبية ملحوظة في العلاقة بالتأكيد على الرغبة في تقديم نص يتميز بترجمة أكثر دقة. وبسبب هذه السلبية التي تشوب حركة الثقافة الأخرى ذات الصلة، فإن التكرارات الإيجابية للترجمات تمثل الكشاف الدقيق الذي له أهمية تاريخية.

---

*سماه "الصفيحة الزرقالية" محاكاة لـ "ذات الصفائح" الاسم الذي أطلقه العرب على الأسطرلاب، ربما منذ القرن الثامن الميلادي. (المترجم)

ونؤكد من جديد أنه يجب الانتباه لفهم ما يجري تحليله هنا. إن المقارنة بين تكرارين سلبيين للترجمة أو بين أكثر من تكرارين سلبيين (أي، الترجمة الأولى + الترجمات التالية) قد تميل إلى إعطاء معلومات عن التغيرات التاريخية في الثقافة المستهدفة (مثلاً، النَظم الحر أصبح شائعًا في الإنجليزية، وعليه تمت ترجمة هوميروس *Homer*). وبصرف النظر عن أن مثل هذه الخطوة غالبًا ما تكون فضلة زائدة عن الحاجة (فالمعلومات التي تم الكشف عنها بهذه الصورة كان يمكن الحصول عليها بدون إجراء دراسة في تاريخ الترجمة)، فإنها لا تؤكد إلا الفرضية العامة الخاصة بأن معايير الثقافة المستهدفة هي التي تحدد إستراتيجيات الترجمة. لكن التحليل المقارن للتكرار الإيجابي للترجمات تميل، برغم ذلك، إلى تحديد الأسباب الأقرب للمترجم، خصوصًا في إطار الرعاة والناشرين والقراء والسياسة الخاصة بالازدواج الثقافي (لكن من الواضح أن تأثيرات الثقافة الأحادية غير مستبعدة من أي جانب). وهكذا يبدو أن دراسة الترجمات المتكررة إيجابيًا كان يتم تحديدها كأفضل ما يمكن من خلال إلقاء نظرة فاحصة على طبيعة وأساليب الترجمة ذاتها، وعلى مدى ما بها من اضطراب، وبدون التنازل العمياني عن السببية لصالح معايير الثقافة المستهدفة.

فرضية تعاقبية عامة

دعني أنهي هذا الفصل بفرضية عملية عريضة قد تكون أكثر غرابة من أي شيء آخر نظرًا لأنها تأتي من رؤية أشكال منحنيات التكرار أكثر من أي أدوات تفسيرية دقيقة.

إن كافة التوزيعات السالفة الذكر تحقق هذا أو ذاك النوع من معادلات القطوع المكافئة، إنها نادرًا ما تبقى لدى أي هزة ثابتة للخلفية. بل نجدها، عند تأملها عن كثب، تهتز بطريقة غريبة، تتواثب إلى أعلى وأسفل بدلاً من تكوين منحنيات ملساء، ويبدو أن هذا يحدث عند كل مستويات التحليل تقريبًا (منحنياتي الضيقة النطاق الخاصة بكل دورية على حدة تتقافز أيضًا بطريقة زئبقية). فهل

هناك ما يبرر حتمية أن ترتبط الترجمة بعدم الثبات الكمي بدلاً من الثابتية النسبية *relative invariance*؟

قد يتوقع المرء بشكل عقلاني أن الترجمة تستجيب مباشرةً لعمليات قطع العلاقات نتيجة للحروب والثورات، والدورات الاقتصادية، والاضطرابات العامة للثقافات الأخرى في العصر الحديث. لكننا حين نحلل موضوعًا قصيًا جدًا كالترجمات من اللغة العربية التي تمت في هيسبانيا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (١٤٧ مادة)، نجد أنماطًا متشابهة جدًا بسبب عدد قليل جدًا من الحروب أو الثورات المواكبة لها[1].

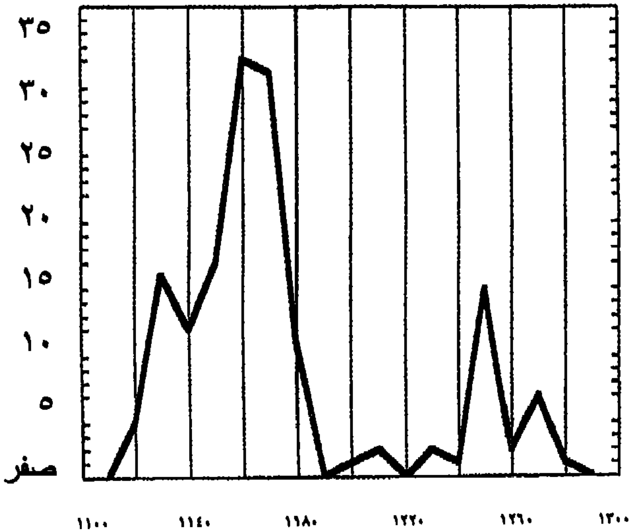

شكل ١٠

ترجمات من اللغة العربية في شبه جزيرة أيبيريا في الفترة ١١٠٠-١٣٠٠

(١) أضيف شكل ١٠ لكي أطرح سؤالاً حول مفهوم "مدرسة طليطلة" الموحدة: فقد كانت الذروة الكبرى الأولى هي الترجمة إلى اللاتينية وتمت برعاية الكنيسة، وكانت الذروة الكبرى الثانية (بعد عام ١٢٥٠) هي، غالبًا، الترجمة إلى القشتالية، وكان راعيها ألفونسو العاشر.

أفتكون هذه المنحنيات نتيجة للبيانات غير الجديرة بالثقة وما طرأ عليها من تشويه على مر القرون من جانب المؤرخين المتحيزين فقط؟ إن المصفاة التاريخية تلقي بلا شك ظلالاً معتمة على النظارة التي ننظر من خلالها. لكن مثل هذه الحشود الكثيفة توحي بكل تأكيد أنه كان ثمة شيء ما هناك في القرن الثاني عشر ثم في القرن الثالث عشر. إن الكم المطلق يمكن أن يتضح رغم ذلك القدر من التحريف التاريخي، خصوصًا إذا عرفنا كيف نهيئ رؤيتنا. وفي هذه الحالة، فإن رسالتنا تتبلور بشكل غريب لتتخذ شكل القطوع المكافئة المألوفة.

هل يمكن أن يكون مرجع هذه التكرارات الأفعوانية هو طبيعة الترجمة نفسها، على الأقل على النحو الذي نجده في الثقافات الأكثر مركزية؟ هناك مبررات جيدة لأخذ هذه الفرضية مأخذ الجد. ونتيجة لأنها إستراتيجية غالية الثمن نسبيًا للتبادل بين الثقافات، فإن الترجمة قد تكون صالحة جدًا للمشروعات القصيرة الأجل فقط، ولكنها في النهاية تفسح الطريق لإستراتيجيات بديلة تشمل تعليم اللغة (حين تكون هناك مادة ينبغي تبادلها) أو لعدم التبادل (عندما لا تكون). ومما يزيد الأمر إرباكًا أن توزيعًا يحقق معادلة القطع المكافئ بشكل مشابه قد يكون قائمًا في التاريخ الحديث لتدريب المترجمين (شكل ٥ أكثر من شكل ٤)، ذلك التوزيع الذي يمكن أن يبين نوعًا من الطلب المتقلب قصير الأجل على المترجمين وربما الطلب الذي يحقق معادلة القطع المكافئ للترجمات والدراسات الخاصة بالترجمة وحتى بتاريخ الترجمة. فهل توحي هذه المنحنيات بأن المصلحة الاجتماعية سرعان ما سيتم تجنبها في مسعانا؟ ربما يتعين علينا أن نتهيأ لمجالات بحث أوسع أو مجالات لها بدائل. وهذه هي، على الأقل، الفرضية المناسبة التي قد نرى أن اختبارها يمثل أهمية بالغة.

الفصل السادس
الشبـكات

أود الآن أن أقدم أحد الخيارين المطروحين لاستخدام المواد الفهرسية والتعريفات المانعة وتوزيعات التكرارات. إن مبررات البحث عن خيار لابد أن تكون واضحة تمامًا: فالمنهج الاختزالي ***reductive method***، في الانتقال من النظرات الشاملة الكبرى إلى المجالات ذات الأهمية الأقل، له مشكلة ضخمة في إقرار الحالات الحدودية، وتحديد الأسباب، ووصف الحقول المتغايرة في خواصها، وبيان الإزاحات الهامة، وتحديد نسب العلاقات السلبية. وقد يمثل هذا مشكلة كبيرة. والمنهج البديل، الذي يشتمل أساسًا على شبكات تتبعية تتدرج في عملها من أسفل إلى أعلى، قد يساعد على علاج هذه الجوانب بدرجة أكبر قليلاً من النجاح. والأفضل هو استخدام هذا الأسلوب إلى جانب الأسلوب الاختزالي الذي يتدرج من أعلى إلى أسفل.

الصفحات التالية تستعرض أمثلة لأسلوب المنهج التدريجي ***incremental method*** في الكشف علاقات الماضي. وسوف أهتم في أثناء ذلك بطرق لاستعـــراض الشبكات الناتجة، وبالأساس من خلال طريقة في رسم الخرائط التي لا تهتم كثيرًا بالحدود الدولية.

إعادة بناء الشبكات من الداخل

هناك نوع بسيط من بناء الشبكات يشيع وجوده بشدة في دراسات ترجمة العصور الوسطى. وقد تم إعداد مواد فهرسية قليلة من الترجمات والمواءمات على

أساس الروابط التي يحتمل أنها تربط كل ترجمة بالترجمات الأخرى. وهذه الروابط تكون دائمًا بمثابة السببية الأولية ***initial causation*** المفترضة. فالباحث قد يفترض أن النص "*A*" تم ترجمته من النص "*B*" الذي كان بدوره تنقيحًا للنص "*C*"، وأن كل هذا ساهم في تكوين الفرع "*P*" الذي امتد موازيًا للنص "*R*" عبر قرون وثقافات عديدة. وحين يمكن لهذا النوع من البناء الشبكي أن يقيم علاقات تبادلية جيدة بين كل نصوص مادة فهرسية معينة، فإن مصطلح "اختزالي" يصبح بكل تأكيد وصفًا متعسفًا لهذه العملية. وحين يكون هناك مكان لكل هذه المفردات، فإن المنهج لا يكون اختزاليًّا وليس تراكميًّا؛ بل يكون ذا علاقة قوية بالبنيوية السببية ***causal structuralism***. وعلى أية حال، فإن مثل هذا النوع من البناء الشبكي ذي السبب الأولي يمكن أيضًا أن يكون تراكميًّا تمامًا كما يحدث في العادة في المواضع التي يمكِن لواحدة أو أكثر من "الروابط المفقودة" أن تفسر الظواهر بطريقة أكثر إقناعًا.(١) هل كان النص "*A*" ترجمة مباشرة للنص "*B*" أو هل يمكن أن يتم تفسير الأخطاء والأشياء المغفلة عن طريق ترجمة وسيطة، أو ترجمة سابقة، أو عن طريق التباينات الهجائية للكلمات في النص "*B*" عن مثيلاتها في نسخ المخطوطة "*A*"؟ كلما تم تحديد مثل هذه الفرضيات، مهما يكن الداعي إلى ذلك، فإن الباحث يشرع في اكتشاف الروابط الخاصة بها. وبذلك يتخطى المنهج المادة الفهرسية ويصبح تراكميًّا.

---

(١) ترد في كتاب سي دبليو ماركس (C.W.Marx 1991) أمثلة فيلولوجية واضحة عن النقل من الأنجلونورماندية Anglo-Norman إلى الإنجليزية الوسطى، كما ترد أمثلة في كتاب كالينكه (Kalinke 1991) أمثلة عن الترجمات الأيسلندية الإسكندنافية Norse-Icelandi في مخطوطات القرن الثامن عشر. وقد يكون المثال الأكثر أيديولوجية هو المناظرة التي دارت بين الباحثين الفرنسيين والباحثين الإسبان فيما يتعلق بوجود الترجمة الهسبانية لجداول علم التنجيم في عصر ألفونسو. لقد كان أحد الطرفين على يقين من أن مخطوطة كهذه كانت موجودة بالضرورة؛ على حين أن الطرف الآخر كان يرى بنفس القدر من اليقين أن الجداول الأصلية كانت فرنسية (انظر: Poulle 1987). ولابد أن إحدى الوظائف المنهجية للشبكات هي الإصرار على أن مثل هذه المناظرات قائمة على احتمالات مادية.

وبصفة عامة، يمكن استخدام المناهج التراكمية كلما أصبحت المواد الفهرسية الأولية غير وافية. وعادةً ما يعني هذا، في دراسات العصور الوسطى، محاولة تعويض البيانات المفقودة. أما في الدراسات الحداثية، فإن المواد الفهرسية تكون غير وافية في أغلب الأحوال نتيجة لوجود معلومات هائلة، أو لأن هناك بالأحرى وفرة في المعلومات عن مستويات شديدة الاختلاف.

نقدي للاستقبال الفرنسي لفاجنر مثال على ذلك. فالفرضيات التفسيرية، كما لاحظت، سرعان ما وصلت إلى مرحلة لم يعد في الإمكان اختبارها في قوائم الكتب. وفي مثل هذه الدراسة، وفي الدراسات الموازية لها في علم الجمال الحداثي، لابد أن يتم رصد معظم جوانب العمل في الدوريات وعروض الكتب *petites revues* التي شاعت في العصر وتمخضت عنها الروائع الجماعية الحقيقية للجماليات الحداثية. كان بوسع مادة مطبوعات الكتب أن تصل بي إلى هذا الحد فقط. فقد كانت قد ألقيت نظرة مدققة على الدوريات. لكن أي دوريات؟ في الجانب الفرنسي فقط؟ فماذا عن الدوريات البلجيكية والألمانية وبقية الدوريات؟ من أين يجب عليّ أن أبدأ؟

المشكلة لها بُعد كميّ مرعب. فطبقًا للباحث السوسيولوجي ألفونس بوبير *Alphonse Boubert*، الذي كان موجودًا حينذاك، كان هناك نحو ١٧٤٨ دورية يتم نشرها في باريس عام ١٨٨٩، منها ٥٦ دورية متخصصة في الأدب (كما ورد في: *La Plume 1/1, 15 avril 1889*). وبالنسبة للجانب الألماني، يسجل إشلافه (*Schlawe 1965*) حوالي ٦٤ دورية أدبية هامة عن الفترة ١٨٨٥ – ١٩١٠. ونظرًا لأنه لم يكن لديّ وقت لتحليل٥٦ + ٦٤ دورية، كان من الطبيعي أن يجري اختزال المجال. كان يمكن إجراء ذلك على أساس المصادر الثانوية (سجلات الأحداث الأدبية لتلك الفترة). لكنني بدلاً من اللهاث وراء الفرضيات المناسبة، حاولت أن أستخدم في هذه العملية الأنواع الأدبية والروابط الموجودة في الموضوع التاريخي. وقد تطلب هذا أن أهتم بعلاقات التقاطع الثقافي أو السجلات الثانوية التي تعدها وتستخدمها الدوريات نفسها. والمنهج مشروح على أحسن ما يكون بالأمثلة.

في رسالة للمجلة الباريسية لا بليم (*La Plume, (15 mai 1893*، ذكر شخص يُدعى كارل أوغسط أن ألمانيا، مثلها مثل بريطانيا، ليس لديها مُناظر حقيقي لباب عرض الكتب الفرنسي ***French petite revue***. والواقع أننا نعرف أن المجلة الألمانية الجديدة ***Blätter für die Kunst*** هي الدورية الوحيدة المماثلة للنموذج الفرنسي. كما أنها كانت الدورية التي كان كارل أوغسط قد بدأ يصدرها منذ عام ١٨٩٢ باسمه الكامل كارل أوغسط كلاين ***Carl Augest Klein***. ورسالته تبين مدى تشابه هذه الدورية الألمانية المحددة بنموذج فرنسي معين. ويبين نشر الرسالة بالفرنسية رغبة فرنسية معينة في إظهار هذه الفكرة. وربما كانت هذه علاقة لها بعض الأهمية، ومنطلقًا مثيرًا للمناقشة.

هكذا تختار المجلتان لا بليم (باريس) وبلاتر إحداهما الأخرى. وهما تكونان رابطة ذات سببية أقوى من تلك الموجودة في مجرد التماثل على طول المنحنى التكراري. فبالإضافة إلى ذلك، يمكن لسلسلة روابط من هذا النوع أن تشكل حلقة ذاتية الاختيار ***self-selecting circuit***، ناشئة بدون حاجة كبيرة لأية معايير بديهية أخرى. كان ثمة مصادر للمعلومات بادية للعيان. فقد كتبت المجلة البلجيكية لا والوني، لا بليم في عددها الأخير قبل أن تتوقف عام ١٨٩٢، كلمة تحيي فيها ***Blätter für die Kunst***. ومن غير المدهش أن مجلة لا والوني نفسها ذُكرت غير مرة على صفحات ***La Plume***، كما فعلت مطبوعات كثيرة غيرها ناطقة باللغة الفرنسية، دفاعًا عن قضية ما بعد الرمزية، ومن بين هذه المطبوعات ليرميتاج ***L'Ermitage***. فقبل ذلك بقليل- في نهايات ١٨٩١ وبدايات ١٨٩٢ - نشرت ليرميتاج شعرًا من قريض إستيفان جورج ***Stefan George*** (الذي جاء في الكشاف بصورة '***Stéphane Georges***') باللغة الألمانية مع ترجمات بقلم ألبير سان بول***Albert Saint-Paul*** الذي نحن بصدده. كان جورج ***George*** هو بطبيعة الحال مؤسس ومحرر ***Blätter für die Kunst***، تلك الدورية التي أصدرها صديقنا كارل أوغسط (كلاين). وكان يتعين على جورج أن يترجم بدوره شعرًا من قريض مترجمه الفرنسي ألبير سان

بول نُشر في عدد مايو ١٨٩٣ من الدورية الألمانية. كان ثمة علاقة تعاون واضحة بين الشاعرين. غير أنه كانت هناك علاقة أيضًا بين الدوريتين على نحو ما تقرر عام ١٨٩٢ حين تولى كارل أوغسط (وهو نفسه ناشر ***the Blätter***). كتب في ليرميتاج ناقدًا هذه المرة بطريقة مباشرة دورية دي جيسلشافت ***Die Gesellschaft*** القومية الطبيعية التي تصدر في ميونخ. وهكذا تتوسع الشبكة.

حددنا حتى الآن موضع الروابط الإيجابية بين ***La Plume*** (باريس) وليرميتاج (باريس) و***La Wallonie*** (بروكسيل) وبلاتر ***the Blätter für die Kunst*** (برلين)، في ارتباطها سلبيًّا مع المجلة الأكثر قومية وطبيعية وهي ***Die Gesellschaft*** (ميونيخ). ويمكن القول أنه كلما زادت بحوث الباحثين كلما زاد عدد الموضوعات الداخلة في النزاع وزادت نقاط التقاطع التي تكتسبها الشبكة. ومن الممكن أن يتم كبح البحث أو إطلاقه بالقدر الذي تريده. كما يمكن أن يتم تشكيل وقياس ما يتيسر من الروابط مادامت هناك مئات الأهداف الإستراتيجية بين القبول والرفض. مع ذلك، غالبًا ما يكفي بالنسبة لمختلف التيارات الأيديولوجية بناء شبكة ذات طابع ذاتي بدرجة معينة. وفي هذه الحالة، فإن من الضروري أن يكون هناك قدر من الذاتية الفطرية بسبب التعقد التام للعلاقات. لقد شكلت الدوريات عالمًا صغيرًا يشيع فيه شيء يشبه سفاح المحارم؛ عالم من الشعراء والصحافيين والمترجمين يعملون غالبًا لصالح العديد من المطبوعات في وقت واحد ثم يتبادلون مواقعهم وفقًا لاتجاه الرياح. كذلك فإن علاقات الثقافات المتقاطعة معقدة بنفس الصورة، لها مزيج من معايير تجارية (فالمطبوعات غالبًا ما تعمل كعوامل توزيع بين طرف وآخر) وأنماط جمالية (فيمكن لإحدى المطبوعات أن تأخذ على عاتقها الإعلاء من شأن الكتّاب الهولنديين أو النورديين أو الروس) ووظائف خبرية (فهناك الكثير من مراجعات المراجعات الدولية) وعلاقات مزدوجة ثقافيًّا ذات طابع سياسي صريح تخص فترة الأحلاف والأحلاف المضادة. إن المطبوعات لم تكن مجرد نصوص جماعية ضخمة؛ بل كانت مجموعات اجتماعية صغيرة ترتبط

بمجموعات اجتماعية صغيرة أخرى، لتكوّن سلسلة يمكن تتبعها من شيلي إلى أوروبا وأستراليا، ومع ذلك فإن قليلين فقط كان بإمكانهم أن يدركوا المدى الكامل للشبكة. لقد شملت نشاطات هذه المجموعات الصغيرة عمليات بيع الأسهم كحصص ملكية (فقد كان القراء هم المالكون)، وإقامة المأدبات، وعمل اكتتابات عامة لإطعام الشعراء المعرضين للموت، واكتتابات أخرى لتماثيل الشعراء الموتى، وإقامة معارض لفنون التصوير وصالات عرض تجارية، ونشر الكتب (التي تؤدي الدوريات وظيفة الإعلان عنها). ومن الأفضل لمن يريدون أن يدخلوا إلى هذا العالم الآسر ألا يعدوا وراء ما هو أكثر مما هم في حاجة إليه.

من حيث المبدأ، في استطاعة الباحثين الذين لديهم موارد غير محدودة وقوائم ذات نهاية مفتوحة ***open-ended schedules*** أن يطبقوا منهجًا تراكميًّا يتيح لهم أن يبدأوا عمليًّا من أي نقطة من الشبكة ويصلوا في النهاية إلى شيء يقترب من شكله التاريخي دون فرض أي معايير رئيسية مسبقة. غير أن الباحثين المعدمين بالوراثة من أمثالي يمكنهم أن يطبقوا نفس المنهج ليبدأوا من نطقة افتراضية ويتعرفوا شيئًا فشيئًا على الدوريات التي غالبًا ما تدخل في عمليات تبادل مع الدوريات الأخرى. ويكفي أن الفرضية الأولى يتم تبريرها أو معالجتها متى كان ذلك ضروريًّا. على سبيل المثال، بدأ انجرافي الفعلي للجانب الفرنسي هذه المرة من مجلة ذا ريفيو فاجنريان ***the Revue Wagnérienne*** التي أوصلتني إلى مجلة ذا ريڤيو إندبندانت ***the Revue Indépendante*** (وقد كان دوچاردان ***Dujardin*** مديرًا لكلتا المجلتين)، حتى وصلت في النهاية إلى مطبوعات رئيسية مثل ميركور دي فرانس ***Mercure de France***، التي كانت معتمدة تمامًا على مطبوعات ريفيو دي ديموند ***Revue de Deux-Mondes*** المحافظة، ونظرًا لأنها تغيرت تمامًا، فإن نقطة بدايتي لم تصمد كثيرًا، لكن ذلك اتضح أثناء إجراء البحث.

ونتيجة لأنها دخلت إلى هذه الشبكة، فإن معالجة المطبوعات غالبًا ما تمت بنفس الطريقة التي عولجت بها المواد الفهرسية والتي تم وصفها في الفصول

السابقة. لقد مالت بعض المطبوعات لأن يكون مستوى ترجماتها منخفضًا وأصبحت هذه المطبوعات بالتالي متراجعة (أخذًا في الاعتبار غياب ترجمات هامة). وخرجت في النهاية من ترددي باختيار ست مطبوعات رئيسية فرنسية اللغة وسبع مطبوعات ألمانية اللغة، إلى جانب جولات اختبار بسيطة "لثلاث دوريات "دولية" متعددة اللغات. وقد حددت وسجلت كل مواضع الترجمات الهامة في هذه المادة الفهرسية، وذلك بما يلائم المنهج الاختزالي ***reductive method***.

أما الأسلوب التراكمي ***incremental approach*** فغالبًا ما يكون مسألة ضرورة أكثر منها رغبة. وحين صنفنا قائمتنا الخاصة بمؤسسات إعداد المترجمين، على سبيل المثال، فإن المادة الفهرسية الأصلية التي لدينا كانت قائمة خاصة بجمعيات قومية للمترجمين. كتبنا إليها، وتلقينا نحو أربعة ردود من كل أنحاء العالم. وبعد الاطلاع الدقيق على الرد الأكثر دقة، تعيّن علينا أن نسأل كل مدرسة وكل قسم في جامعة إن كان في الإمكان تزويدنا بعناوين جمعيات أخرى. وسرعان ما أصبحت قوائم المؤسسات المشاركة في البرامج الدولية للتبادل أكثر عطاءً من الجمعيات القومية للمترجمين؛ وقد زودتنا بعض المدارس الكبرى والأكثر ذيوعًا بعناوين المؤسسات التي ساعدت في إنشائها في القارات الأخرى؛ وأمدتنا معلومات جاءتنا من أستراليا بعناوين في كل من اليابان وشيلي وكازاخستان؛ وأخبرنا واحد في البرتغال بأن كنديًا كان يُجري بحثًا مشابهًا لبحثنا (ولم يفدنا بغير ذلك)؛ وهكذا جرت الأمور حتى حق لنا أخيرًا، بعد أن حددنا ٢٧٠ عنوانًا لمؤسسات إعداد المترجمين، أن نتنفس الصعداء أو أن نطلق عليها اسم "شبكة". حقيقة تدريب المترجمين تتحدد بأن كل أنواع العلاقات التي تتخطى الحدود القومية ترتبط بمؤسسات؛ وأن هناك طرقًا كثيرة تنتقل بواسطتها المعلومات عبر الحدود.

ومع ذلك، يبدو أن المنطقي هو أن نبدأ بحثنا من الجمعيات القومية للمترجمين، مثل تلك المؤسسات التي أصبحت غير ميالة لأن تكون ملحقة بالشبكات المناسبة. فالعالم نفسه لم يكن منقسمًا إلى أمم ذات يوم.

وهناك مثال ثالث قد يجعلنا قريبين جدًّا من المشاكل التقليدية للبحث. طُلب مني ذات يوم أن أكتب عن المجموعات الإسبانية من الترجمات. لكنني لم أعهد من قبل شيئًا من هذا القبيل، على الأقل عن الفترة التي تخصصت فيها (أواخر القرن التاسع عشر)، فكيف يتسنى لي أن أجد بعضًا منها؟ كان ثمة طريقتان بصفة أساسية. أولاهما، أن أذهب إلى مكتبة وأبحث في بطاقاتها على كلمة "مجموعات" *antología* وأختار من فترة نهاية القرن *fin de siècle* المجموعات الخاصة بالترجمات. مسألة سهلة جدًّا. لكن هذا يمكن أن يعطيني مادة فهرسية بدلاً من شبكة. وبدلاً من ذلك، كان بإمكاني أن أتدارس ملاحظاتي عن تلك الفترة وأحاول تحديد إن كان هناك مجموعات لأعمال مترجمة استحقت الإشارة إليها في مصادر ثانوية (أحداث تاريخية، نظريات، وما شبه)، وذلك لأن الإشارات الثانوية يمكن أن تكون آثارًا تدل على الأهمية. وقد وجدت مصدرًا لمجموعة شعرية يعود إلى عام ١٩١٣ ترجمها عن الفرنسية أبرز الشعراء الإسبان في ذلك الوقت، وأعدها وعلق عليها إنريكي دياث- كانيدو *Enrique Díez-Canedo* وفرناندو فورتون *Fernando Fortún*. وقد أدى هذا إلى ما يشبه السلسلة التالية من الاكتشافات: توراى اسم فورتيوم، ولكن وُجد بين كتابات دياث- كانيدو العديدة مقدمة تمهيدية انتقادية لمجموعة شعرية أخرى أطلق عليها *Las cien mejores poesías (líricas) de la lengua inglesa (1918)*، حررها وترجمها شخص يسمى فرناندو مارستاني *Fernando Maristany*؛ كما أن دياث - كانيدو كتب نقدًا إيجابيًّا عن شعر مارستاني (١٩١٩)، وأقر مارستاني، الذي كان يعمل في ذلك الوقت ناشرًا في برشلونة، نشر ترجمات دياث- كانيدو لأعمال بول فور *Paul Fort* عام ١٩٢١. الأهم من ذلك أن فرناندو مارستاني نفسه كان قد نشر نحو سبع مجموعات

مترجمة من لغات مختلفة خلال فترة ١٩١٤- ١٩٢٠ (وفي هذه اللحظة كنت مهيأ لشيء ما!). وبالإضافة إلى ذلك، كان عنوان مجموعته المتكرر *Las cien mejores...* (مائة أفضل...) قد جاء من مختارات غير مترجمة اعتمد عمله عليها، أي مجموعة آدم جوانز *Adam Gowans* أفضل مائة قصيدة غنائية *The Handred Best (Lyrical) Poems* باللغة الإنجليزية عام ١٩٠٣، ومجموعة أوغسط دوركان *Auguste Dorchain* أفضل مائة قصيدة غنائية *Les cent meilleurs poemes (lyriques)* باللغة الفرنسية عام ١٩٠٥. وقد كانت هذه العناوين باللغتين الإنجليزية والفرنسية جزءًا من سلسلة "أفضل مائة" العالمية المفيدة جدًّا من المختارات غير المترجمة المكتوبة باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية من إعداد شركة جوانز آند جراي *Gowans & Gray* الإنجليزية. وعلى الرغم من أن الطبعة الإسبانية من هذه السلسلة – *Las cien mejores poesías (líricas) de la lengua castellana, 1908*– قد قام بتصنيفها مارشلينو مينينديز بيلايو *Mercelino Menéndez Pelayo*، الذي كان من وسط أقل شأنًا من أوساط مارستاني أو دياث- كانيدو، فإن ما جعل دياث- كانيدو ينشر مجموعة مخالفة أطلق عليها *Las cien mejores poesías españolas* (أفضل مائة قصيدة إسبانية) ليس مجرد صدفة. وهكذا دواليك. وبهذا، فإن مارستاني ودياث- كانيدو كان يمكن وضعهما في الشبكة الدولية التي أفضت من جديد إلى إسبانيا، حيث اختلف كل منهما عن الآخر اختلافًا كبيرًا. غير أنهما كانا، في ذات الوقت، معارضين لتعاليم مينينديز بيلايو ذات النزعة القومية نظرًا لأن عملهما كان مترجمًا ومنحازًا إلى سياسة التعاون الدولي. وقصارى القول أن الروابط تضاعفت بعدد الطرق التي تمت بواسطتها صياغة فرضيات لتفسير السياق المحلي في مختارات عام ١٩١٣، ومكان هذه المختارات في الشبكة الدولية، وبعض النقاشات وثيقة الصلة بقضية الأهمية.

بعض هذه العوامل كان يمكن تحديد مواضعها بنفس السهولة التي كان من الممكن أن أبدأ بها اختزال فهرس مكتبة خاصة بالمختارات ***antologías***. فقد كان من الممكن أن يصبح بعضها مرتبطًا ببعضها الآخر لو أني اعتمدت على مصادر ثانوية أو على تصورات مسبّقة بدلاً من الفضول المنهجي (يظل مارستاني شخصية هامشية جدًا، كما أن مختارات الترجمة ليست المادة الحقيقية للتاريخ الأدبي المعهود). وفي الواقع، فإن الروابط الدولية لهذه الشبكة – أي سلسلة المختارات غير المترجمة– كان من الممكن أن تصبح مستبعدة لو أن عينيّ كانتا معصوبتين بتاريخ للترجمة شديد الانحياز. لابد للمرء أن يكون مستعدًا، إذن، لملاحقة الشبكات عبر الحدود.

رسم خرائط الشبكات

قمت، حتى هذه اللحظة، بتعريف الشبكات باعتبارها البديل التجريبي للمادة الفهرسية المباشرة. غير أن للمسألة ما هو أكثر من مجرد طريقة مختصرة ومريحة. فإن كانت الشبكات موجودة حقًا، فإنها لابد أن تكون جزءًا مما في مستطاع تاريخ الترجمة أن يكتشفه. وإن دلت الأمثلة السالفة الذكر على شيء فإنما تدل على أن الشبكات الأوثق صلة بالترجمة تبدو وكأنها غير مقيدة بأي ثقافة بعينها. فالمتوقع منها هو أن تربط بين خصائص ثقافات مختلفة (روابط الثقافات المتقاطعة) وتطوير الأطر الاجتماعية التي تشترك فيها ثقافتان أو أكثر (الجماعات المزدوجة الثقافة). كذلك ينبغي أن تكون لها حدود معينة؛ المناطق التي تصبح فيها الروابط أضعف أو أقل. هذا قد يعطي الشبكات أنفسها شكلاً محددًا في المكان والزمان التاريخيين. من الناحية النظرية، كلما استطعت تتبُّع روابط الشبكة كلما كان في إمكانك أن تقترب من شكلها التاريخي الحقيقي. ومن الناحية العملية، فإن أي قدر من الاقتراب الصحيح من الشبكة يمكن أن يكون مفيدًا في حل مشاكل التقسيم الفتري والتخطيط الجيوبولوتيكي.

فإذا ما تم تسويغ هذه الفرضيات العامة، يمكن حينذاك رسم خرائط الشبكات بطريقة ملموسة جدًّا، تمامًا كما نخطط الطرق والسكك الحديدية وأقسام الإنترنت وكل أنواع الشبكات الدولية. لكن هناك اختلافًا. ففي حالة البنية الأساسية المادية، فإننا نرسم خرائط للقنوات الحقيقية والممرات والروابط التي تتيح للأشياء إمكانية التحرك. وبفضل الشبكات، تتحرك الأشياء في اتجاهات دون الأخرى؛ أو هي بالأحرى تتحرك بسهولة أكبر في بعض الطرق أكثر من غيرها. يمكن لخريطة الروابط المادية أن تؤكد لك ذلك. أما في تاريخ الترجمة، فمع أن المعلومات التي نحصل عليها لا تخص إلا عمليات الحذف والإضافة فإنه يتم استخلاصها دائمًا من التفاصيل التي تظهر بعد الأحداث. ونحن نعيد بناء الأحداث وليس الموضوعات المادية التي تجيز أو تعرقل حدوثها. ويمكننا على أساس من هذا فقط أن نفترض وجود القنوات ومصادر المعلومات وما شابه. وعلى وجه التحديد، يمكننا أن نرسم عمليات النقل ***transfers*** التي تعطي تصورًا واضحًا بهذا القدر أو ذاك لبعض الشبكات المفهومة ضمنًا ولكن غير المرئية. هذا هو السبب في أن شبكاتنا لابد أن تُرسم على ضوء ما أحب أن أسميه خرائط النقل.

هناك مبرر آخر لخرائط النقل. فمن الواضح أن الشبكات تخص شيئًا ما أكبر من الترجمات والمترجمين. إن أشياء مثل الدوريات الأدبية، ومؤسسات إعداد المترجمين، والمختارات ذات الطابع التجاري، تسمح بعمليات نقل على عدة مستويات قد تهم أو لا تهم الترجمة. وإذا ما تعيّن علينا أن نوضح الدور الخاص للترجمة في نطاق الشبكة، فلابد أن يشتمل بحثنا على صيغ نقل غير مترجمة. هذا يعني ضرورة أن نتجاوز فكرة أن تاريخ الترجمة وصف للترجمات لا غير؛ فالأرجح أن يكون تاريخنا العريض مليئًا بكل أنواع النقل[١]. لكن واجبنا الحالي هو

---

(١) قام كل من إيـفـن زوهار(Even-Zohar 1981, 1990) وبيم (Pym 1992a, 1992c) باقتراح مثل هذه الخطوة. ومع ذلك فإنها مشوشة للغاية. وكما يتوقع من تعليقاتي الواردة أعلاه، فإنني أستخدم لفظة "نقل" للإشارة إلى الوقائع التي تكون مادية أكثر منها ذهنية. كما أن شبكاتي تعبر الزمان والمكان: فالوقائع التي انتقلت مادية تمامًا مثل الورق والأفراد والموجات الصوتية وموجات الراديو والإشارات الرقمية. وحين يقـال كـل شيء ويتم تحقيقه، فإنني=

أن نفكر بشكل نقدي في مسألة كيف يمكننا أن نبيّن الحقائق المحضة لعملية النقل. فإذا ما تعيَّن علينا أن نرسم خرائط لحركات الأحداث بدلاً من رسم الحدود المستقرة، فما هو الحيز المكاني الذي سنعمل فيه؟

وقد لفت جوزيه لامبير (*José Lambert, 1991b*) النظر إلى التعقيد الشديد الذي تشتمل عليه العمليات المتواصلة من حذف وإضافة، وتداخل، وتوحيد، وتجزيء. فبأي صورة يمكن لخريطة اللغات الأوروبية المعاصرة أن تقدم الجماعة الأوروبية مختلطة الألسن الموجودة في بروكسل؟ وما عدد الألوان المختلفة والخلطات اللونية التي نحتاج إليها لرسم خريطة الثقافات التلفزيونية المنقولة بالقمر الصناعي؟ لامبير يوحي بأن الخرائط الأدبية لا يمكنها مطلقًا أن تزعم أن الآداب القومية متجانسة: فنحن ينبغي أن نتحدث عن 'الأدب في فرنسا أو الأدب في ألمانيا'، بدلاً من 'الأدب الفرنسي' أو 'الأدب الألماني' (*1991b: 141*). وأنا أعتقد أن هذه خطوة كبرى في الاتجاه الصحيح، لكنها لا تصل تمامًا إلى مستوى الوضع المكاني المناسب لعمليات النقل. وفي الواقع، يبدو أن هذه الخطوة تسلب التجانس من الأدب وتوجهه إلى الوحدات السياسية، تلك الوحدات التي يحق لها حينذاك أن تحدد المواقع التي لها صلة بالأدب، مثل ***depôt légal*** [رقم الإيداع] الفرنسي الذي يحدد معايير الحيز السياسي حتى قبل إعداد أي قائمة للنصوص. وإذا كان في إمكاننا أن نتلافى أن يكون 'الأدب الفرنسي' في معارضة مع 'الأدب الألماني'، فلماذا لا نتلافى أيضًا أن تكون 'فرنسا' في معارضة مع 'ألمانيا'؟ لماذا الإبقاء على الحدود القومية المقررة؟ لامبير يقول أن الخرائط لن تقدر على الوقوف في وجه الإدعاء الخرائطي الشائع بأن العالم مقسم إلى دول. غير أن الثقافات، كما يعرّف لامبير، نادرًا ما تتطابق مع ادعاءاتها. وكذلك الشبكات.

-أظن،على ضوء الجيولوجيا وعلم الاجتماع وليس علم اللغة أو علم النفس، أنني أريد أن أعرف ما شكل المسطح الأرضي حتى ولو في هذا العصر، عصر الفضاء السبرنطيقي والبُعد الصفري إلى أقصى حد. لكن لفظة "النقل" أيضًا لها استخدامات منطقية جدًا في العلوم العقلية، تلك العلوم الأقل في ماديتها من مصالحي.

وحتى يمكننا رسم عمليات النقل، لسنا في حاجة إلا لأن تسمح لنا محاورنا بأن نبيّن الحركة عبر الزمان والمكان. الحاجة المثلى لثلاثة أبعاد (علم تخطيط الخرائط مضافًا إليه الزمن)، لكننا نستطيع أن نكتفي ببعدين فقط. ولابد أن تظهر أي مساحات متجانسة نسبيًّا (ثقافات على سبيل المثال) كغياب نسبي للحركة. ولابد بالمثل أن تُبيّن أي حدود كمواقع مستقلة تصبح فيها الحركات المتقطعة كثيفة بصــورة خــاصة، حيث تكــون عمليــات النقــل قد تحققت بفضل نقاط التغير أو الاختلاف (أجل، نقاط الترجمة). وهكذا فإن خرائط النقل يمكن أن تصبح سبيلاً لإتمام كل تلك الخرائط التي تملأ المساحات القومية بالألوان. ومن المنطقي أن تكون هذه الخرائط سابقة على مسألة اللون. وبتعبير أدق، يمكن لهذه الخرائط أن تفرض شكلاً من أشكال التجانس والاتساق فتُظهر نفسها كأساليب لمقاومة عملية النقل.

ويمكن توضيح ذلك بأفضل صورة من خلال الأمثلة.

خريطتان رخيصتان لعملية النقل

أول شكل توضيحي رسمته ينطوي على انعطاف معين نحو ارتياب الشيوخ في الأدب المقارن (والمتعلق بالنصوص الغنائية) وحتى إلى الفكرة الغامضة والميتة تكنيكيًّا الخاصة بـــ "المؤثر" (ويتعلق بالعلاقات بين الشعراء والحركات الفنية). ويمكنني أن أشير بإيجاز إلى أن ذلك كان خطأً من أخطاء شبابي. ولكن قد يثبت، مع ذلك، أنه خطأ بنّاء.

قمت أول الأمر بدراسة العلاقات الأدبية الدولية في أواخر القرن التاسع عشر لاختبار فرضية أن الحركات الفنية لذلك العصر لم تكن محددة بصورة مباشرة من خلال المجتمعات المحيطة بها مباشرة. كان عليّ أن أعيّن وأقيّم أساليب تحديد المواقع، تلك الأساليب التي انتقلت من مجتمع لآخر، وعلى وجه التحديد المؤثرات التي ارتبطت بمختلف الأيديولوجيات الجمالية. كانت هذه الروابط مشابهة

تمامًا من الناحية الفعلية للروابط القائمة بين الدوريات المشار إليها آنفًا، وذلك على الرغم من أن الشاهد الأكثر إثارة كان على مستوى المؤثرات التي يمارسها شخص على شخص من كلا النوعين الإيجابي والسلبي. وقد تمت دراسة العديد من علاقات التقاطع الثقافي بقدر من التفصيل، خصوصًا تلك العلاقات التي شكلتها علاقات ما بعد الكولونيالية. لكنني سعيت أيضًا إلى إثبات وزن وحجم الموضوع التاريخي، ذلك الموضوع الذي كان لابد أن يوازن وزن وحجم علم الاجتماع السائد. ولتحقيق ذلك، حاولت أن أرسم خريطة لشبكة المؤثرات التي تربط فيما بين الأيديولوجيات الجمالية لفترة ما بعد الرومانسية لإنتاج النصوص الغنائية. وكانت الخطوة الإجرائية على النحو التالي:

- تمت قراءة الأحداث التاريخية العامة التي تغطي المجال المعني بكامله، مع تدوين جميع الإشارات إلى التعديلات الهامة في الأيديولوجيات الجمالية (المؤثرات) التي يقال أنها وافدة من ثقافة أخرى. وقد كانت هذه المصادر الثانوية انطباعات متحيزة أو منحازة بشدة، ومشفوعة في أغلب الأحيان بأحداث تاريخية مكتوبة من منظور مختلف الثقافات المعنية. وقد جاءت الكثير من موضوعاتي حقيقة من مقالات جمعها بالاكيان ***Balakian, 1982***، وقد حددت فيها بوضوح استخدامات كلمة 'مؤثر' وأشباهها. كانت طريقة سلسة وغير مكلفة. لقد كانت، فعلاً، عملية زهيدة جدًّا في تكلفتها لدرجة تجعلني في غنى عن البوح بها أبدًا للدارسين الجادين.

- المؤثرات المستقلة تم تسجيلها تبعًا لتسلسلها الزمني. وسرعان ما أدى هذا إلى زيادة في البيانات، الأمر الذي استلزم استراتيجيات اختزالية لجعل المادة الفهرسية ميسرة. وقد حصلت عن عمد على حق التنقل لمسافات بعيدة، معتبرًا أن ذلك قد يكون ذا صلة أوثق بفرضياتي (عند الشعور بخطر الرضا التلقائي). كما أنني وضعت النقاط النهائية المختلفة في شكل موضوعات حول أرقام لها دلالاتها وحول الدوريات الكبرى كلما كان ذلك ممكنًا.

- ثم أعطيت البيانات التي تم فرزها وترتيبها وفقًا لتسلسلها الزمني رموزًا مناسبة ورسمتها على محوري الزمان والمكان.

• وقضيت وقتًا طويلاً في تأمل النتيجة، والبحث عن شكل ذي دلالة، وتحريك المحور المكاني لمحاولة إيجاد أي ارتباط واضح، ووضع موضوعات مناسبة إذا ما أغفلتها أو سهوت عنها، والعودة المستمرة للخطوة الأولى لمعرفة إن كانت المساحات الخالية خالية حقًا.

إنه منهج معروف بفظاظته وتسرعه، لكننا إذا تأملنا جيدًا لوجدنا أنها تجمع بين الطريقتين الاختزالية والتراكمية اللتين سبقت الإشارة إليهما: اختزالية في مراحلها الأولية، ثم أصبحت حركاتها المنتظمة بين مرحلتي التخطيط والبحث ذات طبيعة تراكمية. وفي هذه الحالة، فإن عملية الجمع بين الطريقتين تبررها طبيعة تغاير خواص المادة المصدرية (تلك المادة التي جعلت عمل مواد فهرسية قابلة للنمو أمرًا عسيرًا) والحاجة إلى إعادة النظر على نطاق واسع (تلك الحاجة التي جعلت من طريقة الخطوة خطوة أمرًا مستحيل التنفيذ نظرًا لوجود روابط صغرى كثيرة جدًا). ويجب أن أؤكد أيضًا على أن التمثيل البياني الفعلي قد اتخذ شكل تخطيطات عديدة سريعة التجزؤ تعمل كوسائل للتخيل في مجرى عملية البحث، وغالبًا ما تكون هذه التخطيطات لبلد واحد أو مجموعة من البلاد. ومن الواضح أن خرائط الشبكات ليست هي نتائج البحث ذاتها، بل لا بد لها أن تجد طريقة لإعداد البيانات.

وعلى ذلك أقدم، وبقدر من التخوف، نتاج تلك العملية (الشكل رقم ١١) ذلك النتاج الذي تخفي أخطاره الطفيفة الصغرى أخطاءه الكثيرة. ولكي أحدَّ من اختلاط الأمور، دعوني أعترف بصراحة بأن هذا المخطط ذاته كان قد تم تعريفه بشكل خاطئ في ديباجتيه الأوليين، المعتمدتين تمامًا على المصادر الثانوية، وأنه مازال في حاجة شديدة إلى تعريفات منهجية. وأنا أتعهد بأن أضطلع بهذا الدور بمجرد أن يتسنى لي توفير سنوات قليلة لهذه المسألة. وعلى كل حال، فقد ثبت أن هذه الخريطة سلاح يفيد إلى حدٍّ ما في دحض مزاعم علماء الاجتماع الذين يقولون أن الشبكات الأدبية الدولية واهية تاريخيًا. وبدون أن أبذل مزيدًا من الجهد (وقد كان رسم الخريطة النهائية هو الجزء الأصعب!)، فإن بإمكاني على الأقل أن أشير إلى الشبكة، وأن أقول أنها ذات شكل محدد، وأن أصر على أن يتم شرحها.

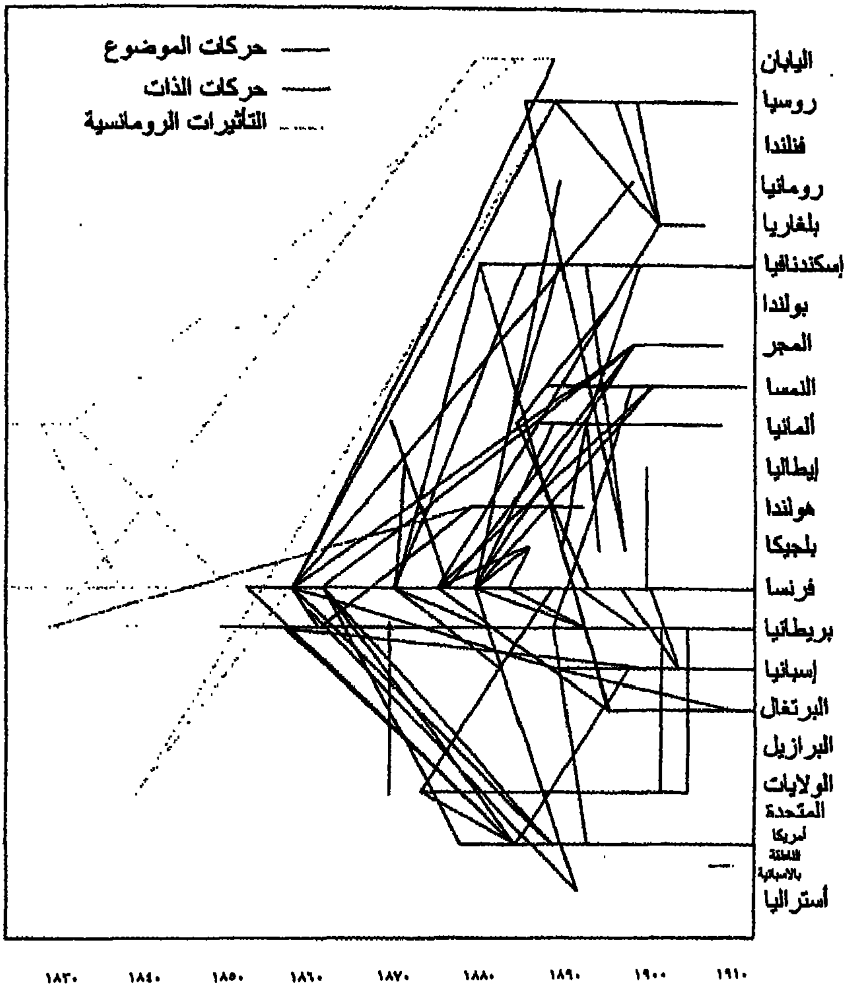

شكل ١١

الخطوط الرئيسية للتأثير بين الأيديولوجيات الجمالية لفترة ما بعد الرومانسية

إنتاج النصوص الغنائية

(شبكة ***fin de siècle***)

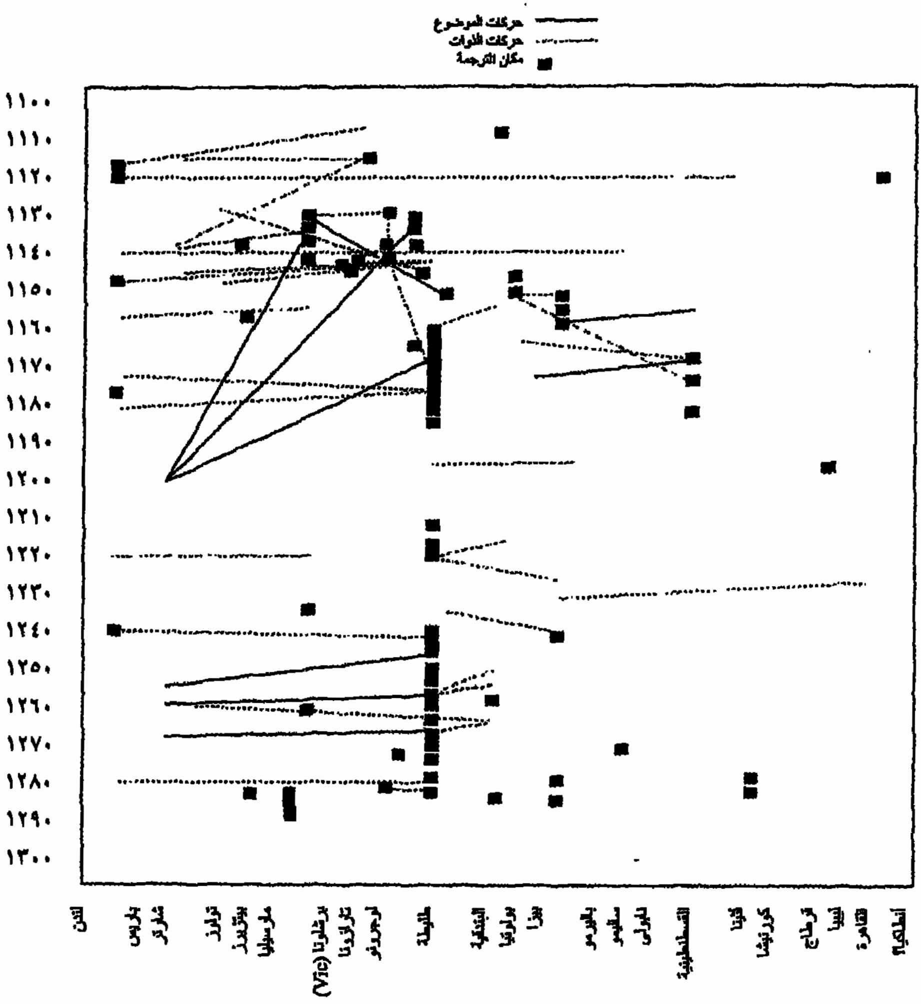

ترجمات النصوص العلمية والفلسفية

من العربية واليونانية إلى اللاتينية والقشتالية والفرنسية (١١٠٠- ١٣٠٠)

(شبكة طليطلة)

قبل أن نقوم بالتنقيب عن تفاصيل رسم الخريطة، دعوني أستعرض خريطة أخرى، مرسومة بعد حوالي عشرة أعوام، تبيّن إحدى الشبكات التي سارت الترجمات طبقًا لها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (الشكل رقم ١٢). وكان قد تم إعداد هذه الخريطة الخاصة بطليطلة، وهي أقل كثافة بشكل واضح وذات صلة وثيقة ومباشرة بتاريخ الترجمة، باستخدام نفس الخطوات التي تم استخدامها في خريطة ***fin de siècle***. ومن الواضح أن هذه الخريطة مستفيدة من القوائم التي كانت تتسم بقدر من الترابط[١]؛ حتى على الرغم من الافتقار الشديد إلى البيانات الصحيحة للتواريخ والأماكن، وهو ما تعاني منه أبحاث القرون الوسطى كلها. كانت الخريطة التي أعددتها عن فترة نهاية القرن ***fin de siècle*** غنية بالمعلومات؛ أما الخريطة التي أعددتها عن طليطلة فقد كانت فقيرة جدًّا في معلوماتها. إحداهما شبيهة بالشبكـــة، أمـــا الأخـــرى فلا تشبهها على الإطلاق. ويمكننا أن نتعلم شيئًا ما بمقارنة الخريطتين.

دعنا نتدارس الآن مختلف المعالم الشكلية لهاتين الخريطتين: الخطوط، والرموز، والمحورين، والنهايات، وجميع التفاصيل التكنيكية التي لا سبيل إلى تجنبها. والأشخاص الذين ليست لديهم معرفة تكنيكية مدعوون بشدة لأن يضغطوا منذ الآن على زر التشغيل السريع إلى أن يصل الشريط إلى نهايته مع نهاية هذا الفصل حيث نطرح مسألة لماذا عملت البلدان والمدن كحدود وثيقة الصلة بالترجمة. وأقول لبقية القراء: هذه هي الطريقة التي رسمنا بها الخريطتين.

---

(١) كان البحث في هذه الحالة منهجيًّا إلى حدّ كبير، بادئًا من فهارس إشتاينشنيدر Steinschneider (خصوصًا عامي ١٩٠٤-١٩٠٥)، ودامجًا إضافات وتصويبات ثورنديك (Thorndike1923) وهاسكينز (Haskins 1924,1929)، وانتهاءً بأعمال أحدث باحثين فرنسيين وإسبانيين، مسجلاً في كل حالة إضافات وتصويبات. وبمعنى من المعاني، أعددت شبكتي على غرار ما اتبعته المؤسسة البحثية في إعداد شبكتها.

لاحظ أن كلاً من الخريطتين لها محور زمني، وهذا يعني أننا لا نتحدث عن رسم خطوط على خريطتين تقليديتين متزامنتين تخص كل منهما فترة زمنية. والخرائط التزامنية يمكنها أن تجعل الحياة شديدة اليسر، لكنها تستلزم قدرًا من الدراية بأن خريطة النقل ينبغي أن تساعدنا على الاكتشاف. وأحد أهداف الخريطة هنا، في مجال النقل، يتحدد في "اكتشاف" حدود الفترة المعنية. ويقال نفس الشيء عن الحدود المكانية، لكن ذلك أمر في غاية التعقيد.

إن كلاً من خريطة نهاية القرن ***fin de siècle*** وطليطلة لها خطوط توضح الحركات بين النقاط. وهناك نوعان من الحركات: عمليات نقل الموضوعات ***object transfers***، تلك العمليات التي تحرك النصوص بالأساس، وعمليات نقل الذوات ***subject transfers***، وهي تلك العمليات التي تحرك بالأساس المترجمين وباحثي النصوص (الذين لهم غالبًا صلة وثيقة بخريطة طليطلة). وهذه النقاط جديرة ببعض التعليقات:

• عمليات نقل الموضوعات (---) لابد أن تكون شأنًا خاصًا جدًا بالخطوط التي تربط أماكن إنتاج النص والمطبوعات، والترجمات، والترجمات المتكررة؛ وإن أمكن، عمليات استقبال الثقافة المقابلة أو النص بعد ترجمته ***post-translational***. ذلك لو كان لدينا كل هذه المعلومات، وكانت كل هذه المعلومات لها صلة حقيقية بالشبكات. لكن رسم الخرائط ليس عملاً سهلاً من الناحية العملية. فهل يجب، مثلاً، أن تكون نقاط "الإنتاج الأول" جزءًا من الشبكة؟ أي، هل توفر خريطة طليطلة أماكن لكل من أرسطو وإقليدس وبطليموس والخوارزمي والكندي وأبو معشر ***Abu Ma'shar*** وغيرهم؟ كان لابد إذن أن تكون الخريطة أطول كثيرًا. لكن نقل الخطوط من أماكن الإنتاج الأول مباشرة إلى أماكن الترجمة لم يكن مثار

نقاش. إننا نعرف تقريبًا كيف تم تناقل بعض نصوص أرسطو، على سبيل المثال، من الإغريقية إلى السريانية إلى عربية بغداد وما جاورها، ثم انتقلت عبر شمال إفريقيا إلى لاتينية هيسبانيا، على حين أن رحلة مناظرة سارت إلى الإغريقية ومنها إلى مدينة القسطنطينية وإيطاليا، وربما كان أول وصول إلى متز حوالي عام ٩٤٠م، وعلى أية حال فإن الترجمة إلى اللاتينية تمت في صقلية، ثم في كل من باريس ولندن و بلاد الشمال. وقد امتد هذان المساران الكبيران، أحدهما خلال هيسبانيا والآخر خلال إيطاليا، لمساحة تتجاوز كثيرًا ما حاولنا أن تبينه شبكتنا. ومع ذلك لم يقترب أي من المترجمين من منطقة أرسطو. ففي كل مرة، كانوا يعتمدون على نص المترجم السابق أو نص أحد الأوصياء، صانعين شبكة أصغر من تماسات مباشرة جدًّا. كانت هذه التماسات بكل تأكيد الروابط الأوثق صلة بالطريقة التي نُفذت بها الترجمات (سوف يشار إلى هذه النقطة فيما بعد لدى مناقشتنا لموضوع الازدواج الثقافي).

فيما يخص نهاية القرن ***fin de siècle*** هناك مثال مشابه يتحدد في عملية نقل تأثير بو ***Poe*** حيث بدأت الكثير من بلدان أوروبا وأمريكا اللاتينية النقل ليس من الولايات المتحدة ولكن من باريس بودلير. فلا ينبغي أن تكون الخطوط التي تصل بين بو وكل مترجميه عبر العالم خطوطًا مستقيمة؛ بل يمكن أن يصل خط واحد فقط بين بو وبودلير ثم يتشعب عبر الوسطاء الأحداث.

لو تابعنا هذا الأسلوب في التفكير لنهايته، فإنه سيبيِّن أن كافة الخطوط القُطرية (المائلة) خادعة إلى حدٍّ ما. ومع أنني ربما كنت أعرف أن نصًّا ما تمت ترجمته عند النقطة (x) وتم استقباله أو أعيدت ترجمته عند النقطة (y)، فإنني، بعد مرور عشرة أعوام وعلى مسافة ألف كيلومتر، لا أملك ما يضمن أن يظل النص يتقدم بشكل منتظم طوال عشرة أعوام ليطوي مسافة طولها ألف كيلومتر. وفي الواقع، فإنه من المستبعد إلى حدٍّ بعيد أن يتحرك أي شيء بطريقة كهذه. المرجح أن تكون عمليات النقل الحقيقية في شكل تغيرات شاذة في الخطوط الرأسية

(الحركة عبر الزمن) والخطوط الشبه أفقية (الحركة عبر المكان). وعندما تكون لدينا معلومات كثيرة جدًّا *(fin de siècle)* أو قليلة جدًّا (طليطلة)، عند ذلك فقط يمكن أن يبدأ الترخيص الخرائطي لرسم خطوط قطرية (مائلة). وبرغم ذلك، فإن درجات الميل الناتجة ليست خالية من المعنى تمامًا: فكلما كان الشكل أكثر ميلاً للاتجاه الرأسي كانت عمليات النقل خلال الشبكة أبطأ؛ وكلما كان أكثر ميلاً للاتجاه الأفقي كانت عمليات النقل أسرع، وكانت عمليات النقل تسرع بوضوح في اتجاه نهاية القرن التاسع عشر. أما الآن، في عصر الإنترنت، فإن عمليات النقل عندنا قد أصبحت سهلة إلى حدٍّ كبير (ومع ذلك، فإن أي عمل كبير من أستراليا أو اليابان مازال يستغرق دهورًا لتنزيله في إسبانيا!).

• تبين عمليات نقل الأفراد (...) حركة الناس الذين إما أنهم يبحثون عن النصوص أو ينشرون نصوصًا أو ينقلون معلومات عن نصوص. والواقع أن عمليات نقل الأفراد، قبل وسائل الاتصال عن بعد بالصورة التي نعرفها، كانت قريبة جدًّا من القفزات شبه الأفقية الواقعة خلف الخطوط القُطرية شكليًّا المشار إليها منذ قليل. وتعتبر عمليات النقل في حد ذاتها مفيدة بوجه خاص عندما نكون في حاجة ماسة إلى معلومات هامة عن نصوص. واستشهادًا بأحد الأمثلة التي سبقت الإشارة إليها، عاد دانيال دي ميرلاي ***Daniel de Merlai*** يومًا ما قبل عام ١١٧٥ إلى إنجلترا قادمًا من طليطلة، وادعى أنه أحضر معه كتبًا كثيرة ***cum pretiosa multitudine librorum***. ونظرًا لأن الكتب لا تحمل أسماء، فإننا لا نستطيع في الواقع أن نضعها في الخريطة. لكن كتاب فيلوسوفيا ***Philosophia*** [الفلسفة] الذي ورد فيه ادعاء دانيال ***(ed. Sudhoff 1917)*** يشير إلى قراءات في العلوم العربية، ولذلك يحق لنا أن نتصور أن نوعًا من المعرفة ينتقل في هذا المجال المحدد. ومن الضروري أن يكون هناك خط حتى في غياب البيانات الخاصة بنقاط معينة للمنتج أو الترجمة. الحل الوحيد، كنوع من البديل المؤقت، هو

أن نرسم الحركة الأفقية لدانيال نفسه. وهكذا فإننا نقصّر دون نقل موضوع له أهميته. المثال الآخر قد يكون حركة الصحفي الكوبي أنسيتو فالديفيا ***Aniceto Valdivia*** من أوروبا إلى هافانا عام ١٨٨٥، حيث تكون لدينا فقط تفسيرات غامضة لنصوص غير أصلية حملها داخل حقيبة السفر (بودلير، وفيرلين، وربما هويسمانز ***Huysmans' A rebours***) مع أننا لا نعرف إن كانت حقيبة السفر كافية لتفجير مذهب فني محب لفرنسا ***francophile*** في كوبا. وهناك شيء مشابه يصدق على الشاعر الشيلي فيسنت هويدوبرو ***Vicente Huidobro***الذي قيل أنه أدخل السيريالية إلى مدريد في حقيبة باريسية (كل دراسات الحالة الجيدة، كما يقول أرمين بول فرانك ***Armin Paul Frank***). ربما كان النوع الأكثر إثارة في عمليات نقل الأفراد هو ذلك النوع الذي يشكل الخطوة الأولى لأي مشروع للترجمة حين يشرع الشخص في البحث عن نص يترجمه. ما الوزن الذي ينبغي أن نعطيه لهؤلاء الباحثين عن نصوص الذين لم يصبحوا بعد مترجمين؟ إننا نعرف، على سبيل المثال، أن اثنين من مثقفي القرن الثاني عشر، هيرمانوس دالماتا ***Hermannus Dalmata*** وروبرتوس كيتينينسيس ***Robertus Ketenensis***، غادرا فرنسا وإنجلترا على التوالي وتحركا نحو شمال هيسبانيا بحثًا عن العلوم العربية. فهل هما بمجرد حصولهما على قدر من العلوم العربية أصبحا مترجمين؟ بالمثل، قيل أن جيراردوس كريمونينسيس***Girardus Cremonensis*** قد انتقل من إيطاليا إلى طليطلة بحثًا عن كتاب بطليموس. وعلى الرغم من أن هؤلاء ربما لم يحضروا معهم نصوصًا هامة، فإنهم أحضروا الرغبة والكفاءة اللتين تعينان على رد النصوص إلى اللاتينية. لقد كانوا بهذا قادرين تمامًا على أن يبدأوا في عمليات نقل النص في الاتجاهات المعاكسة لاتجاهات الرحلات الأولى. وإذا كان يمكن قياس أهمية كل رحلة إلى الخارج على ضوء الترجمات اللاحقة، فإنه يمكننا بنفس القدر أن نفترض تماثلاً حقيقيًا بين عمليات نقل الأفراد وعمليات نقل الموضوعات الناشئة كنتيجة. وفي الواقع، فإنه يمكن بنفس القدر افتراض وجود نوع من نقل الأفراد كشرط لعمليات نقل النص التي تمضي في الاتجاه المعاكس. من الناحية

العملية، من الصعب بطبيعة الحال أن يتم كشف وتوضيح كل عمليات نقل الأفراد ذات الصلة، وهناك حالات كثيرة ينطلق فيها البعض في اتجاه وتمضي ترجماتهم في اتجاه معاكس. فلا وجود لقواعد ميكانيكية هنا. وسيكون من الخطورة بمكان أن ندّعي أن هؤلاء البعض لا يطوفون إلا بحثًا عن نصوص يترجمونها. تمامًا كما أن المترجمين في القرن الثاني عشر قد انتقلوا من مكان إلى آخر كجنود وكموظفين دبلوماسيين ومترجمين في المجال التجاري ودارسين وغير ذلك. وفي أواخر القرن الثاني عشر، سافر الشاعر الأسترالي كرستوفر برينان ***Christopher Brennan*** إلى برلين كمبعوث لدراسة الأدب الكلاسيكي، دون أن يسعى بشكل مقصود إلى مالارميه ***Mallarmé*** الذي سيجده هناك (أجل، في برلين) ويترجمه فيما بعد. ومن طرف آخر في شبكة ***fin de siècle***، كان في إمكان شاعر من نيكاراجوا، روبين داريو ***Robén Darío***، أن يسافر بفضل تنويعة من البعثات الدبلوماسية وإمكانيات النشر والاهتمامات الصحافية، هذه التنويعة التي تطلب بعضها الترجمة. ولا شك أن مثل هذه التحركات قد وفرت له مواقع تسمح للترجمات أن تمضي في اتجاهي الذهاب والإياب، لكن عمليات نقل الأفراد لا يمكن أن تختزل إلى هذا الهدف وحده.

وقد يوضع نص أحيانًا في مكان الاستقبال، لكن ليس لدينا معلومات كافية عن كيفية وصوله إلى ذلك المكان. على سبيل المثال، قدّم قسطنطينوس أفريكانوس ***Constantinus Africanus*** في حوالي عام ١٠٦٠، بعد وصوله إلى مونت كاسينو، ترجمات طبية من اللغة العربية. وفي حوالي عام ١١٣٠، وجدنا ترجماته مستخدمة في إنجلترا، وقد أعيدت ترجمتها في أنطاكيا ***Antioch*** (أو بواسطة مترجم منها)، وربما اشتملت عليها مجموعة المسرحيات ***repertories*** في مواضع بينية كثيرة. لكن من المستحيل عمليًا أن نقول كيف وصلت الترجمات إلى تلك الأماكن بعد تقديمها في إيطاليا. ويعتقد المرء أنها دخلت دائرة من النسخ في الأديرة لا يمكن تقصي أثره: نوع من التداول كان من نتيجته الإبقاء على أعمال قسطنطينوس قيد الاستعمال حتى عصر النهضة، على الرغم من الملاحظات

النقدية الكثيرة لمشـــروعيتها كأعمال مترجمة. ولا يمكن في الواقع توصيف هذا التداول، لكتاب لا يذكر فيه اسم مترجمه، وفق منهجنًا في العمل. فأفضل ما يمكننا عمله هو أن نوضح بعض النقاط المعروفة. وبطبيعة الحال، فإن الخطر يتمثل في واقع أن الأماكن الفارغة الناشئة قد تختلط بنوع من "التزويد العام"، الدائم في وقت لم يكن فيه مثل هذا الشيء معتادًا. وهناك نسخة جيدة من خريطة طليطلة تبين سلسلة من الارتباطات الواهية المفترضة لتجنب مثل هذه التوهمات.

• نقاط التغير (■) تشير إلى العمليات التي تحدد بوضوح الحدود بين الثقافات. وسيتم تحليل المبادئ التاريخية للترجمة في المراحل الأخيرة من البحث، لذلك فإن هذه النقاط ليست في حاجة إلى أن تكون مناظرة لترجمات بالمعنى المحدد للكلمة. فوظيفة خريطة النقل لابد أن تبين فقط الموقع العام للمكان، كما أن هناك مبررات لإضافة الأعمال الأدبية الهزلية ***parodies*** والأعمال التي تم اقتباسها ومواءمتها باعتبارها نتائج لعمليات التحول. كذلك فإن الخريطة تبين حالات خاصة مثل إعداد الجداول الفلكية وفقًا لإحداثيات جديدة. وهناك جداول مستوحاة من الخوارزمي عن إحداثيات قرطبة عام ١١٢٦، وطليطلة في ذات الفترة تقريبًا، ومرسيليا حوالي عام ١١٤٠، ولندن عام ١١٤٩، وهيرفورد ***Hereford*** عام ١١٧٨، ثم جداول ألفونسو عن طليطلة عام ١٢٥٢، المنقحة عام ١٢٧٢. وإذا أضفنا المطبوعات التي لم يتم حتى الآن تحديد مكان أو تاريخ نشرها، فإن نطاق هذه الشبكة يصبح واضحًا تمامًا: فالجداول الفلكية الخاصة بلندن التي تم إعدادها عام ١٢٣٢ تذكر جداول أخرى خاصة بباريس ومارسيليا وبيزا وباليرمو والقسطنطينية وجنوة وطليطلة. ويبدو أنه لم يجر عمومًا اعتبار أي جدول فلكي جديد نوعًا من الترجمة (فليس مما يناسب معيارنا عن "الانقطاع المتواصل" أن كل قراءة لمواقع النجوم موضوع إبداعي). لكن التواريخ والأماكن المعنية تبين برغم

ذلك نقاط تحول هامة تكون موصولة كشبكة محددة تمامًا. وتعطي الصورة الناتجة على الأقل إطارًا وثيق الصلة لحركات الترجمات والمترجمين.

والمخطط النموذجي للنقل، تكون فيه كل نقطة تغير موضوعة على خط متصل (غير منقطع) من خطوط نقل الموضوع يصل نقطة إنتاج النص الأصلي بنقطة استقبال النص المنقول، وهو مرتبط في كل حالة بطريقة أو بأخرى بحركة شخص. لكن ما عندنا، في الكثير من المناطق، خصوصًا في نطاق القرون الوسطى، هو حقيقة الترجمة نفسها. وغالبًا ما يتم استنباط هوية الطلب الخاص. على سبيل المثال، عندما ترجم هيرمانوس دالماتا ***Hermannus Dalmata*** وربرتوس كيتينينسيس ***Robertus Ketenensis*** القرآن إلى اللاتينية في ١١٤١-٤٣، تم ذلك بناء على طلب خاص من رئيس دير الرهبان في كلوني (فرنسا)، ولذلك كان الأرجح أن تتجه عملية النقل إلى فرنسا. ومن اللافت للنظر أن ميخائيل (أو ميشيل) ***Michael*** أسقف تارازونا وريموندس كبير أساقفة طليطلة كانا أيضًا فرنسيين يرعيان مشاريع الترجمة في هيسبانيا في ذلك الوقت، الأمر الذي يعطي مؤشرات لحركة عامة في ذلك الاتجاه. وليس صعبًا بالضرورة ظهور فرضيات بشأن زيادة الطلب على الترجمة.

• *الأرض المجهولة* ***Terra Incognita*** اسم بريء للمساحات الخالية التي قد تكون ملامح ثابتة لخرائط النقل. وإذا كانت المساحة غير مخططة بخطوط أو نقاط، فإن هذا لا يعني بالضرورة غياب عملية النقل. أما المساحات الخالية فتعني غياب معرفة حديثة خاصة بقوائم المحتويات. وقد لا يغالي المرء حين يفترض أن هناك نوعًا من الارتباط السببي بين الكثافة الفعلية لعملية النقل في مساحة معينة ومعرفتنا عنها، وكذلك حين يفترض أن هناك ارتباطًا سببيًا بين المساحات الخالية وغياب عملية النقل. ومع ذلك، فلا بد أن تستخدم خرائط عملية النقل لاختبار هذه السببية حيث يتعين تفادي كثير من الفخاخ.

أحد هذه الفخاخ المحبطة بشكل خاص هو الاعتقاد في أننا نعرف الكثير عن طليطلة لأنها كانت موقع حركة الترجمة المكثفة في مراحل زمنية معينة. غير أننا قد حصلنا أيضًا على قدر كبير من هذه المعرفة المزعومة لأن الفكرة التاريخية عن مدرسة طليطلة كانت سائدة خلال الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر وحتى الفترات الحديثة جدًّا. ومن الناحية العملية، فإن كل ترجمة لم يمكن وضعها في مكان ما قد ارتبطت إلى حد ما بطليطلة نظرًا لأنه بدا بوضوح أن طليطلة هي المكان الأنسب لأن يقوم المترجم فيه بعملية الترجمة[١]. وكلما زادت مثل هذه الإحالات كلما بدت مدرسة طليطلة عظيمة وبدا أنها جديرة بأوصاف أخرى. والواقع أن مثل هذه الأفكار التاريخية تنشأ من تلقاء ذاتها ويصعب القضاء عليها قضاءً مبرمًا.وفي أدب أواخر القرن التاسع عشر، تمثل "الرمزية الفرنسية" فكرة سرطانية تستلفت الأنظار إلى معرفة مزعومة عن عمليات نقل. لقد أصبح من اليسير على المؤرخين أن يكتبوا عن أثر "بودلير والرمزية" بغض النظر عن حقيقة أنه ما من أحد ممن يصنفونه ضمن هذه الفئة قد أشاروا إلى أنفسهم على أنهم رمزيون. كما أنه ليس هناك إدراك كافٍ للدرجة التي يكون عندها استقبال معتقدات علماء الجمال مستقلاً عن بذر بذور المذهب الطبيعي. ومن خلال رسم خريطة لما نعرفه، يمكننا طرح عدد كبير من الأسئلة عن أشكال من اليقين المرعب بقدر ما أنه بغير أساس. لكن المساحات الفارغة لا يجوز ملؤها بأشباح البحر.

---

(١) لا أحد يعرف في الواقع أين أنجز المترجم الوافر الإنتاج جوهانيس هسبانيسيس Johannes Hispanensis معظم عمله (فوق القمر؟) وعليه فإن مكان عمله غالبًا ما يتم تحديده على أنه "طليطلة" بناءً على مقدمة واحدة وتحريًا للدقة (وكذلك كل من أعقب جوردان). وبالمثل، ومع أننا نعرف أن أول ترجمة لاتينية للقرآن تمت بين سالامانكا Salamanca وإقليم لوجرونو Logroño، فإن حقيقة أن أحد المترجمين الثانويين قد جاء من طليطلة أُعتبرت مبررًا كافيًا لإطلاق اسم "مجموعة طليطلة" على الوثائق المكتشفة (Kritzeck 1964). كما أن المجموعة الأسرة لوثائق طليطلة التي نشرها هيرناندث Hernández 1985 تحمل مقدمة تمهيدية تحدد أن مكان "هيرمان الكارنثي" Herman de Carintia، ذلك الرجل الذي طالما كنا ندعوه هيرمانوس دالماتا Hermannus Dalmata، هو طليطلة، غير أنه لا توجد وثائق مطبوعة تؤيد ذلك. وهذه المزاعم لا تفيد التاريخ كثيرًا.

ويبدو أن مصطلح "الأرض المجهولة" قد نال استخدامه الخرائطي لأول مرة في الأطلس الكاتالاني عام ١٣٧٥ والذي أعده يهودا كريسقيس ***Yehuda Cresques***، وكان يهوديًا مستخدمًا من قبل التاج الملكي لأراجون ***Attali 1991: 154***. وكان ذلك خطوة كبرى إلى الأمام. ولابد أن نشاركه على الأقل قدرًا من إيمانه بأن الأماكن الخالية يمكن أن تكون المناطق الأجدر باكتشافها.

المحور المكاني

إذا افترضنا أن أحد محوري خريطة نقل يبين الزمان، فإن من المنطقي أن يبين المحور الآخر المكان. لكن الزمان التاريخي له مؤشره الخاص، على حين أن المكان التاريخي ليس له مؤشر يدل عليه. وهذا الفارق الجوهري يؤدي إلى العديد من العقبات وإلى شكل من أشكال التسلية السرية أحيانًا. ولذلك يتعين علينا أن نحل مشكلتين أساسيتين. أولاً، كيف يمكننا تقسيم المحور المكاني بحيث يعطي شبكة؟ ثانيًا، إذا كنا لا نملك حتى الآن وسيلة مريحة لنقل خريطة ثلاثية الأبعاد، فكيف يمكن لنا أن نبين مكانًا ثنائي الأبعاد على خط أحادي الأبعاد؟

الخريطة التي أعددتها عن أواخر القرن ***fin de siècle*** تقسم المحور بلا تفكير إلى بلدان. وهذا ليس سوى محاكاة لما كان يحدث في المصادر الثانوية التي كنت أستخدمها. لكنني منذ ذلك الوقت، أصبحت أدرك أن الوحدات القومية في حاجة إلى درجات من السيادة التي لا تكون دائمًا كافية للموضوع الذي يجري رسم خريطته. فما هوالتصرف السليم بالنسبة إلى الأدب الكاتالاني؟ هل أضعه ضمن كل جمهوريات أمريكا اللاتينية الواحدة والعشرين؟ هل أعتبر ما كان تشيكوسلوفاكيًا سابقًا بلدًا واحدًا أم بلدين أم ثلاثة؟ وما عدد دول بلجيكا؟ وهل من الضروري أن تظهر أستراليا منقسمة إلى ست مستعمرات حتى عام ١٩٠١ وكدولة واحدة بعد ذلك؟ إن الوحدات القومية لم تكن فقط تتشكل ويعاد تشكيلها باستمرار أثناء الفترة

الخاضعة للدراسة بل ربما كان هناك ما يكفل أن تكون عملية النقل التي تصيب إحدى النقاط ذات صلة وثيقة بالحيز القومي أو اللغوي ككل. وكانت "الحداثة" ***modernism*** تعني شيئًا محددًا في برشلونة (حداثة المصورين والمعماريين في المقام الأول: ***modernisme***) وشيئًا مختلفًا تمامًا في مدريد (حيث كانت تستخدم لتمييزها و تفريقها عن حداثة أمريكا الإسبانية: ***Modernismo***). ولأسباب مشابهة، فإن عملية النقل إلى برلين لم تكن هي نفس عملية النقل إلى ميونيخ أو فيينا. ذهب الكتاب إلى باريس لكنهم فشلوا في مشاهدة معظم نواحي فرنسا. وهافانا لم تكن كوبا، بل ولا توضع في سلة واحدة مع بيونوس أيرس. وكانت سيدني غير ملبورن. وهكذا. أما فيما يتعلق بشبكة أواخر القرن ***fin de siècle***، فإن الشبكة المكانية الخاصة بها كان لابد أن تشمل المدن، في المقام الأول المدن الكبرى لذلك الوقت.

بعد أن تلقنت درسي، قمت بإعداد خريطة طليطلة على ضوء المراكز الحضارية، ذلك لأن بلدانًا مثل إسبانيا وإيطاليا لم تكن موجودة قط في القرن الثاني عشر. وعلى أية حال، فإن الافتقار الشديد إلى المعلومات التي يستحيل الحصول عليها استلزم أن يتم تصنيف مراكز حضارية معينة لأنه غالبًا ما كان من المستحيل أن نحدد بالضبط أين كان المترجمون مع أن الأجدى هو نسبتهم إلى بقعة جغرافية بعينها (كما حدث مع جوهانيس هيسبانينسيس). وقد تمثل الحل العملي في توزيع البلدات بحيث تكون هذه البلدات متقاربة بشكل طبيعي من بعضها البعض على المحور المكاني. وهكذا، فإن مواقع كل من تولوز وبيزيرز ***Béziers*** وناربون ***Narbonne*** ومونبلييه ***Montpellier*** ومارسيليا، هذه المراكز التي كانت لكل منها أهمية معينة، قد تم تحديدها كما لو أن كل اثنتين منها قسمان من شيء واحد. لكن هذه المراكز لم تكن بلدًا واحدًا.

بمجرد اختيارك للنقاط التي يتعين تحديدها على المحور المكاني، تصبح المشكلة التالية هي إقرار نظام عرضها. وفي الواقع، فإن ترتيب عرض المعلومات

يحدد الشكل العام لشبكة النقل المرئية مباشرةً. وباستخدام نفس الرموز، يمكن أن يحدث تعديل الإحداثيات تغيرًا في شكل الشبكة بصورة جذرية لتظهر أشكال عديدة. أحد اتجاهات هذه المشكلة هو افتراض أن الشبكة نفسها تحدد أشكالاً أدعى أو أنجع من غيرها. وهذا لا يمكن أن يتم إلا عن طريق التجربة والخطأ، بالتحرك بين الموضوع التاريخي وطريقة العرض.

وقد اكتشفت حين قمت بإعداد خريطة ***fin de siècle*** أن الشكل الأكثر إقناعًا قد نتج من التوزيع التقريبي للنقاط على أساس بعدها الجغرافي من باريس التي كانت بكل تأكيد مركز الشبكة. وتطلب تصنيف هذا البعد إعادة التنظيم من جديد كلما اتجهنا إلى الشرق أو إلى الغرب. كما أن مبدأ الاتجاه من الشرق إلى الغرب قد أتاح لعمليات النقل الإسبانية والبرتغالية والإنجليزية أن تكون الواسطة نحو كل من أمريكا اللاتينية وأستراليا على التوالي، ثم الاتجاه نحو الشرق بوساطة اللغة الألمانية. وإذا لم يكن قد تم إقرار هذا المبدأ، فإن المجموعة الأولى من الخطوط كان من الممكن أن تقاطع المجموعة الثانية، مؤدية إلى التداخل فيما يتعلق بالتمثيل البياني أكثر مما يتعلق بالموضوع. وقد أصبح هذا، في الواقع، مبدأ تجريبيًّا للبنية: فإن تقاطعت الخطوط في الخريطة دون أن يكون قد حدث ذلك في التاريخ، فإن الخريطة يتعين بناؤها من جديد.

إن مسألة أن أسلوبًا معينًا من التمثيل البياني يكون مناسبًا أكثر لشبكة تاريخية معينة ليست مسألة خداع على الإطلاق. فهي مسألة تبين مدى أهمية البعد الجغرافي كأسلوب للمقاومة ضد عملية النقل. أما فيما يتعلق بـ ***fin de siècle*** فإن نظامًا مكانيًّا مناسبًا يبين أيضًا مدى أهمية الاتجاه من الشرق إلى الغرب. أما نظام من الشمال إلى الجنوب، على سبيل المثال، والذي كان يعني وضع الخرائط التقليدية على طرفيها، فقد لا يكون قد أحدث تغيرًا كبيرًا في الشكل العام لعمليات النقل في فترة ما بعد الكولونيالية ولكنه بكل تأكيد لابد أن يكون قد جعل الحركات في أوروبا الشرقية غامضة. لكن الوضوح لا ينبغي أن يعتبر الفيصل. فالمسألة

الخاصة بأن اتجاهًا بعينه يمكن أن يبين درجة الترابط لا ينبغي أن تعيق وظيفة الخريطة كوسيلة للتفكير النقدي. فنحن نستطيع دائمًا أن نحول قطعة ورق إلى مشروع، راجين ألا تكون أيديولوجيا الاتجاه من الشمال إلى الجنوب لحركة أواخر القرن ***fin de siècle*** قد أدت إلى إخفاء أيديولوجيا الاتجاه الأصلي للتطور (من الشمال إلى الجنوب) فلماذا غابت إفريقيا ومعظم آسيا من هذه الشبكة؟ ولماذا مالت المبادئ الجمالية إلى الانتشار في نفس الجهات تقريبًا كشبكات سكك حديدية؟

وكلما سنحت الفرصة، أعطى الاتجاه من الشرق إلى الغرب نتائج معقولة في الخريطة التي أعددتها عن طليطلة، على الأقل قياسًا إلى المعلومات الضئيلة التي كان بإمكاني إضافتها. لكن الخيارات كانت متاحة. وبرغم أنني كنت قد حددت موقع طليطلة باعتبارها المركز الذي تتشكل حولها الشبكة، إلا أن البلورة كانت من الناحية الجغرافية مركزًا حدوديًّا تتجه منها النصوص شمالاً إلى كل من باريس وشارتر ***Chartres*** ولندن وكامبريدج، وربما في اتجاه الشمال الشرقي إلى بولونيا أو باليرمو، ثم لأقصى الشمال إلى بلدات ألبرتوس ماجنوس. (بلدات جيرمانية في القرن الثالث عشر). وبرغم أن باليرمو والقسطنطينية كانتا حدودًا للعالم المسيحي في القرن الثاني عشر، فإن عمليات النقل التي كانت تسير في اتجاه الشمال والغرب كانت تتم من اليونانية وليس العربية. وبإعطاء طليطلة موقعًا مركزيًّا جعلت الخطوط التي تأتي من حين لآخر من هذه الجبهات تقطع تلك الخطوط التي تتبع من شبه جزيرة أيبيريا، حتى وإن كان هناك دليل ضعيف على أن عمليات النقل مرت من هذا الطريق. وكان من الممكن أن ترصد خريطة أخرى تلك المقاصد الواقعة في أقصى الشمال حين يكون المركز مختلفًا (لندن، باريس، شارتر) وتكون الدائرة الهيسبانية العربية من الناحية اليسرى والروابط اليونانية الإيطالية من الناحية اليمنى. وكان لابد لهذا أن يعطي ترابطًا أشد للجانب النصي من العمل، وخصوصًا فيما يتعلق بالقرن الثاني عشر. لكننا إذا أعطينا الاعتبار الأول لتجركات المترجمين بدلاً من الأعمال المترجمة فإنه ستكون لدينا في الواقع

تحركات شديدة الأهمية ومباشرة بين طليطلة من ناحية وباليرمو - بولونيا - فلورنسا من ناحية أخرى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وقد تركت طليطلة في المركز كيما أعطي تفسيرًا لهذه التحركات؛ مع أن الخريطة الأخرى، التي تم إعدادها للإجابة عن الأسئلة الأكثر نصية، قد أجابت بشكل صحيح ولكن بطريقة أخرى.

المدن بوصفها حدودًا

أين موقع الحدود في هذه الخرائط؟ فيما يخص شبكة القرون الوسطى، ربما كان الملمح الوحيد الذي تم كشفه هو فقط أن ارتباط طليطلة بخط رأس متصل جزئيًا يدل على تبدلات مستمرة بين العالمين الإسلامي والمسيحي. وأعتقد أن هذا هو أقرب شيء للحدود يمكن أن يبينه تاريخ الترجمة. لكن ليس هناك سبب عالمي يجعل مجال رؤيتنا عبدًا للحدود السياسية. فالحدود بين الثقافات لا تكون واضحة قبل عملية الترجمة ولكنها تتضح خلال عملية الترجمة ذاتها. وفي الواقع، فإن الترجمة هي التي تشكل الحدود غالبًا: ثقافة المصدر في أحد جانبيها والثقافة المنقول إليها في الجانب الآخر.

وإذا تأملنا من الناحية الأنثروبولوجية، فإن هذا الارتباط بين الترجمة وحدود الازدواج الثقافي له منطق معين. فالمناطق الحدودية تميل إلى أن تكون مزدوجة أو متعددة اللغة إلى أن تشتمل من ثم على وسطاء. وفي مصر الأسرة الثانية، فإن المترجمين الذين استخدموا للحملات الجنوبية أتوا إلى الجنوب من الحدود النوبية (*Kurz 1985*). ومع ذلك، فإننا لا نتوقع أن نجد حشودًا من المترجمين متزاحمين على الحدود السياسية أو واقفين على أبواب الجمارك بانتظار الانقضاض على كتاب ليترجموه. ويصح أن نقول أن بعض المترجمين نشأوا ضمن ثقافة حدودية بغض النظر عن المكان الذي ينجزون فيه أعمالهم. كما يمكن أن نقول أن مثل هذه

المناطق الحدودية يمكن أن يُعاد إنتاجها داخل كل ثقافة مختلطة، سواء كان ذلك عن طريق الزواج المختلط أو التعليم المختلط أو السكن المختلط. إن إعادة الإنتاج الثقافي للمناطق الحدودية لها علاقة طفيفة جدًّا بالأرض. إنها في الغالب ظاهرة خاصة بالمدينة، بالطبيعة التي حررت إرادة الفلاح، بالدورة السريعة للنصوص والبشر، بالثقافة اللاجلوسية. وهكذا فإننا نجد المترجمين يعملون في المدن أو في التوسعات القريبة للمدينة. وإن شئت، فإن حدود هذه الأماكن قد تم تجفيفها وتجريف تربتها، فأصبحت هذه الحدود واجهات ازدواجية معقدة للشكل المديني.

وليس من قبيل المصادفة أن تشكل طليطلة جزءًا من تاريخ منطقة حدودية منعزلة. ولا كان من قبيل الصدفة أن المترجمين تجمعوا هناك وأدوا عملهم بنجاح. لقد كان المترجمون يقيمون حدودهم في المدن منذ ذلك الحين. أو على الأقل الإحداثيات المكانية توحي بذلك.

الفصل السابع

المعايير والمنظومات

الشبكات هياكل عظمية لا تعدو كونها عظامًا في حاجة إلى العضلات التي تجعلها تؤدي وظيفتها. ومهما تكن سلامة تحديدنا لموضع المترجمين والترجمات في المكان والزمان، فإن ذلك لن يتمخض إلا عن النزر القليل من التاريخ إلى أن نعرف كيف تم إعداد واستقبال المترجمين في الواقع. هذا يعني قراءة وتحليل الترجمات. كما يعني ما هو أكثر من إعداد قوائم آركيولوجية للمتغيرات النصية. ويتعين علينا أن نحاول إثبات كيف تم الإعداد لعمليات التحويل حينذاك، ولأي مدى. والواقع أن العضلات التي نقصدها هي القيود الاجتماعية (الهياكل *structures* – القواعد *rules* – المعايير *norms* – الأعراف *conventions* – وغير ذلك)، تلك القيود التي تحول الفاعلية إلى فعل عن طريق الانقباض والانبساط، معًا أو بشكل متعارض، مما يؤدي إلى تغير توترها ومن ثم يسمح بالتغيير. ويتعين علينا أن نتقدم، بطريقة أو بأخرى، من عالم البيانات إلى مستوى الموضوعات المجردة (فأنت لا تستطيع في الواقع أن تمس قيدًا) لكن فرضياتنا لم تعد قادرة على مجرد إحصاء وتنظيم الأشياء، إننا في حاجة إلى فكر واسع الخيال لتشكيل القوى التي تسمح للأشياء أن تتحرك.

سوف نستعرض هنا وفي الفصل التالي العديد من النماذج: "المعايير" و"المنظومات"، ونوعًا خاصًا من المنظومة يطلق عليه "النظام" ***rigme***. ولكننا في حاجة، قبل أن نقدم على ذلك، إلى أمثلة عن نوع الفاعلية الذي يمكن لمثل هذه الموضوعات المجردة أن تقيده.

عاجلاً أم آجلاً، سيقرأ أي مؤرخ مجتهد للترجمات بعضًا منها. وهذا هو في الواقع أفضل ما يمكنك عمله عاجلاً أو آجلاً: عاجلاً بمجرد أن تستطيع على سبيل المتعة ولترى ما هي الحقيقة الكامنة وراء خدع النظرية، وآجلاً بقدر ما هو ضروري، نظرًا لأنه يتعين عليك أن تفعل كثيرًا قبل أن تعرف ما الذي تبحث عنه بالضبط. والخطأ التقليدي هو، بطبيعة الحال، أن تقرأ وتقارن أميالاً من النصوص، وتكتب خليطًا من الملاحظات عن الاختلافات الواضحة الدلالة، دون أن تفلح في قول شيء مترابط عما توصلت إليه. لكن هذا الفخ يمكن دائمًا تخطيه عن طريق تحليل الترجمات الخاصة بواحد أو اثنين من المستويات أو الوجوه المعرّفة جيدًا، وذلك لاختبار الفرضيات المصوغة بصورة جيدة.

الترجمات يمكن أن يتم تحليلها بطرق عديدة. الطريقة التقليدية هي مقارنتها بنصوص أصلية كلما أمكن ذلك (بافتراض أننا نعرف أن المترجم كان يترجم من النص أو المخطوط المعين الذي في متناول يدنا). هذه الطريقة هي الطريقة الأكثر صعوبة والأقل مكافأة في الغالب، وذلك نظرًا لأنه سرعان ما تظهر جوانب خارجة عن الموضوع تقود إلى مئات من الطرق المسدودة. ويمكن للترجمات، بدلاً من ذلك، أن تقرأ كنصوص بحكم حقها الثابت في أن تكون نصوصًا، دون الرجوع إلى أي نصوص سابقة، الأمر الذي يعني ضمنيًا أو بشكل صريح أنها مقارنة بنصوص غير مترجمة تنتمي إلى النوع الأدبي ذاته أو إلى نفس الإطار الاجتماعي. من السهل عمل هذا، باستثناء أنك ستكون تقريبًا غير واثق مطلقًا من معايير ثابتة لاختيار النص المرجعي غير المترجم (خذ وهات فيما يتعلق بالحالات التي يكتب المترجمون فيها أيضًا نصوصًا غير مترجمة تنتمي إلى نفس النوع الأدبي). والطريقة الثالثة، وهي الطريقة التي أوصي بها، متى كانت كافة الطرق الأخرى متساوية، تتحدد في مقارنة مختلف الترجمات إحداها بالأخرى، حيث تكون

الترجمتان بنفس اللغة، وتكونان، في الحالة المثلى، مرتبطتين بإحداهما الأخرى بوصفهما ترجمتين متكررتين إيجابيتين وليس سلبيتين (عن الترجمات الإيجابية والترجمات السلبية، انظر فصل ٥). والاختلافات التي تبرزها هذه الطريقة الثالثة لابد أن يكون لها تأثير مباشر على ظواهر الترجمة، دون أن تفسح مجالا للتحليلات المسهبة للقيود اللغوية الملزمة أو الخصوصيات الثقافية أو أي شيء آخر يمكن تحليله بسهولة تامة خارج إطار تاريخ الترجمة. والمتغير المفيد جدًّا لهذه الطريقة الثالثة هو مقارنة ترجمات الماضي بترجمته من النص المصدري، حتى وإن تم ذلك بالمخاطرة بإنتاج تفاصيل أكثر مما يمكن صياغته بصورة مترابطة. كما أنه يمكن تحليل مسودات نسخ متتالية لترجمة واحدة (أصلها من عمل نفس المترجم). ومع ذلك، فإن هذه الطرق التي ذكرناها مؤخرًا هي وحدها التي يمكنها أن تكون تاريخية حقًّا حين تزود بالقدر الكافي من القرائن لإظهار عمليات تغير يتجاوز الإطار الفردي.

الطريقة الواقعية لقراءة ومقارنة النصوص ليست في حاجة إلى أي شيء تاريخي أكثر مما ينبغي. فالدافع يمكن أن يكون كامنًا في الخطوات العامة للتحليل الوصفي، خصوصًا في مزاوجة الأجزاء البديلة والأجزاء المستبدلة ***Toury 1995:87-101***، وفي فكرة المعادلة الملازمة، باعتبار أن هذه أشياء ينتجها المترجمون تاريخيًّا وليس مجموعة من القواعد الأبدية ينبغي لهم أن يتبعوها إلى الأبد.[1] وقد تجد في التحليلات المبنية على أساس المادة الفهرسية بعض المفاتيح المفيدة (***Baker 1993,1995***)، أو فرضيات توضيحية ***Blum-kulka 1986, Séguinot1998***، أو ما يطلق عليه توري "قواعد السلوك الخاصة بعملية الترجمة" (***1995:259-279***) أو أي شيء آخر يمكن أن يزودنا بقائمة أولية للمراجعة كنوع

(١) فكرة التعادل التي أدافع عنها تومئ إلى علاقة مؤثرة ليس بين نص مكتوب في لغته الأصلية ونص مترجم عنه لكن بين هذا النص المترجم والقارئ المهيأ لتصديق مشروعيته والثقة بها بوصفها "المعادل" لمصدر غير منظور (انظر: Pym 1992 a ,1993a ,1995b).

من توخي الحذر. لكن ينبغي على الإنسان أن لا يبدأ بنية البحث عن كل شيء. فالأفضل أن تبدأ وفي ذهنك هدف محدد، وأن تكون مفتوح العينين حين تصادف أي طريق مختصر أو غاية لها جاذبية أكبر. وقد أشرت في الجانب الأكبر من كتابي ***Fin de siècle*** إلى طريقة التعامل مع النظم والنثر (وليس هذا أمرًا سهلاً في زمن الشعر الحر وقصيدة النثر) بالإضافة إلى ملاحظات سريعة عن سمات النصوص الفهرسية (مكانة المترجم وأهميته في مقابل المؤلف). وفى كتابي عن طليطلة، كانت الملامح الأكثر أهمية هي سمات التطور التربوي (المواءمة التفسيرية، والملاحظات الهامشية، ومختلف أشكال الترجمة الإملائية بين اللغات ***transcription***، وتوحيد المصطلحات الأجنبية)، وكذلك تنصير النصوص الوثنية، ومؤشرات العلاقة بين المترجمين المتعاونين. وفيما يتعلق بقشتالة القرن التاسع عشر، حيث كان المؤرخون يجادلون إن كانت الهيومانية الإيطالية مفهومة حقًا، كان لابد من إيلاء عناية خاصة بالترجمات التي تشتمل على مصطلحات فلسفية، وبوجه خاص الترجمات المعنية باستخدام ألفاظ جديدة. وقلما أثيرت مسألة تحليل وتسجيل كل ما يجري في العمل المترجم.

ذلك يعني أنه يتعين على المرء أن يميز باستمرار أن النصوص تفتح العديد من السبل التي توصلنا إلى ما يتجاوز رؤيتنا التحليلية السريعة. إن العيوب الشائعة في الدراسات التاريخية – وكذلك في نظرية الترجمة المعاصرة – هي الزعم بأن النصوص تتحدد تمامًا بسياقاتها الخاصة وأهدافها المباشرة، وبأن يكون محتواها النصي واضحًا بصورة أساسية. ويبدو أحيانًا أن المعرفة الكافية بالمرسل والمتلقي والناس والهدف تجعل في متناولك أن تلقي بالنص نفسه جانبًا. لكننا دفاعًا عن الرأي المعارض، يمكن أن نوضح أن النصوص تعطي تصورًا واضحًا لمعظم سياقاتها، وتطرح أسئلة تكون أو لا تكون وثيقة الصلة بالأصل، أو بالمناقشة، أو بالتنافس، أو الأيديولوجيا، أو بالوضع الطبقي أو الاجتماعي، وتكون أحيانًا بعيدة تمامًا عن أي مقصد أو موجب مباشر. فهناك نصوص ونصوص. بعضها، ربما

النصوص الكبرى، يطرح دلالات أكثر مما قصد إليه أي من المرسلين والمتلقين والمراكز الهامة؛ وبعضها يمكن أن يمد القراء الباحثين عن معرفة أكثر بأشياء أكثر مما يعرفون. وهذا يمكن أن يحدث بطرق عديدة.

يمكنك أن تبدأ بتحليل النص على ضوء الترجمة فقط لتجد، في حالات مثل الكتاب المقدس ***the Bible*** وربما أناشيد إزرا باوند ***Ezra Pound*** التي تسمى ***Cantos***(*)، أنه يوجد في النص ما يكفي من التعليق النظري على الترجمة بحيث تدلك أجزاء الموضوع على الفور على مكان المادة المعنية. وبمعنى آخر، يكون النص، بغض النظر عن الاختلافات السياقية، قد سبقك في الوصول إلى المكان. فلماذا لا ينبغي للمؤرخ، إذن، أن يتعلم من النص؟ وفي حالات أخرى، تكتسب النصوص دلالتها ليس من خلال ما تقوله ولكن مما تفشل في أن تقوله أو ما تتجنب قوله بشكل مقصود. فلماذا إذن لا يذكر دانيال دي ميرلاي ***Daniel de Merlai***، في كتابه ***Philosophia***، وهو الوثيقة الرئيسية الداعمة لفكرة "مدرسة طليطلة"، ولو لمرة واحدة، ما الاسم الحقيقي لمدرسة كانت كائنة في طليطلة؟ وما السبب في أن مترجمًا من الموزراب يشير، في مقدمة هامة وردت باللاتينية في أحد كتب نفس الفترة، مستخدمًا ضمير المتكلم، إلى أن شخصًا آخر قام بالترجمة إلى اللاتينية على حين أن الترجمة نفسها لا تعطي أي إشارة تدل على أي تعاون شفوي (***Riet1972:98*99*n***)؟ لابد من بيان مثل هذه المفارقات من خلال التحليل الدقيق على مستوى النص ككل، خصوصًا في المواضع التي تخلو من السياق اللانصي الذي قد يكون مستخدمًا في تقرير هذه الأمور (وهذا يعني أن كل السياق نص أيضًا). هناك أيضًا تفاصيل مذهلة قد تكون غير جوهرية لكنه لا يمكنك أن تكون على يقين من ذلك. وقد تساءلت يومًا ما عمن جعل مقدمة روبرت لويل ***Robert***

(*) مجموعة من القصائد كتب الشاعر الأمريكي إزرا باوند ١٨٨٥ - ١٩٧٢ معظمها بين عامي ١٩١٥ و١٩٦٢. وهي ملحمة غير مكتملة من ١٢٠ جزءًا أو نشيدًا أطلق على كل منا اسم "كانتو". والكلمة من الإيطالية وأساسها من اللاتينية بمعنى "أنا أغني". (المترجم)

Lowell لكتاب *Imitations (1958)* متناقضة جدًّا وغير مفيدة على الإطلاق؛ واكتشفت بالصدفة أن عدد القصائد المعلن عنها كبيانات نصوص أكبر من عدد النبذ المذكورة بوصفها قصائد، ولذلك كان من المنطقي أن أعتبر "المقدمة" نفسها قصيدة، أو أن أعتبرها على الأقل نبذة لها وضعية النص المترجم نفسه مثلها مثل باقي أجزاء الكتاب(١). هناك أيضًا أشياء واضحة جدًّا لا تراها بسبب الأشجار. وعندما كنت أتسلل إلى ترجمات هنري ألبير *Henri Albert* الفرنسية لنيتشه، كنت أركز على جوانب مثل ترجمات مصطلح *Übermensch* [سوبر مان] وكذلك، في حالة ألبير بصفة خاصة، على الإستراتيجيات التي يتم بواسطتها تذليل مختلف صعوبات الترجمة. وقد أمضيت وقتًا حتى أدرك أين يتم الالتزام بالقواعد الصحيحة، أعني الاختيار القبلي الدقيق للنصوص المراد ترجمتها، حيث يتم تقديم شخص اسمه نيتشه شديد الكره للنساء ومصاب بفوبيا الألمانية، على الأقل في النصوص الأولية. ويجب علينا، دون أن نتجاهل لب أهدافنا، أن نكون مستعدين لأن نتيح للترجمات فرصة أن تضيء لنا مناطق أخطأنا في تجاهلها. ويجب أن نكون مستعدين لأن نتعلم من النصوص.

وعلى أية حال، فإن إمكانية أن تستخلص من النص أكثر مما تضيف إليه تخلق مشكلات منهجية في الحقل الخاص بتاريخ الترجمة، وذلك ليس فقط بسبب الكميات الواضحة من التفاصيل التي يمكن ملاحظتها أثناء القراءة. فإذا تسنى لي أن أحلل، كإجراء تمهيدي خادع، أشياء متنوعة مثل الشعر الحر *vers libres* المولّد عن طريق الترجمة أو المقدمة الشعرية الغريبة للشاعر لويل أو نيتشه المصاب بفوبيا الألمانية كما قدمه ألبير، فهل يمكن توقع أن يكون لكل هذه النتائج المتباينة

---

(١) المسألة أعقد من ذلك قليلاً. إن قائمة المحتويات في كتاب لويل تحتوي على ٦٣ قصيدة مترجمة ولكنها تغفل ترجمة قصيدة ريلكه 'Rilke المعنونة 'Die Tauben ، كما أن الجزء المطوي من الغلاف الخلفي يشير إلى ست وستين قصيدة. وأحد الحلول هو أن ننظر إلى المقدمة وإلى قائمة المحتويات باعتبارهما قصائد ٦٣ و ١ و ٢ = ٦٦ نظرًا لأنهما نصان ذوا معلومات قليلة القيمة (انظر: Pym 1995 c).

نفس المكانة التاريخية؟ هل أنا في حاجة لأن أبرهن على أن قارئًا ما في الماضي كان يدرك مثل هذه الأشياء؟ أم أنه يتعين عليّ بالأحرى أن أدعي، مادمت أنني وجدتهم، أنهم موجودون في الحاضر ولا يستحقون إلا ما أريد أنا أن أنسبه إليهم؟ بل وهل يمكنني أن أجمع هذه المناقشات ربما بزعم أنني قد وجدت ملامح كانت واضحة في الماضي ولكنها ظلت خفية أو غير محسوسة لقراء الماضي؟

أحد الأساليب الجيدة لعلاج هذه الأمور هو الإصرار على أن الموضوع الصحيح لأي تاريخ هو التغير. إن الملامح التي أجدها في نص- أو التفسيرات التي يضيفها المؤرخون على نص- لا يمكن أن تكون تاريخية إلا بالحد الذي يتم به تعيين أو تفسير ظواهر التغير، لكن هذه العلاقة لا تكون واضحة في أحوال عديدة. على سبيل المثال، قد أكون مهتمًا بإحصاء التكرار النسبي لأداة الربط "أنّ" في المواد الفهرسية للترجمات واللاترجمات الإنجليزية، وذلك نظرًا لأن بيكر ***Baker 1995*** أشارت إلى أنّ الرابط الصريح يكون أكثر تواترًا في الترجمات منها في اللاترجمات. وهذا شيء مثير بكل تأكيد، ولكن هل هو تاريخي؟ هذا شيء يمكنني أن أكتشفه وربما أشرحه على أساس أنه فرضية إيضاحية؛ إنه ملمح قد يجهله معظم القراء الآخرين، ملمح قد يشير إلى المبادئ المعرفية للترجمة، تلك المبادئ الخارجة عن سيطرة المترجم، إنه قد يبرر أيضًا النظر إلى لغة الترجمة باعتبارها لغة تحدد مكانها المزدوج ثقافيًا، مستغلة في ذلك التباينات في الكثير من اللغات المستهدفة. لكن هذا الملمح لا يشكل جزءًا حقيقيًا من الأهمية التاريخية إلا حين يمكنني أن أربطها بعملية تغير حقيقي. وهذا لا يعني أن حذف الرابط ليس نتيجة للتغير التاريخي (انظر: ***Romaine 1982***)؛ وليس معناه أيضًا الإيحاء بأن أي علم لغة لابد أن يكون علم لغة تاريخيًا. وعلى أية حال، فإن هذا المثال ينبغي أن يحدد الطريق إلى المستويات المختلفة من الوعي التاريخي اللازم: إن إحصاء تكرار "أن" لا يعني أبدًا الوعي بتسلسل أرقام ترجمات الشعر الحر في أواخر القرن التاسع عشر، فعملية تحويل النظم إلى نثر كانت، في واقع الأمر، عملية

تغيير لما كان يعيه كل قارئ للشعر. والظاهرة التي نراها في الحالة الأخرى لها علاقة مباشرة جدًا بعملية التغير التاريخي: فكلما تعاظم وعينا التاريخي (في نطاق موضوع دراستنا) كلما ازدادت ثقتنا في معالجة عملية التغيير. وفي هذا السياق، تصبح التفسيرات البارعة لنصوص مثل المقدمة الشعرية التي كتبها لويل بلا أهمية عملية لتاريخ الترجمة بل وربما تبقى مجرد سفسطة، على حين أن تفسير ألبير لنيتشه الكاره للنساء والمصاب بفوبيا الألمانية قد يكون مقبولاً، لأنه كان على الأقل صورة حية ثم أصبح موضوعًا للمناقشة العامة، حوالي عام ١٩١٤على وجه الخصوص. وسوف نعود لهذه المسائل بعد قليل نظرًا لأنها تتطلب قدرًا أكبر من الإجابة النظرية. أما الآن، فإنني أطرح اشتراطًا ساذجًا إلى حد ما: القراءات تكون تاريخية حينما تكون متعلقة بعملية تغيير فقط.

المعايير؟

إصراري على التغيير له صلة ما بالكتابات التاريخية التي تصف موضوعها على أساس الأنماط السلوكية الخاصة بعملية الترجمة. فمن يصفون ينظرون إلى ما يفعله المترجمون؛ إنهم يلاحظون مظاهر معينة تتكرر بانتظام؛ ويحسبون هذه الأنماط على أساس من المعايير الاجتماعية التي يفترض أنها عوائق سلوكية تقتضي نوعًا من الردع نتيجة لعدم الإذعان – انظر: ***Toury 1992,1995; Hermans1991; Nord 1991b***[1]. وكما قال تورى، فإن المعايير هي "العوامل الرئيسية" التي تكفل

---

(١) بين الترجمات المختلفة، لاحظ وصف توري للمعايير على أنها "بالأساس ترجمة للقيم أو الأفكار العامة المشتركة بين أفراد المجتمع – وذلك فيما يتعلق بما هو صحيح وخطأ، وما هو ملائم وغير ملائم – إلى تعاليم أدائية نوعية ملائمة لحالات نوعية (1992: 62) . وما يزعجني هنا هو الزعم بأن القيم أو المثل "مشتركة بين أفراد المجتمع" بالبداهة وليس لأن هذه القيم والمثل تفرضها مصالح جماعة مسيطرة. يلاحظ أيضًا أن كتابًا مثل نورد Nord–

رسوخ وبقاء النظام الاجتماعي (*1995:55*). وهذه المعايير، في ذاتها، مسئولة بكل تأكيد عن أن لا يكون حقل الترجمة مفهومًا على الإطلاق، حتى ولو إلى الحد الذي يكون عنده أي معيار قديم أفضل من لا شيء (وهذا النوع من اليأس الذي يبرر، عند **Chesterman 1994**، كل أشكال القفزات من "يكون" إلى "ينبغي"). الباحثون في مجال الترجمة مدعوون، إذن، لرؤية موضوعهم أولاً وقبل كل شيء على ضوء أنماط من التكرارات ***repetitions*** والثابتية ***stability*** والمدلولية ***meaningfulness*** وشكل النظام الاجتماعي ***social order***. إنهم مدعوون ضمنًا لأن يروا موضوعهم على ضوء عمليات تغير أكثر جوهرية. لكن التحول غير المطلوب يصبح نوعًا من نقص المعايير، وهو شيء يحدث بصورة حتمية بعد أن تكون المعايير قد استقرت وتم وصفها فعلاً، ويصبح التغير شأنًا من شئون علم الأمراض.

هذا ليس جدلاً من ذلك النوع من الجدل الذي يثار حول الفرخة والبيضة. فالتغير يكون، في الواقع، ذا معني في مقابل عدم التغير، ولا حاجة إذن لأن تكون هناك فجوة جذرية بين المصطلحين. والاختلاف الحقيقي يكمن في أنواع السياقات الاجتماعية التي تستخدم لتعزيز الأوصاف. لكن المنظرين والواصفين لمعايير الترجمة يتبرعون، بصورة تدعو إلى العجب، بطرح أسئلة تتعلق بعلاقات السلطة أو بالجماعات الاجتماعية المتصارعة، وهي نظرة ينبغي تجاهلها عند مناقشة شيء في أهمية "الترسيخ والإبقاء على شكل النظام الاجتماعي". فمن ذا الذي يعمل على ترسيخ المعايير والحفاظ عليها؟ لكن منظري معايير الترجمة لا يقولون شيئًا على أساس أن مهمتهم هي فقط أن يصفوا المعايير نفسها بنفس الطريقة التي يمكن للمرء أن يصف بها الشكل الأمثل للبيضة بحيث لا يتعرض للسلوك الغريب جدًّا المتمثل في نقر الفرخة.

---

*يشيرون إلى "أعراف الترجمة" وليس إلى "المعايير"، ويميزون أحيانًا فيما بين الكلمتين (فالأعراف معايير لا تستند إلى إقرارات). وأنا، اتباعًا للعرف، أستخدم هنا كلمة "معيار" بدلاً من "عرف" باعتبارها مصطلحًا عالميًّا.

إن التركيز على التغيير (نقض المعايير، إن كان يجب عليك ذلك) يثير على الفور أسئلة تتعلق بالسلطة والتوتر الاجتماعي، على حين أن التركيز على عدم التغيير (التقيد بالمعايير إن شئت) يستدعي مزاعم الوحدة الاجتماعية والتجانس الاجتماعي. لكن الرؤى التاريخية الناتجة مختلفة تمامًا. فالتغيير يشبه الانحراف عند النظر إليه من منظور المعايير، كما أن عدم التغيير يمكن انتقاده بوصفه وعيًا زائفًا من منظور ناقضي المعايير. ونظرًا لأن التركيز على المعايير يفترض درجات عالية من الانسجام والتماسك الاجتماعي، فإن إطار التحليل المستخدم في مثل هذه الدراسات هو غالبًا الثقافة المفردة ***single culture***.(*) وهذا بدوره عادةً ما يؤدي إلى مزاعم غير مختبرة فحواها أن معايير الترجمة سمة ثقافية، بل وإلى يقين غريب بأنه إذا تصادف أن ارتبط المعيار بأكثر من ثقافة واحدة فإن ذلك لابد أن يكون نتيجة لعملية "تداخل" ***interference*** *(Toury 1995 :62)*. إن أسلوب التفكير يقترب هنا بصورة خطيرة من استنتاجات السوسيولوجي الفرنسي جابرييل تارد *Gabriel Tarde* الذي اعتقد أنه "عندما يكون الفن عاملاً من عوامل المعارضة وليس التآلف الاجتماعي، فلابد أنه قادم من الخارج" (*1895 :39b*)، كما لو أن أي ثقافة ليس لها إلا معاييرها الخاصة وكافة المشاغبين ليسوا إلا أجانب.

ومعايير الترجمة يمكن اكتشافها عن طريق التنقيب في نوعين من الأشياء: النصوص الأولية (الترجمات في هذه الحالة)، وذلك لمعرفة ماذا فعل المترجمون بالضبط، والأقوال الثانوية (النظرية أو النقدية) ما ينبغي أن يفعله المترجمون، أو ماذا يريدون أن يفعلوا، أو ماذا يريدون أن يرى الناس أنهم يفعلون. ونظرًا لأن النظريات كثيرًا ما تعطي فكرة خاطئة عن عمل المترجمين، فإن بعض الباحثين يفضلون دراسة الترجمات. على حين أن هناك آخرين يفضلون دراسة نظريات

(*) تعبير monoculture المستخدم في مواضع من هذا الكتاب، والذي ترجمناه إلى الثقافة الأحادية، المقصود منه الثقافة التي تعبر عن عدم ازدواج أو اختلاط ثقافي، فهو في مقابل كلمة interculture التي ترجمناها خلال هذا الكتاب إلى الثقافة المزدوجة. أما تعبير الثقافة المفردة Single Culture، فالمقصود به كل ثقافة بذاتها على حدة. (المترجم)

الماضي نظرًا لأن النظريات أقل عددًا من الترجمات، ولذلك فإن تحليلها قد يبدو أكثر شمولاً وذا أربحية في التكلفة. لكن المسألة ليست مسألة كفاءة فقط.

ويرغم أن الدراسة المرتكزة على المعايير يمكن أن تعتمد إما على الترجمات أو على المادة الثانوية، فإنها تجد صعوبة كبيرة في التعامل مع ما هو مزيج من الاثنين. سبب ذلك بسيط جدًا: ما أن تتناقض المواد الأولية والمواد الثانوية مع بعضهما البعض – الأمر الذي عادةً ما يكون عاجلاً وليس آجلاً – حتى تكون بين يديك نوع من النقاش، أو تضارب في المعايير، أو على الأقل أيديولوجيا زائفة. وأيًا ما كانت التفاصيل، فإن مُدْخَلاً مختلطًا يعمل على تحويل بؤرة الارتكاز من معايير مستقرة إلى معايير متضاربة، أو إلى نقض المعايير في الحالات التي تتطلب نقض معيار سائد. وإذا كنت مهتمًا بعمليات التغير الأخيرة، فإن قدرًا من البيانات المفيدة سوف تنتج عن خلط المادة الأولية بالمادة الثانوية.

مثال لتوضيح هذه النقطة: رغم أن كريستيان نورد *Chiristiane Nord* *(1991b: 103)* تدعي أن معايير الترجمة ("الأعراف"، حسب تعبيرها) سمة ثقافية إلا أنها تورد مثالاً غير مباشر بان ألونزو فيرنانديث دى مدريد *Alonso fernàndez de madrid* جعل ترجمته لكراس إراسموس *(Enchoridion) Erasmus's* عام ١٥٢٦ أطول كثيرًا من الأصل. أما اليوم، فما من أحد يقبل تضخيم الترجمة بهذا القدر، فمعاييرنا ليست هي معايير فيرنانديز دي مدريد. ولذلك – كما تشير نورد – فإن فيرنانديز دي مدريد كان يعمل على ضوء المعايير التي سادت في إسبانيا القرن السادس عشر. الواقع أن هناك خطأً كبيرًا في هذا النوع من الجدال. فأولاً، لا يحاول منهج نورد أن يرصد الترجمة المذكورة في أي سياق كمي أو كيفي. فهي، انطلاقًا من آراء الباحثين الآخرين عن طول الترجمة، تعتبر أن معيار الترجمة "مختلف" بالنسبة "إلينا" وحسب. ولو أنه تم بذل قدر من المحاولة لرصد سياق للترجمة بصورة جادة، لكان في إمكان نورد أن تكتشف أن ترجمة فيرنانديز دي مدريد اعتبرت ترجمة شاذة حتى في إسبانيا القرن السادس عشر، ولا تكاد

تصلح كنموذج لأي معيار سائد(١). وثانيًا، تعيد نورد ذكر إحدى النقاط التفصيلية من صفحات الترجمة نفسها دون أن تقول ما الذي يجعل أي مترجم يطيل إلى هذا الحد (وقد كان فيرنانديز دي مدريد يسقط أيضًا فقرات، ويستغل الترجمة في الواقع كفرصة للوعظ من خلال شخصية أجنبية). ثالثًا، لم يتابع المحلل سياقات ثانوية مثل التمهيد (جاءت شذرات منه في *Santoyo 1987:49-52*) الذي يحاول فيه المترجم بلا خجل أن يسوغ عمله وفقًا للأمانة الكلاسيكية، بإشارات إلى سانت جيروم وآخرين *Saint Jerome and all*، والالتزام الظاهري بمعايير عصره. رابعًا، يمكن للمرء أن ينشئ بسهولة تامة سياقًا آخر- شبكة في واقع الأمر- تبدو فيه الإطالة معيارًا من نوع آخر، نزع شديد الوضوح في ترجمة إراسموس اللاتينية للعهد الجديد *New Testament* عام ١٥١٦ (الرابط الأول)، وفي الإستراتيجيات الفيلولوجية للترجمة التي وجد فيها إراسموس قدرًا من الرواج، خصوصًا تلك الإستراتيجيات التي طورها لورنزو فاللا الإيطالي *Italian Lorenzo Valla* (*Hermans 1992:107*) الذي تصادف أن كان في خدمة مملكة أرجوان *Aragon* وغيرها، وتنقل بين إسبانيا وهولندا وإيطاليا وإيطاليا الإسبانية (حيث امتدت سلطة أرجوان الملكية حتى نابولي) إنه أسمى من معيار السمة الثقافية! ثم لماذا كان يتعين على فيرنانديز دي مدريد أن يكتب في ترجمته المناهضة للمعيار تمهيدًا شديد الالتزام بالعرف في إطار السياق الإسباني المباشر؟ إن الترجمة يمكن أن تكون لها علاقة بدخول الفيلولوجيا اللانتقادية إلى إسبانيا، ويـــربط الفيلولوجيا بالإراسمية، والهجوم الذي قاده دييجو لوبث دي ثـــونيجا *Diego López de Zúñiga* على إراسموس بدءًا من عام ١٥٢٠، وبالدعم الواسع من جانب الكنيسة ومحكمة التفتيش. وباختصار، فإن التاريخ الطويل من التوتر والتغير الذي يبدو أكثر أهمية من مجرد مراقبة ذلك النوع المعين من المعيار هو "المختلف".

---

(١) إيماءً إلى هذه الترجمة ذاتها، يقول راسل (Russel 1985: 53) بوضوح تام أنه "من الخطأ الشديد أن نعتقد أن نظرة المترجم للنص اللاتيني لـ Enchoridion كانت مطابقة لنظرة المترجمين في شبه الجزيرة الأيبيرية في هذا العهد، أو في العهد الماضي".

وهناك شيء ما تجنبناه في العديد من الفصول سيتم طرحه هنا. فعندما ناقشت الأهمية على ضوء مصالح الباحث المتوافقة أو غير المتوافقة مع مصالح الزبون (الفصل الثاني)، ختمت نقاشي بالقول بأنه يتعين علينا أن نكتشف لماذا كانت الترجمة هامة في الماضي. ونحن الآن في وضع يسمح لنا بأن نبدأ في الإجابة على ذلك السؤال. لقد رأينا كيف يمكن للتقلبات الكمية والشبكات المادية أن تحدد مواقع الاضطراب في الماضي، ونحن نتأهب الآن لأن نرى كيف يمكن لمثل هذه المواقع أن تكون على علاقة بالمجادلات والصراعات حول معايير الترجمة، ناهيك عن المعايير الحاكمة لأسئلة مثل ما الذي ينبغي ترجمته ومن المفوض بالترجمة. إننا، بعبارة أخرى، نبدأ في إدراك أن ذلك النوع من الأهمية القائمة في حاضرنا يمكن أن يكون له أيضًا تأثير على موضوعنا، وعلى الطرق التي أسس بها المترجمون في الماضي علاقات فيما بينهم، وفيما بينهم وبين كافة زبائنهم. فأهمية الحاضر، من الناحية الشكلية، هي نفس الأهمية في الماضي. ولكن ما هي العلاقة الحقيقية بينهما؟

وكما رأينا من قبل، فقد تحقق نوع واحد من العلاقة، نوع مرتبط للأسف بمعايير السمة الثقافية، وذلك بافتراض أن أهمية الماضي "مختلف"، إن فرنانديز دي مدريد لم يترجم الأسلوب الذي نتبعه، ولذلك فإن سياقه برمته لم يكن هو سياقنا. ويبدو أن هذا الموقف الذي يجيز الاختلافات يحترم الآخرية في جميع وجوه كرامتها النسبية. لكن ذلك غالبًا ما يحقق الشيء المناقض تمامًا. فالاقتباس عند نورد، من جزئية غريبة، والإشارة إلى ترجمة واحدة ومتوسعة على نحو استثنائي، كل ذلك لا يخدم إلا تبرير فرضية الباحثة. إن الماضي يصبح ذخيرة لأسلحة المناقشات في حاضرنا: فليس ثمة محاولة جادة لفهم لماذا تصبح التفصيلة التاريخية أكثر من مجرد مثال عارض وغريب. إن افتراض آخرية السمة الثقافية، بغض النظر عن كونه لا يمكن منطقيًّا الدفاع عنه (فكيف يمكنك أن تعرف بالضبط ما الذي يؤديه شيء ما في ثقافة ليست ثقافتك؟)، يصبح وسيلة تحايل على الماضي لاستنطاقه بما يخدم أغراضنا. وهذه الآخرية الطفيفة هي كل ما تقدمه الدراسات

الخاصة بالمعايير، تلك الدراسات التي تشيئ وتقصي الموضوع التاريخي بطريقة تبدو معها الأهمية التي تجلت في الماضي غير متشابكة مع الأهمية الخاصة بنا.

هناك منهج مضلل بنفس القدر، سبق ذكره، يتعلق بالادعاء بأن ما هو هام بالنسبة لنا مهم بصورة تلقائية بالنسبة إلى الآخرين جميعًا بنفس القدر، إلى حد أن أي فكرة يمكنني الحصول عليها باستنطاق نص ما تعتبر منطوقًا من الماضي. فأنا يمكنني أن أقرأ مقدمة لويل باعتبارها قصيدة، ومنى بيكر ***Mona Baker*** في إمكانها أن تحصي تكرارات كلمة "أنّ" في الترجمات، وكل ذلك مهم لأننا نقول ذلك. ومع أن هذا هو النقيض التام لإقصاء الماضي، إلا أنه غالبًا ما يؤدي إلى نفس النتيجة. إننـــا نضع نهاية لجعل الماضي يتحدث عن أغراضنا الخاصة، لكننا لا نبقي على شيء يستحق أن يسمي التاريخ. هذا هو السبب في أنني أصر على أن هناك علاقة ما بعمليات التغير في الماضي، وعلى أن هناك ما يدل على أن هذه العمليات كانت ذات أهمية في الماضي. وما لم يتم ذلك، فإننا نضع نهاية لطرح أي شيء إلا ما تعلق بالحاضر.

هناك طريقة ثالثة في التفكير، طريقة جدلية خالية من الأخطاء، تتلخص في رفض الخارجانية ***exteriority*** التامة للموضوع والإصرار على جوهرانيته ***substantiality*** ، وهذا يعني أن نسأل كيف تسنى لنا أن ندرس هذا الموضوع بالذات أولاً وقبل كل شيء؛ وهو ما يعني التحقق من أننا قد اتخذنا (فيما يتعلق بالزبائن وغيرهم) الخطوة الأولى المؤدية إلى اختيار هذا الموضوع من بين مجموعة الموضوعات التاريخية المحتملة كلها؛ ويعني أن هناك روابط ذاتية تجمعنا بالماضي حتى قبل أن تبدأ عملية التحليل. فمهما يكن مقدار انشغالنا بأن نكون غازين أو مغزوين، فإن الغزو قد حدث فعلاً. ولكوننا شركاء في الموضوع، فإننا لاعبون هناك. ومن هذا المنظور، فإن معاييرنا المختارة عن ماضينا، مهما بدت صدفية لجذب انتباهنا، لا تكون مختلفة بصورة كاملة. إنها، كحد أدنى، توحي علـــى الدوام بإمكان تطبيقها في الحاضر أو بالسبب الذي من أجله ينبغي تطبيقها، أو ربما تكون لمجرد التظاهر بأن هناك من الأشياء ما هو أكثر مما توحي به

معاييرنا المتوطنة لتطبيق نموذجي على مثل هذه الأسئلة في تدريب المترجمين (انظر: *Toury 1992*). ونظرًا لأننا حصرنا جهودنا في هذا الاتجاه بالذات، يجب أن تكون هناك بعض الإسقاطات الفكرية عن أنفسنا على الماضي. ولكن كيف لا أكون مهتمًا بالطريقة التي تمت بها ترجمة إراسموس إلى القشتالية وأنا بروتستانتي اسميًا أعيش في إسبانيا الكاثوليكية؟ وكيف لا أتخيل ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن المعايير كانت قد اختلفت قليلاً أو كانت أقل تعارضًا، أو أكثر قدرة على الوصول إلى إراسموس الذي جاء إلى إسبانيا بشخصه وليس ترجمته ؟ (فقد دعاه الكاردينال سيسنيروس ***Cisneros*** إلى جامعة ألكالا ***Alcala*** عام ١٥١١، وامتثل إراسموس). وبنفس الروح، يمكن للمرء أن يدرس المناقشات الخاصة بالماضي لمعرفة لماذا يصعب تحقيق بعض التغييرات اللازمة في الوقت الحاضر، تمامًا كما فعل فينوتي (*Venuti 1995*) وهو يقرأ تاريخ الترجمة بمبدأ "الإخفاء" ***invisibility*** في مقابل "المقاومة" ***resistance***. وفي وسعك أن تعنى بمعايير الماضي؛ وأن تتعلم من مصيرهم. فما كان هامًا في الماضي، لابد أن يكون، بطريقة أو بأخرى، مرتبطًا بما هو هام في الوقت الحالي، بل وينبغي له أن يضيف إلى أطرنا المرجعية ومجموعة بدائلنا التي يمكن تصورها. وإلا فلن يكون هناك في المقام الأول دافع قوي لصنع تاريخ. وسوف تكون دراستنا للموضوع إما "تحايلاً" أو "عديمة الأهمية".

وأعود الآن إلى مسألة المعايير في ذاتها. أفلا نريد أن نبني التاريخ على أساسها أم لا؟ دعني ألخص الوجوه التي تجعلني قليل الرضا بالطريقة التي تتم بها دراستها في الوقت الحاضرة:

- مادامت المعايير قيودًا، فإنه يتعين على المرء أن يكون قادرًا على أن يقول ما هي الأشياء التي تعمل المعايير على تقييدها (التوتر والجدل الاجتماعيين) لكن هذا يتم تحقيقه عن طريق التأكيد الشديد على الاستقرار بدلاً من التغيير.

- ومجاراةً للسعي من أجل الاستقرار، فإن دراسة المعايير أولت اهتمامًا قليلاً للتناقضات القائمة بين ما تم عمله في الترجمات وما يقال عن الترجمات.

- لا ضرورة لأن تصبح معايير الترجمة سمه ثقافية (أي من ثقافة واحدة فقط، وفي مجملها)، وإلا فإن الأمر سيبدو ادعاءً مستمرًا.

- وعلى ذلك، فإن دراسة المعايير تميل إلى جعل الموضوع أجنبيًا بالنسبة لنا، الأمر الذي يسمح باستخدام الماضي للأغراض الأيديولوجية النسبية.

إذا كان من الممكن تنظيم المعايير بطريقة يمكنها أن تتجنب أو تتغلب على هذه العيوب، فلن يكون ثمة ما يدعوني لأن أصبح غير راض عنها. لكن الحقيقة هي أن تنظيم المعايير داخل وحدات أكبر تؤدي إلى تعقيد المشاكل السالفة الذكر لأقصى درجة، خصوصًا إذا كانت الوحدات الأكبر قد تم تصويرها كمنظومات.

المنظومات؟

أنا أعتقد أن نظرية المنظومات كان لها تأثير إيجابي كبير على تاريخ الترجمة. وفي الواقع، فإن تحليل المعايير يصبح أحيانًا مجرد آلات صغيرة إلى جوار آليات ضخمة. ويمكن التأريخ لنظرية المنظومات، أو على الأقل لنمط التفكير الذي تستند إليه الكثير من الصيغ وقتما تريد. أما أنا، فأنا أريد أن أنظر إلى نظرية المنظومات باعتبارها نتاجًا للإسقاط التفسيري ***Aulfklàrung projection*** للكليات الوظيفية القائمة على الاعتقاد في مدلولية الطبيعة المدركة كوحدة كلية واحدة؛ أنا أريد أن أقرنها بالاهتمام الهيوماني بالتفاصيل والدقة التاريخية. وسواء بذكر اللفظة أو بدونها صاغت المنظومات تطور الاقتصاد السياسي للقرن التاسع عشر، ثم تطور علم اللغة عند سوسير ***Sausure*** ذلك العلم الذي تعافى على يد ليفي

إشتراوس *Levi-Strauss* وجيله، حيث تولدت المناهج البنيوية لكل أشكال الحياة الاجتماعية. وبدون لفظتها بكل تأكيد، كانت المنظومة جزءًا من الفكر الذي قرن جماليات الشعر في القرن التاسع عشر بيقينية المذهب الطبيعي؛ وساعدت فيما بعد على ربط الفكر الجمالي الفرنسي بالشكلية الروسية(١). وفي ذات الوقت، ولكن بطرق أخرى، نسمع حديثًا عن المنظومات في كافة العلوم غير الإنسانية تقريبًا، بدءًا من علم البيئة إلى علم الفلك، ناهيك عن النقد اليومي الذي نستخدمه كلما تحدثنا عن أي مؤسسة اجتماعية رجعية مثل "المنظومة". وعلى المنظرين أن يقولوا بصورة واضحة ما المعنى الذي يقصدونه من هذه الكلمة.

التطبيق الأول، والذي لا يزال الأكثر تماسكًا حتى الآن لنظرية المنظومات على تاريخ الترجمة يرد في دراسة الباحث الإسرائيلي تامار إيفن- زوهار *Tamar Even-Zohar* التي تشير إلى الشكليين الروس باعتبارهم المصادر المباشرة لمنهجه "المتعدد المنظومات"(٢). ويبدو أن هناك ربطًا مماثلاً بالشكليين الروس قد تم تطبيقه على نظرية الترجمة في دراسة أندريه ليفيفير *Andre Lefevere*. وعلى أية حال، فقد صيغت نظرية المنظومات الخاصة بالترجمة منذ منتصف السبعينيات على ضوء شبكة تربط ما بين تل أبيب وأنتويرب وليوفين وأمستردام والفروع المختلفة (من ذلك: ثيوهيرمانز في لندن، وأندريه ليفيفير في تكساس). وفي هذا الإطار، أصبحت نظرية الترجمة جزءًا جوهريًا للدراسات الوصفية للترجمة، الأكثر

---

(١) يقول جيرار جانيت Genette, Gerard "إذا حككت على ظهر المذهب الشكلي، فسوف يظهر لك المذهب الرمزي" (312: 1976).

(٢) في أثناء حديثة عن "المنظومات المتعددة" يؤكد إيفن- زوهار على حقيقة أن المنظومات التي يتناولها ليست كيانات متجانسة ولكنها على الدوام تعددية ومفتوحة Plural and open، بمعنى أنها منظومات لمنظومات ومنظومات ضمن منظومات. ونظرًا لأن هذا الشكل من المنظومات متفق عليه بشكل عام في هذه الأيام، فإننا قد نتخلى عن مصطلح منظومة تعددية بقرين بأن كافة المنظومات يمكن أن تكون تعددية ومفتوحة. وعلى أية حال، أشار الباحثون منذ إيفن- زوهار إلى أفضلية "منظومة" على "منظومة تعددية" ربما نتيجة لاكتشاف ليومان Luhmann باعتباره مصدرًا بديلاً للإلهام.

وضوحًا في جميع أقسام الكتاب الجماعي ***Manipulation of Literature*** الذي أعده هيرمانز ***Hermans*** عام ١٩٨٥، وكذلك في جميع الروابط المفيدة مثل تلك الروابط التي لها منهج "نقل" براجماتي للترجمة الأدبية التي تم تطويرها في جوتنجن. ويرتبط بناء شبكات جادة أخرى بجوزيه لامبيرت الذي تم تنظيم سلسلة من برامج تدريبات بحثية سنوية (***CETRA***) تحت إشرافه. وقد تضمن هذا التطور المتفرق العديد من الجوانب المزعجة، ليس أقلها احتمال أن لا أحد يعلم بالضبط ما المقصـــود من مصطلح "منظومة" ناهيك عن كيفية ارتباطها بالمعايير أو التاريخ أو الترجمة[1].

هناك شيء واحد يبدو واضحًا جدًّا بالرغم ذلك: المنظومة شيء ما يفوق الشبكة؛ فعلى حين أن الشبكات قائمة على أساس روابط مادية، يبدو أن للمنظومات صلة بمواصفات العلاقات ذاتها؛ فهي مجردة تمامًا مثل المعايير. يبدو أيضًا أن المنظومات أكبر من المعايير وتؤدي وظائفها إما كمجموعة من المعايير المترابطة ("منظومة نوعية" ***genre system***، مثلاً) أو كمجموعة من العلاقات "الجيدة التشكيل" ***wellformed*** أو "الممكنة وفق قواعد اللغة" ***grammatically possible*** بعضها فقط

---

(١) انظر، على سبيل المثال مختلف الاسهامات المتناقضة التي اشتمل عليها كتاب: Histories, Systems, Literary Translation (ed. kittel 1992). وبصورة عامة، لاحظ إلى أي مدى تصبح التعريفات الخاصة بالمنظومات مناقشات أساسها قراءة القائمة بالرجوع إلى المقالات السابقة والمؤلفين السابقين والأجيال السابقة. ويحيل الكثيرون بصراحة إلى إيفن – زوهار الذي يحمل على عاتقه عبء شرح ما يعنيه بكلمة "منظمة" وما علاقة تعريفاته بالترجمة. فاقرأ إيفن– زوهار عن كثب واسأل نصوصه لماذا يتعين على المرء أن يتحدث عن المنظمات بدلاً من أي مفهوم بديل، وتكون الإجابة سلسلة من إحالات التغذية المسترجعة الإضافية، وفي هذه المرة فإن الإحالة للشكليين الروس خصوصًا Tynjandy وEjxenbaum (هجائيًا)، يتم باقتناع كامل بأن فهم هؤلاء المفكرين سيؤدي إلى الفهم الصحيح للمنظومات "الأدبية" (على سبيل المثال، انظر: Even- Zohar 1990، خصوصًا صفحات 29 – 32). والنتيجة هي العلم الذي يرث المفاهيم من استثارة الماضي، الذي يقيم السلطة بصورة ثابتة في اتجاه نازل، منفصل تمامًا عن أي من المشاكل الحالية التي قد يكون المرء في حاجة إلى مفاهيم لحلها.

يصل إلى منزلة المعايير (كما في المناهج اللغوية). واسمحوا لي أن أضيف أنه يبدو أن المنظومات تؤدي شيئًا أكبر من مجرد ترتيب العناصر: فهي غالبًا ما تكون لديها شرارة الحياة، ومضة الأشياء حين تحدث، حين تدور الكواكب، أو تتعطل المحركات، أو تسير النظم الاقتصادية سيرًا حسنًا أو سيئًا. ووفقًا لمفهومها المفرط في التبسيط، تعمل المنظومات على تمكين الهويات من المضي بعيدًا بالتغير التاريخي. أما فيما يتعلق بالباقي، فلست على يقين من الأمر. فكلما يقول لي أحد الناس أن المنظومات "مفتوحة"، أريدهم أن يوضحوا لي أين الفتحات. وكلما قالوا لي أن المنظومات "ديناميكية"، فإنني أريد أن يدلني أحد الناس إلى الشرارة، إلى التناقض العاصف، أو المحرك الجانح ***decentring***. وكلما قال أحد أن المنظومات تقيم علاقات متبادلة بين الأشياء، أريد أن أعرف ما نوع الأشياء داخل هذه العلاقات وأي الأشياء خارجها(١). فإذا ما قيل لي أن المنظومات سلسلة من التعارضات الثنائية المتساقطة من استعارة فراغية غامضة، فإنني أريد أن أعرف ما هي الأسباب الحقيقة التي تجعل العناصر ترتبط ببعضها البعض ولا ترتبط بعناصر واقعة وراء الحدود. سأؤمن بمجرد أن أكون قد رأيت.

وأنا أشك كثيرًا، في وقت أترقب فيه إلهامًا، أنه يمكن إجراء المزيد من التطوير في تاريخ الترجمة بدون استخدام كلمة "منظومة" تمامًا. فإذا كنت تريد أن تتحدث عن الثقافات، فقد يكون الأفضل استخدام كلمة "ثقافات"، والآداب يمكن أن تسمى "الآداب"، ويقال نفس الشيء عن المجتمعات واللغات وغيرها. والواقع أن إحدى المخاطر الحقيقة في نظرية المنظومات المختلطة أن كل هذه الألفاظ المختلفة تميل إلى أن تكون موضوع نفس الخليط الواحد، كما لو أنها ثقافة لها حدود

---

(١) يرى إيكو Eco (1976: 36-37) أن المنظومات لها طابع التراكيب النحوية syntactic ("مجموعة من الإشارات موجهة بقوانين تركيب داخلية") أو الدلالية semantic (مجموعة من الحالات أو المحتويات المعبر عنها بهذه الصورة) أو الحسية receptive ("مجموعة من الاستجابات السلوكية في الجانب المقصود")، وبعيدة تمامًا عن تراكيب الأشياء الثلاثة المستخدمة فيما يسميه "الشفرات"codes، لكن القليل جدًا من تعريفات المنظومات تأخذ في اعتبارها هذه الاحتمالات المتنوعة.

مشتركة من لغة ومجتمع وأدب، كل ذلك تحت مفهوم واحد (من مفارقات هذه الحالة وجود منظومات متعددة وليس منظومة أحادية)، وبذلك لم يعد من المتعين علينا أن ننظر بجدية للحواف غير المتطابقة.

وحتى لا أصبح ضائعًا داخل أي جزء من هذه المتاهة، يتعين أن أحدد أن هدفي هنا هو فقط أن أطرح بعض الملاحظات متمنيًا إثارة أسئلة قليلة قد يحب آخرون الإجابة عنها. ويتركز اهتمامي الحقيقي، بطبيعة الحال، في فحص نوع المنظومة الأكثر ملاءمة للازدواج الثقافي. فأنا أريد أن أهيئ المجال لكي أصنع صكًّا لمنظومتي وأستخدمها في الفصل التالي.

قفزات اليقين

الملاحظة الأولى: غالبًا ما تستخدم قفزات اليقين *Leaps of faith* – أو الحدس *intuition* – للوصول من المستوى الإمبريقي الوصفي الخالص (مادة التوزيعات، والشبكات، والمعايير)، إلى مستوى المنظومات *systems*. وهناك نوع من التاريخ يمكن تركيبه طوبة طوبة وفرضية فرضية ورابطة رابطة؛ وهناك نوع آخر، نوع يتحدث عن المنظومات ابتداءً من الصفحة الأولى، نوع يتخطى الأمور الثانوية ويزعم أن الأشياء الصغيرة ليست سوى أجزاء من وحدة كلية أكبر. ومن المفترض أن المنظومات وحدات كلية بصورة أو أخرى. لكن هل تأتى لأحد أن يقوم بتحليل منظومات كاملة من الترجمات أو معايير الترجمة أو الثقافات، المصدرية أو المستهدفة، أو أي شيء آخر وثيق بتاريخ الترجمة تحليلاً تدريجيًا (خطوة خطوة)؟[1] الحقيقة أنني لا أملك سببًا كافيًا للشك في أن مثل هذا المشروع

(١) أي فرد معنيّ بهذه المسألة يتعين عليه مراعاة المشاكل المنهجية التي تثيرها الكتابات البنيوية المبكرة مثل كتاب روزنجرين Rosengren's Socioligical Aspects of the Literary system, 1968 [المظاهر السوسيولوجية للمنظومة الأدبية] الذي يدرس "تنويهات" بالكتاب الأجانب في الصحافة الأدبية السويدية (ويمكننا أن نضع كلمة "الترجمات" مكان كلمة "تنويهات". ويقترح روزنجرين صيغًا لعمل تنويهات مشابهة ذات دلالات بنيوية،=

يمكن أن يتم بنجاح: فكتب النحو ومعاجم اللغة تستأثر بقدر كبير من الطبيعة المنظومية *systemic* للغات الطبيعية، وكذلك يمكن أن يحدث شيء مشابه مع الترجمات. ومن ناحية أخرى، فأنا لا أضمن أن وصفًا من هذا النوع يمكن استكماله بمنظومات ليست لغوية تمامًا (وهناك أجزاء من اللغات الطبيعية منظومية من الناحية اللغوية). هذا يتعلق بالدرجة الأولى بحالات الثقافات الحدودية، وتحديد العناصر اللامنظومية، والتخوم القائمة بين المنظومات التي ليست لها حدود مشتركة في مختلف المستويات. فهل يمكن حل هذه المشكلات بالتظاهر بأن هناك وحدات كلية يمكن تزويدها بالتفاصيل عاجلاً أو آجلاً؟ إن تكوين فكرة عن المنظومات عمل له مشروعيته ونبله ولا يقل في عظمته عن سوابقه التنويرية *Aufklärung antecedents*. وبلغة الميثودولوجيا، هناك فارق كبير بين تحديد الظواهر خطوة خطوة والتظاهر بأن لها دورًا في المنظومات كلها دفعة واحدة. إن كل مقارنة يجب على الأقل أن تكون مدققة للأخرى.

شهوة المنظومات

الملاحظة الثانية: لا أحد على يقين من أن هناك منظومات بالفعل. وعلى سبيل المثال، فإن إيفن – زوهار *Even-Zohar* يعرّف المنظومة بأنها:

مجموعة أشياء افتراضية يمكن ملاحظتها ويُعتقد أنها محكومة بشبكة من العلاقات (أي يمكن افتراض أن لها علاقات منظومية) – *1990:24*.

=بما يناسبها من عمليات تركيب ودمج، ويقوم بعملية تقييم ديناميات لمنظومات السويدية في فترتين رئيسيتين. وربما يكون قد تم الإعداد لخطوات إحصائية مماثلة من العناصر السوسيولغوية للتغاير. لكن النقطة تبقى، مع ذلك، أن المناشدات الكثيرة لعمل "دراسات ترجمة وصفية" إمبريقية لم يرافقها تحليل متدرج (خطوة خطوة)، ولذلك فإن هذه الدراسات لم تكن في حاجة إلى خطوات إحصائية.

لاحظوا صيغ الفعل الاحتمالية ("يمكن ملاحظتها"، "يُعتقد أنها"، "يمكن افتراض") غير المسندة إلى فاعل. لاحظوا أيضًا الحشو الذي لا يضيف شيئًا للمعنى: فـ "المنظومة" هي مجموعة أشياء لها علاقات "منظومية" ***systemic*** (*). فكيف يتم اختيار عناصر المجموعة؟ قد تكون موجودة، كما قد يعتقد المرء، داخل المنظومات بواسطة العلاقات. وكيف تم اختيار هذه العلاقات؟ وفقًا لحقيقة أنها "منظومية"، وهي بذلك تستطيع أن "تحكم" المنظومات. بالضبط. فهل تعمل هذه العلاقات شيئًا آخر؟ يبدو أن هذا يتصادف حدوثه في مكان الملاحظ. "المنظومة" إذن هي صورة ذهنية نستخدمها لإدراك معنى معلومات معينة دون أن نخلط فيما بينها وبين أي شيء موجود فعليًا داخل الموضوع ذاته.

وفي الوقت الحالي، قد يكون معظم علماء المنظومات مقرين بأنهم لا يقدمون إلا نماذج تفسيرية. وأذكر في هذا المجال لوتمان ***Lotman*** الذي يمكنني وصفه بأنه مؤمن بمبدأ الواحدية ***monism*** (**) بمعنى أنه يعتقد أن المنظومات كامنة فعلاً داخل الموضوع، وليس بوسعي أن أشير إلى أي شخص آخر. فالآخرون يرون أن نظرية المنظومات يبررها لا كونها صادقة ولكن واقع أنها تقدم تفسيرات لأشياء كثيرة.

قد يكون مثيرًا للدهشة أنني أرفض الواحدية رفضًا تامًا. فلماذا لا تكون طبيعة منظومية معينة فعالة في نطاق الموضوع التاريخي ذاته؟ لماذا لا تكون نظريات المنظومات التفسيرية أصدق مما يعرفونه، أو حتى أصدق مما يريدونه أن

(*) كلمة systemic يجري ترجمتها في العادة إلى "جهازي"، و"جهازية" بإضافة التاء، لكننا فضلنا ترجمتها إلى "منظومي"، و"منظومية"، لأنه لا مانع من النسبة إلى كلمة system حين تترجم إلى "منظومة" بدلاً من "جهاز". وكما هو واضح، فإن كلمة systemic غير كلمة systematic التي تترجم عادة إلى "نظامي" أو "منهجي" أو غيرهما. (المترجم)

(*) "الواحدية" هي رد ظواهر الطبيعية إلى مبدأ واحد (الروح أو المادة)، وهي على خلاف الأحادية onism التي تعني في التعبير الفلسفي رد الظاهرة - التي هي بطبيعتها متعددة الجوانب - إلى أحد جوانبها دون جوانبها الأخرى، وغير oneness التي تعني التماثل بين الشيء والشيء الآخر. (المترجم)

يكون؟ إنني أشك أن المنظومات قائمة فعلاً. وقولي هذا ليس في حاجة إلى الاعتماد على علاقات السلطة التي يمكن أن تفرض المنظومات من أعلى (فمثل هذه العلاقات موجودة بكل تأكيد). كل ما أود أن أشير إليه هو أن الجماعية الضرورية للحياة الاجتماعية تولد رغبات عارمة للانتماء إلى جماعات اجتماعية متمايزة لديها ما يناسبها من الكوابح التي تظهر في شكل مجموعات ضخمة من السلوكيات الفردية. ونظرًا لأن عملية الاندماج جزء من الحياة الاجتماعية، فإنها لا تؤدي إلى منظومات ملموسة بشكل مباشر بل إلى شهوة من نوع معين للمنظومات تعمل كجواز مرور للهوية والنظام. ويمكن لهذه الرغبة أن تولد منظومات داخل الموضوع.

دعنا الآن نتناول جيدًا مبدأ يشيع عزوها إلى منظومات كافة الأنواع: *stout se tien* كما قال سوسير عن اللغات الطبيعية، أي "كل شيء يبقى على تماسكه"، فأي تغيير في أي جزء من المنظومة يؤدي إلى تغيرات في أرجاء المنظومة كلها. وقد يصلح هذا تعريفًا موضوعيًا لمصطلح منظومة: فعندما لا تكون هناك تغيرات لا تكون هناك منظومة. لكن، للأسف، ليس هناك إلا القليل من الشواهد على أن هذا المبدأ قائم فعلاً في المنظومات الاجتماعية الأكثر تعقيدًا(١).

---

(١) ومع ذلك، فإن عالم الأحياء رامون مارجاليف Ramón Margalef (1986) يصر على أن المنظومات البيئية ecosystem لا تشبه القطار إن تحركت عربة تحركت معها كافة العربات (كما يحدث في اللغة السوسيرية النموذجية). إنها أكثر شبهًا بمنظومات إدارة حركة المرور في المدينة، تلك المنظومات التي تعطي لكل سائق مدى كبيرًا من الحرية والمسئولية، بوضع قواعد ملزمة إلى جانب بعض القواعد غير الإلزامية تمامًا (مثل الأضواء الصفراء). في حركة المرور تحدث ظواهر مثيرة مثل: موجات السيارات، والتكدسات المرورية، والممرات السريعة، والحوادث والوفيات. كل مدينة لها مشاريعها المرورية، وكثافاتها السكانية، وأمزجتها المتوارثة، وسلطتها الاجتماعية. في أي مدينة أسترالية، يعتبر إبطاء سرعة السيارات إحدى الوظائف الأساسية لمنظومة المرور. في باريس، يظل رجال شرطة المرور يطالبون السائقين على الدوام بزيادة السرعة. كل منظومة مرورية تتناسب تقريبًا مع هدفها، وهي قد تكف عن الوفاء بأغراضها عندما تكون مثقلة أو مفتقدة للمرونة. ويكون الأمر أكثر=

ولتقصي المثال الأصلي الذي يضرب في اللغات الطبيعية، فإن إدخال عناصر أجنبية معجمية أو خاصة بتركيب الجملة *syntactic*، على سياق منعزل *romote* أو سريّ *arcane* (نظرية الترجمة مثلاً)، ليس بحاجة أبدًا إلى زعزعة أركان اللغة كلها. وفي الجامعة التي أقوم بالتدريس فيها حاليًا، يدرس الطلبة المنظومات اللغوية، عند سوسير وآخرين، في عامهم الأول؛ ثم يبدأون في دراسة قواعد اللغة الإنجليزية ويجدون، في المرجع الدراسي الذائع في هذه الآونة كويرك وآخرون *(Quirk& others; 1972: 46)* أن هناك "مفردات المنظومة المغلقة" (الأدوات: مثل أدوات التنكير والتعريف، أسماء الإشارة، الضمائر، حروف الجر، أدوات الربط، وحتى ألفاظ التعجب)، التي هي في الواقع مانعة *exclusive* بصورة تبادلية وتعريفية تبادليًا، على حين أن بقية المفردات (الأسماء، الصفات، الظروف، الأحوال) هي "مفردات المجموعة المفتوحة" التي لم تعد المبادئ الأساسية للتبادلية قائمة فيها. وفي الواقع، هناك أجزاء قليلة من اللغة يمكن وصفها بأنها منظومية بالمعنى الواسع للكلمة.

وفي النظرية الأدبية، قد يضع عالم المنظومات فرضية بأن إدخال نوع أدبي جديد قد يغير كل العلاقات القائمة بين الأنواع الأدبية القائمة. ولكن هل هذا شيء حتمي؟ هل ينطبق المبدأ خارج مجموعة "مفردات المنظومة المغلقة"، ربما على نصوص دينية، أو مبدأ قومي، أو ما وافق تي اس إليوت على تسميته: "الآثار الباقية" التي "تشكل علاقة نموذجية فيما بينها" *(1919:294)* ؟ ويمكن أن تحدث أشياء أخرى كثيرة في أسواق النشر. الكثير من الكتب الأكثر مبيعًا هي المعادل الأدبي لـــ "مفردات المجموعة المفتوحة"، لكن الأكثر وجودًا في الجديد ليس هو على الإطلاق "الجديد حقًا" بالمعنى المعهود الذي تتضمنه عبارة إليوت. فالنوع الأدبي الذي لم يتنبأ به أحد، يمكن أن يحفز السوق الأدبي، ويحدث شيئًا جديدًا،

-إثارة بالنسبة لأهداف تاريخ الترجمة، حيث تنظم منظومات المرور حركات ناقلات محلية وخارجية معًا. إنها تتيح للسائق أن يقود داخل مدينة أجنبية بدرجات متراوحة من الصعوبة.

ولكن دون أن يؤثر تأثيرًا ذا شأن في الأنواع الأدبية السابقة. أما الحقول الأخرى من النشاط الأدبي، خصوصًا تلك التي يتم تمويلها ببذخ، فهي عادةً حقول مجزوءة تكونت خارج نطاقها مويجات قليلة جدًّا: فالتغيرات في شعر ومسرح وأوبرات اللغة الإنجليزية لم يكن من المتوقع أن تكون لها تأثيرات بنيوية على تطور الرواية. وحتى عندما لا يكون مثل هذا التجزؤ مرغوبًا فيه، فإنه يمكن أن يعمل كآلية أساسية للدفاع المنظومي. على سبيل المثال، من الممكن للمرء أن يتصور نداءات فينوتي المعممة إلى مترجمين "صامدين"، يتزيَّون اجتماعيًا بزي المفكرين، فلا يحدثون عمليًّا أي تغيير يتجاوز حدود الأكاديمية.

لكن الموقف هو أن أناسًا كثيرين لا يريدون رؤية الاستخدامات والتأثيرات العملية للتجزؤ. دعنا نتصور وجود عادات لغوية إنجليزية داخل بركة مياه صغيرة للغة طبيعية مثل الفرنسية، في علم الكمبيوتر مثلا أو في شيء مشابه. لو أن هذا هـــو نهـــاية القصة، فإن العادات اللغوية الإنجليزية لن يكون لها بدون شك تقريبًا إلا تأثير طفيف خارج نطاق الدوائر المهتمة الضيقة، ذلك لأن اجتزاء هذه العادات سيكون كأن لم يكن، وستكون هذه العادات معترفًا بها ويُنسى أنها أجنبية. غير أن مثل هذا الإدخال للألفاظ عادةً ما يكون منتقدًا نظرًا لأنه يهدد اللغة بكاملها، كما لو أن كل شيء باقٍ على تماسكه فعلاً، وكما لو أن التغيير في إحدى العلاقات سيعمل على تقويضِ المجموعة كلها. هناك احتجاجات عنيفة، ومناقشات، وتشريعات، وتوافقات، وسلسلة كاملة من الاتفاقات التي تعمل على إلغاء التجزؤ بكل عنف. غير أن المتحاورين لا ينظرون إلى اللغات الطبيعية بعيون النحويين الذين يسجلون بكل صبر الفروق بين أشكال "المنظومة المغلقة" ***closed-system*** و"المجموعة المفتوحة" ***open-class***. فكل الألفاظ والتراكيب تجري رؤيتها كما لو أنها عناصر في منظومة واحدة. وسواء أكانت اللغة الفرنسية أم لم تكن هي المنظومة الواحدة، فإن الخطوات الثانوية التي يتم اتخاذها لتنفيذ أو مناقشة وضعها تجعل كل شيء باقيًا على تماسكه في الواقع، وتربط اللغة ربطًا له ما يبرره بهوية قومية سرمدية،

مكونةً منظومة يتم فرضها أيديولوجيًا، منظومة لا تربطها صلة قوية بالسمات اللغوية. ويمكن أن يقال نفس الشيء عن منظومات بعينها من النوع الأدبي المعترف به وما شابه ذلك. إن إدخال سياق أدبي جديد (أو قنـــاة تلفزيونية جديدة، أو أي شيء مشابه) قد لا يكون له أي تأثير في الأنواع الأدبية القائمة. لكن إذا أدرك الأوصياء على الأنواع الأدبية القائمة أن الوافد الجديد مصدر لتغير كامن بالنسبة لكل الأنواع، فإنهم لن يدخروا وسعًا في إقرار أن يصبح النوع الجديد مصدرًا لتغيير كافة الأنواع القائمة. ومن هذا المنظور، فإنه لا يهم حقيقةً إن كان هناك استبعاد متبادل من الناحية الموضوعية وتعريف متبادل في كل أرجاء المنظومة. وحين تقوم العمليات الثانوية بتنظيم سلسلة مـــن الأنشـــطة أو إقرارها أو إعطاء رموز لها كما لو أنها منظومة، فإن تلك الأنشطة تكون منظومة فعلاً. لكن عناصر المنظومة لا تتواءم مع بعضها البعض الآخر، فهي تتواءم بواسطة الناس الذين يريدون بشكل ما أن يتبادلوا الانتماء.

هذه، على الأقل، هي الموضوعية ذات الطابع الذاتي *subjectivized objectivity* التي تثير اهتمامي: ففي الدراسات الإنسانية، إن كانت هناك منظومة موجودة، ستكون إحدى الجماعات الاجتماعية راغبة في أن تكون موجودة، وتبدي هذه الدراسات أحيانًا رغبة عارمة في الدفاع عن المنظومة في مواجهة أي تغير طارئ. وفي نفس الوقت، فإن من يشرع في شن هجوم على سلسلة الأنشطة التي اتخذت شكل منظومة (ومعظم النظريات الثورية نظريات منظومية بصورة مماثلة) يشرع أيضًا في تحويل تلك الأنشطة إلى منظومة، حتى لمجرد الدفاع عن الأنشطة التي تجري مهاجمتها بوصفها أنشطة. سيبدأ الصراع، تثار مناقشات حول ما إذا كان ينبغي تغيير المنظومة أم لا؛ ويقتفي الباحثون التاريخيون أثر الصراعات والمجادلات، واجدين أن هذه الصراعات والمجادلات هي الموضوعات الأكثر أهمية – وهي كذلك بكل تأكيد – مستقرئين الألفاظ بحيث تظهر المنظومات الموضوعية باعتبارها الأوضاع الحتمية للصراع. فمن أين جاءت المنظومات حقًا؟

لعلها لم تأت من الجمع الهادئ لكافة الوقائع في سلة واحدة. ولعل المؤرخين يرون المنظومات من خلال اقتفاء آثار النزوعات المختلفة المتناقضة إلى منظومة. إن كان الأمر كذلك، فهل ينبغي أن يدهشنا أن ينصرف الباحثون إلى قفزات اليقين وصولاً إلى فرضيات حول المنظومات؟ لعل نفس هذه القفزات قد امتدت لتشمل الموضوع التاريخي نفسه.

إنني لست ضد فكرة المنظومات. فبغض النظر عن المصطلح، وبغض النظر عن خلط الأمور والتوهم، يوجد شيء ما هناك، في الموضوع، شيء يعمل كمبدأ أساسي في عملية التنظيم لا يعتمد على الجزئيات الصغيرة . إن المنظومات شيء أكثر من مجرد فرضيات تفسيرية. وأنا أظن أن هناك أيضًا ميلاً اجتماعيًا إلى المنظومة. وأن هذه الرغبة بشرية تمامًا.

نثر بلا موضوع

نظرية المنظومات هي، من الناحية الظاهرية، نوع من النثر يعمل ما في وسعه لكبح المنهاجية الذاتية ***subjective systematicity*** ذات الطابع البشري. وقد سبق لنا رؤية قدر من هذا الكبح في وصف إيفن- زوهار للمنظومة. وإليك مثال آخر لنفس الشيء من مقدمة ثيوهيرمانز لكتابه التأسيسي ***The Manipulation of Literature 1985***:

باعتبارها نمطًا نظريًا، يبدو أن نظرية المنظومات المتعددة ***polysystem*** تزود الدراسة المنهجية في الأدب المترجم بالإطار الملائم. ***(1985:12)***.

العبارة في ظاهرها بريئة جدًا. لكن دعنا نتأملها بدقة. لاحظ الفعل "يبدو". إن هيرمانز لا يصدر آراء مباشرة عن حالة العالم ككل، فسياقه سياق تجريبي

متردد؛ وهو ينتقل من نقطة إلى نقطة تالية على أساسٍ من فرضيات استكشافية *exploratory* لا تعطي إلا علاقات احتمالية؛ إنه لا يريد أن يقول لأحد ماذا يعتقد أو ماذا يفعل. إنه علم، وليس رأيًا في السياسة. ولكن حين "يبدو" أن شيئًا ما يمثل حالة أو يؤدي عملاً، فلابد أن يكون هناك بكل تأكيد مراقب يستطيع إدراك ما يبدو. فلمن أو لأجل من "يبدو" أن النظرية "تزود"؟ وماذا عن الفعل الرئيسي "يزود"؟ فمن المألوف أن شخصًا ما "يزود" شخصًا ما بشيء ما. لكن موضوعًا مجردًا وعديم الحيوية- النظرية- هو الذي "يزود" هنا ليس أحدًا بذاته بشيء ما. فالعبارة خالية تمامًا من البشر. ومع أن الأفعال تتضمن عادةً فعالية بشرية، إلا أنها هنا تبني عالمًا لا يعمل الناس فيه شيئًا. فالأشياء ذاتها "تبدو" و"تزداد" و"تؤدي" و"تعتبر" و"تقرر"، إلى جانب مجموعة محدودة من المتغيرات. إن الأفعال تنتمي إلى علم بشري بدون بشر[1]. وهناك صفحات وصفحات من هذه الأفعال، وكتب كثيرة.

والآن، تأمل التراكيب الاسمية *Noun phrases* في الجملة المذكورة آنفًا. الفاعل "المنظومات المتعددة" يُعتبر "نمطًا نظريًا". فهل كان يمكن أن يكون شيئًا آخر؟ وهل يمكن للنظرية أن لا تكون نمطًا نظريًا؟ ويتكرر المفعول به في الجملة بصورة مماثلة: فهذه النظرية المنظومية تؤدي بنا إلى أنه "يبدو" أنها "تزود" شيئًا ما اسمه "الدراسة المنهجية" بـ "الإطار المناسب". فأي نوع آخر من الدراسة يتوقعه المرء من نظرية المنظومات؟ لا شك أن نظرية المنظومات توفر دراسة منهجية! ولا حاجة حقيقية لكل هذا الـ "يبدو أن"؛ لا حـاجة ساحقة ماحقة لتزويد "الدراسة"

(١) وبإمكانك رؤية هذه الجمل في كتاب لوفيفير حيث يقول: "التاريخ صنعه الناس طبقًا لقيود معينة... هي منظومية في طبيعتها. وبمجرد أن تنشأ منظومة أدبية فإنها تميل إلى محاولة الوصول إلى "وضع مستقر" والمحافظة عليه..." (1992a:38). فإذا كان الناس هم الذين صنعوا التاريخ حقًا، فكيف يمكن للمنظومة أن تصبح فاعلاً لفعل مبني للمعلوم ("إنها تميل إلى محاولة الوصول")؟ وهل حقًا يحاول الناس بشكل جماعي تحقيق أشياء من خلال منظومات؟

أو أن تكون هي "الإطار الملائم". فإن كنت تشترط أن تكون المنظومات موجودة على حدة بصورة مسبقة، فإنك سوف تخلص إلى نتائج ليست منظومية ***systemic*** فقط (فسوف تجد منظومات) بل، وبطبيعة الحال، منهجية ***systematic***، وذلك نظرًا لأن وجود المرغوبية(*) المنهجية المنظمة للوحدات الكلية القائمة على أساسٍ من الازدواج الذاتي ***intersubjetivity*** كان شرطًا بوصفها قيمة في المقام الأول.

فإذا حاولنا أن نعوض الفاعلين المكبوحين في هذه الجمل، أفلا نجد باحثِين يبدون رغبة معينة للمنظومات كقضية لها أهميتها في ذاتها ولذاتها؟ إن كان ذلك كذلك، فإن نظرية المنظومات يمكن رؤيتها بكل تأكيد باعتبارها وسيلة يستخدمها باحثون معينون لإعطاء نتائج معينة في موقف معين. إنها بدون شك ناشئة بصورة رد فعل لمفاهيم مجتزأة مبكرة لنزعة هيومانية ***humanism*** (**) طيعة كانت تسعى، في تلك الأيام العسيرة حين ظنت البنيوية العلمية أنها تستطيع أن تقدم تفسيرًا للكون، إلى التشريع لمجال تخصصي جديد.

أين مكمن الذهب؟

نظرًا لاعتقادي أن تاريخ الترجمة يثير قضايا هامة تخص الزمن الحاضر، فإنني لست ولوعًا بتعليل النفس بأوهام البحث الخالص (***Delabastita 1991; 152***) أو اللاتقييم (راجع: ***Lambert 1989; 223-224***)، أو اكتشاف القوانين المجردة (راجع: ***D'hulst 1987; 17***). باختصار، لست شديد الولع بما يتساقط من المثقفين

(*) المرغوبية (بالإنجليزية: desirability) مصدر صناعي من اسم المفعول "مرغوب"، للتعبير عن مدى كون الشيء مرغوبًا فيه، تمامًا كما نقول، مثلاً، مقروئية في مقابل الكلمة الإنجليزية readability، وهكذا. (المترجم)

(**) الهيومانية حركة فلسفية تؤكد على قيمة الإنسان وعلى قدراته العقلية في تحقيق ذاته؛ انظر أيضًا الهامش الخاص بالهيومانية وسيرد تحت عنوان "تظلم لهيومانية بدائية في قشتالة" – الفصل الثامن. (المترجم)

من الصور المجازية الخاصة بالمراكز والأطراف المنظومية. وأعتقد أن طرح شيء قيمته هي فقط أنه شبيه بالعلم أمر تافه. فهناك محكات أخرى كثيرة في الكون، وأشياء كثيرة يمكن عملها. لقد لاحظنا أن نظرية المنظومات ليست صالحة جدًا عند صياغة فرضيات السببية مثلاً (حيث يصعب أن تقول لماذا حدثت الظـواهر)؛ ولا هـي في وضع مناسب يتيح لها أن تقدم طروحات أخلاقية (فهي لا تقول ما هي الظواهر التي يجب أن لا تظهر). ومع ذلك، فإن بعضنا شديد الولع بمسألة لماذا تحدث الأشياء ولماذا يجب أن لا تحدث بعض الأشياء. أما نحن، فإن الذهب، بالنسبة إلينا، يكمن في مكان آخر.

وأنا أؤمن بأن هناك، أو يمكن أن يكون هناك، طبيعة منهجية معينة في أي موضوع اجتماعي. وأنا مهيأ تمامًا لأن أربط ذلك الكيف المنظومي بواقع الثقافات الفردية. ولكنني لا أؤمن بأن المنظومات الأحادية الثقافة هي بالضرورة العوامل التي تحدد عمليات النقل الثقافي، أو تحدد أخلاقيات الترجمة، أو تحدد إمكانيات الترجمات. هناك على الأقل طريقة بديلة واحدة للنظر إلى هذه الأشياء.

الفصل الثامن
النظم

على الرغم من عيوب بعض طرق تطبيق المعايير والمنظومات على تاريخ الترجمة، فإن المفاهيم نفسها كان لابد أن تتم معالجتها بعناية. ومهمتنا ليست رفض المعايير والمنظومات ولكن مواءمتها بحيث تناسب الدواعي الخاصة بتاريخ الترجمة. إن ما أبحث عنه هو طريقة لجعلها ملائمة لمنظور الصراع الذي هو صراع خاص بالازدواج الثقافي في المقام الأول، في علاقته بالرغبات والمدركات، وأهميته للحاضر. وفي اعتقادي أنه يمكن إنجاز هذه المهمة إذا أخذنا في اعتبارنا المزايا النسبية لنظرية النظام ***regime theory***.

أصبحت في البداية مهتمًا بالنظم كنتيجة لاحتكاكاتي بعلماء التفاوض منذ عام ١٩٨٤. لقد كنت ألهو بالفكرة وأجربها منذ ذلك الحين، في عزلة نسبية، بدون الاهتمام اللصيق بالتطورات التالية للنظرية وبدون المتاجرة بالفكرة بين علماء الترجمة. وبعد أكثر من عشرة أعوام، مازلت أجرب، حتى أنني لم أعد في وضع يسمح لي باقتراح دواء يعالج كل الأدواء. ما يمكنني عمله، مع ذلك، هو أن أقدم تفسيرًا موجزًا لمفهوم النظم وأشرح كيف طبقت المفهوم على تاريخ الترجمة.

ما النظم ؟

دخل مفهوم النظم في دراسات السياسة الدولية حين استخدمه جون رو ***John Ruggie*** عام ١٩٧٥. عرف راجي النظام بوصفه "مجموعة مشتـ الآمال والقواعد والقوانين والخطط والالتزامات الإدارية والمالية المقبولة

مجموعة من الدول" (*1975:570*). هذا يعني أنه إذا تعين على بلدان مختلفة أن تتفاوض أو، بصفة عامة، أن تقوم بعمل مشروعات، فإن نظامهم المشترك يقول كيف سيفعلون ذلك. ويذهب تعريف حديث متفق عليه إلى وصف النظم باعتبارها:

> مجموعة ضمنية أو صريحة من المبادئ والمعايير والقواعد وإجراءات اتخاذ القرار تتوافق عليها آمال الممثلين في جانب معين من العلاقات الدولية. والمبادئ هي معتقدات خاصة بالواقع وبعلاقات الأسباب بالنتائج وبالاستقامة. والمعايير هي مقاييس السلوك المعبر عنها بألفاظ الحقوق والواجبات. والقواعد أشكال خاصة من الأوامر ***prescriptions*** والنواهي ***proscriptions*** بغرض التأثير. وإجراءات اتخاذ القرار هي الممارسات السائدة في صنع وتحقيق الخيار الجماعي. (ورد في ***Krasner 1983 : 2***)

في إطار هذا التعريف، تم إجراء دراسات عن النظم الدولية أصبحت سارية الآن في مجال الأنهار والبحيرات والجزر، وتجارة البضائع، ومفاوضات الجيوش، وتسويات السلام. وفي كافة الأحوال، فإن المبادئ والمعايير والقواعد وإجراءات اتخاذ القرار لا تهتم بما يحدث داخل دولة واحدة (أو ثقافة أو منظومة واحدة) ولكن بما يحدث بين مثل هذه الكيانات عندما يتعين إقرار نوع من علاقات التعاون بطريقة رسمية. وبدقة أكبر، يمكننا أن نقول أن النظم تمكن المتفاوضين من الاتفاق على التفاوض.

والواقع أن نظرية النظم تهم تاريخ الترجمة لعدة أسباب. أولاً: مع أن الترجمة غالبًا ما تعتبر جانبًا مهمًا في العلاقات الدولية، إلا أن العلماء مقصرون إلى الآن فى تحديد مفهوم عن دورها الخاص في هذا المجال الواسع. ثانيًا: حفنة العلماء الذين يربطون بين الترجمة وعلاقات التفاوت في القوة بين الثقافات، وبوجه

خاص أولئك الذين يشيعون ذلك في ظل علاقات ما بعد الكولونيالية، لا يقولون إلا القليل جدًا عما ينبغي على المترجمين أن يفعلوه فعليًا بأي سلطة قد تكون لديهم؛ أما نظرية النظام فيمكنها على الأقل أن تفرض الهدف من إقرار التعاون من خلال عناصر التفاوت في السلطة. ثالثًا: نظرية النظام لديها حاليًا نوع من المعايير التي استرعت الانتباه في ثنايا نظرية الترجمة (فالفكرة العامة للمعايير مدعوة في الواقع لأن تكون غطاءً فضفاضًا يغطي المبادئ والقواعد وإجراءات اتخاذ القرار الخاصة بالنظم). رابعًا: النظم تعمل حاليًا بطريقة شبيهة بعمل المنظومات، على الأقل فيما يخص مداها (فهي أكبر من المعايير) وطابعها المجرد (فهي ليست شبكات مادية) وسعتها الوظيفية (فهي تساعد على قيام وتحول علاقات اجتماعية عديدة). على أية حال، هناك فروق مهمة بين النظم وأنواع المعايير والمنظومات التي رأيناها في الفصل السابق. والمعايير النوعية للنظم الدولية تنتمي في الواقع إلى نوع مختلف من المكان (فهي ليست مقصورة بشكل صارم على بلد معين)، ومن المرجح أن النظم تمثل أو تحدد هوايات المشتغلين في مجال تقصي الثقافات أكثر من أي شيء يتعلق بالموروثات الثقافية أو حق المولد (إنها مادة المفاوضين الناجحين سواء أكانوا أمريكيين أو روسيين أو غير ذلك)؛ ومن المرجح أنها أسرع زوالاً وأكثر محدودية في الوظيفة من المعايير والنظم التي تمت دراستها إلى الآن في تاريخ الترجمة (خصوصًا إلى الحد الذي يكون فيه النظام في غير حاجة إلى بلورة الأمور التي تم حسمها)؛ وهي يتم تستخدم لتحقيق أهداف بعينها، والتنقيب عن نوع من الذهب (الأمر الذي يتطلب التعاون، أو الثقة في الثقافات ذات الصلة ***crosscultural trust*** أو التفاهم)[1]. ووفقًا للنقاط التي تم تحديدها في الفصل السابق، ينبغي اعتبار هذه الملامح مزايا هامة.

(١) لاحظ أن استخدامي هنا لمصطلح 'نظام' يتفق مع استخدامه في إطار نظرية المفاوضات الدولية، فهو لا يشمل المعنى الوارد في عبارة 'نظم القيمة' regimes of value كما جاءت عند أباديوراي Appadurai (1986:4) وتجلى في قوله 'الرغبة والطلب تضحية متبادلة وتفاعل سلطة لخلق قيمة اقتصادية في أوضاع اجتماعية بعينها'. ولا شك أن فكرة أباديوراي مفيدة، فهي تحاول أن تقدم تفسيرًا لـــ 'التجاوز المستمر للتخوم الثقافية عن طريق تدفق السلع' (15). لكن لابد من الحذر من الطريقة التي يفصل بها فرو Frow (1995:144-45)، مثلا، نظم القيمة

وبرغم أن التعريف المذكور أعلاه تعريف متفق عليه، فإن مناقشة النظم تتم بطريقتين مختلفتين على الأقل. بالنسبة إلى باتشالا ***Puchala*** وهوبكنز ***Hopkins*** 'يوجد نظام في كل منطقة نزاع دائم في العلاقات الدولية، حيث يوجد سلوك يتخذ نمطًا يمكن إدراكه' (*93 : 1983*). وهذا يشبه القول بأن هناك معايير ومنظومات أينما وجدت بنية. وعلى ذلك، فإنه يمكن للمرء أن يحكم على النظم عن طريق تحليل مناطق نزاع معينة في العلاقات الدولية بعد أن يضيف كلمة 'نظام' لأي شيء يشتمل على نوع من النمط.

ونظرًا لأن نقطة التحول الأدبي يمكن أن تكون واحدة من أمثال هذه المناطق، فإن رؤى باتشالا وهوبكنز جاءت بمثابة صفعة للشبكات المنظمة لنقل النصوص الأدبية أو بمثابة صفعة لممارسات من نوع خاص من الترجمة تتضمنها تلك الشبكات. ويمكن أن نطلق على كل هذه الأشياء اسم 'نظم' أو أجزاء من نظم. وكل هذه الأشياء قد تكون استخدامات خاطئة منفصلة لمصطلح أمريكي له رنينه العصري. دعنا إذن نعجل بالدخول إلى هذه المسألة. إن باتشالا وهوبكنز يدعواننا إلى أن نرى النظم حيثما تكون هناك علاقات دولية تقريبًا، تمامًا مثلما يحب علماء المنظومات رؤية المنظومات في كل شيء. وهناك عالم آخر للنظم، وهو روبرت كيوهين ***Robert Keohane***، ادعى أن ما يدرسه باتشالا وهوبكنز يتعذر تمييزه عن 'المنظومات الدولية' أو عن أي سلوك تحكمه المعايير التي تفرضها علاقات الهيمنة (*1984:59n*). ولذلك، فإن مفهومًا أكثر تحديدًا للنظم قد يكون مهمًا لأي شخص تؤرقه الطريقة المضطربة التي اتبعت في استخدام المصطلحات السالفة الذكر بطريقة غير سليمة. ينطلق كيوهين من أن النظم عناصر تنظيمية أساسية تنبثق من التعاون الرشيد بين دول ذات سيادة بدون فرض أي نوع من الهيمنة:

ليس فقط عن مجموعات ثقافية بعينها ولكن أيضًا عن واقع الازدواج الثقافي بوجه خاص، ليجعل من العسير أن نقول بصورة محددة من يشارك في مثل هذه النظم. ومع أن هذه المفاهيم تتعلق بكل تأكيد بفكرة النظم التي أبسطها هنا، إلا أنني حاولت أن أقصر تحليل النظم على المعايير العاملة في علاقات الازدواج الثقافي. وسوف تتم مناقشة البقية الباقية في مناسبة قادمة.

> يجب النظر إلى النظم الدولية باعتبارها عناصر لنظام دولي جديد خارج إطار الدولة القومية(*). ويجب فهمها بشكل خاص باعتبارها ترتيبات تقود إليها المصلحة الذاتية: باعتبارها لبنات لمنظومات تبقى فيها السيادة عنصرًا أسياسيًا. *(1984 :63)*

فعلى حين أن باتشالا وهوبكنز يتبنيان بصفة مبدئية المدخل الوصفي الذي يسعى إلى مجاراة المتغيرات التاريخية، يهتم كيوهين بنوع من العلاقات الدولية التي ينبغي ابتداعها في المستقبل(١). إن فكرته الأساسية للنظم تصور نظامًا عالميًا لا يتسم بالهيمنة. وفي الواقع، فإن القسم الهام في قول كيوهين ليس مثلاً أعلى مع أننا جميعًا في حاجة إلى مثل عليا. إنه أمر يتعلق بالخطوة التي تفصل بين التعاون الرشيد اللاتفاوضي (وهي مسألة تتعلق بالثقة) والنظم بوصفها أسلوبًا للتعاون المؤسسي القائم على التفاوض. وفي مرحلة معينة، يتعين على المرء أن يبدأ بميل معين للنظام بنفس الطريقة التي يؤدي فيها الانتماء العام لميل معين للمنظومة.

هذان المفهومان الأساسيان عن النظام في حاجة إلى أسئلة واضحة عن طبيعة الوصف التاريخي وعلاقته بالحاضر. لكن لابد أن يتولد توافق معين بين

(*) أي أن النظم الدولية international regimes نظم قومية خلافًا لما أصبح يسمى النظام العالمي الجديد new international order الذي تعتبر النظم الدولية عناصره المكونة. (المترجم)

(١) هذه المثالية البناءة تجعل مناقشات كيوهين عن النظم جديرة بالمتابعة. الحقيقة أن رؤاه تعاني من نتائج اختلافه إلى المغرورين من أهل العلم rational egoists الذين يمارسون ألعاب البريزونارز دايلمًا prisoner's dilemmas. لكن الصحيح أيضًا أن هذه الألعاب تفشل تمامًا في تحديد الأسباب التي أدت إلى الفصل بين اللاعبين أو معرفة لماذا تم وضعهم في زنازين مختلفة (وهذا يعني، بتعبيرنا أنهم يسلمون بعالم من الثقافات المنقسمة بصورة سحرية. غير أن ألعاب extended-play dilemma و multiple-player dilemma تتيح للمناقشات أن تطفو على السطح وتظهر في الدور لتصل إلى استنتاج مؤداه أن التعاون يمكن أن يقوم بين طرفين متفاوتين غاية التفاوت.

المفاهيم الوصفية والمفاهيم التخيلية حول ما ذكرناه بشأن الربط بين الضرورة في الماضي والضرورة في الحاضر. والمنهج التخيلي له ميزة استنطاق التاريخ بشأن كيفية بناء نظام هنا والآن، بدلاً من إلصاق مصطلح 'نظام' على أي نوع من أنواع السلوك المنمط. وفي نفس الوقت، يجب على هذه الميزة المتاحة في الوقت الحاضر أن تنظر بانتباه إلى أي مدى أجابت نظم الماضي على أسئلتنا الحاضرة.

وفيما يلي، سوف أتناول كلاً من هذين المنهجين على التوالي. أولاً، سأستعرض المحاولات بادئًا من الأدنى إلى الأعلى لوصف ثلاثة نظم للترجمة. وفي نهاية الفصل، سأطرح بإيجاز أسلوبًا مغرقًا في الخيال يبدأ من الأعلى إلى الأدنى، وذلك لدمج الترجمة ضمن رؤية عامة للنظم المزدوجة ثقافيًا.

البدء من المناظرة

عندما نبدأ في استكشاف معايير الترجمة، فإن أول ما يفترض أن نقوم بالبحث عنه هو الاتساق. لكن السعي وراء النظم أو وراء أنواع من المعايير والمبادئ التي يمكن أن تشكل النظم لا يمكن أن يبدأ من مجرد الاتساق. إننا نكون منذ البداية في حاجة إلى صراع أو خلاف، أو حتى نزاع عنيف، أو على الأقل قدر من التعارض. ونكون في حاجة إلى القدر الضروري من الصراع لتحديد نقاط يتفاوض عليها طرفان أو أكثر. لكن هذه المفاوضات ***negotiations*** ليست في حاجة لأن تكون مفاوضات فعلية بالمعنى المحدد للكلمة مع كافة الأطراف المجتمعة حول المائدة. كذلك لسنا في حاجة إلى أن نفترض بشكل مسبق أي صراع بين الثقافات المصدرية والثقافات المستهدفة، ذلك لأن الكثير من الثقافات المصدرية لم تعد قائمة بأي حال من الأحوال. ولذلك ينبغي، عند اقتناص مفهوم من مجال معرفي معين ونقله إلى مجال آخر، السماح بدرجة معينة من المناورة المجازية. ولكن يجب علينا أن نحدد منذ البداية موضوع الصراع الكامن فيما يتعلق بنظامنا والذي يمكن أن يكون بمثابة مجموعة كاملة من القيود. وهذا يعني أن الوحدة الأولية لتحليل النظام لابد أن تكون بنية مقاومة. ويمكننا بصفة عامة أن نطلق على هذه البنية اسم المناظرة ***debate***.

إن الاستعداد للمناظرة يستلزم عمليًا الاهتمام بنظريات الترجمة والأعمال النقـدية أكثر من الاهتمام بالتحليل النصي أو اللغوي للترجمات، ذلك لأن الخلاف لا يظهر جليًا إلا في مستويات ما بعد الترجمة ***metatranslational levels***. ونظرًا لأن النظرية نفسها مفهومة هنا بوصفها أسلوبًا للمناظرة، فإن من الواضح أنه ليست هناك نظرية واحدة أو عبارة تنظيرية واحدة يمكن تبنيها على أساس قيمتها الظاهرية مع كل عملية تنظير ينطوي عليها نوع من أنواع المعارضة على واحد أو أكثر من التنظيرات البديلة(١). فحين نجد العبارة الواصفة ***'metatranslational'*** فإنه يتعين علينا أن نحاول تحديد موضع المخالفة فيها. فإذا لم نستطع أن نحدد نقطة خلاف واضحة، فلابد أن نبحث عن تعليقات هامة لها علاقة سببية، أو عن تغييـرات في عمليات الترجمة، أو عن المتغيرات في سوق الترجمات. ومادام أنه لا يوجد شخـص يقوم بعملية التنظير لمجرد إقرار ما هو واضح، فإن كل نظرية أو كل عمل تنظيري ينبغي له أن يجد مبدئيًا شيئًا مشابهًا واحدًا على الأقل في مكان ما. كما ينبغي النظر إلى كل نظرية باعتبارها عنصرًا في مناظرة أوسع.

قد يبدو أن التركيز على المناظرات التي تمت في الماضي يتناقض مع الموقف التجريبي للمعايير (الأولوية عند توري للترجمات وليس النظريات). لكن هذا ليس تركيزًا جزافيًا، فطبيعة المعايير الوظيفية هي أن تكون هذه المعايير غير مرئية إلا في حالات تجاوزها، وغالبًا ما يكون التجاوز هو سبب المناظرة. وهكذا، يمكن للمناظرات أن تتيح طرقًا مختصرة نحو التجاوزات. ومع أن نمطًا نصيًا معينًا هـو الـذي غالبًا ما يكون متوافقًا مع العديد من أهداف أو أساليب المناظرة،

---

(١) أنا لا أفرق بين كلمة 'تنظير' theorization وكلمة (نظرية) theory، على الأقل ليس إلى حد أن تكون الكلمة مرتبطة حصريًا بالوصف المنهجي الرشيد للحقل بكامله. وكما كان لدى دوجلاس روبنسون Douglas Robinson ما يستوجب الرثاء (172 : 1995)، فإن التركيز على 'النظرية' (أو البحث الجماعي عن نظرية) هو إحدى طرق خدمة المصلحة الشخصية في دراسات الترجمة المعاصرة التي تميل إلى نزع الطابع التاريخي عنها. وبالنسبة لي، فإن كلا التعبيرين يحتلان مرتبة أدنى من فكرتي 'مناظرة' و 'مفاوضة' (فحتى النظريات الشديدة المنهجية مازالت مستخدمة في المناظرات التاريخية)، لكن لا مبرر لوضع هاتين الفكرتين على نفس المستوى الذي تحتله معايير النظم.

إلا أنه يبدو أن الملاحظة المستمرة للنمط لا توضح لماذا تم إقراره أو حمايته أو مهاجمته[1]. فإن تحليل النظريات والنقد، إن تم فهمهما بوصفهما نوعًا من المناظرات، هما اللذان يوضحان القيم المعرضة للخطر في الظروف التاريخية الخاصة المعنية. ولذلك، فإن نظريات الماضي، مع أنه لا ينبغي أن تؤخذ باعتبارها حقائق لا ريب فيها، تعتبر مؤشرات جيدة جدًّا عن نوع المعايير التي كانت هامة في مجال تاريخي بذاته. على سبيل المثال، كان لدراسة أشكال النظم معنى في نهاية القرن التاسع عشر حين كان هناك الكثير من النقاش العام حول الشعر الحر *verse libre*، لكن دراسة الشعر الحر في ثلاثينيات القرن العشرين، حينما لم يكن هناك نفس القدر من النقاش، لم يكن لها نفس المعنى. في الحالة الأولى، سنجد شيئًا ما مثل النظام. وفي الحالة الثانية، سنكدس على الأرجح قدرًا كبيرًا من بيانات توصلنا إلى لا شيء.

ما ذكرناه آنفًا، عن البحث عن الصراع، يمكن أن يتم أيضًا عن طريق تحليل الترجمات، خصوصًا في الحالات التي لا يكون فيها إصدار الأحكام النظرية واضحًا بصورة مباشرة. وفيما يتعلق بأن دراسة النظم ينبغي أن تبدأ من اهتمام مباشر بالمناقشات، فأنا لا أريد أن أستبعد عن هذه العملية التحليل النصي أو اللغوي للترجمة. وأكرر: إن هدفي هو التأكد من أن هناك أسئلة هامة ينبغي الإجابة عنها قبل خوض كل أنواع المياه.

نظام لطليطلة القرن الثاني عشر

قليلاً ما تظهر مناظرات في الأفق دون أن يكون لدى المرء خيار البدء من المعلومات الأساسية عن المترجمين والترجمات، لكنني حين ولجت هيسبانيا القرن

(١) التمسك الشديد بالحرفية، كما لاحظ إشلايرماخر Schleiermacher، يشبه سلسلة الأخطاء التي يأتيها المبتدئون. وبالمثل، فإن السياق اللفظي عند هولدرلين Hölderlin في ترجماته للشاعر الإغريقي بندار Pindar يشبه بصورة تدعو للعجب مخرجات الترجمة الآلية لحقبة سبعينيات القرن العشرين. ولا سبيل أبدًا إلى عزو نمطين سلوكيين إلى هدفين أو نمطين متماثلين في التفكير.

الثاني عشر، لم أر نظرية واضحة للترجمة، بل جاهدت من أجل العثور على تعليق نقدي أو تمهيدي لا يفي بغرض تحليل النظام لاستخلاص ما يفيدني. الأسوأ أنه كان هناك حشد من الجماعات الثقافية كان من الصعب معرفة مَن يناظر مَن. تُرى أيتعين على المرء أن يجعل نقطة ارتكازه المسلمين أم الموزاراب(*) أم اليهود؟ أم الإيطاليين؟ أم الفرنسيين؟ أم الإنجليز؟ أم القلة من المسيحيين الهيسبانيين الخلص؟ أم أي تركيبة من هذه الجماعات؟ ومما ضاعف المشكلة أنني حين وضعت دوافعي لدراسة هذا الموضوع موضع تساؤل- وقد أردت في الأصل أن أسأل إن كان المترجمون الطليطليون هيسبانيين أو (و ؟) مزدوجي ثقافة- وجدت أن مناظرتي فازت قبل أن تبدأ. أجل، فطليطلة نفسها، بلدة حدودية ذات جماعات سلالية عديدة، أتاحت لي حيزًا مزدوجًا ثقافيًا يكفي لاختبار تصوراتي. ثم ماذا؟ فيما يتعلق بالمسائل الأخرى، لم يكن منظور الصراع مبشرًا بالنجاح.

من الصعب معرفة الحدود التي يمكن للباحث أن ينتقل خلالها من نقطة تفصيلية إلى أخرى، يصوغ فرضيات ثم يعيد صياغتها، قبل أن يصبح التاريخ مفهومًا. في هذه الحالة، أصبحت بعض الشكوك الصغرى أكثر أهمية مما توقعته من قبل. وقد ذكرت بعضًا من هذه الشكوك من قبل: تصوير الرجل الإنجليزي لطليطلة، حيث وصف عملية الترجمة دون ذكر أي مدرسة، ثم هناك التمهيد الغريب الذي لا نعرف من خلاله أن مترجمًا غير لاتيني يكتب باللاتينية. والأشياء الأخرى إشارات مباشرة للمناظرات. فعندما عقب رئيس رهبان دير كلوني

(*) سبق التعريف بهذا المصطلح فى الفصل الثانى. (المترجم)

Cluny[*] بقوله إن ترجمة القرآن إلى اللاتينية قد كلفته 'الكثير من الصلوات والمزيد من الإنفاق'، وعندما وصف المترجمون الرئيسيون لمشروع ترجمة القرآن مشاركتهم بأن ذلك 'امتداد' لترجماتهم العلمية، كان ثمة شيء ما يتماثل للظهور. لقد كانت لدى دير كلوني مجموعة كاملة من الدوافع؛ وكان لدى مترجمي العلوم القديمة *protoscience* دوافع أخرى. ونظرًا لأن العلوم القديمة المكتوبة باللغة العربية كانت مترجمة لصالح كاتدرائية طليطلة، فإن الطرفين أدركا تمامًا أهمية أن يتعاونا معًا. والواقع أنه كلما تمعنت فيما يجري من أحداث، بدا لك غرابة أن النصوص العلمية كان قد تم ترجمتها لصالح الدير، خصوصًا وأن ذلك النوع من المواقف الرقابية الذي أدت إليه هذه الترجمات قد أضعف في النهاية نفوذ هذا الدير نفسه (وقد نوقشت هذه النقطة جيدًا في: *Lemay 1963*).

وحيث إنني أعطيت ترجمة القرآن لعام ١١٤٢ – ١١٤٣ مكانًا مركزيًا في موضوع القرن الثاني عشر، فإنه كان لابد من تنظيم المجال بكامله على أساس التعاون بين الدير والمترجمين اللاتينيين للعلوم الذين كان معظمهم من أجزاء أخرى من أوروبا. وكانت الخطوة التالية هي أن أفكر في مختلف المعايير الخاصة بسلوك النص المترجم على هذا الأساس، وطرح مسألة لمصلحة من كان ذلك. وقد جاءت بعض المعايير لصالح الدير؛ وبعضها لصالح العلم. لكن كان ثمة ملامح مثيرة قد أصبحت تتشكل. ومن هذه الملامح أن كلا الفريقين قد استفاد، وأنهما ربما استطاعا لذلك أن يتعاونا. وكانت هذه الملامح هي العناصر الأولى للنظام.

عند تشكيل نظام، من المناسب البدء من المبادئ المشتركة إلى أبعد حد، ثم يلي ذلك المبادئ التي تتطلب جهدًا أكبر. وفي الوضع النموذجي، فإن أولوية المبادئ تطغى على جهود المبادئ التالية وتؤدي إلى نشوء تسلسل هرمي من

(*) بلدة في إقليم بورجوني Bourgone شرقي فرنسا، شمال غرب ماكون Macon بنحو ٢٠ كيلو مترًا. (المترجم)

المبادئ المتلاحمة إلى هذا الحد أو ذاك. والتسلسل الهرمي ***hierarchy*** الخاص بالترجمات اللاتينية من العلوم العربية القديمة في القرن الثاني عشر هو كالتالي:

١- *ترجمة النصوص المعتمدة* ***authoritative texts*** *ينبغي أن تكون حرفية.* فقد آمنت الكنيسة بالحرفية بسبب المكانة الدينية لنصوصها المعتمدة. ووجد المترجمون أيضًا أن الحرفية هي الأنسب لأن ذلك كان يعني أنهم لن يكونوا مسئولين مسئولية مباشرة عما جاء في النصوص.

٢- *إجراء تطوير ثانوي.* فقد أضاف رئيس دير كلوني إلى ترجمة القرآن التي اعتمدها سياقًا وعظيًا. كما أن المترجمين للموضوعات العلمية كانوا يستخدمون أساليب ثانوية تربوية في الغالب ربما للتعويض عن مظاهر حرفية النص. وفي كلتا الحالتين، كانت النتيجة سياقًا منقسمًا على نفسه يجيز إدخال إضافات ملحوظة للنصوص المصدرية.

٣- ضرورة أن يعمل المترجمون كفريق. فقد كانت الكنيسة حريصة على العمل الجماعي لأن ذلك يمكن أن يساعد على وضع أقلام السّمة ***styli*** في أيدي أبنائها اللاتينيين. كما أن المترجمين العلميين قد استفادوا من الفرق؛ أولاً باعتبار أن ذلك نوع من تصنيف الكفاءة اللغوية، وثانيًا لأن الفرقة بنية اجتماعية للمناظرة الفكرية.

٤- *الوسائط الشفوية تحتل مرتبة أدنى.* فقد كانت الكنيسة لا تولي اهتمامًا كبيرًا لذكر دور الوسطاء اليهود والموزاراب الذين يبدو أنهم اضطلعوا بمهمة إنجاز المرحلة الشفوية التمهيدية لعملية الترجمة (غالبًا من العربية إلى إحدى اللغات اللاتينية). كما أن المترجمين اللاتينيين الذين قاموا ظاهريًا بإنجاز المرحلة الثانية (بتدوين النص الشفوي المسجل بإحدى اللغات اللاتينية باللغة اللاتينية [الأم]) لم يكونوا راغبين إلى حد كبير في إظهار تبعيتهم للوسطاء. وقد استطاع معظم اليهود والموزاراب أن يجمعوا الأموال ويتواروا من التاريخ المكتوب.

٥ – كانت الترجمة غزوًا شرعيًا. فبالنسبة إلى رئيس دير كلوني، كانت الترجمات من العربية مفيدة في محاربة الإسلام. أما بالنسبة لمترجمي العلوم، فقد كانت الترجمات غزوات بمعنى الاستيلاء المباشر. ومع ذلك، كان هناك مجال للموافقة أو لاحتمالات عدم الموافقة بشأن ما اعتبره بعض المترجمين المنزلة الأدنى لكل من الثقافة واللغة اللاتينية المسجلة بها الترجمات. ويعود الفضل في أن هذا التناقض لم يطف على السطح في صورة صراع– كما حدث في القرن الخامس عشر– إلى توافق الجميع على مبدأ التمسك بالمعنى الحرفي الذي منع ظهور أي مناظرة موسعة بشأن استخدام اللغة اللاتينية الفصحى في الترجمات.

٦– النصوص غير المسيحية يمكن أن تكون نصوصًا معتمدة. فقد كان على الكنيسة، باعتبارها السلطة الدينية المقابلة للإسلام، أن تقبل على العلم الإسلامي. ومن جانبهم، أقر المترجمون بصفة عامة بأن النصوص معتمدة ونافعة أيضًا بصورة مباشرة. والحقيقة أنهم كثيرًا ما أضفوا الطابع المسيحي على النصوص، جاعلين إياها متوافقة مع تعاليم الكنيسة من الناحية الظاهرية. وقد مضت الكنيسة بهذه العملية إلى مدىً نادرًا ما استطاعت أن تضع له حدًا.

هذه العناصر الستة – وقد تكون أكثر أو أقل– كانت هي العناصر الأوثق التي استطعت من خلالها التوصل إلى نظام الترجمات العلمية القديمة التي تمت ترجمتها في هيسبانيا القرن الثاني عشر. وبوصفه تجربة، فإن النظام يمكن أن يقدم على الأقل رقعة واسعة من البيانات يمكنها تعويض البيانات الغائبة ويقول شيئًا ما مترابطًا وجديدًا. ويبدو أن هذا المنهج يستحق المتابعة.

نظام لهيومانية بدائية في قشتالة

فيما يتعلق بمثالي الثاني، نحن نقفز قرونًا عديدة إلى الأمام. لقد كانت إحدى المناظرات الذائعة بين الباحثين في الثقافة القشتالية في القرن الخامس عشر هي

"إلى أي مدى يصح أن نطلق على هذه الثقافة مصطلح هيوماني"؟ (*) *Humanist*، غالبًا بالمعنى الذي كان يثير أو لا يثير اهتمام الباحثين والمترجمين القشتاليين بالخلفية اللغوية والثقافية للنصوص الكلاسيكية. وإجمالاً لهذا الوضع المعقد، فإن بعض الباحثين يرون قشتالة القرن الخامس عشر باعتبارها جزءًا من المرحلة التي مهدت لعصر النهضة، ذلك لأن المؤلفات الكلاسيكية المكتوبة باللغة اللاتينية أو المترجمة إليها في إيطاليا تم ترجمتها حينذاك إلى القشتالية. لكن باحثين آخرين يصرون على أن القشتاليين لم يعرفوا ما كان يحدث، ولم يهتموا بمسألة من أين جاءت النصوص ولا بمسألة أن مصطلح 'هيوماني' لا ينبغي إطلاقه على ثقافة تترجم إلى اللغة الدارجة(**) *vernacular*.

إنها مسألة هامة ثقافيًا لأنها تتعلق بدور إسبانيا في تطوير الثقافة الأوروبية، وتطرح أسئلة شديدة الأهمية حول التأخر القومي والتخلف الاقتصادي للبلاد. وهناك مشكلة لها علاقة وثيقة باستخدام مصطلح *Humanisme* لوصف ثقافة الترجمة الكاتالانية التي تطورت منذ نهاية القرن الرابع عشر. وهذه المشكلة الثانية ترتبط ليس فقط بالعلاقة بين الثقافة الكاتالانية وفكرة النهضة (يؤرخ لظهور المصطلح الكاتالاني *Humanisme* بفترة النهضة اللغوية لأواخر القرن التاسع عشر) بل ترتبط أيضًا بفكرة أن الكاتالانيين كانوا أكثر تقدمًا من القشتاليين (عن كل ذلك، انظر: *Badia 1988*). والنتيجة شبكة سياسية شديدة التعقيد لا أحب أن أكون في صف أي طرف من أطرافها. وللأمانة، فإن هذه المناظرات الفيلولوجية

(*) راجع الهامش الوارد في الفصل السابق تحت عنوان "نثر بلا موضوع" عن الهيومانية. ويلاحظ أن كلمة 'إنسانية' (ويقابلها في الإنجليزية كلمة Humanity) لا تصلح مقابلاً لكلمة humanism، لأن الأولى تدل على مجموعة الصفات النموذجية التي تميز الإنسان على حين أن الثانية أي humanism (هيومانية) مفهوم ثقافي مختلف أشرنا إليه بصورة مختصرة ومبسطة في الهامش المذكور. (المترجم)

(**) راجع توضيحي لهذه النقطة في الهامش الذي ورد في الفصل ١١ تحت عنوان "ما هي الثقافة". والمقصود بالدارجة هي الفرنسية والإيطالية والإسبانية وغيرها من اللهجات التي تفرعت من اللغة اللاتينية. (المترجم)

حول تصنيف الثقافات أو العصور هي غالبًا ما تكون مناظرات محبطة ومضيعة للوقت. لكن تاريخ الترجمة ينبغي أن يكون قادرًا على أن يشق طريقه غير عابئ بالمتاهات. كان هذا على الأقل ما يدفعني إلى البحث عن نظام في هذه المنطقة بالذات.

في البداية، كان موضوعي التاريخي هو ترجمة معينة: معالجة بيرو دياث الطليطلي ***Pero Diaz de Toledo*** عام ١٤٥٥ لكتاب أفلاطون فيدو ***Phaedo*** الذي ترجمه من الطبعة اللاتينية إلى القشتالية ليوناردو بروني ***Leonardo Bruni***. قبلت هذا بوصفه موضوعًا تاريخيًّا من الدرجة الثانية قام بتحليله نيكولاس روند ***Nicholas Round*** (١٩٩٣) بطريقة تتسم بالكمال. وفيما يتعلق بمناظرتنا سالفة الذكر، أوضح روند تمامًا أن المترجم القشتالي بذل جهدًا ضئيلاً في محاولة فهم أفلاطون: لقد حصر دياث الطليطلي الفليسوف الإغريقي داخل نظام قبل هيوماني ***prehumanistic*** حيث لا يمكن للأدب إلا أن 'يربي الشخصيات القصصية الرفيعة على الأسس الأخلاقية للسلوك القويم' (***Round 993:107***). وبذلك، فإن الترجمة قد خالفت النمط الهيوماني في جوانب عدة: فهي منقولة إلى اللغة الدارجة، وأعطت الأولوية للوضوح على ما كان للنص الأصلي من بلاغة، وأبدت اهتمامًا ضئيلاً بما في النص من خلفية لغوية وثقافية، كما أنها انطوت على قدر ضخم من الإطالة وعلى مادة وعظية مضافة بصورة صارخة. ويرى روند أن هذه المبادئ تنسجم مع نظرية الترجمة كما بسطها ألونزو القرطاجني ***Alonso de Cartagena*** قبل ذلك بعدة عقود. وبقدر ما يتعلق الأمر بهيسبانيا، فإن كل شيء كان موجودًا داخل منظمة متماسكة إلى حد كبير. وقد تمت ترجمة أفلاطون إلى القشتالية، لكنه لم يترجم ترجمة هيومانية صحيحة. وعلى ذلك، فإن قشتالة لم تكن لديها منظومة هيومانية دقيقة.

فإذا ما تعين على المرء أن يبحث عن نظام، فإن أي نظرية من نظريات الماضي لا تكون، بطبيعة الحال، صالحة بحالتها. ومما لا شك فيه أن تنظير

القرطاجني كان جزءًا من مناظرة، مناظرة كبرى نظر إليها في واقع الأمر باعتبارها علامة فارقة في تاريخ نظرية الترجمة، وعلى أنها دشنت التقليد العظيم لمفهوم *belles infidels*(*) (انظر - على سبيل المثال- *Stackelberg 1972: 9-10*). أما ألونزو القرطاجني، الذي كان حينذاك أسقف كاتدرائية بورجوس *Burgos* [إسبانيا]، فلم يكن يتبادل مجادلات عنيفة إلا مع المترجم الفلورنسي ليوناردو بروني الذي استخدمت ترجمته لأفلاطون كأصل لترجمة دياث الطليطلي. وهنا قد لا يصبح الطرفان واضحين تمامًا: الهيومانية الإيطالية، وبروني في خط المواجهة، ضد قرطاجنة، ودياث الطليطلي وغيره يواصل عمله في قشتالة (والكاتالاني يتأرجح بين الطرفين). وبعد تحديد كل من الطرفين، كانت مهمتي أن أتخيل كيف أمكنهما الاتفاق على نوع معين من النظام.

ونظرًا لأنه لا تكون هناك ترجمة واحدة فقط هي الصلة الوحيدة بين الطرفين، فلابد من توخي الحذر عند إنشاء شبكة في هذه الحالة. وتشير دراسة روند إلى العديد من قنوات الاتصال بين قشتالة وإيطاليا. فقد كان هناك مؤتمرات قمة مثل مجلس بازل ومجلس فلورنسا، تلك المؤتمرات التي 'أتاحت للمندوبين الإسبان أن يحتكوا احتكاكًا مباشرًا مع أنصار الهيومانية وطريقتهم' (*1993: 69*)، كما أن مثقفين إيطاليين عديدين كانوا يزورون قشتالة وكاتالونيا (*70*) وسافر الطلبة القشتاليون للدراسة في بولونيا *Bologna* [مدينة إيطالية]، حيث كانت نابولي *Naples* تتبع مملكة آرجون *Aragon*(١). ومما له دلالة أن قشتالة كانت أيضًا

(*) هذه العبارة الفرنسية (ومعناها: الحسناوات الخائنات) صكها المؤرخ والنحوي الفرنسي ميناج Gilles Menage في القرن السابع عشر وصفًا لترجمات نيكولا بيرو دابلانكور Nicolas Perrot d'ablancourt للنصوص الكلاسيكية، تلك الترجمات التى تميزت بجمال أسلوبها ولكن بعدم إخلاصها للنصوص الأصلية. (المترجم)

(١) لم تكن الشبكة مقصورة على إيطاليا فقط. فقد كانت قشتالة عرضة للمؤثرات الثقافية الفرنسية والبورجندية (Round 1993:64)؛ والكثير من النصوص المترجمة إلى اللغة الكاتالانية تمت ترجمتها في الواقع من الفرنسية (Russel 1985: 19-20)، وقد كان هناك قدر هائل من=

تصدر الصوف إلى فلورنسا، وهي صناعة زادت من أهميتها التجارية بشكل عام: وقد كان المترجم الهيوماني بروني عضوًا بارزًا في طائفتي التجار ومستوردي الأقمشة الفلورنسيين (72) وكان من ثم على دراية بما كان حادثًا في قشتالة. أما قرطاجنة، فقد كان من أسرة يهودية متحولة دينيًا، وكانت له صلات جيدة مع التجار المتحولين دينيًا في بورجوس التي كانت قد أصبحت حينذاك مركزًا لمشاريع تصدير الصوف القشتالي، وكان ذا نفوذ سياسي. ولا يدهشنا أن بروني وقرطاجنة قاما برأب الصدع في علاقتهما بعد المشاحنة الطفيفة التي حدثت بينهما بخصوص نظرية الترجمة. لكن ما هو أكثر من الاهتمامات النظرية كان في خطر.

في إطار هذه الشبكة، من الممكن أن يتم اختزال المناظرة الخاصة بمناهج الترجمة إلى العناصر التالية. في كتاب ***De interpretatione recta*** أعطى بروني اللغة المستهدفة (المنقول إليها) ميزة البلاغة؛ على حين أن قرطاجنة تمسك بنص غير مزخرف يتسم بالإخلاص للنص المصدري محتجًا في ذلك بأن البلاغة كامنة في المضمون وليس في الأسلوب. ومع أن قرطاجنة كان يعارض البلاغة الهيومانية، إلا أنه لم يكن يدعو إلى التمسك بحرفية كلمة مقابل كلمة. وأقر، إضافة إلى ذلك، بأنه 'لكل لغة طريقتها المختلفة في التعبير' وبأن النصوص ينبغي أن تتكيف مع هذه الاختلافات إلا في حالة 'الأقوال التي يكون أساس قيمتها هو الشخص الذي أدلى بها' (وردت هذه العبارة في *(Santoyo 1987: 33)*. ولا شك أن هذا القيد يستند إلى ما أبداه جيروم من شروط، والتي ربما يكون قد التقطها عام ١٤٥٠ باحث آخر هو ألونزو دي مدريجال ***Alonso de Madrigal*** (المدعو 'التوستادو' ***el Tostado***) الذي ميز بين أسلوب كلمة مقابل كلمة ***interpretaction*** [التفسير] وأسلوب العرض أو التعليق أو شرح الألفاظ' ورد في: ***Norton 1984:31-32***. أما في التطبيق العملي، فقد كان

=حركية الباحثين: فقد أمكن لاثنين من الباحثين البرتغاليين يعملان في الترجمة من اللاتينية إلى البرتغالية أن يذهبا للعمل في البلاط البورجندي كمترجمين من اللاتينية إلى الفرنسية (Russel 1985 : 44).

المترجمون في القرن الخامس عشر أحرارًا في عروضهم أو تعليقاتهم أو شروحهم للألفاظ، وذلك لأسباب تتعلق بالأساس بصلتهم بالنبلاء قليلي الثقافة الذين كانوا يترجمون لهم. لكن هذا لا شأن له بمستوى النظام.

وإذا بحثنا الآن عن المبادئ المشتركة التي ساهمت في تشكيل نظام- على الأقل بالمعنى الذي يدرك به الإسباني أو الفلورنسي ما يجادلون بشأنه- لوجدنا أن القائمة قصيرة ولكنها لا تخلو من تماسك. إن ما نجده شيء كبير في الواقع، شيء أشبه بنظام مزدوج ثقافيًا كُتب عليه أن يكون مباحًا لأنواع مختلفة من الترجمة. وهذه هي ما يبدو أنها المبادئ الرئيسية:

١- لا بد أن تكون الترجمة ' كلمة – مقابل – كلمة' في حالة النصوص الدينية المعتمدة و'معنى – مقابل – معنى' في الأحوال الأخرى. والواقع أن مبدأ حــرْفية ما هو ديني لم يكن بطبيعة الحال لا قشتالية ولا إيطالية. إنها طريقة جيروم التي سادت لفترة طويلة من التاريخ الأوروبي. ويوضح روند لماذا كانت هذه المصطلحات ذات أهمية خاصة لكاثوليك القرن الخامس عشر في البلاد المختلفة: لقد استخدم تعبير 'كلمة – مقابل – كلمة' حديثًا لإقصاء ابتداعات لولارد ***Lollard*** وهوسيت ***Hussite*** (*133-134*). ونظرًا لأن عصر النهضة كان بعيدًا عن الميل إلى الحــرْفية، فإن الاهتمام بترجمة النصوص الدينية المعتمدة كان مجرد فكرة تقال، ليس فقط في قشتالة وحدها بل وفي كل من فرنسا وإنجلترا على السواء (راجع: ***Russel 1985:19***).

٢- هناك تسلسل هرمي طبيعي للغات. فكمبدأ ملازم للمبدأ السالف، اكتسبت بعض اللغات نفوذًا أكبر من غيرها من اللغات: لغات الوحي في المقدمة، ثم تليها اللاتينية المتداولة دوليًا، وبعد ذلك تأتي اللغات الدارجة في الدرجة الدنيا من القيمة المعتمدة. ولم يكن هناك حديث عن المساواة بين اللغات. ونظرًا لأن مصطلحات هذا التسلسل الهرمي تدين بالفضل لإيزيدوراس هيسباليتيسيس ***Isidorus Hispalensis*** وواردة عند كل من بروني وقرطاجنة وبيرو دياث وكثيرين غيرهم،

فإنه مرشح بقوة لموقع في نظام مزدوج ثقافيًا للترجمة. وقد تعامل بروني وجيله مع التسلسل الهرمي بنفس الطريقة التي أصبحت بها اللاتينية مستودع التضلع النحوي، لكن هذا لا يعني أن التسلسل الهرمي نفسه لم ينعم بوضع ازدواج ثقافي أوسع.

٣- كل لغة لها أسلوبها المتوارث في التعبير. فعدم المساواة لم تترك الدرجة الدنيا بدون قيمة على الإطلاق. فاللغات الدارجة لها أيضًا صفاتها المتوارثة، وأساليبها في التعبير، تلك الأشياء التي يجب احترامها والاستفادة منها. لكن هذه الفكرة الخاصة بخصوصية اللغة المستهدفة، التي قد تكون فرضية غير مطورة من فرضيات سابير- هورف ***Sapir-Whorf***، لم تكن فقط شائعة عند مفكري القرن الخامس عشر الآخرين، مثل بيساريون ***Bessarion*** ومانتي ***Manetti***، بل يمكن إرجاعها إلى جيروم. إنها فكرة لا تتعارض بالضرورة مع التسلسل الهرمي المزعوم للغات.

٤- اللغات الدارجة يمكن إثراؤها. فإذا كان هناك تسلسل هرمي للغات، فلابد من الاستفادة من أفضلية اللاتينية في تطوير المفردات المعجمية ***Lexis***، والتركيب النحوي ***Syntax*** للغات الأدنى. وعلى ذلك، نجد أنه تم إضفاء طابع لاتيني على اللهجتين الإيطالية والفرنسية، ولكننا نجد أيضًا 'موقفًا حذرًا ولكن مؤيدًا لتوليد المعاني وتبني الكلمات الدخيلة' في القشتالية (***Round 1993:142 -145***)، وذلك على حين أن المترجمين الأُوَل قد استخدموا أسلوب إعادة الصياغة بدلاً من الأساليب اللاتينية. وبطبيعة الحال، فإن هذا المبدأ يناقض بشكل صريح فكرة أن 'لكل لغة أسلوبها المتوارث في التعبير'، تلك الفكرة التي توحي بأن إضفاء الطابع اللاتيني لم يكن حتميًا بصورة صارمة وبأن الترجمات كان ينبغي أن يتم فهمها أولاً على مستوى المضمون.

٥- التذبذب مقبول. وتظهر آثار هذا التناقض في شكل تنافر كبير في الاستخدام النحوي. لكن إن كان من المقبول، كما يقول روند، أن يكون هناك تذبذب

بين اللاتينية والأنماط اللغوية الدراجة (*1993:156*)، ولو إلى الحد الذي يتم فيه التذبذب ذاته 'كملمح من ملامح لغة المثقفين القشتاليين في الوقت الحالي' (*157*)، أفيكون من المؤكد أن تناقض الازدواج الثقافي الذي كان يثير مناظرة بشأن مكانة اللغة اللاتينية في إيطاليا هو ما كان يثير أيضًا في قشتالة توترات وإن كانت طفيفة؟ هذا معناه أن المناقشات النظرية التي صاحبت المفاضلة بين اللاتينية والإيطالية (وقد كان لبروني موقف إيجابي جدًا في صف اللغة الدارجة) كان لها ما يقابلها في المتغيرات الأسلوبية للغة القشتالية. ومع أنه لم تكن أي من الظاهرتين مطابقة للأخرى، إلا أن كلتيهما قد استجابتا لتناقض ازدواج ثقافي على صعيد النظام المشترك. وقد يوحي هذا بأن المترجم بيرو دياث لابد أن يكون قد استوعب تمامًا الرغبة التي حدت ببروني على الترجمة إلى اللاتينية، ذلك لأن بيرو دياث نفسه كان يستخدم طريقة مغايرة لإبداء نفس الرغبة. لقد أوجد نظام الازدواج الثقافي مشكلة مشتركة، لكن ثقافتي الترجمة ابتكرتا طريقتين مختلفتين لحلها.

كانت قشتالة وإيطاليا مختلفتين، لكن طريقتيهما المختلفتين في الترجمة لابد أن تكون قد أتت من نظام مشترك للترجمة.

إذا قارنا نظام القرن الخامس عشر هذا بنظام القرن الثاني عشر الذي ذكرناه من قبل، فإن نقاط المقارنة كافية لأن توحي بإمكانية تتبع عمليات التحور التي تربط نظامًا بآخر، وإعادة تشكيل وتنظيم المعايير بما يتوافق مع ظروف العصر. وربما كان أكثر المظاهر المقلقة هو بعض المشكلات أو التناقضات التي يبدو على الدوام أنه تم حلها، فهي تميل لأن تكون منسية أو راقدة في سبات لقرون عدة. كان النظام حول اللاتينية الفصحى قائمًا في القرن الثاني عشر لكنه، في الواقع، لم يظهر على السطح كقضية ذات شأن إلا في القرن الخامس عشر. وبالمثل، فإن التسلسل الهرمي للغات، ذلك التسلسل الذي ربما يكون قد اختفى مع انتصار اللغات الدارجة، قد عاد إلى الظهور في عصرنا هذا بفضل مخططي اللغات الآسيوية الإفريقية المتحمسين للدفاع عن 'أساليبهم' القومية في التعبير بل

ولديهم رغبة عارمة لتطوير لغات التكنولوجيا. وقد يكون نظام القرن الخامس عشر وثيق الصلة بشيء يتجاوز القرن الخامس عشر، فتناقضه الرئيسي الذي لا يمكن كبحه، حين يصبح 'التجويد' هدفًا، قد يكون جزءًا من أيديولوجيا كاملة للتطور.

نظام للمختارات في بداية القرن العشرين

مثال الثالث مختلف تمامًا. إنه يتعلق بمختارات الترجمة ***translation anthologies*** في القرن العشرين التي تناولناها بإيجاز في الفصل السادس الخاص بالشبكات. ولعل قارئنا يذكر أنني بدأت بديوانين إسبانيين من القصائد المترجمة. وقد كان كلا النصين وثيق الصلة بشبكة صغيرة من مختارات مترجمة وبشبكة من مختارات غير مترجمة على الصعيد الدولي الأوسع (سلسلة 'أفضل مائة قصيدة' التي تصدرها دار جوانز آند جراي ***Gowans & Gray*** البريطانية وتشتمل على دواوين شعرية باللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية). ويبدو أن لهذه الصورة وجهين متعارضين؛ دولي وقومي. وقد يحق للمرء أن يفترض أن ثمة قدرًا من التفاوض جرى قبل أن يبدأ المترجم الإسباني مارسيتاني ***Maristany*** في إصدار مطبوعاته من المختارات العالمية. لكن الوجهين ظلا، مع ذلك، متفاوتين جدًّا. وفي الواقع، فإن من العدل أن نقول أن المختارات المترجمة كان لها وضع طفيلي بفضل المنظومة الدولية التي أشاعت المختارات غير المترجمة.

وبرغم التفاوت في هذه العلاقة، إلا أن ثمة نوعًا ما من المفاوضة كان يمكن القيام به حينذاك. ولا شك أن مختلف مقدمات المختارات المترجمة عنيت بالتأكيد على علاقتها بالمختارات غير المترجمة. فمن ناحية، استخدم المترجمون مختارات غير مترجمة كمراجع معتمدة لجودة القصائد المختارة؛ لكنهم، من ناحية أخرى، ناهضوا العمل غير المترجم عند محاولة صياغة قرار إصدار أعمال مترجمة بدلاً

من الأعمال الأصلية. وعلى أية حال، فإن مثل هذا النوع من القضايا الثانوية هي كل ما استطعت أن أضعه على بساط البحث في الجولة الأولى. لكن الأمر كان في حاجة إلى منهجية أكثر إحكامًا. في هذه الحالة، حاولت أن أكتب مبادئ منفصلة لكلا النوعين من النصوص، غير المترجمة والمترجمة، العالمية والمحلية، راجيًا أن يتكشف شيء ما عند مقارنتهما.

وهذه هي المبادئ التي تم اكتشافها بالنسبة للمختارات غير المترجمة (شبكة 'جونز آند جراي' العالمية):

١- الأمم التي لها تراث متصل هي وحدها التي لها مختارات. وقد اتخذت هذه القاعدة الجوهرية شكل الاعتراف المتبادل بين الثقافات الرئيسية للاتجاهات الرومانتيكية الأوروبية، باستثناء العديد من الأمم والأقاليم الصغيرة التي كانت ماضية في تطوير آداب ما بعد الرومانتيكية.

٢- النصوص ينبغي أن يختارها ذوو الاختصاص في الثقافة المصدرية. ومجاراة لمبدأ الاعتراف المتبادل، ينبغي أن تبرز النصوص 'الأفضل' داخل ثقافة كل أمة بالطريقة التي حدد بها الانتخاب الطبيعي الدارويني الناجين الباقين على قيد الحياة داخل كل بيئة.

٣- وينبغي على مصنف المختارات أن يكون شخصية لها شهرتها في الثقافة المصدرية المعتمدة وبعيدة عن التأليف الأدبي. فمصنفو المختارات غالبًا ما كانوا مؤرخين وأكاديميين راسخين في الآداب وبعيدين عن الانتماء إلى المدارس والتقاليع الأدبية المتنافسة.

٤- المختارات تشمل الأموات من الشعراء دون سواهم. وإذا كان لابد للانتخاب الطبيعي أن يأخذ مجراه، فإنه كان يتعين إتاحة الفرصة الكاملة له. لكن هذا الإرجاء ***belatedness*** المحسوب قد أدى إلى تكريس المحافظة الثقافية وساعد

على تعزيز خارجانية ***externality*** مصنف المختارات وعلى استبعاد العناصر العصرية الأكثر جرأة وحيوية.

٥- النخبة الطبيعية تجسد شعورًا حقيقيًا بالأفضلية. فنظرًا لأن الاختيار كان قد تحدد سلفًا بصورة طبيعية تقريبًا فقد كان المقياس الوحيد الجدير بالذكر هو مقياس الأفضل.

٦- ينبغي على المختارات أن تستجيب لمقاييس السوق. فالقيد الراسكيني بضرورة أن يحتوي كل مجلد على مئة قصيدة لم يكن قيدًا نخبويًا فقط بل وجعل وصول 'مختارات الجيب' هذه إلى سوق الطبقة الوسطى التواقة لقيم الثقافة الرفيعة المستوى ممكنًا ماليًا.

٧- المجلد الواحد من المختارات يمكن أن يشبع حاجة الأسواق المحلية والعالمية معًا. فتسويق هذه المجلدات ككتب مدرسية كان يعني أنها يمكن أن تجد سوقًا خارجيًا دون ترجمتها، خصوصًا في الولايات المتحدة. وربما كان الشرط الوحيد الذي تم إقراره سلفًا هو أن لا يكون هناك ما يجرح المشاعر الرقيقة عند الناشئة.

وإجمالاً، كان يمكن لمبادئ نظام اللاترجمة، ذلك النظام المحافظ بدرجة عالية، أن تساعد على أن ينتقل الأدب ليكون داخل الشبكة النوعية الخاصة به، وذلك بإقامة علاقات متبادلة بين الثقافات دون حاجة إلى مترجمين. فما الذي يحدث إن اتبع المترجمون مثل هذه المجموعة من المبادئ؟ هذه هي الأسباب التي يبدو أنها بدلت النظام العالمي على يد مترجمينا الإسبانيين دياث- كانيدو وماريستاني:

١- المترجم المصنف للمختارات يمكنه أن يقدم عروضًا مؤلفة. فعلى حين أن نظام النصوص غير المترجمة يعتمد على سلطة مصنف مختارات النصوص المصدرية بوصفه راعيًا من الخارج، كان المترجمون الإسبانيون يميلون إلى التحلل من مثل هذه السلطة. فقد كان دياث- كانيدو يعمل ضمن باقة تضم أسماء

مترجمين آخرين لهم منزلة عالية. وكان ماريستاني يحيل باستمرار إلى سلطة مختارات الثقافة المصدرية ويعرض مختاراته المترجمة بنظمه هو. وقد أدى هذا بالمترجمين مصنفي المختارات لأن يكونوا أوثق صلة بنصوصهم هم قياسًا لما كان عليه الأمر في حالة المختارات غير المترجمة، الأمر الذي قربهم من منزلة المؤلفين.

٢ - الوضعان القومي والدولي ليسا مطلقين. فعلى حين أن نظام النصوص غير المترجمة كان نظامًا قوميًا تمامًا من زاوية أنه أعطى للتحيز القومي أولوية على فهم الثقافات الأخرى، فقد بدا أن مصنفي النصوص المترجمة قد تخلوا عن الكثير من السلطة المزعومة لمثل هذا الوضع. قام دياث - كانيدو بالترجمة من الفرنسية، ثم من الألمانية مع نهاية الحرب العالمية الثانية؛ واعتبر ماريستاني محايدًا ثم تخلى عن هذا الموقف فترجم من الفرنسية والإنجليزية. لم تكن أقسام المترجمين واضحةً تمامًا على صعيد العالم.

٣- المقاييس التجارية لم تكن لها الأولوية الأولى. فلو أن أيًا من هؤلاء المترجمين الذين كانوا يصنفون المختارات أراد يومًا ما أن ينافس المختارات غير المترجمة في نجاحها لأصبحت حساباتهم السوقية خالية الوفاض، فمجلداتهم لم تكن فقط أضخم كثيرًا مقارنة بكتب الجيب بل كانت أيضًا غالية جدًا في أثمانها لأنها أطول جدًا من المجلدات غير المترجمة ذات الحجم المحكوم. وقد كان دياث- كانيدو يترجم لجمهور لم تكن له حاجة حقيقية للترجمات؛ أما ماريستاني فقد أدار ظهره للبرجوازية المتحدثة بالكاتالانية: البرجوازية والكاتالانية اللتان ربما كانتا الطبقة واللغة الوحيدتين اللتين أكسبتاه المقام الرفيع بين الناس.

٤- ينبغي إعطاء الأولوية للشكل على المضمون. لقد كان يتعين على نظام النصوص غير المترجمة أن يدفع بكل أوراق اللعب في لحظة الاختيار، لكن نظام النصوص المترجمة يدخل بالضرورة تعديلات ما بعد عملية الاختيار، ويقرر الجوانب التي لها أولوية في النصوص المصدرية. وفي إطار هذا النظام من

الترجمة، كانت الأولوية لمقاييس الشكل تحت دعوى الرابطة البرناسية(*) ***parnassian association*** بين الشاعرية ***poeticity*** والنظم. وهذا المقياس برر أيضًا التضحية بالفكرة الكلية والبنية اللغوية العسيرة الفهم عند الشعراء المبهمين.

٥- يجب إيلاء عناية خاصة للشعراء المعاصرين. فعلى حين أن ماريستاني كان متحيزًا لمبدأ 'جماعة الشعراء الراحلين' في مختاراته الفرنسية، حيث كانت إضافاته تتجه بشدة نحو شعرائه المفضلين في بدايات القرن [العشرين]، كان دياث- كانيدو لا يراعي هذا المبدأ على الإطلاق. وهكذا فإن ناظم النصوص المترجمة قد أتاح لعملية الاختيار فرصة مراعاة المخاطر التي قد تحدث قياسًا إلى نظام النصوص غير المترجمة. وربما كان الأمر كذلك لأن البعد الثقافي الطويل قد أدى إلى تقليص خطورة الفساد. لكن المبدأ، برغم ذلك، تم دعمه أيضًا بعملية التبسيط التي أتاحتها فترة الترجمة.

إن هذا النظام الصارم للنصوص المترجمة أحدث في نظام النصوص غير المترجمة تغيرًا هامًا، وذلك بتهيئة معظم القواعد لتكون صالحة للوفاء بأغراض جديدة تمامًا. فمن ناحية أخرى، أذكر أنني حين وصلت إلى هذه النقطة، سألت نفسي من كان يتفاوض مع من. أنا لا أزعم أنه كان يتعين على ناشري المختارات غير المترجمة أن يكونوا أقل اهتمامًا بما كان يقوم به مترجمون ثانويون في إسبانيا. وقد كان دياث- كانيدو وماريستاني هما المدعوان في الواقع لمناقشة مبادئ الترجمة، لكن المترجمين كانا على خلاف شديد قبل أن أصل إلى مبدئي الخامس. ونظرًا لأن ماريستاني كان فردانيًا يعلق أهمية كبرى على قيم الأرستقراطية المنهارة على حين أن دياث- كانيدو كان اشتراكيًا ومربيًا اجتماعيًا يبذل كل ما في

(*) البرناسية parnassianism حركة شعرية فرنسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أعطت الأولوية للجانب الشكلي على الجانب العاطفي للشعر. والتسمية مأخوذة من اسم المجلة الشعرية الفرنسية le parnasse contemporain المأخوذ بدوره من جبل برناس (منزل الوحي) في الميثولوجيا الإغريقية. (المترجم)

وسعه لمساعدة الآخرين،[1] فقد كان من الممكن لمبدأ سادس (مثلاً: 'ينبغي أن يكون مجلد المختارات لمترجم واحد') أن يضعهما في صراع جذري.

ما الذي يمكن عمله بهذه النظم؟ بعيدًا تمامًا عن البحث عن أفضل وسيلة لتصفية الحسابات، يمكن أن يتم تطوير نظرية النظام في اتجاهين على الأقل. إن المبادئ الفردية، مثل 'إجادة اللغة المستهدفة' أو 'جماعية الترجمة'، يمكن تتبعها طوال الفترات التاريخية، وذلك على النحو الذي حاولت أن أفعله عند وصف مبادئ النقل الأدبي مثل العلاقات الخيالية عن الأخوّة بين الكتاب/ المترجمين (*1993b*) أو الاستقلال التام المزعوم للثقافات (*1993c*). والاتجاه الثاني هو أن نحاول تتبع التحولات التي تتم خطوة خطوة في نظم بكاملها، على أمل الربط بين القرن الثاني عشر بالقرنين الخامس عشر والعشرين، دون أن نحصر رؤيتنا بالضرورة بثقافة مستهدفة بالذات. إن ذلك يمكن أن يكون مشروعًا ضخمًا جدًا يتطلب عملاً جماعيًا. ولعل النظم العتيقة القائمة علي البحث الفردي، كعملي هذا، لا تقف في سبيل ذلك.

الترجمة بوصفها تكلفة تجارية

هناك أشياء أخرى كثيرة ترتبط بنظرية النظام. ويمكن استخدام هذه الأشياء بغرض البحث عن نظم أو لبنائها في وقتنا الحاضر، والوصول مباشرةً إلى أشكال

---

(١) الغريب أن هذه الجزئية بالذات، نقطة التوتر التي ينهار عندها النظام، تعيد إلى الذهن أحد مبادئ نظامنا في القرن الثاني عشر، حيث كان العمل الجماعي هو المعيار. لكن فكرة قيام مجموعة بالترجمة كانت قد أصبحت فيما بعد فكرة مهجورة، بكل تأكيد في وقت سابق على الأفكار النظرية شديدة الفردانية التي ساقها إيتيان دوليت Etienne Dolet عام ١٥٤٠. لكن هذه الأشياء لا تنمحي تمامًا. لقد كانت هذه الفكرة مستقرة في قاع هذا النظام الثانوي منذ بدايات القرن العشرين. وقد عادت إلينا هذه الفكرة الآن بكل تأكيد، في العمل المشترك shared أو المجتزأ partitioned للترجمة/ المراجعة التي تتسم بأعلى درجات التخصصية والتكنيك.

من فهم الثقافات الأخرى، إلى ذهب تاريخ الترجمة. وعلى صعيد يقل قليلاً عن المستوى المثالي، يمكن أن تؤدي نظرية النظام إلى تاريخ جديد بالتأمل قائم على فكرة التعاون بين الثقافات، وإلى العمل من أعلى لأسفل بدلاً من أسفل لأعلى. وليسمح لي القارئ أن أختتم هذا الفصل برسم مخطط مختصر يمكن أن يقيم من خلاله مثل هذا المشروع المثير علاقة بين تاريخ الترجمة ونظرية عامة للنظام.

هب أن مهمتنا الراهنة هي تشكيل تحالفات أو علاقات تعاون بين الثقافات وأن هناك نظامًا سيمكننا من القيام بذلك. والنظام، وفقًا لكيوهين ***Keohane*** *1984:87*، عليه أن يحقق ثلاث وظائف: تحديد أنماط المسئوليات القانونية، وضمان انتشار معلومات متسقة نسبيًّا، والتحكم في مدفوعات نقل المعلومات. والوظيفة التي تهمني أكثر هي الثالثة، مدفوعات المعلومات المتبادلة وتكاليف تجميع الناس. ومن الواضح أنه، إذا كانت هذه المدفوعات كبيرة جدًّا، فسوف تجري القليل من المفاوضات ويصبح النظام غير فعَّال. وإذا كانت التكاليف أعلى من مكاسب التعاون، فلا يجب أن تكون هناك مفاوضات مطلقًا. أما إذا كانت المدفوعات منخفضة جدًّا، فإننا، على الأرجح، نقيم تحالفات عابرة وغير مستقرة بين أي عدد من الثقافات؛ ولن تقيم علاقاتنا أنماطًا قوية؛ وسوف يفشل النظام في بناء علاقة الثقة أو المقدرة التنبئية اللازمة للتعاون. ولذلك، يتوجب على النظام الناجح أن يرصد مدفوعات غير مرتفعة جدًّا وغير منخفضة جدًّا وفقًا لأفضل التعاليم الأرسطية.

والترجمة تكلفة تجارية. فإذا كان المترجم يستغرق وقتًا طويلاً جدًّا أو يطلب أجرًا عاليًا جدًّا أو ينتج نصًّا يستغلق فهمه تمامًا، فإن النظام طالب الترجمة سيكون فاشلاً. وإذا كانت الترجمة آلية، فإن تكلفة الترجمة الآلية من وإلى كل اللغات والثقافات تئول إلى الصفر، ولن تكون هناك مخاوف بشأن استقرار العلاقات مع

الثقافات الأخرى. وبين هذين التطرفين، يمكن للترجمة أن تحدد القدر المناسب من المدفوعات لبناء النظم.

هذه الفكرة يمكن طرحها من زاوية أخرى. أينما أمكنك ملاحظة نشاط متواصل للترجمة بين مجموعة محدودة من الثقافات، بوسعك أن تسأل إن كان هذا النشاط يحقق مصالح نظام. ويمكنك أيضًا أن تسأل إن كان النظام يشمل نوعًا من المبادئ الخاصة التي تستهدف التأكيد على أن الترجمة تستلزم مدفوعات مناسبة. إذا كان يمكنك رؤية مثل هذه المبادئ باعتبارها مبادئ تشتمل عليها النظريات التاريخية للترجمة، ولو بشكل جزئي، فسوف تكون لديك وسيلة هامة لتعليل كيف تغير النظريات اتجاهاتها ولمصلحة من يكون هذا التغيير.

ويرصد كيوهين ملاحظة أخرى عن النظم ومدفوعاتها. فعلى الرغم من أن النظم يتم بناؤها بغرض التعامل مع التحالفات أو التعاون في مجالات بعينها وبين أنماط بالذات، فإن حياة المؤسسات المنشأة على أساس النظام يمكن أن تمتد إلى شيء أبعد من وظيفة البداية. المثال الواضح لذلك هو نظام منظمة الناتو التي أنشئت لضمان تدفق المعلومات بين قوى الغرب المناوئة لحلف وارسو. ومن الواضح أن المدفوعات كانت كافية إلى الدرجة التي جعلت نظام الناتو مستمرًا في الوجود رغم أفول حلف وارسو. ومن الواضح أيضًا أن وظيفة المنظمة ليست هي نفس وظيفتها أثناء فترة الحرب الباردة. لكن استبدالها بنظام آخر قد يتطلب مجموعة من المدفوعات أضخم بكثير من التي تم رصدها من قبل. ولذلك تستمر الناتو.

ويمكن ملاحظة أشياء مماثلة في تاريخ الترجمة. علي سبيل المثال، ترجمة الأعمال الإغريقية إلى اللاتينية عبر العربية امتدت من القرن الثاني عشر إلى القرن الثالث عشر. لماذا؟ لأنه كان قد تأسس نظام في قشتالة لترجمة هذه الأعمال. لكن عندما أصبحت الكثير من النصوص الإغريقية المصدرية في متناول المترجمين الموجودين في إيطاليا أو القسطنطينية، كان من المنطقي أن يزول

النظام القشتالي مادام الالتفاف عبر اللغة العربية يستلزم مدفوعات أكبر (الصعوبة اللغوية وفساد النص) من الترجمة المباشرة عن الإغريقية. لكن النظام القشتالي مازال قائمًا. إن الترجمات النادرة، مثل الكتاب المِجَسْطِي(*) الذي نقله جيرادس كريمونينيسيس من العربية، استمرت مقروءة وموفرة برغم وجود ترجمات مباشرة من الإغريقية. وحتى عندما تغير اتجاه الطلب على الترجمات من الإغريقية إلى الشبكة الإيطالية حقًا وصدقًا، بقيت عناصر كثيرة من النظام القشتالي حتى جاء ألفونسو العاشر وأحيا الترجمة من العربية بعد عام ١٢٥٠. هكذا استمر نشاط الترجمة المرتبطة بطليطلة تمامًا كما استمرت الناتو.

ذكرت هذا الجانب حماية لنظرية النظام من الاتهامات الموجهة إليها والخاصة بذلك النوع من الذاتية المقرونة بها. ومع أن ذلك منطقي بكل تأكيد، إلا أن تطبيق نظرية للنظام من أعلى لأسفل سيتيح إلى جانب ذلك إمكانية تفسير الظواهر التي قد يبدو بصورة ما أنها بلا منطق. هذا يرجع جزئيًا إلى أن الصيغة النوعية للفكر التاريخي الذي تتطلبه النظم لا تكون فعَّالة إلا عند مستوى يتسم بالاستقلال النسبي عن أي طبيعة بشرية عامة (وهم القوانين الطبيعية، على الأقل كما هي موروثة من مثالية القرن الثامن عشر) ولا يحتمه بالضرورة أي سياق للسمة الثقافية (الوهم النظري النسبي الذي لا يزال مشوبًا بالوعي القومي للقرن التاسع عشر). وفي مسيرتها عبر المتاهات التقليدية، يبدو أن نظرية النظام مناسبة تمامًا للوظيفة القطرية ***Diagonal Function*** للترجمة ذاتها.

(*) دراسة في الرياضيات والفلك ألفها العالم الإغريقي السكندري بطليموس حوالي عام ١٤٨م وسماها "ماثماتيكا سينتاكسيس' Mathematike Syntaxis أي 'الأطروحة الرياضية'، وهي تعتبر حجة في الفلك الإغريقي. وقام حنين ابن إسحاق في عهد الخليفة المأمون بترجمة هذه الدراسة من اليونانية إلى العربية وسماها "الكتاب المجسطي". وقد أخذت الترجمة اللاتينية المذكورة عنوانها (Almagest) بالتمثيل الحرفي لكلمة العنوان الذي حملته الترجمة العربية. (المترجم)

الفصل التاسع

الأسباب

يعالج التفسير ***explanation*** القضية المركزية في تاريخ الترجمة: إنه يسأل لماذا تحدث الأشياء. والواقع أنه يمكننا أن نصف المنحنيات، والشبكات، والمعايير، والنظـم، وغيرها، لكن لا شيء مما نتوصل إليه من نتائج سيكون تاريخيًّا تمامًا ما لم نستطع افتراض لماذا تمت ترجمة نصوص معينة بطرق معينة. ولا شك في أن تحليلات المعايير يمكن أن تقول شيئًا عن كيفية حدوث أشياء بمعينة أثناء حدوثها، بل ويمكن للنظم أن توضح عند أي مستوى توجد بعض المحددات. لكن هذه المفاهيم تهدف، في نهاية الأمر، إلى أن تكون متسقة فقط مع ما نراه. ولكي نقول لماذا تحدث الأشياء، ينبغي علينا أن نكون مستعدين أيضًا لأن نفكر بطريقة أخرى: فبدلاً من مجرد "وصف" أو "تعليل" حقائق المستوى السطحي، ينبغي على الفكر التاريخي أن يبحث في الأسباب الحقيقية، في القوى التي تحرك التاريخ. ويتطلب تنظيرنا الموجز للنظم من أعلى لأسفل ***top-down theorizing*** طريقة تأملية صريحة في التحليل. فهو يفترض أن هناك أسبابًا حقيقية تفعل فعلها، وأن بعضها يؤدي عمله بصورة مستقلة عن تفسيراتنا.

لكن النظرية المعاصرة للترجمة تناولت قضايا السببية بصورة سيئة للغاية. والواقع أننا لا ندرك إلا إدراكًا طفيفًا أن السببية يمكن أن تكون حاسمة تمامًا. فالمناهج اللغوية المألوفة، حين تصف كيفية "ترجمة" إحدى وحدات النص المصدري، تنظر إلى هذه الوحدة باعتبارها سبب الترجمة. وفي مقابل هذه المناهج المعنية بالمصدر ***Source-side approaches***، يزعم المنظرون الأحدث بنفس الطريقة أن السبب الحاكم يكمن بالبداهة في الجانب المستهدف ***Target side***

[الجانب المنقول إليه]، فتصبح المنظومة المستهدفة السبب الرئيسي للترجمات المنقولة إليها. ولا تفعل النظريات الأخرى إلا أن تطلق قطعانها على أرض مجهولة. على سبيل المثال، يقول بعضها أن السبب الحاكم هو "طلبات الزبون" من المترجم، وأنه يتعين بالتالي تحديد أسباب طلبات الزبون، وهكذا. والمتغير في هذه الإستراتيجية المراوغة هو إحلال السببية محل الغرض أو الهدف الشخصي للمترجم، الأمر الذي يقودنا من جديد إلى سلسلة من القضايا التي تجرنا بعيدًا عن الأطر الصحيحة. وبالمثل، عندما يزعم صوت من أصوات البرّية أن هناك علاقة سببية بين عملية النقل المادي لأي نص وبين ما يفعله المترجم لاحقًا في ذلك النص، فإن عملية تصيد الأسباب لابد أن تفسر، أولاً وقبل كل شيء، لماذا تم نقل النص. وهكذا تكون قضايا السببية غير مسئولة عن تاريخ محدد للترجمة.

ومما لا شك فيه أن بعضًا من تلك النظريات المجهولة قد تكون مفيدة حين تشير، وفق مخطط تتم بواسطته تصفية بعض المحددات الاجتماعية الأساسية من خلال سلسلة من طبقات (النقل، الزبون، المترجم... إلخ)، إلى أشكال من التوسط باتت عرضة لتحولات قبل أن تؤثر فعليًا في أي ترجمة. لكن هذا لا ينبغي أن يثير فينا إلا قدرًا ضئيلاً من السعادة مادامت أشكال التوسط لم يتم التحقق منها في ذاتها. وفي الوقت الحالي، فإن المنظرين (وأنا منهم) يشيرون إلى "توصيات" أو أهداف أو "عمليات نقل" ويتركون الأمر باقيًا على حاله، على هامش نطاق خبرتنا المفترضة. ونظرًا لأن هذا قد يجعل شكل التوسط أشبه بسبب كامل في ذاته، فإن النتيجة قد تكون مضللة ربما أكثر من المحاولات المتفانية من أجل وضع جميع الأسباب إما على جانب المصدر أو على الجانب المستهدف. والنظرية المعاصرة لا تلقي الضوء على أي من الجانبين.

هذا الوضع المربك للأمور سيكون سببًا كافيًا لإلقاء نظرة ثانية وطويلة على قضية السببية المثيرة. وأنا، في هذا السياق، لست معنيًا على الإطلاق بالدفاع عن أي معسكر ضد أي معسكر آخر. فما يهمني هو فكرة أن كل طرف قد يكون محقًا

إلى حد ما. لكن هناك عوامل كثيرة تشملها الترجمة لدرجة يترجح معها أن السببية انتشارية وتعددية أكثر منها ارتكازية ووحدوية ***unitary***. وبطبيعة الحال، فإن هذا يعني أيضًا أن كل طرف قد يكون مخطئًا إلى حد ما، خصوصًا فيما يتعلق بالجوانب التي يجري بحثها الآن، مثل الأسباب المادية الجوهرية (الألفباء، الورق، الآلة الطابعة، أجهزة الكمبيوتر)، والأولويات في أجندات المترجمين البشريين (أجل، فهذه أسباب مزدوجة ثقافيًا إلى أقصى حد). ويمكن أن يقال الكثير عن مد شبكتنا كأوسع ما يكون، وفتح قضية السببية لأوسع مدى ممكن من التجاوب.

هذا يمكن أن يحدث إن أتيح لفكرة السببية قدر من التنظيم المنهجي. وأنا أعتذر لأنني أعتزم أن أفعل هذا بالرجوع إلى أرسطو، لا باعتباره سلطة نهائية ولكن باعتباره مؤلف قائمة مرجعية صغيرة ومفيدة تشمل أربعة أنواع من الأسباب. ولا شك أن إحياء ما هو قديم بشكل اختياري ليس أمرًا صدفيًا تمامًا. فربما كان أرسطو، وهو يفند الاختزالية القبل- سقراطية لسببية عناصر أولية مثل النار والماء، في ذات الوضع الذي نحن فيه ونحن نفند اختزال كل شيء إلى أولية النصوص المصدرية والمنظومات المستهدفة (المنقول إليها) وما شابه. ولعل رؤيته الواسعة توضح شيئًا ما تغاضت عنه النظرية المعاصرة للترجمة.

السببية المنظومية والسببية الاحتمالية

قبل أن يصبح النقاش نظريًا تمامًا، دعوني أعطي مثالاً عمليًا لمسألة لماذا ينبغي الانتباه بشدة إلى قضايا السببية. في تعليقات إشلوسر ***Schlösser*** الواردة في ثبت مراجعه عام ١٩٣٧ للترجمات الألمانية من الإنجليزية (وقد تم مناقشة هذا الأمر في الفصل الثالث)، جرت ملاحظة ومناقشة الجوانب التالية بطرق سببية واضحة:

• كان ثمة نحو خمسين طبعة لترجمات بايرون ***Byron*** الصادرة بالألمانية في الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩٠٥، تتضمنها قائمة مصقولة منفصلة.

ولا يرى إشلوسر أي سبب مقنع لهذا (*1937 : 48*).

• نحو ٤٠ بالمئة من ترجمات الأدب الإنجليزي قامت بترجمتها نساء، على حين أن ٢٠ بالمئة فقط من المؤلفين من النساء.

ويعزو إشلوسر هذا لواقع أن الترجمة "نشاط توالدي ***Reproductive*** في الأغلب الأعم" (*146*).

• الترجمات الألمانية لمؤلفين إنجليز معاصرين تصل إلى حدها الأدنى عام ١٩١٨ والأعوام التالية له مباشرةً.

ويفسر إشلوسر ذلك بأن الناشرين الألمان أمضوا وقتًا طويلاً لبناء صلاتهم الدولية عقب الحرب. لاسيما وأن المادة ٢٩٩ من معاهدة فرساي(*) ألغت الحقوق التي تم إقرارها في جميع الاتفاقيات الدولية السابقة على الحرب (*29*).

• الطبعات الألمانية لنصوص اللغة الإنجليزية (أي التي بدون ترجمة) ظلت مستمرة ثابتة تقريبًا خلال نفس الأعوام.

وتفسير إشلوسر لهذا هو أن الناشر توهنتس ***Tauchnitz*** كان قد اتخذ منذ فترة طويلة سياسة النشر لمؤلفين محدثين ولكن مرموقين، وأنه لم يكن هناك ما يدعو لأن تتأثر هذه السياسة بالحرب (*29*). ويعتبر نجاح السياسة بدوره مؤشرًا إلى أن مجموعة القراء ظلوا ثابتين تقريبًا على مر السنين (*33*).

(*) المقصود معاهدة الصلح التي تم توقيعها في قصر فرساي (فرنسا) عام ١٩١٩م بين الحلفاء من جانب والطرف الألماني المهزوم من الجانب الآخر، والتي تم بمقتضاها تحميل ألمانيا مسئولية الحرب وفرض عقوبات عسكرية وأخرى مالية (تعويضات) عليها. (المترجم)

يتم هنا استدعاء مختلف أنواع الأسباب. وفي الحالة الاستثنائية لترجمات بايرون. قد لا تكون هناك مطلقًا سببية أساسية واضحة وفعالة. ربما كان هناك العديد من المترجمين يجاهدون من أجل تحقيق أهدافهم الخاصة، وربما يكون تضافر هذه الأهداف قد أوجد نوعًا من الجشطالت(*) (المنافسة ***Competition***، التوتر ***Tension***، المؤازرة ***Synergy***، المظهر ***Fashion*** وغير ذلك)، فقد كانت أوضاع استقبال الترجمات تصل إلى حد أن جميع المخطوطات تجد ناشرين. وقد لا يجد إشلوسر أي دافع للمصدر (لماذا بايرون؟)، ولا أي تفسير مقنع للفترة (لماذا في ١٩٠٠-١٩٠٥؟). ونحن نقول في مثل هذه الأحوال أن الظاهرة تبدو غير دالة، على الأقل إلى حين أن نقوم برصد معلومات أخرى قد تجعلنا قادرين على إسناد قدر أكبر من السببية الأكثر أهمية. ولكن يتعين عليك، مع ذلك، أن تلاحظ أن الطريقة السببية في التفكير هي وحدها التي يمكنها أن تلمس معنى "التضافر" وربما الحاجة إلى معلومات إضافية.

في حالة المترجمين من النساء، كان ينبغي على إشلوسر أن يقر بجهله بصورة مماثلة. فلماذا ينبغي أن تكون الطبيعة التوالدية للترجمة شيئًا مهمًّا؟ لأن الكثير من المترجمين من النساء. ولماذا كان الكثير من المترجمين من النساء؟ لأن الترجمة، كما قيل لنا، نشاط توالدي. لكن، حتى لو كان جميع المترجمين رجالاً، لكان الأرجح أن تظل الترجمة نشاطًا توالديًا، فهذه الحقيقة لم تعد سببًا أو نتيجة مباشرة لأي شيء. إن السببية الوهمية الموصوفة هنا ليست سوى حالة افتراضية، على الأقل إلى حين أن يكون لدينا إلمام ولو طفيف بمسألة لماذا كانت هناك معايير معينة للترجمة مناسبة تمامًا للنساء في ذلك الزمان والمكان بالذات.

(*) الجشطالت gestalt: كلمة ألمانية تعني- كمصطلح- ترابط الظاهرة. فالظاهرة، سواء أكانت طبيعية أم بيولوجية أم سيكولوجية، أم كانت غير ذلك، تشكل وحدة وظيفية واحدة لها خصائص نوعية تختلف عن حاصل جمع خصائص أجزائها المكونة. (المترجم)

إن العلاقة بين عدم الترجمة ومعاهدة فرساي أقوى بشكل واضح من أي ادعاء خاص بالنساء. وهي تبدو أيضًا دافعًا منطقيًا أدعى لعدم ترجمة المؤلفين الإنجليز إلى الألمانية بعد عام ١٩١٨: أفلم يكن لدى الألمان، بعد أن حاربوا وخسروا الحرب، دافع قوي لأن لا يكونوا متحمسين جدًا للأدب الإنجليزي المعاصر؟ ولنلاحظ أن الفرنسيين كان لديهم اهتمام أقل نسبيًا بترجمة الأدب الألماني المعاصر في السنوات التي أعقبت عام ١٨٧١ (انظر شكل ٧ الفصل الخامس). وعلى أية حال، فنحن لدينا، في هذه الحالة بالذات، طريقة غير مباشرة لاختبار هذه الفرضية السببية بشكل واضح. فإن واصل الألمان قراءة الأدب الإنجليزي غير المترجم بدون تغير ملحوظ، فلابد أنه لم يكن هناك حقد شديد يمكن عزوه إلى حرب ما. وبطريقة الحذف، فإن سبب الانخفاض في الترجمات لابد أن يكون معاهدة فرساي. أو سيبدو الأمر كذلك.

لكنه يمكننا أن نقول لماذا لم تتعرض النصوص الإنجليزية غير المترجمة للاتفاقيات الدولية بنفس الصورة التي تعرضت بها الترجمات؟ وهل في وسعنا أن نزعم أن قراء النصوص غير المترجمة كانوا في نفس "ألمانيا" التي كان فيها قراء النصوص المترجمة؟ وهل كانت المجموعتان الاجتماعيتان المذكورتان معنيتين؟ إن لم يكن الأمر كذلك، فكيف يتأتى لفرضية تتعلق بالنصوص غير المترجمة أن تحذف أي سبب في جانب النصوص المترجمة؟ وبصورة أوثق صلة بموضوعنا، لماذا ينبغي علينا أن نبحث عن سبب مباشر واحد دون سواه – معاهدة فرساي – بدلاً من سلسلة من الأسباب المتوافقة، بما في ذلك الأسباب التي قد لا تكون مريحة تمامًا عندما يتأملها عالم ألماني في اللغة الإنجليزية وآدابها مثل إشلوسر؟

إن إسناد السببية أمر صعب ودقيق. لكن تاريخ الترجمة في مقدوره أن يجاهد من أجل تذليل هذه الصعوبة. وربما استجابةً لهذه الصعوبة، ابتدعت دراسات إمبريقية حديثة منهجًا موجهًا للسببية، موجهًا جدًا في الواقع حتى أن المصطلح نادرًا ما يطل برأسه القبيح. وبرفض إقرار أي فارق جوهري بين العلوم

الإنسانية والعلوم غير الإنسانية، استطاعت المناهج الأكثر منظومية أن تحذو حذو الاتجاهات العلمية العامة لعصرنا. وهذا الأمر يشمل نتيجتين مترابطتين.

النتيجة الأولى هي أن الإمبريقية المنظومية تميل إلى وضع جميع الأسباب على مستوى واحد. فالأشياء المختلفة جدًّا مثل أولويات الاختيار عند المترجمين، والطبيعة التوالدية للترجمة، وتعاقدات النشر، ورد الفعل الجماعي للهزيمة في زمن الحرب، تصبح على هذا النحو سلسلة من الفرضيات كل منها عرضة لنفس النوع من الاختبار الإمبريقي. وفي النظرية الأساسية للمنظومات، تكون السببية أمرًا من أمور التبعات الثابتة والمتغيرات الملازمة. على سبيل المثال، حين نجد أن كل أمة تترجم عددًا أقل من الأعمال بعد أن تكون قد منيت بالهزيمة في الحرب، فإننا نرجع ذلك إلى عاقبة ثابتة (الهزيمة)، ثم إلى الترجمات الأقل. وقد يقول قائل إن الواقعة الأولى هي سبب الثانية. وفيما يتعلق بالمتغيرات الملازمة، فإننا نلاحظ أنه في كل مرة يكون فيه انخفاض عدد الترجمات بين بلدين يكون هناك انخفاض متزامن في إجمالي حجم التجارة بين هذين البلدين. وقد يوحي هذا بوجود علاقة سببية بين الترجمة والتجارة.

لكن هذا النوع من التفكير ضعيف جدًّا في الشروط العملية للاتفاقيات. فبادئ ذي بدء، ليس في وسع أحد أن يكون على يقين من أي عملية توجيه سببي. فهل التجارة تقل لأن الترجمات قلت، أو تقل الترجمات لأن التجارة قلت؟ إن عملية التوجيه أمر مشكوك فيه حتى في حالة التبعات الثابتة: فإذا كانت هناك تبعات ثابتة حتى عند انخفاض الترجمات قبل الحرب مباشرة (وليس بعدها)، فهل يتعين أن نقول أن قلة الترجمات أدت إلى الحرب؟ أو أن الترجمات قلت لأن الناس ظنوا أن الحرب قادمة؟ لا شيء في هذا النوع من التحليل بوسعه أن يحدد الروابط الحقيقية التي من خلالها يفضي A إلى B. فإذا كانت الهزيمة في الحرب تفضي إلى الحد من الترجمات، فلابد أن تكون في أي حدث، بفضل نوع ما من السلوك النفسي الجماعي أو الإستراتيجية الثقافية الجماعية، سلسلة من العوامل C وD وE التي لم

تبينها ملاحظتنا. وفي الحقيقة، ليس ثمة ما يضمن أن ما نلاحظه في كل من *A* و *B* (الحرب والترجمات) نتائج غير منفصلة كان المتسبب فيها بصورة مستقلة عامل غير منظور *C* (أزمة اقتصادية مثلاً)، وبالتالي فليست هناك سببية مباشرة تربط بين الأحداث التي يبدو أنها تعطي تبعات ثابتة أو تغيرات ملازمة. ففي العلوم الإنسانية، بوسعك أن تجري كل الاختبارات التي تريد إجراءها، لكنك نادرًا ما تكون على يقين من أنك حصلت على شيء يشبه السبب الصريح والمباشر وليس الحيادي لأنك نفسك قد تكون أحد أسباب ما تلاحظه.

والنتيجة الثانية للإمبريقية تترتب على هذه الشكية. فنظرًا لأننا نستطيع أن نصف المظاهر دون أن يكون بوسعنا أن نعرف حقًّا الأسباب المباشرة، فإن الشكوك الناتجة عن فرضياتنا لا يمكن أن تكون مفيدة حقًّا إلا بالاحتكام إلى العلاقات الترجيحية ***Probabilistic***. ويتضمن هذا القول أنه لا يمكن حذف أي سبب محتمل بدعوى أن بعض الأسباب أرجح من الأسباب الأخرى. وقد سجل خيديون توري المبدأ في صياغته الأساسية للقانون على النحو التالي: "إذا كان المحذوف هو *X*، فإن الأكثر /الأقل رجحانًا هو *Y* " (*1995 : 265*)، ويمكنك أن تضيف إلى *Y* كل أنواع المتغيرات الخاصة بالحالات والاحتماليات النسبية. لكن هذه الإضافة تعطينا في بعض الحالات "قوانين" أهميتها غير واضحة بصورة مباشرة[1]. وتستخدم في حالات أخرى يكون هناك نوع من سببية عامة بصورة مكشوفة وتنبئية بصورة ضارة؛ فهي توحي بطبيعة بشرية عاقلة لا ينقصها إلا أن تترك لحالها لكي تحدث نوعًا معينًا من المستقبل.

بعض هذه الفرضيات ممتعة بشكل حقيقي رغم ذلك. على سبيل المثال، يرى توري (إذا جاز لي أن أعيد الصياغة) أنه إذا اعتبرت الثقافة *A* أن الثقافة *B*

---

(١) على سبيل المثال، يفترض توري أنه "كلما روي تجميل النص، باعتبار أن ذلك عنصر من عناصر ترجمته، كلما زاد توقعنا بأن يتضح في النص المترجم قدر من التدخل" (1995 : 276). أجل، ولكن من أي باب آخر يمكن أن يجيء التدخل؟

أكثر وجاهة منها، فإنها سوف تميل إلى قبول الترجمات النصية والحرفية ***Calques and literalist*** ("تدخل") من تلك الثقافة (*1995 : 278*). يبدو هذا منطقيًا تمامًا، بل وحصيفًا جدًا (فنحن نحاكي الذين نعجب بهم، وذلك نظرًا لأنه من غير المعقول بكل تأكيد أن نحاكي الذين لا نعجب بهم). لكن هل تعتبر هذه العلاقة سببية حقًا؟ إن كنت ترى ذلك، فلابد أن الذين يقبلون الترجمات الحرفية أناس يعتمدون في معرفتهم للثقافة الأجنبية على التوجهات الأجنبية في المقام الأول. فإذا كانوا يرون أن تلك الثقافة تتسم بالوجاهة، فإن الوجاهة نفسها قد يكون سببها أسلوب إعداد تلك الترجمات. وبهذا، فقد تكون الحرفية والنصية هما سبب الوجاهة النسبية وليس أي شيء آخر. وإضافة لذلك، لماذا يتعين على الحجم النسبي للثقافات أن تلعب دورًا سببيًا في مثل هذه العلاقات؟ فإذا كانت الثقافات ذات الوجاهة تميل لأن تكون أكبر حجمًا (هذه ليست قاعدة، ولكن دعنا نتخيل) وكان باستطاعتنا أن نفترض أنه كلما كانت الثقافة صغيرة كلما كانت نسبة أعمالها المترجمة إلى أعمالها غير المترجمة أعلى (كما سبق القول في الفصل الرابع)، فإننا قد نكون في حاجة إلى أن نطور قانون توري على النحو التالي: "كلما كانت الثقافة أصغر كلما كانت ميالة إلى قبول الترجمات الحرفية والنصية ("تدخل") من الثقافات الأكبر"، وهكذا دواليك. فأي عدد من القوانين الافتراضية يمكن طرحها. لكننا لا يمكن أن نصل إلى مكان في سلسلة الاستنتاجات المنطقية أبعد من النتائج الثابتة، والتغيرات الملازمة، وملحقاتهما الترجيحية. سنضع كل الأسباب في مستوى واحد، لكننا لن نستطيع أبدًا أن نعزل سببًا مفردًا؛ ولن نكون على يقين من أننا رأينا جميع الأسباب وثيقة الصلة. والأسوأ أن نختتم في نهاية المطاف بسلسلة قد تكون لا نهائية من الفرضيات الخاصة بما يحتمل أن يحدث في هذا أو ذاك الموقف، ولكن لا شيء يمكنه أن يقول لنا مَن أو أي شيء مسئول عما حدث، ولا- بطبيعة الحال- ما هي الأخلاقيات الخاصة بما يجب أن يحدث.

أنا لست راغبًا في إنكار قيمة البحث عن كل أنواع السببية الترجيحية والسببية التنبئية. لكن قبل إحداث أي تغيير في مجرى الكون، من الخير أن يكون لدينا ما وسعنا من المعرفة عن كل ما يحتمل أن يحدث. ومع أن الماضي ليس دائمًا مرشدًا معصومًا يقودنا إلى المستقبل، إلا أن الهدف النهائي لتاريخ الترجمة ليس بالضرورة أن يقدم لنا معالم أحادية الأبعاد بغض النظر عن عدد الظلال الرمادية التي أحدثتها. فالقوانين الترجيحية لا ينبغي خلطها بالذهب. أما الذهب، تلك البنية الفعلية من أجل المستقبل، فإنه هو أيضًا يمكن أن يكون مزودًا برؤية سببية مختلفة إلى حد كبير.

أرسطو

ميز أرسطو بين أربعة أسباب. وطبقًا للشروح المعيارية، فإن ابتداع تمثال من الرخام هو "السبب المادي"، وابتداع موضوع جميل هو "السبب النهائي"، وابتداع موضوع بالسمات المميزة للتمثال هو "السبب الصوري"، والنحات هو "السبب المؤثر" (*Metaphysics 1, 3*). لكن المراجع أخذتنا بعيدًا جدًّا. لقد كانت المقولات الأربع مستخدمة في مباحث الشعر في العصور الوسطى (*Minnis 1988*) ثم استمرت تمارس دورًا معينًا في علم الجمال. لكن العلم الإمبريقي لم يرغب في شيء من هذا. فقد اختزل المقولات الأربع، كما رأينا، إلى مقولة واحدة فقط، دون أي تمييز بين ما تتيحه قطعة الرخام أو ما يفعله المبدع أو ما هي الأدوار المحددة لكل من المعايير والقيم. وعلى أية حال، إذا حاولنا الإبقاء على مقولات أرسطو وتطبيقها على الترجمة، لكانت النتيجة أشبه بما يأتي:

- السبب المادي أو الأولي (*Causa Materialis*): كل شيء سابق على عملية الترجمة وضروري لإنجازها؛ النص المصدري (المفترض)، اللغة، تكنولوجيا الاتصالات، وغيرها.

• السبب النهائي (*Causa Finalis or Causa ut*): الغاية التي تبرر وجود الترجمة، قيمتها الاستعمالية *its utilitas*، بغض النظر عن كون هذه القيمة وظيفة وضعية في إطار الثقافة المستهدفة أو في إطار الشكل الأمثل للعملية القصدية.

• السبب الصوري أو الشكلي (*Causa Formalis*): المعايير التاريخية التي تتيح للترجمة أن تكون مقبولة كترجمة، بغض النظر عن فاعل القبول (الزبون، المتلقون، المترجمون، مترجمون آخرون).

• السبب المؤثر (*Causa efficiens or causa quod*): المترجم، سواء أكان فرديًا أو جماعيًا، وكل شيء يميز الوضع الكلي للمترجم.

الأسباب الأربعة تعطي للصورة، على الأقل، أبعادًا أكثر من تلك الأبعاد التي أخذتها من معظم طرائق النظر الإمبريقية. وبطبيعة الحال، قد تكون هناك أكثر من أربعة أسباب، وقد تكون هناك أقل، فهذا الأمر يعتمد على الطريقة التي تريد أن تقطع بها الكعكة. لكن أرسطو كان لابد أن يذكرنا بأن كل ترجمة تتطلب هذه الأشياء على الأقل: تكنولوجيا لإنتاج النصوص، ونصًا مصدريًا (مفترضًا)، وغاية الترجمة الناجزة، وفكرة ما هي الترجمة، ومترجمًا (حقًا لقد صارت الأربعة خمسة فعلاً). وإذا حذفت أيًا من هذه الأسباب، فلن تكون هناك ترجمة. ونظرًا لأن كل هذه الأسباب حتمية، فلا ينبغي أن نطرح أي قضية عند النظر إلى أحد العوامل باعتباره "سبب" الترجمة.

لقد شهد التاريخ الحديث لنظرية الترجمة تحولاً من نوع ضيق من الأسباب الأولية (أساسًا النصوص المصدرية والمنظومات اللغوية الخاصة بالمناهج اللغوية) إلى أسباب نهائية (المنظومات والمستقبلون في الجانب المستهدف). كما تم إيلاء قدر من التركيز على الأسباب الصورية المتجسدة في المعايير، لكن هذه الأسباب قد اختلطت بدون موجب مع الأسباب النهائية بفضل الادعاد الأعمى بخصوصيتها

الثقافية. ونظرًا لأن النظريات الحديثة لم تبق إلا حيزًا صغيرًا وغاليًا للبشر، لم يجر من الناحية العملية مراعاة للأسباب المادية اللالغوية ولا للأسباب المؤثرة.

وتحاول الملاحظات التالية تقويم قدر من هذا اللاتوازن. وسوف أشدد على عجل على الأهمية الجوهرية للأسباب المادية من خلال إعادة بسط نظرية نقل المادة؛ وأقدم نقدًا مختصرًا للتركيز على الأسباب النهائية بقدر تأثيرها على نظرية المنظومات ونظرية الفعل القصدي؛ وسأقدم ملاحظات قليلة حول المعايير والشعوذة كأسباب صورية؛ وبعد أن أطرح دورًا سببيًا حقيقيًا للمترجمين ولموقعهم المزدوج ثقافيًا، سوف أناقش هذا الأمر بشيء من التفصيل في الفصل التالي.

النقل بوصفه سببية مادية

أي بحث عن السبب المادي للمترجم لابد أن يدقق في النص المصدري، وربما في لغة المصدر، ومن المحتمل جدًا في اللغة المستهدفة أيضًا، ذلك لأن اللغة المستهدفة (المنقول إليها) هي بدورها مادة خام لا نملك حيالها شيئًا، فهي شديدة الشبه بالرخام الذي يبتدع منه النحات تمثالاً. وبالنسبة للمنهج اللغوي للترجمة، يمكن لكل هذه العوامل أن تكون أسبابًا مادية. لكن هذا لا يجرنا بعيدًا عن التحليل المقارن للنصوص. أما البقية – وهناك أسباب أخرى كثيرة تخص التاريخ – فإنها، كما يبدو، في حاجة ماسة إلى نظرة أوسع.

أرسطو يرى أن التغير يحدث في المقولات الأربع: المادة (البناء والهدم)، والكم (الازدياد والنقصان)، والكيف (التبدل)، والمكان (الحركة) (***Physics; 200b.33***)؛ (***Categories 15a. 13***). والترجمة تستجيب، أولاً، للتغيرات في المكان، وهي المقولة الخاصة بعمليات نقل الموضوع ***Object Transfer*** وعمليات نقل الذات ***Subject Transfer***. ومع أن هناك قيودًا من كل الأنواع على كل من المرونة النسبية ونقاط التفجير الدلالي ***Semantic rupture*** للنص، فإن النص يتغير

في الكيف لأنه يتحرك عبر المكان والزمان. ولذلك فإن الترجمة يمكن رؤيتها بوصفها طريقًا لإدخال تغيير كيفي بعيد المدى لمجابهة التغير في المكان أو الاستفادة من هذا التغير. فإذا كان النص العربي قد أصبح مبهمًا لأنه تحرك إلى وسط القراء اللاتينيين (السبب الأولي هو التحرك المادي)، فإن الترجمة إلى اللاتينية ستحاول أن تقلل من الإبهام الناتج عن ذلك التحرك (فالطبعة اللاتينية ستكون بشكل عام مفهومة بصورة أكبر). وبذلك، فإن الترجمة، في آن واحد، تغير كيفي في ذاتها واستجابة لتغير في المكان. إنها تستلزم التحرك على مستوى عملية النقل.

وفي إطار هذا المشروع المحدود، يمكن القول بأن التغير الواحد يفسر التغير الآخر. لقد تُرجم النص لأنه تحرك أو لأنه سيتحرك. وحتى إذا جاءت الحركة في التسلسل الزمني بعد فترة الترجمة، فإن التغير في الكيف مازال يتطلب تغيرًا في المكان. وليس العكس بالعكس. ويمكننا أن نقول، بافتراض حدوث التغيرين، أن التغير الخاص بالكيف سببه التغير في المكان. أو، بوضوح أكبر، أن الترجمة سببها النقل المادي (تغير المكان)، مما يجعل عملية النقل سببًا ماديًّا أو أوليًّا بغض النظر عن الوضع الواقعي للأحداث.

تأمل الحالة التي يكون فيها النقل المادي والترجمة قسمين من عملية واحدة. في وسعنا أن نقول أن الكلمة اليونانية ***Almagest*** تمت ترجمتها إلى اللاتينية عام ١١٦٠ لأن أحدًا حرك المخطوطة المصدرية إلى صقلية ***Sicily***. فإذا لم تكن المخطوطة قد تم تحريكها لما تمت ترجمتها. لكن قليلين سيعتبرون أن هذا تلبية لسبب تاريخي. لكن من المنطقي أن يطلب المرء معرفة لماذا تم تحريك المخطوطة إلى صقلية. الجواب هو، بطبيعة الحال، "لكي تتم ترجمتها". لقد تمت ترجمتها لأنه تم تحريكها، وتم تحريكها لكي تتم ترجمتها. لكن هذا لا يبتعد بنا كثيرًا. ويمكن، على أي حال، إجراء تمييز جيد بين الجانبين المعنيين. فعندما نقول إن نصًّا تم تحريكه ومن ثم يمكن أن يترجم، فإننا نصف الترجمة بوصفها السبب النهائي

للتحرك. وعندما نقول أن النص تُرجم لأنه تم تحريكه، فإننا نتحدث في الواقع عن سبب مادي أولي جدًّا، عن تغير كان قد حدث قبل الترجمة يمكن مواصلته. فقد كان يتعين أن تكون النصوص حاضرة قبل أن تتم ترجمتها. لقد كانت الترجمة هي السبب النهائي (الغائي) للتحرك، وكان التحرك هو السبب المادي للترجمة.

الأسباب المادية تشبه أحيانًا الجانب الأقل تماسًّا بالحياة. فهي تتعلق بالشروط الضرورية ولكن غير الكافية، فليس بوسعها أن تخبرنا شيئًا كثيرًا عما تفعله الترجمة حقيقةً، إنها بكل تأكيد مادة الآركيولوجيا المدفونة في تفاصيل الأحداث التاريخية والمخطوطات. على أننا لو ألقينا نظرة إلى التاريخ على النطاق الزمني الواسع، فإننا نجد الأسباب المادية بين العوامل البعيدة المدى والأكثر عمقًا التي يتغياها الإنسان. على سبيل المثال، تحرّك أسلوب صنع الورق غربًا من الصين، وصولاً إلى بغداد قبيل افتتاح "مدرسة المترجمين" هناك في القرن التاسع، ثم إلى هيسبانيا المسيحية قبيل ظهور ترجمات القرن الثالث عشر والتي ارتبطت بمدرسة عظيمة أخرى هي "مدرسة" ألفونسو العاشر. والورق لا ينتج الترجمات. لكن صنّاعه ساهموا في حدوث بعض التغيرات المهمة في تاريخ الترجمة.

قد تكون الأسباب المادية مهمة في نطاق ضيق جدًّا من الروابط الأساسية في أي نوع من أنواع شبكات النقل. تأمل في الروابط التي افترضها فيرنت ***Vernet*** (١٩٨٤) حين أوحى بكل جرأة أن ١٢٦٥ خسوفًا للقمر قد شوهدت بشكل متزامن وبنفس الصورة في كل من الصين ومصر وطليطلة. ولكي يعزز قوله، كان عليه أن يثبت أن المعارف الصينية قد انتقلت إلى الفلكيين المسلمين الذين كانوا يعملون في كنف المغول، وأنها تحركت بعد ذلك من مصر إلى قشتالة عن طريق تبادل السفارات بين ألفونسو العاشر والمملوك المصري السلطان بيبرس (انظر أيضًا: ***Samsó 1987***). حقًّا إنها فرضية تخلب العقل. لكن، حتى إن كانت الروابط المادية يمكن إثباتها، بالتواريخ المرتبة ترتيبًا زمنيًّا صحيحًا والفترات الكافية التي تتيح غزو المناطق النائية، فإن هذا الاستنتاج لم يعد يعني إلا السببية المادية الخاصة بالآركيولوجيا. ويتعين على المرء أيضًا أن يجد الأسباب الفعالة والنهائية

التي تفسر عملية النقل في الشروط التاريخية بحق. فمن الذي أراد لعمليات النقل هذه أن تحدث؟ ولأي غرض نهائي؟ إن تحديد هوية الأسباب المادية يمكن أن يبين أن الحركات كانت ممكنة؛ ويجب أن تبين الأنواع الأخرى من الأسباب أنها كانت متوقعة أو مفهومة لدى الناس بطريقة ما. لكن الأسباب المادية ليست كل شيء.

الأسباب النهائية في نظريتي المنظومات والأفعال القصدية

السببية السطحية التي قد تكون موجودة في المناهج المرتكزة على منظومات تقابلها بصورة جزئية نظريات للترجمة مرتكزة على الأفعال القصدية ***Actions***. ومن الملائم، واليسير أيضًا أن نرجع تاريخ هاتين النظريتين الأخيرتين إلى كل من هولتس- منتاري ***Holz-Mänttäri*** (*1984*) وريس ***Reiss*** وفيرمير ***Vermeer*** (*1984*)، حيث طُرحت فرضيات تتعلق بأن الترجمة فعل غائي ***Teleological*** يؤدي مهمة التبادل المزدوج بين الثقافات (***Handlungstheorie***) [بالألمانية في الأصل، ومعناها على الأرجح: نظرية الفعل القصدي]، وأشير من منظور مختلف قليلاً إلى أن العامل الحاكم في عملية الترجمة هو هدفها ***'Skopostheorie'*** [تقريبًا: نظرية الترجمة الوظيفية]. وعلى حين أن نظرية المنظومات معنية بالترجمات بوصفها نصوصًا تحتل مواقع وتؤدي وظائف بفضل تلك المواقع، فإن نظرية الأفعال القصدية تبحث في العوامل المشاركة في إنتاج الترجمات، تلك الترجمات التي تتحدد وظيفتها لا من خلال الموقع النهائي ولكن من خلال الغائية المتجسدة بطريقة أو أخرى في الفعل القصدي ذاته. والواقع أن معظم نظريتي المنظومات والأفعال القصدية متقاربة ظاهريًا حتى أن منظري المنظومات يرون أن لمواقع المنظومة المستهدفة ميزة، على حين أن منظري الأفعال القصدية يرون الهدف الحاكم على ضوء الوظيفة التي يراد أن يؤديه النص. ومع أن مفاهيم الوظيفة متباينة تمامًا، إلا أن هذا الموقف المشترك تقريبًا قد يسمح للمنهجين أن يتداخلا في نواح معينة: ففي كلتا الحالتين تكون السببية في جانب الهدف من عملية الإنتاج. إنهما من نظريات الأسباب النهائية. وكلا المنهجين يعاني من نقاطه المظلمة.

فيما يتعلق بنظرية المنظومات، يجيء التصريح المباشر من جانب توري بمثابة ثقب كبير في ثوب هذه النظرية(*) حين يقول "الترجمات هي مظاهر الثقافة [وهي ما أطلق عليه سابقًا "المنظومة"](**) التي تستضيفها" (٢٤: ١٩٩٥). فمن أجل أغراض النظرية – أو بقدر ما تسمح لنا النظرية أن نرى – فإن الثقافة يجب أن تتضمن الترجمات، ذلك لأن السبب الأساسي للترجمة هو موقعها داخل الثقافة المستهدفة. وفي اعتقادي أن هناك – على الأقل – ثلاث مشكلات واضحة جدًا في هذه المنهجية.

فأولاً، يقرر توري أن "أنشطة الترجمة ونتائجها" "ليس فقط تستطيع أن تحدث التغيرات السببية داخل الثقافة المستهدفة بل هي تفعل ذلك فعلاً" *(1995:27)*. وهذا يساوي قولك أن الثقافة المستهدفة، إن كانت هي السبب فيما تستقبله من ترجمات، تسبب تغيرات في ذاتها. وأنا أظن أن مثل هذا المذهب الأوناني(***) ***Onanistic*** ممكن جدًّا، خصوصًا إذا كنا نعتقد أن كل ثقافة على حدة تسير نحو قدرها الاختياري بشكل لا راد له. وهناك شيء آخر صغير يستحق الشكر في تنظير توري يدعم مثل هذا الاعتقاد. فالثقافات تولد أو تحيا أو تموت أو تصبح ثقافات أخرى كنتيجة لأسباب خارجية تمامًا في أغلب الأحيان.

وثانيًا، إذا كان لابد من قبول أن الثقافات "تلجأ إلى الترجمة بوصفها طريقة رئيسية في ملء الثغرات" *(Toury 1995 : 27)*، فإنه يتعين علينا أولاً أن نوضح كيف يمكن لأي ثقافة مستهدفة أن تدرك وجود ثغرات بها دون أن تتصل على الأقل بالثقافة المصدرية والتي ليست عندها ثغرات مماثلة. هذا يعني أن بعض

(*) التعبير الذي يستخدمه المؤلف هو "a major fly in the ointment" ومعناه الحرفي "ذبابة كبيرة داخل المرهم"، فكأن المرهم قد أصابه عيب أو فساد من جراء وقوع الذبابة فيه، لكنني فضلت استخدام التعبير المذكور كنوع من المواءمة الثقافية. (المترجم)

(**) القوسان المعقوفان [ ] وما بينهما للمؤلف. (المترجم)

(***) اضطررت هنا إلى استخدام الكلمة الأجنبية كما هي في أجنبيتها مراعاةً لتقاليدنا الثقافية ومن أراد معناها يمكنه البحث عنها في أي معجم. (المترجم)

ملامح الثقافة المصدرية ضرورية في إقرار أي مشروع خاص بالترجمة بغض النظر عمن يقوم بعملية الترجمة. فهل هناك أي منطق في أن لا يكون لثقافة المصدر دور سببي، على الأقل حين تكون هذه الثقافة باقية على قيد الحياة؟[١].

ثالثًا، هناك حالات كثيرة تساق فيها ترجمات إلى الثقافات المستهدفة أو يتم إجبارها على قبولها، بطرق مباشرة أو غير مباشرة، كما يحدث فعلاً في أي علاقة نقل ثقافي إمبريالي أو كولونيالي كما يمكن للمرء أن يسميه. رد توري هنا هو أن الفكرة العامة في الثقافة المصدرية تكاد "تلاحظ أن شيئًا ما (مفتقد) في الثقافة المستهدفة" (*27 : 1995*) وأن الثقافة المستهدفة، بفضل هذه الملاحظة، تكون، بطريقة أو بأخرى، السبب الحقيقي. هذا عبث. فإذا كان المستعمر لم يأت بحجة سد الثغرة، فإنه ما كان يمكن إدراك الثغرة وبالتالي ما كان ليحدث ترجمة. ومنذ قرون عديدة، سنت المملكة الإسبانية قوانين بشأن كيفية إجراء الترجمة في المستعمرات الإسبانية، بما في ذلك الطرق التي يتم بها نفي المترجمين أو إعدامهم إذا لم يخضعوا للقوانين (***Gargatagli Brusa 1996***)، ويتعين علينا الآن أن نقول لهم أنهم لم يكونوا في الواقع متحكمين في أي شيء بالمرة! بل وأن هناك أسبابًا جوهرية

---

(١) قد توحي القراءة الساذجة لتوري بأن الثقافة المستهدفة تدرك ما هي الترجمات التي هي في حاجة إليها حتى قبل أن تصل إليها. لكن وظيفة أي ترجمة ناجزة لا يمكن معرفتها بدقة إلا بعد أن تصبح الترجمة موجودة. وفي الواقع، لو أمكن معرفة هذه الوظيفة قبل أن تصبح الترجمة موجودة لما كان هناك ما يبرر الترجمة أصلاً. هذا لأن المترجمين، خصوصًا أولئك الذين لهم أقدام راسخة في الثقافة المستهدفة، يمكنهم أن يتجاهلوا ليس فقط النتائج الدقيقة لعملهم ولكن أيضًا الطبيعة الدقيقة للمعلومات التي يترجمونها. وعلى سبيل المثال، لا يلام المترجمون اللاتينيون الذين كانوا يترجمون في القرن الثاني عشر نصوصًا علمية من العربية لعدم فهمهم الكثير من فقرات النصوص المصدرية؛ فلو أنهم فهموها، لما كان هناك بالأحرى مبرر لنقل هذه المعارف، ولكانت هذه المعارف موجودة فعلاً في اللاتينية. وبصفة عامة، لو أن ذاكرة الثقافة المستهدفة جيدة بحيث يمكنها التنبؤ بالتغيرات التي يمكن أن تنتج عن إدخال معرفة جديدة داخل ثقافتها، لكان في مقدور هذه الذاكرة أن تدخل المعلومات بصورة مباشرة وأفضل دون اللجوء إلى الترجمة.

للتشكك في هذا التلطيف غير المقصود في العلاقات الثقافية القائمة مع بلدان أخرى(١).

إن تطبيق نظرية الأعمال القصدية على الترجمة كان مثمرًا جدًّا في نتائجه بصورة تدعو للعجب، بل وربما كان أكثر فائدة من التوصيفات المنظومية المباشرة. ذلك لأنه، على عكس إمبريقية توري، سرعان ما أدى إلى تعقيد أهداف التنافس الذي استلزم مستوى أعلى من تنظيم الأفكار، شيئًا أفضل من نظرية الفعل القصدي. فدعنا نتسلل خطوة خطوة نحو هذه الظاهرة (سائلين العفو مرة أخرى عن وضع كل من نظرية الترجمة الوظيفية ***Skopotheorie*** ونظرية الفعل القصدي ***Handlungstheorie*** في سلة واحدة: فاختلافاتهما لا تتواكب في الواقع مع أهدافنا الحالية).

الترجمة التوقعية ***Translation-to-be*** لها سبب نهائي، غرض (***Skopos*** إن أردت)، بمعنى أنه يتعين عليها أن تؤدي وظيفة خاصة بجماعة محددة من الناس في زمان ومكان محددين على الجانب المستهدف. وإذا كان هذا السبب النهائي حاكمًا، فلابد له أن يحمل حملاً أثقل مما تحمله الأسباب الأولية الحالّة في النص المصدري أو الموجودة حواليه. وكما قال هولتس- منتاري، فإن نظرية الفعل القصدي تتخطى جميع المحاولات الميكانيكية التي تقول لنا "إذا كان هناك ***X*** في النص المصدري، إذن فإنها تكون ***Y*** في النص المستهدف" ***(1990 : 71)***. ومهما

---

(١) مع أن توري لم يكن متخلصًا من عيب مماثل، إلا أن هذا العيب ظل منتشرا على نطاق واسع. فالباحثون حين كانوا يعتقدون أن الأسباب النهائية حاكمة من الناحية الواقعة في شكل خصائص القراء، فإنهم كانوا يحاولون إعطاء تعريف للقراء على أساس السمات النصية (على سبيل المثال، كان يتم اختيار سياق معين في الترجمة بدعوى أنه يعبر عن نوع معين من القراء). هذا الأسلوب يسود نصوص العصر الوسيط بوجه خاص حيث تكون الترجمة أحيانًا هي المعرفة المتاحة الوحيدة عن هذا العصر (هناك مثال واضح في: Cherewatuk 1991). إن ما يحدث هو، بطبيعة الحال، أن سمات النص منسوبة بصورة منهجية إلى القراء، لذا يصبح القراء آليًا السبب الوحيد المقبول ظاهريًا للسمات. لكن لم يجر إثبات أي علاقة نظرًا لأن العلاقة التي تم افتراضها قد لا يمكن دحضها.

يكن من أمر المتغيرات، فإن النظرية العامة تعارض بكل تأكيد حتمية البحث اللغوي القائم على المساواة، تلك الحتمية التي كانت مرتبطة في الواقع بمطمح الترجمة الآلية (الميكانيكية بحكم التعريف)[1].

نظرية المبادرة في حد ذاتها لا تقول كيف ينبغي لأحد أن يترجم. إنها فقط تبين أن السبب النهائي هو الحاكم دائمًا في كل الأحوال. وفي الواقع، فإن مبدأ غلبة الجانب المستهدف قد يبرر الحرية القصوى والحرفية القصوى كلتيهما. على سبيل المثال، حين قام بيرو دياث الطليطلي بترجمة أفلاطون، كانت غايته هي أن يمد راعيه بإرشادات أخلاقية؛ وعندما ترجم ليوناردو بروني نفس النص، كانت غايته أبعد من مجرد نشر معارف الثقافة الكلاسيكية. لقد كانت الغايتان مختلفتين بعض الشيء، وكان منهجا الترجمة مختلفين اختلافًا شديدًا (برغم احتمال وجود نظام عام)، لكن الغايتين المتعلقتين بالجانب المستهدف كانتا حاكمتين في كل حالة على حدة. هذا هو كل ما تقوله النظرية. فأيًا كان ما يحدث (بنفس اليقينية التي ادعاها توري)، فإن اللعبة تبدو غير ذات نفع على الجانب المستهدف.

المشكلة الماثلة هنا ليست هي، في الواقع، أننا لا نعرف من يلعب المباراة. فغاية الترجمة قد تتحدد من خلال توجيهات الزبون، أو نوعية القراء الاحتماليين، أو ألمعية المترجم. والواقع أن مختلف المنظرين يعطون أوزانًا مختلفة لهذه العناصر. لكن أي مراوغة عن الفكر القويم عادةً ما تؤدي إلى مزاعم مثالية بأن الأسواق والزبائن والمترجمين يجمعهم نوع من الاتفاق الجوهري غالبًا ما يعود سببه إلى الاستقلال البديهي الذي يتمتع به المترجم (الذي لم يكن عديم الكفاءة قط)، والذي يمكن أن يقوم بتقييم السوق بشكل صحيح ويقنع الزبون وفقًا لذلك. فماذا يحدث إن تعارضت هذه العناصر الثلاثة مع بعضها البعض؟ المنظرون ليسوا

(١) من الصعب أن نفهم لماذا استمرت هذه النظرية مرتبطة بالآلية الشاملة بدلاً من تحليل النص المصدري (Snell-Hornby1988,Nord1991a) مادامت ترى أن النصوص المصدرية لا تشتمل على مفاتيح خفية. التقاليد تستسلم بعد صراع مرير.

مصدر عون كبير: ينحاز نورد إلى إعطاء الأولوية لتوجيهات الزبون ("صاحب الفعل القصدي") (*9 : 1991*)؛ ويؤكد كل من هولتس- منتاري (*1984: 62 ff.*) وفيرمير (راجع: *68 : 1989*) على الموهبة المهنية عند المترجم في تقييم الموقف؛ أما فيما يتعلق بالقيود الفعلية للسوق، فلا أحد داخل هذا المعسكر مهتم على نحو خاص بأمور مثل الأفراد المحددين اجتماعيًا. وبطبيعة الحال، إذا بدأ المنظرون في البحث عن صراع بدلاً من التوافقية البديهية، فإنهم قد يكفّون عن تأليف شيء من قبيل نظرية النظام ***Rigime Theory***.

وعلى أية حال، فإن نظرية الفعل القصدي في حاجة إلى الوقت والرعاية الكافيين حتى يتبين وجود حياة ذكية في مكان ما في نطاق المترجم. وليس خافيًا أن كل ترجمة قائمة في وضعيتها الافتراضية الصحيحة تستهدف أن يكون المنظّر قادرًا على الرؤية وأن يكون في مقدور المترجم الكفء أن يتحرى وينجز. هذه إحدى طرق التأكد من أن جميع المترجمين الأكفاء يرون العالم من خلال عيون المنظرين. وإذا ما نظرنا بجدية إلى القول الخاص بأن غاية الترجمة لا يحددها أي شيء سابق عليها تحديدًا ميكانيكيًا، فسوف نجد بما لا يدع مجالاً للشك أن السبب اللاميكانيكي هو المترجم، ربما باعتباره شخصًا يتسم بالكفاءة أو، على الأرجح، باعتباره امتدادًا يرمز إلى التابع النموذجي للمنظّر. وبافتراض التوافقية المزعومة مع الزبائن وعناصر السوق، فإن الدور البطولي للمترجمين تم اختزاله اختزالاً جـــوهريًا: فهم يقومون بالأفعال القصدية لا لأن أحدًا طلب منهم أن يفعلوا ذلك، ولا لأن الظروف الاجتماعية تتطلب ذلك، بل لأنهم يختارون أن يفعلوا ما يرون أنه الشيء المناسب. إنه نفس الفعل القصدي والسبب مختلف.

هل لهذا الأمر دلالة؟ في الأحوال التي يتطابق فيها فعل قصدي واحد مع غاية نموذجية، حيث ينبغي على المترجم أن ينفذ ما يملي عليه الزبون والظروف، تكون الدلالة الوحيدة سخرية ذات مغزى تافه: فالمترجم يستسلم في خضوع نظرًا لعدم وجود شيء آخر يوافق عليه. فإذا كان الزبائن والظروف يسمحان بأكثر من

فعل قصدي واحد ممكن الأداء، فإن المترجم يجب عليه حينذاك أن يدعي لنفسه دورًا سببيًا وربما يصبح ذا تاريخ. كذلك ما من سبب يدعو إلي الاعتقاد بأن الظروف الناشئة عن أسباب أولية أو نهائية صارمة لا تفعل شيئًا سوى تحديد التخوم التي يمكن أن تكون مبادرات المترجم ممكنة الأداء في نطاقها. فإذا كان المترجمون يملكون دائمًا الحرية في عدم الترجمة، حرية رفض الظروف جملةً وتفصيلاً، فلابد أن يُنظر إليهم باعتبارهم أصحاب القرار الأساسي بحكم حقهم في شأنهم الخاص.

التساوي بوصفه سببًا صوريًا

قبل أن نناقش الأسباب ذات الفعالية، دعوني أستخدم "السبب الصوري" عند أرسطو لنعيد الأمور إلى نصابها. تذكروا أن النحات في المثال الكلاسيكي يشرع في إنتاج شيء له ما للتمثال من سمات مميزة، وأن هذه السمات المميزة تسمى السبب الصوري. كذلك يشرع المترجم في إنتاج شيء له ما للترجمة من سمات مميزة. السببان الأولي والنهائي قد يحددان ما نوع التمثال أو الترجمة الذي سيتم إنتاجه، لكن هناك مستوى يمكن الحديث عنده عن شكل التماثيل والترجمات – ومن ثم عن السبب الصوري.

إن الأسباب الصورية أصبحت أسبابًا مبهمة في العلم لأنها تعتمد على عالم المثل الأفلاطونية. ومادامت كل الظواهر تفضي إلى ظواهر أخرى، فإن الأسباب لابد أن تكون مبهمة أيضًا لدى كل شخص يدرك بشكل غامض أنه ليس هناك انقطاع حتمي لمجرد أن لغاتنا فيها كلمة "***Statue***" [تمثال] أو كلمة "***Translation***" [الترجمة]. الواقع أن الأسمانية(*) ***nominalism***، المفيدة أحيانًا في تأليف المواد الفهرسية، ليست مفيدة بوجه عام عند تكوين فكرة عن السببية. لكن مازالت هناك مبررات للحديث عن الأسباب الصورية فيما يتعلق بالترجمات.

(*) سبق هذا المصطلح فى الفصل الرابع. (المترجم)

المبرر الأول هو أن كثيرًا من المنظرين أصبحوا يتحدثون عن أسباب صورية عادةً ما تكون مقنَّعة بقناع "التساوي" و"المعايير" و"الاتفاقيات"، وهم يرجعون التغير إلى أشياء مختومة بخاتم الثقافة مثل "مختلف مفاهيم السرد" (*Allen1991*، عن ثلاث ترجمات لتاريخ العصور الوسطى) أو، بوضوح أكثر، إلى "آراء خاصة عن الترجمة" (*Pratt 1989: 200*، مشيرًا إلى عمل خاص بالألمان والهولنديين في العصور الوسطى). وكلما تحدثوا عن الصفات التي ينبغي أن تكون عليها الترجمة أو تلك التي كان من المتوقع أن تكون عليها في زمان ومكان معينين، فإنهم يشيرون بقوة إلى السمات المميزة التي أمكن أن تكون قد لعبت دورًا سببيًا في أي عملية من عمليات الترجمة.

المبرر الآخر، والأقل وضوحًا للحديث عن الأسباب الصورية، هو أن دراسة الترجمات الزائفة (التي بقلم توري بوجه خاص) تكشف عن قدر كبير من المعلـومات غيـر المبـاشرة عن السمات المتغيرة في الترجمات، لكنها لم تبذل إلا قليلاً من الجهد في تحديد فكرة بشأن احتماليات الإلهام. فإذا كنا نفترض الآن أن الترجمة الزائفة ناتجة عن السبب الصوري المؤثر (فكرة إنتاج الترجمة) بدون أي سبب أولي متطابق (حيث لا يوجد نص مصدري)، فإنه ينبغي أن نتوقع أن المُخرَج سيعمل على تبيين الدور الخاص للأسباب الصورية كأوضح ما يكون.

المبرر الثالث، لتفادي حملات الفلسفة الكاذبة على وجه الخصوص، هو أننا سبق أن قمنا بتعريف الترجمة بألفاظ اصطلاحية مناسبة. وإجمالاً لما سبق أن قدمته من مناقشات في الفصل الرابع، فإن ما أراه فجوة في تعريف الترجمة هو السمة الخاصة بطريقة استقبال الخطاب *Discourse* ("هذه ترجمة لأن الشخص الذي يقول *"I"* [أنا]. ليس هو قائل الخطاب"). ونظرًا لأننا نتظاهر على الأقل بوجود هذه الفجوة بين الخطاب المترجم والخطاب غير المترجم، فإن من العدل أن نأمل في أن تكون هناك صورة *Form* كامنة في أي شيء نقوم بإعداده كخطاب مترجم.

والمبرر الرابع، لنقول نفس الشيء بألفاظ شبيهة بالمصطلحات السائدة، هو أن المستوي الأكثر شيوعيًا لصورة مترجمة يمكن اعتباره "تساويًا"، ثم فهمه على نحو فظ باعتباره قابلية الترجمة لأن يتم استقبالها كما لو أنها نص مصدري. لكن "كما لو أن" هذه (كما لو أن الترجمة هي النص المصدري) يعبر عن حالة تخيلية ***Fictional Status***، أو عن اعتقاد، أو على الأقل عن الإرجاء القصدي لعدم الاعتقاد في الجانب الذي تتم فيه عملية الاستقبال.

وبحكم تعريفي، فإن ابتداع التخيل أو الحفاظ عليه يعتبر أحد أغراض الترجمة(1). وهي، بذلك، تلعب دورًا سببيًا. وما تم الحفاظ عليه هو الشكل/ الصورة.

وعلى الرغم من أن أشكال الترجمة تتباين على مر التاريخ وعبر الثقافات، ومع أنها ظلت تكافح بثبات عبر النظم المتوالية، إلا أن لا شيء مما نسميه الاتصال عن طريق الأعمال المترجمة يمكن أن يكون مفيدًا بدون الإيمان بأن النص المترجم يمكن استقباله كما لو أنه النص المصدري. فإذا لم يكن هناك مثل هذا الإيمان، ولا مثل هذا الشكل من الفعالية، فإن الاتصال سيكون أيضًا شيئًا آخر تمامًا، كلامًا غير مباشر، تعليقات وشروحًا أو شيئًا من هذا القبيل. إنها شعوذة بطبيعة الحال، فالترجمة تنجح أو تفشل في أداء دورها كنوع أمثل من الترجمة ***Ideal Translation*** نتيجة لأن الناس تعتقد في أنها كذلك، تمامًا كما أن الورقة الدولارية تؤدي دورها كحامل أمثل لقيمة معينة. وإذا كف الناس عن الاعتقاد لما كان لدينا ترجمات ولا أوراق مصرفية.

---

(١) من الواضح أن هذا ليس هو التعريف الوحيد للترجمة كشكل. وعندما نص فالتر بنيامين Walter Benjamin، بشكل حاسم، على أن "Ubersetzung ist eine form" [الترجمة شكل/ صورة] (50 : 1923)، فإنه يوافقنا على أن هناك فجوة شكلية بين ما هو مترجم وما هو غير مترجم، بل وربما يسلم بأن بعض الترجمات تحافظ على تخيل التساوي، ولكنه لا يقبل على الإطلاق أن هذه سمة لأفضل الترجمات. لكن آراء بنيامين لا تكاد تكفي لتغيير كيان الأشكال، ولهذا فأنا في غاية السعادة لأنه يعترف بالترجمة بوصفها الشكل الذي يؤدي إلى عواقب (خصوصًا القراءات الجديدة للأصل ومتابعته "البعدية" afterlife). ومعنى هذا أن بنيامين يقر السببية الصورية.

ولكل هذه الأسباب، يجب اعتبار الأفكار الخاصة بالترجمة عناصر سببية حقيقية في توليد أي ترجمة.

المترجمون بوصفهم أسبابًا ذات فاعلية

إن كنت في حاجة إلى مترجم، ولكن ليس لمجرد توسيع الرقعة الميكانيكية أو الوهمية لأحد، فاعلم أن السبب الفعال للترجمة هو المترجم الفردي أو الجماعي، ويبدو أن إنكار دور المترجم كسبب فعال يستند إلى مبررات واهية. لكن هذا هو ما يحدث بالضبط تمامًا كما كان أحد الأشكال الأخرى للسببية مقصورًا على وظيفة واحدة. فإن كان كل شيء موجودًا في النص المصدري فعلاً، فإن المترجم يصبح في هذه الحالة توسيعًا للرقعة الميكانيكية لذلك النص؛ أما إذا كان كل شيء مقررًا على أساس المنظومة المستهدفة، فإن المترجم يكون مجرد حامل للوظائف في إطار تلك المنظومة؛ وإذا كان الغرض من الترجمة هو كل شيء، فإن المترجم يكون مجرد شخص ذي خبرة صُبّ فيه ذلك الغرض؛ ولو كانت دنيا الأشكال هي نهاية القصة، لكان المترجم هو آلة الأخيلة وليس شيئًا آخر. وبافتراض أنه ما من شيء مما سبق يمكنه أن يستبعد الأشياء الأخرى بصورة مقنعة، فإن هناك أساسًا للأمل في وجود نوع من السببية الحقيقية التي يمكن أن نعزوها إلى المترجم.

وستتم في الفصل التالي مناقشة طبيعة وإمكانيات المترجمين بوصفهم أسبابًا، ولذلك فإنني لن أشير هنا إلى مواضع هذه المناقشات كنوع من طرح التساؤلات التي قد يكون من المناسب طرحها الآن.

السببية المتعددة العناصر

إذا كانت الأنماط الأربعة (أو أكثر) من الأسباب هي، كما ألمحت، الضرورية لتكون لدينا ترجمة، وما لم يكن أي من هذه الأسباب، كما طرحت، له

غلبة بديهية بحيث يقلل من أهمية الأسباب الأخرى ويجعلها في مستوي الشروط الضرورية ولكن غير الفعالة، فإن من المنطقي لذلك النوع من السببية الذى نراه فعالاً في تاريخ الترجمة أن يكون جمعيًا في طبيعته الحقيقية. والواقع أن هناك لكل ترجمة نريد تفسيرها على ضوء السببية ما لا يقل عن أربعة أسباب محتملة نافذة المفعول يمكن أن تكون الغلبة لأي منها. وقد لا يكون هناك ما يضمن أن يفسر أيٌّ منها جميع الحقائق.

هذه ليست فكرة جديدة على الإطلاق. إنها ترجع إلى نظريات المحددات التاريخية المتعددة العناصر والمتضافرة لإنتاج اللحظة الأمثل، تلك اللحظة التي يحقق فيها كل شيء أفضل نجاح للفعل القصدي(١). لقد استخدمت هذه الفكرة لتفسير أن ثورة عام ١٩١٧، مثلاً، كانت روسية لا كنتيجة لسبب واحد بذاته ولكن نتيجة لأسباب منفصلة وعديدة – التناقضات المتعددة العناصر للرأسمالية إن أردت– تصادف وجودها في روسيا (*Althusser 1965: 93-116*). لكن السببية المتعددة العناصر قد تعني أيضًا أن السبب الحاكم حقًا ليس سوى اللحظة التي تتضافر فيها جميع الأسباب الأخرى. وقد تكون الأفعال القصدية الناقصة، تلك الأفعال التي نعالجها في أجزاء مختلفة من بحثنا هي ثمرة اللحظات الأمثل.

هل هذا مهم لتاريخ الترجمة؟ ربما، خصوصًا حين نجد أننا منينا بالبلايا الأزلية مثل عدم قابلية نصوص معينة للترجمة أو الصعوبة النسبية لهذه النصوص. ويمكننا الآن أن نجيب على هذا النوع من الأسئلة بافتراض أن الأسباب، في زمان

---

(١) مع أن هذه الفكرة تبدو كما لو أنها نوع من الرجم بالغيب، إلا أنني سعيد بربطها بفكرة kapoç التي طورها جورجياس Gorgias ثم إيزوكريتس Isocrates، هذه الفكرة التي بموجبها يعتبر النقاش الشفوي المرتجل أرفع مقامًا من التبادل الفكري المكتوب، ذلك لأن المرء يمكنه أن يستجيب إلى اللحظات الأمثل التي تشكلها عناصر مثل الموقع المادي، والناس الذين تخاطبهم، والقواعد المرنة لعملية التبادل، والالتزام الذاتي عند المرء. وعلى سبيل الاختصار، تعتبر السببية المتعددة العناصر ملمحًا أساسيًا لجدليات الحياة. وليس من قبيل الصدفة أن جدليات الحياة قد أدت بدورها إلى إبراز شكل مفهومنا المحوري الخاص بالأهمية Importance، وإلى جعل مناظرتنا موضوعًا للبحث التاريخي، كما جعلت من النظام شكلاً يتيح التفاوض.

ومكان معينين، قد لا تتضافر بصورة كافية، إلا أنه قد تتوفر درجة أعلى من قابلية الترجمة في زمان أو مكان آخر أوفر حظاً. ومن الناحية المبدئية، لا علاقة للأسئلة التي نريد أن نجيب عليها بأيديولوجيات الكمال. كما أنها ليست بحاجة إلى معالجة النطاق الكامل للأسباب الممكنة. ولذلك، فإننا لن نشغل أنفسنا إلا بنتائج تكنولوجيا معينة، أو فئة معينة من الزبائن، أو تطور نظام مستقل بالذات، أو بدور مترجم. ومع أن أي حقل من هذه الحقول ليس في حاجة إلى عزوه بشكل ثابت إلى جميع الأنماط الأخرى من السببية، إلا أن أيًّا منها على حدة لا يكفي للوصول إلى استنتاج أن التكنولوجيا *A* قد أدت إلى التغير *X*، أو أن مجموعة الزبائن *B* كانت مسئولة عن السمة *Y*، وهكذا دواليك. إن الدرس الهام للسببية المتعددة العناصر هو أنه إذا كانت لدينا واقعتان اضطررنا إلى أن ننظر إلى إحداهما باعتبارها السبب بالنسبة إلى الأخرى، فإنه يتعين على الأولى أن نتلفت فيما حولها لترى ما هو الشيء الآخر الذي يتصادف حدوثه في التاريخ. إن الاحتمالات أكثر بكثير مما كنا نحلم به في البداية.

الفصل العاشر

المترجمون

مــع أنني أعتــرف عن طيب خاطر بأنه من الصعب أن نحدد بدقة ما هو أو ماذا كان الدور الرئيسي للمترجمين البشر، سواء على المستوى الفردي أو على المستوى الجماعي، فإنني أعتقد أنهم كانوا على علاقة ما بتاريخ الترجمة. ونظرًا لأنني أعتقد أن المترجمين قد أدوا عملاً هامًا في التاريخ، لذا فإنه يهمني أن أناقش الفرضية التي تعتبرهم أسبابًا مؤثرة من الناحية العملية، وكذلك هوياتهم وأجنداتهم الذاتية كطائفة مهنية. وقد مثلت هذه الفرضية العادية، من حين لآخر، دعمًا كبيرًا لبحثي. لكنني أقر بأنها ليست مفيدة في كل الأحيان، فهي لا تثير أبدًا كافة القضايا الرئيسية التي تواجه تاريخ الترجمة، وتنطوي دائمًا على خطر الاستغراق في تفــاصيل السيــر والتراجم. وأيًا ما كانت مجالات اهتمام مؤرخي الترجمة، فإن ما آمل أن أطرحه هنا هو فقط فرضية أن ينفقوا قليلاً من وقتهم في النظر إلى المترجمين كبشر.

المترجمون وليس "المترجم"

أنــا مضطــر لأن أواصــل استخدام لفظة "مترجمون" بصيغة الجمع، حتى لا أصف نفسي بتعبير موغل في التجريدية وهو مصطلح "المترجم" بصيغة المفرد. وإستراتيجيتي هي أن أستعرض معنيين على الأقل يمكنني أن أتحدث من خلالهما بصورة منطقية عن المترجم.

أحد صنفي 'المترجم' بصيغة المفرد، يقابل الذاتية الكامنة في أي نص يراد ترجمته: فالمترجم هو الرمز النقلي الذي أنتج الترجمة، وهذا يصدق على كل أنواع تحليل النص، وعلى أي قارئ يريد أن يقف على حقيقة الأشياء. وعلى هذا الصعيد، لا يهم إن كان هناك مترجمان بشريان (أو أكثر) يترجمان معًا أو يترجمان بشكل مستقل. وبهذا، فإن 'المترجم' المجرد هو نتاج نقلي وليس أي شيء مشابه.

الصنف المختلف إلى حدٍّ ما لـ 'المترجم' المفرد، أيضًا من الناحية الفنية، هو ذلك الذي يُفترض أنه كفء، والذي يُظن أنه خاضع للمعايير السائدة، والذي يحقق قدرًا من المستوى القياسي لعملية الترجمة. وفي هذه الحالة، تكون للذاتية المجازية وضعية مالية واجتماعية وربما قانونية، بالإضافة إلى الوضع المهني الذي له علاقات بالجوانب الذاتية الأخرى للمهنة. ونظرًا لأن أي مترجم لديه نفس القدر من الكفاءة وقد يكون قد أدى نفس القدر من العمل وحقق نفس المستوى، ورغم أن هناك متغيرات يتم اعتبارها غير مهمة من الناحية المهنية؛ فإن كافة المهنيين الأكفاء يصبحون ذلك المهني الكفء الواحد. وعلى ذلك، فإن هذا 'المترجم' هو نتاج المهنة وليس شيئًا آخر.

دعنا لا ننسى هذين المعنيين المجردين للمترجم، هذين المعنيين اللذين يشتركان في أنهما يفتقدان إلى الهوية الأساسية. وبكل تأكيد، فإن هذين المعنيين لهما مكانهما في مجالات نقد الترجمة وعلم الاجتماع وأخلاقيات المهنة. غير أن المشكلة تتحدد في أنه ليس من المتوقع أن يحقق أي من هذين الكيانين المفردين المجردين الشيء الكثير للتاريخ، على الأقل بمعنى أن يصيرا السبب العملي الفعّال. وإذا كان يتعين أن يُنظر إلى المترجمين على أن لهم دورًا في التاريخ، فلابد أن يظهروا قدرًا من النفوذ وليس الذاتية النقلية فقط أو المهنية عديمة الهوية والسعيدة فقط بأنها خاضعة لمعايير مهنية راسخة. وقصارى القول أنه يتعين أن تكون لدى

المتــرجمين درجة عالية من النفوذ الحقيقي، فيجب أن يظهروا بأكثر مما هم عليه أو أكثر مما تم دفعه لهم مقابل اسم مستعار.

هناك نوع ثالث من المترجمين، أقل تميزًا عند المنظرين المحترمين، وهو ذلك الشخص الذي يمتلك، بالإضافة إلى ما ذكرناه، جسدًا ماديًّا. وفي الواقع، فإن الجسد المادي، بوصفه وحدة بيولوجية متحركة، هو كل ما أنا في حاجة حقيقية إليه لمناهضة كل أشكال محو الهوية.

إن الجسد البشري يقوم بالعديد من الأشياء. فهو يستهلك الموارد، ويحقق الملذات والآلام، ويقيم علاقات ويتكاثر، كما أنه يتنقل. هذا يعني أنه يجب على المترجمين الذين لهم أبدان أن يهتموا بتحقيق مكاسب ليس مقابل ترجمة واحدة فقط بل من أجل أن يتم تأمين تكاليف معيشتهم طوال حياتهم، من أجل إطعام وصيانة أجسادهم، أحيانًا عن طريق عمل ما هو أكثر من ترجمة واحدة، وفي أغلب الأحيان عن طريق القيام بما يتجاوز الترجمة بكثير. ومن المتوقع أن يتجنب المترجمون– الذين هم من لحم ودم– مغبة الإجهاد البدني والسجن والتعذيب، سواء أكان ذلك بالنسبة لهم أم بالنسبة إلى أسرهم وذرياتهم في المستقبل. كما أن المترجمين ذوي الأجساد يكونون ميالين للتحرك بصورة أكبر من أن يحدده أي معيار أو غاية أو منظومة. ففي مقدورهم أن ينهضوا ويتنقلوا من بلدة إلى بلدة ومن ثقافة إلى ثقافة. فإذا كانوا يأكلون ويتعايشون، فإن في وسعهم أن يظلوا على قيد الحياة من فترة لأخرى. إنهم عناصر من قوى الطبيعة. ولا يعتبر أي من هذه الأمور ذا أهمية كبيرة في نظر "المترجم" المفرد المجرد. لكن هذه الأمور كلها وثيقة الصلة بالطريقة التي يساهم بها المترجمون في صياغة تاريخ الترجمة. ذلك ما يجعلني، حين أتحدث عن "المترجمين"، بصيغة الجمع، أشير إلى أناس من لحم ودم، إن وخزت أجسادهم نزفت.

فدعنا نلقي نظرة على الأوضاع المختلفة التي يمكن للجسم أن يتخذها.

في وسع المترجمين أن يفعلوا ما هو أكثر من الترجمة

جرى منذ أواخر ثمانينيات القرن العشرين تحقيق توسع سريع في تدريب المترجمين، وذلك عن طريق حوار اجتماعي أقر الحاجة إلى مترجمين وتراجمة متخصصين، والحاجة إلى أناس مدربين تدريبًا عاليًا يؤهلهم للعمل في هذا المجال دون سواه، وكانت النتيجة هي الإقرار الواسع النطاق لما يمكننا أن نسميه 'الاحترافية الأحادية' المثلى *monoprofessionalism ideal* عند المترجمين (وأنا أسوق هذا المصطلح ليشمل التراجمة[*]. ومن سخرية الأقدار أن نفس هذه السنوات ارتبطت بحوار اجتماعي واسع حول ضرورة التخلص من جمود سوق العمل في كافة الميادين وإدخال أنماط جديدة من عدم التخصص الذي يسمى عادةً 'المرونة'. وقد كان من المتعين أن يشتمل المستوى الأدنى من التعليم على برامج تدريب لإعداد خريجين مؤهلين لإحراز تقدم تكنولوجي سريع، ولتغيير مهنهم مرات عديدة في مجرى حياتهم الوظيفية. وما لم تكن الترجمة مهنة صار من المتوقع أن تكفل وظيفة على مدى الحياة، وهو احتمال أشك فيه كثيرًا، لبدا أن الفكرة التعليمية الجديدة نسبيًا الخاصة بالمترجم المتخصص متناقضة مع التوجه نحو عدم التخصص الوظيفي.

في بعض الأحيان، كان الحوار الاجتماعي بخصوص الاحترافية الأحادية للمترجمين يؤثر في أسلوب معالجة تاريخ الترجمة في السنوات الأخيرة. قد يعود جزء من هذا التأثير إلى بؤرة وصفية ضيقة ترتكز على الترجمات وليس البشر، ولذلك فقد تم تعريف المترجم على أنه أي شخص أنتج ترجمة، بغض النظر عن أي شيء آخر يؤديه. وبالتالي، أصبحت أكثر الترجمات القصصية يتم إسنادها إلى بؤرة أوسع تشمل بعض كبار المترجمين المتخصصين في الزمن الماضي، على حين أنه تم توجيه اهتمام أقل نسبيًا إلى النشاطات المتعددة التي يحقق عن طريقها الغالبية العظمى من المترجمين مستوياتهم المختلفة من النفوذ. وفي بعض الأحيان،

(*) جمع ترجمان، وهي اللفظة التي اخترناها للمترجم الشفاهي. (المترجم)

كما يحدث في مقالات الموسوعة، يصبح المترجمون قوائم أسماء. ويمكن التنبؤ بأثر ذلك: فنظرًا لأننا مهتمون بالترجمة، فإننا نتوهم أن كافة المترجمين المسجلين في القوائم لم يكونوا سوى مترجمين. وهكذا فإن نوعًا معينًا من التاريخ يغري بإضفاء الطابع الاحترافي على الماضي لكي يبني مستقبلاً تخصصيًا جديدًا.

ورغم أنني أظن أن هذه طريقة خادعة في معالجة تاريخ الترجمة (وتدريب المترجم!) إلا أنني عاجز عن ذكر بحث معروف يمكنه أن يوضح، بشكل عام على الأقل، كيف أصبح الناس مترجمين، أو ما هو المدى الزمني الذي اشتغلوا فيه كمترجمين، أو ما عدد المرات التي جمعوا فيها بين الترجمة وأنشطة تكميلية أخرى. لكن هناك شذارت من الدراسات تذكر أن تلك الادعاءات الخاصة بالوظيفة الأحادية ***mono-employment*** [التوظيف على أساس القيام بنوع واحد من العمل] طويلة الأمد أمر مشكوك فيه. وهناك قائمة تشمل ٤٣٤ مترجمًا برازيليًا منذ القرن السابع عشر (***Wyler 1995***) تحدد أن تسعة فقط منهم لم يكن لديهم مهن أخرى. ويذكر تقرير عن الترجمة الأدبية في القرن العشرين من العربية إلى العبرية (***Amit-Kochavi 1996:33***) أن هناك ١٥٠ مترجمًا منهم واحد فقط مترجم طوال ساعات العمل. وتذكر دراسة عن المترجمين البريطانيين من الإسبانية في أوائل القرن العشرين (***Callahan 1993***) أن هناك شاهدًا ضعيفًا على أن الترجمة نشاط يتحتم فيه الدوام الكامل من أجل المال، ونستنتج أنه يتضح، في هذا المجال الهام، "أن معظم المترجمين من صغار السن الذين يريدون أن يفعلوا أي شيء تقريبًا لينفذوا إلى عالم الأدب يعتمدون في معايشهم على النشاط الأدبي" (*104*). ويبدو أن هذه التقديرات تصدق على بحث لي بعنوان ***fin de siècle*** عن مترجمي الأدب الفرنسي، حيث يبدو أن الذين يعملون منهم في حرفة الترجمة طول الوقت قليلون جدًا وأن الأكثر بروزًا منهم (وسوف نشير إلى أحدهم في موضع لاحق) كانوا بالأساس كتابًا وصحافيين عملوا بالترجمة إلى جانب مهنهم. وتؤكد القليل من الدراسات المتاحة أن القضايا الخاصة بالوظيفة العديدة المهام ***multiple***

employment تستحق التساؤل بشأنها.[1] كذلك يمكن جمع أفكار عن وظيفة المترجمين من دراسات الحالات الفردية، تلك الدراسات التي توفر على الأقل ذخيرة من الحجج المضادة للارتكاز على كبار المترجمين المتخصصين، وقد ضربت من قبل أمثلة بعضوية ليوناردو بروني لطائفتي مستوردي الملابس الفلورنسية وتجار الصوف الفلورنسي، ولكن يجب أن أضيف أنه تولى أيضًا منصب قنصل البلاد لمدة تصل إلى نحو سبعة عشر عامًا. ونجحت في الحصول على قليل من الحالات المشابهة في مجلد ***Translators Through History*** من كتاب ***Delisle and Woodsward 1995*** وأنا أستمحيكم عذرًا إذ أعيد ذكرها هنا مرة أخرى، بتصحيحات طفيفة: في الموروث الإنجليزي، يذكر أن تشوسر ***Chaucer*** كان، بالإضافة إلى ترجمة وكتابة أعمال أدبية، موظفًا إداريًا بمسمى 'مراقب حسابات الجمارك'، وكان وليام كاكستون ***William Caxton*** يترجم من الفرنسية وكان معروفًا جدًا بوصفه أكبر ناشر في إنجلترا مع أنه كان لأعوام طويلة تاجر أصواف غنيًا ذا نفوذ في بروجيز ***Bruges*** (بلجيكا) ثم أصبح رئيس طائفة التجار المغامرين الإنجليز ***Governor of the English & Marchant Adventurers*** في الـ ***Low Countries***(*) ومستشارًا ماليًا لمارجريت دوقة بورجندي. ونعود فنكرر

---

(١) لنكون منصفين، هناك أيضًا ما يدل على تزايد الاحترافية الأحادية في هذا المجال. جاء في مسح أجري عام ١٩٩٤ على ١٨١ عضوًا من أعضاء Société Français de Traducteurs [حرفيًا: الجمعية الفرنسية للمترجمين] أن ٢٥٪ من العينة يجمع بين الترجمة ونشاط مهني آخر وأن الترجمة بالنسبة إلى ١٩,٧٥ ٪ كانت نشاطًا ثانويًا (Cancio 1995:14). ومع ذلك، لاحظ أن هؤلاء لم يكونوا من المترجمين الأدبيين الذين كانوا بحكم التعريف من طائفة الاحترافية الأحادية ليصبحوا أعضاء في الجمعية الفرنسية للمترجمين؛ كما أن هذه النسبة لا تمثل كافة المترجمين. ومع أخذ هذا التوضيح في الاعتبار، فإن واقع أن ما لا يقل عن نصف العينة إلا قليلاً (٤٧,٧٧٪) قد ولدوا خارج فرنسا قد يوحي بظاهرة عامة تتعلق بالوضع المزدوج ثقافيًا للمهنة.

(*) الأراضي المنخفضة في دلتا أنهار الراين وشيلدت وميز، وضمت في العصور الوسطى من الدول الحديثة الحالية كلًا من بلجيكا وهولندا ولوكسمبورج وأجزاء من شمال فرنسا والأجزاء الغربية من ألمانيا. (المترجم)

أن جون هوكهام فرير *John Hookham Frere* ساعد، بوصفه مترجم بالسي *Palci*(*)، في إدخال *ottava rima* [مقطع شعري إيطالي المنشأ] إلى اللغة الإنجليزية في بدايات القرن التاسع عشر، مع أنه كان أيضًا وكيل وزارة الشئون الخارجية للدولة البريطانية ومعارضًا عنيدًا لأفكار اليعاقبة، وقد ساءت سمعته الدبلوماسية حين أعطى نصيحة خاطئة للجيش البريطاني بعدم الانسحاب من الجبهة الفرنسية في لاكرونونا *La Cronuna* (إسبانيا)، ولكن التعبير الأوضح للاحترافية المتعددة الأوجه جاءت من أحد المترجمين غير المتفرغين الأكثر نفوذًا في التاريخ:

> **هل هم حملة الدكتوراه؟ أنا كذلك. هل هم المثقفون؟ أنا كذلك. هل هم الوعاظ؟ أنا كذلك. هل هم علماء اللاهوت؟ أنا كذلك. هل هم المناظرون؟ أنا كذلك. هل هم الفلاسفة؟ أنا كذلك. هل هم المناطقة *Dialecticians*؟ أنا كذلك. هل هم المحاضرون؟ أنا كذلك. هل هم يؤلفون الكتب؟ أنا كذلك.**

(Martin Luther, Sendbrief, 1530 in Störig 1963:18)

قد يكون من المؤسف أن كثيرًا من المترجمين ليسوا مترجمين فقط، أو لم يكونوا مترجمين لفترة طويلة. ولكن هل من قبيل الصدفة المحضة أن بعضًا من كبار المترجمين، الذين لديهم سلطة تحديد ما يترجمونه وتحديد الكثير من الترجمات الأخرى، كان لديهم أيضًا العديد من الأنشطة المهنية الأخرى؟ إذا كنا مهتمين بمسألة كيف يمكن للمترجمين، الذين يبدو أحيانًا أنهم محاصرون تمامًا بأسباب قوية خارجة عن إرادتهم، أن يكونوا برغم ذلك أسبابًا فعَّالة في الترجمات فإن الطبيعة المتعددة الجوانب لعملهم قد تكون مفتاحًا شديد الأهمية. إن بعض المترجمين، بفضل وضعهم وكفاءتهم في أنشطة مهنية أخرى، يكتسبون نفوذًا

(*) ربما يكون المقصود هو الشاعر الإيطالي لويجي بولسي Luigi Pulci ١٤٣٢ – ١٤٨٤. (المترجم)

اجتماعيًا وفكريًا بالغ الشدة عما كان يمكن أن يكون لهم كمجرد مترجمين. وعلى صعيد أكثر قربًا للواقع، فإن عملية الترجمة لبعض الوقت أو المتقطعة أو حتى الترجمة كهواية، يمكن أن تكون في إطار من الاستقلال المالي النسبي عن مؤثرات الثقافة المنقول إليها مثل الزبائن وأسواق النشر والقراء. فإذا كان الأمر كذلك، فإن 'الترجمة كمهنة'، على الأقل بمعنى الوظيفة المستديمة طويلة الأمد، يمكن أن تحد من قدرة المترجمين على تحدي مراكز القوة، إن بعض المترجمين يمثلون أسبابًا عملية قوية لأنهم يعملون أشياء أخرى إلى جانب الترجمة.

وفي دراسات العصور الوسطى، تصطدم مزاعم الاحترافية الأحادية بالأسلوب الأيديولوجي في النظر إلى الترجمة، ذلك الأسلوب الذي يرى أن أخطاء الترجمة والتحويرات النصية الأساسية مرجعها الكتبة ***Scribes***، وهو ما يمثل حماية للوضع المهني للمترجم. وعلى سبيل المثال، تذكر كالينكه ***Kalinke 1991***، المعنية بترجمات القرن الثالث عشر من اللغة النرويجية إلى الأيسلندية، أن مترجميها كانوا دقيقين لكن كتبة النسخ ***Redactors*** لم يكونوا كذلك. وعلى العكس، وبصورة أكثر اتساقًا، يرد في كتاب سي دبليو ماركس ***C.W.Marx***، في معرض وصف مادة الإنجليزية الوسيطة، أنه نظرًا لأن 'المؤلفين والمترجمين والناسخين' كثيرًا ما كانوا شيئًا واحدًا (***1991 : 266 - 67***)، فإنه لا معنى للتمييز بين مترجمي العصور الوسطى. إن الموضوع التاريخي سيصبح عملية النقل الكلي بكاملها، لن يكون عمل المترجمين شيئًا مختلفًا عن جهود كافة أولئك المنقحين ***rewriters*** الذين طالما دقوا جرس التحذير عبر التاريخ. هذا النقاش له أهميته فيما يتعلق بالطريقة التي يجب أن تعد بها ترجمات العصور الوسطى. تحاول كالينكه الرجوع إلى الترجمة الأصلية (***1991 : 48***) على حين أن محاولة ماركس ترتكز على 'تعليل التغير والتعارض باعتبارهما جزءًا من تاريخ النص أو المخطوط' (***1991 : 256***). ولاحظ أن هذا الأمر ليست له أدنى علاقة بإصرارنا على خصوصية السياق المترجَم (راجع الفصل الرابع)، وذلك نظرًا لأن النص الذي أعده الناسخ ***Copyist***

يمكن أن يؤدي كعمل مترجم ما يمكن أن يؤديه نص قام بتحريره مترجم ناضج[١]. المشكلة هي بالأحرى أن النظرة اللغوية الفليولوجية التي ترى أنه لابد أن يتم النظر إلى العمل الإبداعي باعتباره إنتاجًا لفرد تجعل الباحثين يشعرون أن من واجبهم أن يحددوا ويعينوا اسم شخص بعينه باعتباره المترجم. ولا حاجة بنا إلى القول بأن هذا النمط من التفكير لا يفيد كثيرًا في تاريخ الترجمة، ليس فقط مراعاةً للاستخدام المتعدد الأغراض للمترجمين والطابع النوعي للترجمة من وإلى الثقافة الأخرى *Cross-Cultural Translation*، ولكن أيضًا لأن ذلك النوع من الإبداعية التي تتضمنها الترجمة نفسها مشتركة بصورة غريزية شديدة العمق بين المؤلف والمترجم.

هناك أيضًا جانب مالي تمامًا في الاستخدام المتعدد الأغراض، جانب برهن على فعالية غير متوقعة في بحثي عن هيسبانيا القرن الثاني عشر، فكما يمكن أن يستنتج من التعليقات المختلفة الواردة في الفصول السابقة، فأنا لست معجبًا بفكرة "مدرسة طليطلة" بل أميل إلى رؤية هذا المفهوم باعتباره تلفيقًا قوميًّا *Nationalistic:* أميل أيديولوجيًّا إلى الاعتقاد بأنه لم يكن هناك في طليطلة شيء يمكن أن نطلق عليه مدرسة المترجمين. لكنني حينما أتأمل في الوضع المالي للمترجمين ذوى المعرفة البدائية بالترجمة، الذين كانوا يعملون في شبه جزيرة أيبيريا في تلك الفترة، أجد أنه يصعب الإجابة على الكثير من الأسئلة. فعلى أي شيء كان هؤلاء الرجال يعيشون؟ ومن أين كانوا يحصلون على الموارد التي يحتاجونها للتنقل، وشراء ما يكتبون عليه من رق البرشامان *Parchment* (وربما الورق)، ودفع أجور المعاونين، والوصول إلى مخطوطات النصوص المصدرية؟ وهل كانوا

---

(١) وبهذا الشكل، فإن الكتبة يترجمون مابين سطور ما تم كتابته بإنجليزية القرون الوسطى: "فحينما نسخوا المخطوطات المكتوبة باللغات المحلية (اللغات الدارجة) بدلاً من لغتهم هم، أبدوا اهتمامًا ضئيلاً بالتهجية الأصلية بل وعدلوها بحيث تطابق تقاليدهم وأساليبهم في الكتابة. وعلاوة على ذلك، فإنهم حين يفشلون في فهم كلمة في فقرة ينسخونها كانوا يلجأون إلى إحلال كلمة يعرفونها بدلاً منها" (Leith 1983:38).

يعيشون كمترجمين محترفين متفرغين؟ في المرة الوحيدة التي تم فيها ذكر النقود بصورة واضحة– مشروع القرآن الذي تم عرضه في فصل الخاص بالنظم [الفصل الثامن]– وجدنا أن رئيس دير كلوني يضج من كثرة ما دفعه للمترجمين لإنجاز المهمة، ثم يصف المترجم الرئيسي، روبيرتوس كيتينيسيس، الترجمة على أنها خارج إطار اهتماماته في الرياضيات والفلك (***Kritzeck 1964:62***). ومن هذه الفقرات، يمكن استنتاج أن المترجم لم تكن لديه وسائل كثيرة للإنفاق المستقل (فقد قبل العمل مقابل ذهب رئيس الدير) وأنه على الرغم من أنه لم يداخله شك في الدير من الناحية العملية، مثله مثل كل باحث في تلك الفترة، فإنه لم يكن معتمدًا أصلاً على الهيكل الكنسي (فقد كان جوّابًا له مهام في مجالات أخرى). ومن المدهش أن روبيرتوس كوفئ أيضًا بسبب جهوده في الترجمة بتعيينه رئيسًا للشمامسة في كنيسة بامبلونا ***Pamplona*** عام ١١٤٣ لكنه لم يقدر له أن يبقى هناك طويلاً. فقد تعاقد على الترجمة في سيجوفيا ***Segovia*** عام ١١٤٥ وقام برسم لوحات هائلة للندن عام ١١٤٩. لكن من الواضح أن الاندماج المهني في الهيكل الكنسي لم يكن هدفًا شخصيًا له. لقد كان باحثًا جوّابًا وناجحًا جدًّا في الحصول على وظائف عالية الراتب أيًّا ما كانت هذه الوظائف؛ إلا أن تعطشه للمعرفة هو ما كان يحدد سبيله بصورة أساسية.

فكيف كان روبيرتوس يكسب رزقه؟ هذا السؤال لا يخصه هو وحده بل يخص شبكة المترجمين الجوّابين برمتها، أولئك الذين كان على صلة بهم في شمال هيسبانيا (انظر الفصل ٦، شكل ١٢). وإجمالاً لقصة طويلة، يمكن للمرء من خلال حذف الخيارات أن يصل إلى فرضية أن هؤلاء المترجمين نقلوا ما تعلموه من العربية ليس عن طريق الترجمة وحدها ولكن عن طريق التدريس أيضًا. وهذه الفرضية تجمع ما بين الاتساق مع المعلومات المتعلقة بالخبرات التعليمية للقرن الثاني عشر والاتفاق مع التفسير المستقل لما كان يحدث في طليطلة (فلسفة دانيال دي مارليه ***Daniel de Marlai's Philosophia***)، وتعليل أمارات معينة للتوتر

وردت في سجلات كاتدرائية طليطلة (انظر: *Hernàndez 1985*). أنا أيضًا، باعتباري معلمًا جوَّابًا للمترجمين، مقتنع تمامًا بأن المترجمين الآخرين يكسبون رزقهم مثلي تمامًا. لكن أسئلتي تعيدنا إلى ذات الفرضية التي قلت في البداية أنني أتمنى أن أكشف خطأها: لقد وجدت أن هناك أسسًا لفرضية معينة وهي أن نوعًا ما من النشاط التعليمي كان قائمًا فيما أطلق عليه في التراث، ربما بصيغة يقينية لا يرقى إليها الشك، اسم 'مدرسة طليطلة'.

المترجمون لهم مصالحهم الشخصية

لابد لأي إدراك للمترجمين كبشر أن يحاول تفسير لماذا أصبحوا مترجمين ولماذا يتوقفون عن العمل كمترجمين. إن الإجابة الصحيحة عن هذه الأسئلة تتطلب البحث الدقيق في الخلفيات الشخصية. وقبل أن نغوص في هذه أو تلك القصة، دعوني أذكر طريقة بديلة لصياغة نظريات عامة في هذا الشأن.

بملاحظة مجموعة طلاب فرنسية ألمانية تستنتج جان - رينيه لادميرال *Jean-René Ladmiral* أن طلابًا ثنائيي اللغة [ناطقين بلغتين] يعرضون خدماتهم بدايةً كمترجمين لمن هم أقل منهم ثنائية. وبهذه الصفة، كمترجمين، يحتل الناطقون جيدًا بلغتين وضعًا اجتماعيًّا متميزًا نسبيًّا وسلطة في مجال ضبط وتوجيه عمليات التبادل الفكري. لكن هذه السلطة مؤقتة جدًّا. فالمترجمون مشغولون بنقل كلمات شخص آخر لدرجة أنهم يفتقدون أحيانًا القدرة على التحدث باسمهم. يكتشفون أنهم 'مقحمون في وظيفة الوسطاء اللغويين المنهكة وغير المقدرة حق قدرها، ومجردون من فرصة أن يقولوا ما يريدون أن يقولوه هم أنفسهم. وفى النهاية، يعترض البعض على هذا 'الاستغلال' فيرفضون أن يترجموا" (انظر *Ladmiral and Lipiansky 1989 :63-64*). ومع أن الترجمة تبدو في البداية عملاً من أعمال السلطة، إلا أن المترجمين القائمين بعملية الترجمة قد يصبحون قليلي الفعالية. فالبعض يجربون الترجمة لفترة محدودة ثم يسعون إلى التحدث بأصواتهم.

لكن هذه النظرة التشاؤمية تجد دعمًا من التاريخ. فالمرء، كما طرح كالاهان *Callahan*، لا يكون في حاجة إلا لأن يفكر في أن يصبح الشباب كتابًا "يريدون تقريبًا أن يفعلوا أي شيء لاختراق عالم الأدب". وعلى الصعيد الجماعي، فإن ذلك النوع من الهياكل التي حددت إطارها لادميرال قد يساعد أيضًا في تفسير طابع القطع الدائري *Parabolic* لتكرارات الترجمة التي لوحظت في الفصل الخامس. فهل يمكن أن يكون الأمر هو أن مجموعة اجتماعية بعينها سعت لأن يكون أفرادها وسطاء لغويين يبحثون عن وضعية متميزة ثم تخلّوا عن أداء ذلك الدور بمجرد أن أصبح هذا الدور غير ذي فائدة؟ إن البشر يتنقلون من وإلى نطاق الترجمة، فالرسوم البيانية للتكرارات تشير إلى صعود وهبوط مفاجئ ولكن هناك أسبابًا كثيرة أخرى ينبغي أن تؤخذ في الحسبان.

هناك علاقات معقدة بصورة استثنائية. ففي القرن التاسع، ترجم حنين ابن إسحاق *Hunain Ibn Ishaq* في بغداد كتابًا عن العظام لصالح طبيب نافذ اسمه ماسويه *Masawaih*. وكما يقول حنين، كانت الترجمة بلغة واضحة حسب طلب الزبون [طالب الخدمة]. فلماذا كان ينبغي أن لا يكون لدى المترجم السلطة في إقرار مثل هذه الأسئلة بمفرده؟ ذلك لأنه، كما يبدو، لم يكن على نفس المستوى الاجتماعي الذي كان عليه ماسويه الذي كان قد رفض من قبل أن يدرّس حنين الطب: كان ماسويه قد استبعده قائلاً "الأفضل لك أن تمتهن مهنة أهلك" [كان حنين سوريًا]،(*) والمعنى أن تعمل في وظيفة صراف، لكن هذا دفع حنين إلى أن يبرع في اليونانية والعربية ويصبح مترجمًا (*Badawi 1968:34*). وتوقف حنين لفترة عن الاقتراب من مهنة الطب وتخصص في الترجمة.

إحدى القضايا الأكثر إثارة هي: أنه عندما يكون متاحًا لشخص سليم العقل أن يعمل شيئًا ذا ميزة أكبر (الطب مثلاً)، فلماذا يرغب هذا الشخص فى أن يظل مترجمًا؟ المؤرخون يتفقون على أن حنين عاد إلى الدراسات الطبية وأصبح طبيبًا

(*) هذا البيان للمؤلف. (المترجم)

(*Salama- Carr 1990:26-27*). لكنه ظل مع ذلك يترجم ويحقق القدر الكافي من النفوذ الاجتماعي الذي يؤهله لإقرار أساليب ترجمة النصوص، فما الذي يضايقه؟ الأسباب قد تكون أبعد مما نتصور. قد يكون هناك شيء من قبيل الحب الخالص للترجمة. وعلى الأغلب، قد يكون هناك أيضًا نوع من الارتباط العاطفي بثقافة أجنبية معينة أو مؤلف بعينه. وقد تكون سجلات الوقائع عامرة بارتباطات مثل ارتباط تشابمان **Chapman** بهوميروس **Homer** أو جاكسون نايت **Jackson Knight** بفرجيل **Virgil** أو حتى ارتباط بودلير ببو **Poe**. مشكلة مثل هذه السلسلة من تقصي الارتباطات هي أنها دائمًا ما تصبح واقعة في فخاخ علم نفس الأفراد أو التحليل النفسي للأفراد. القضية الحقيقة هو ما المدى الذي يتعين على مؤرخ الترجمة أن يصل إليه. من حيث المبدأ، ينبغي أن لا تتجاوز تفاصيل الحياة الخاصة الحد الذي تكون فيه هذه التفاصيل قادرة على تفسير ما حدث في حقل الترجمة. غير أنه يصعب تمامًا إدراك هذا الحد.

المثل الذي أسوقه هنا هو واقعة هنري ألبير *Henri Albert*، وهو وسيط محترف فعل ما لم يفعله شخص آخر من أجل ابتداع نيتشه الفرنسي. ظل ألبير يكتب عن نيتشه منذ عام ١٨٩٣؛ نشرت ترجمته الأولى لنيتشه في كتاب عام ١٨٩٨؛ وقد كان مسئولاً عن مشروع **Mercure de France** لنشر الأعمال الكاملة لنيتشه (مجلدات منفصلة بيع منها نحو ١٢٠٠ نسخة في الأسبوعين التاليين لصدروها)؛ ونالت بعض ترجماته من النجاح ما جعلها باقية في دور النشر خلال ستينيات القرن العشرين. وبرغم رواجه ككاتب في الصحافة الأدبية، وكمؤلف عند اللزوم بمقتضى حقه المشروع في التأليف، وجد ألبير أن مهمته في الحياة هي أن يجعل نيتشه معروفًا ومقدرًا حق قدره في فرنسا. لقد كان مترجمًا محترفًا بشكل يتجاوز التفاصيل المالية المجردة، فلماذا يكرس البعض أنفسهم، جسدًا وروحًا، لمثل هذه المهمة؟ قد يوجد نوع من الإجابة في تفاصيل السِّير. فلتسمحوا لي أن ألخص ما وجدت أنه ينبغي الحذر منه عند كلٍ من: *Kintz et al. 1989*، *Schockenhoff 1986*، *Schaeffer 1962*، لكنني سأحاول قدر ما أستطيع الوصول بهذه القصة إلى أبعد ما يريد أن يذهب إليه معظم الباحثين:

لم يكن هنري ألبير إلا فرنسيًا حدوديًا ولد في عام ١٨٦٨ في نيدربرون بالألزاس قبل أن يتم ضم هذه المنطقة لألمانيا بنحو ثلاثة أعوام. كان اسمه الكامل هو هنري- ألبرت هوج ***Henri-Albert Haug*** وهو اسم نرويجي متداول لأسرة جرمانية، نظرًا لأن جده كان قد قدم من فورتمبورج ***Wurtemburg*** كرجل عسكري ضمن قوات الاحتلال عام ١٨١٥. نشأ ألبير في الألزاس وأصبح بائعًا لنوع معين من الكتب في إستراسبور. وفي ١٨٨٤، وهو في التاسعة عشرة من عمره، سافر إلى باريس وعمل صحفيًا في مختلف الدوريات، وكان معظم كتاباته منذ ١٨٩١ لمجلة ميركور دي فرانس***Mercure de France*** حيث بدأ يكتب بانتظام في قسم ***Letters Allemande*** [الأدب الألماني] تعليقاته عن الأدب الألماني الحديث. ومع أن ترجماته الأولى في ميركور كانت عن ماكس إشتيرنر في الفترة (١٨٩٤-٩٥)، فقد انتظم من يناير ١٨٩٣ في الكتابة عن نيتشه. وفي ديسمبر ١٨٩٤، أعلنت ميركور دي فرانس عن مشروع لترجمة ونشر الأعمال الكاملة التي قام ألبير بالتفاوض على حقوقها. وأصبح ألبير المترجم والمحرر الرئيسي للمشروع إلى جانب أنه ظل ينشر مقالات عن نيتشه في ميركور طوال عام ١٩١٤. كان ألبير أيضًا وسيطًا مزدوجًا من عام ١٨٩٩ إلى ١٩٠٤، وهي الأعوام التي ركز فيها على الترجمة للفرنسية. وحرر قسم الأدب الفرنسي في المجلة الألمانية ***Das Littararische Echo*** [الأصداء الأدبية] الكائنة في برلين ثم بدأ يكتب لمجلة ***Die Litaratur*** [الأدب]. وفي عام ١٩٠٢، وهو في قمة عمله المزدوج، أصدر مجموعة من قصائده. وحافظ أيضًا على صلاته الوثيقة بالألزاس. ومن عام ١٩٠٢، كان مراسل إستراسبور لجريدة ***Journal des Débats***. ومن عام ١٩٠٤ إلى ١٩١٣ كان مسئول أقسام ***the Messager d'Alsace-Lorraine***. وتشمل إصداراته في هذه الفترة ما يأتي: ***La force française en Alsace (Paris,1902)***، و***La langue et la littérature françaises en Alsace (Paris,1906)***، و ***L'Alsace –***

وكذلك وفقًا للبيانات: *Le* ،*Lorraine countre la force allemande (Paris,1912)* *probleme de la navigation en amount de strasbourg (Strasbourg 1914)*. وتوفي ألبير في إستراتسبور عام ١٩٢١ ولديه دون شك أحاسيس الذي هجر وطنه وهاجر إلى الألزاس الواقعة تحت الحكم الفرنسي.

ورغم أن ألبير شخصية ثانوية في معظم الكتابات التاريخية، إلا أنه كان وسيطًا محترفًا إلى حد أن كتاباته عن نيتشه والأدب الألماني كان يشار إليها بوصفها آراء معتمدة في العديد من الدوائر الصحافية في فرنسا. ونظرًا لثانوية سلطته، ربما بسبب كونه ناقدًا أدبيًا أكثر منه مترجمًا، فإن المنطلق البيوجرافي [السِّيري] الأكثر أهمية عند ألبير يجب أن يكون للأولويات اللاألمانية التي لا ريب فيها. فعلى الرغم من أن الوسيط المحترف كان يخدم في الاتجاهين، إلا أنه كان بالغ التحيز في عواطفه، أكثر فرنسية من الفرنسيين، منحازًا بكل تأكيد إلى حد أفكار أصوله الألمانية الألزاسية، بل وإلى درجة الإنكار العلني عام ١٨٩٧ لحقيقة القضية الألزاسية[1]. وفي سبيل الإعلاء من شأن نيتشه، كانت خطة ألبير هي إنكار ألمانية نصوصه الأصلية جاعلاً نيتشه معاديًا للألمان ومؤيدًا للفرنسيين مثل ألبير ذاته. ونظرًا لأن هذا كان ربما الإسهام الرئيسي من جانب المترجم لصالح نيتشه

---

(١) في استطلاع للرأي أجرته ميركور عام ١٨٩٧ حول الألزاس واللورين، يقول ألبير: Le mouvement en faveur de l'Alsace – Lorraine est un mouvement factice,entretenu en France par les Alsaciens-Lorrains qui y sont fixés et par les personnes ayant besion de ce tremplin politique (796-7) [هذا النص بالفرنسية في الأصل ومعناه تقريبًا: حركة الألزاس واللورين حركة مصطنعة أثارها في فرنسا سكان الألزاس واللورين وأشخاص في حاجة إلى منطلق سياسي] وكأنه لا ينطبق عليه أي من هذين الوصفين. ثم يعزز قوله مضيفا: Voyez L'Allemand à l'étranger: après deux génération il a perdu sa marque; il devient un des représentants les plus typiques de la race où il s'est implanté et qu'il regénère (797) [بالفرنسية أيضًا ومعناه تقريبًا: انظروا إلى الألماني في الخارج: لقد تخلي عن صفته بعد جيلين؛ وأصبح أحد المثلين النموذجيين للسلالة التي نشأ وتشكل في كنفها]. وقد يكون هذا نوعًا من الوصف الذاتي أو نوعًا من خداع الذات أو محاولة لاكتساب القبول في المركز الثقافي الباريسي.

الفرنسي، فإنه يجدر بنا أن نسأل كيف نشأت مشاعر العداء للألمان عند ألبير، خاصة وأنه هو نفسه من السلالة الألمانية. هذه هي عقدة المسألة.

كان والد المترجم تشارلز هنري ***Charles Henri*** محاميًا، وأصبح عمدة ليندر برون من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٨٧٤ – السنوات الأولى من الاحتلال الألماني – وتولى منصب ***Consellier Géneral*** [النائب العام] لجنوب الألزاس من عام ١٨٧٣ إلى عام ١٨٨٦. وتوفي عام ١٨٨٨. وبوسعنا أن نعتقد أنه كان مندمجًا تمامًا في هيئات الحكم الألماني للألزاس ***Alsatian Reichsland***. ولكن يبدو أن أبناءه لم يتم تعيينهم في وظائف مرموقة. فالابن الأكبر جوستاف إميلي ***Gustave-Émile*** (المولود عام ١٨٦١) كان عضوًا في اتحاد الطلبة المناهض للاحتلال سندجوفيا ***Sundgovia***. وعندما تم حظر نشاط هذا الاتحاد عام ١٨٨٧ عقب مظاهرات انتخابية صاخبة ضد الحكم الألماني، غادر جوستاف إميلي متجها إلى باريس وحصل على الجنسية الفرنسية وشق طريقه حتى أصبح رئيس الجمعية الجيولوجية الفرنسية عام ١٩٠٢. وكان الابن الثاني هوجو ***Hugo*** (المولود عام ١٨٦٥)، العضو في نفس الاتحاد الطلابي، يباشر أنشطة استحق عليها طرده من جامعة اللغة الألمانية عام ١٨٨٧ (وربما تعين عليه أن يرحل إلى باريس لهذا السبب)، وشق طريقة ليصبح سكرتيرًا عامًا للغرفة التجارية في إستراسبور، وساعد ألبير بأنشطته الصحافية في الإقليم بعد عام ١٩٠٣. ويبدو أن الابن الثالث، مترجمنا نفسه، كان منخرطًا في نشاطات الاتحاد المحظور، وهذا ما يفسر لماذا رحل هو أيضًا إلى باريس عام ١٨٨٧. ولمجرد استكمال البيان، فإن الشقيق الأصغر لمترجمنا، إيرنست***Ernest*** المولود عام ١٨٧١، وربما لم يستطع لصغر سنه أن يغادر البلاد عام ١٨٨٧، قد أصبح مبشرًا في الجابون منذ عام ١٨٩٥.

هكذا تبعثرت الأسرة بعد أحداث ١٨٨٧. وتوفي الوالد في العام التالي. وهكذا حطم الاحتلال الألماني الوحدة الأسرية المتماسكة. ومما يثير الفضول أن الشخص الوحيد بين الإخوة الأربعة الذي قدر له أن يتزوج هو هوجو الأخ الثاني

الذي طرد من الجامعة وبقي في الألزاس. أما أولئك الذين رحلوا منها، بما في ذلك هنري ألبير، فقد ظلوا عزابًا.

لعل هذه التفاصيل تفسر كره المترجم للسلطة الألمانية التي حطمت تماسك أسرته، لكنها توضح أيضًا ذلك القدر من الافتتان للترفع النيتشوي عن الأسرة وازدراء قيمتها. وفي الواقع فإن في وسعنا أن نرى أن المترجم ضالع في التنكر لخلفية أسرته: ولد هنري-ألبير هوج ابنًا لأسرة تحمل اسم نورديًا(*)، وكان نتاج احتلال القوات الجرمانية. والواقع أن اتخاذ اسم مستعار، مع نزع اسم العائلة تمامًا كما في هذه الحالة، كان يعني محو أي أثر لأصوله. لقد أصر المترجم على أنه لم يكن جرمانيًا قبل أن يفعل نفس الشيء مع نيتشه بوقت طويل.

إن هذا الأمر يبدو ذا صلة هامشية بالمسألة، خصوصًا لأنه يفسر كيف أن مترجمًا من السلالة الجرمانية، وعلى صلة وثيقة باللغة الألمانية، يصبح برغم ذلك معاديًا شديد العداء لألمانيا.

ولكن ماذا عن التفاصيل الأخرى مثل ارتباط المترجم طويلاً وبقوة مع الناقد الفرنسي والشاعر القليل الشأن جان دي تينان ***Jean de Tinan***؟ هل هذا له أي علاقة بالترجمة؟ في هذه الحالة، أجل. كان هنري ألبير شديد الكره للنساء في نقده الأدبي، وأذاع بصورة مكثفة ملامح كره النساء عند نيتشه. لم يكن يطيق النساء اللائـــي رأى أنهن يشـــوشن تـــراث نيتشه، خصوصًا لو- أندرياس سالومي ***Lou-Andréas Salomé*** وليسبث ***Lisbeth*** شقيقة نيتشه، اللتين تفاوض معهما بشأن حقوق الترجمة. إلى هذا المدى، كان للصفة الجنسية ***sexuality***(**) عند المترجم تأثير على طريقته في ترجمة وتقديم المؤلف. لكن ليس هناك أي ربط حتمي بين الشذوذ الجنسي وكره النساء. فلابد من المزيد من التفاصيل. فإلى أي حد ينبغي أن

(*) النورد شعوب جرمانية في شمال أوروبا. (المترجم)

(**) يجري ترجمة هذه الكلمة الإنجليزية بالكلمة العربية الافتراضية "جنسانية"، وهي كلمة غير دالة لغويًا، ولذلك فضلنا أن نترجمها هنا إلى "الصفة الجنسية" التي تدل على الجنس من حيث انقسامه إلى ذكر وأنثى. لكن الكلمة الأجنبية تعني أيضًا التمركز حول الجنس، كما تعني الولع الجنسي. (المترجم)

ننبش بحثًا عن الأسباب؟ في وسع المرء أن يلمح خلال حقائق سيرة الحياة أن المترجم (وأشقاؤه كذلك) قاوم تأثير أبيه عليه، ولكن كيف كانت علاقته بأمه؟ الوثائق المتاحة لي لا تقول شيئًا على الإطلاق بشأن هذه المسألة. قد تكون هناك أطنان من المادة الشخصية في الرسائل التي أرسلها ألبير إلى أخيه هوجو، تلك الرسائل المحفوظة في أرشيف ما في إستراسبور. فهل يتعين عليّ أن أذهب إلى إستراسبور وأفتش عن الرسائل؟ هل أنا حقًا في حاجة إلى اكتشاف شيء عن أمه؟ هل يتطلب إضفاء الطابع البشري على التاريخ كشف الحياة الخاصة للناس؟ هل كل هذا مهم؟

يتعين على الأهمية أن تحد من متاهتي (على الأقل حتى أجد شخصًا يدفع ثمن رحلتي إلى إستراسبور). لكن محاولة اكتشاف لماذا كان مترجم بذاته معاديًا للألمان وكارها للنساء من جانب، وتفسير كيف أن هاتين السمتين لم يتم تجسيدهما فقط في كتابه عن نيتشه بل وكانتا مقبولتين عند قراء ذوي شأن كبير من جانب آخر، شيئان مختلفان تمامًا. إن هذا الجانب الأخير، أي الإبانة الدقيقة للرغبات في النصوص المترجمة، قد يكون هو الشيء المهم بحق في تاريخ الترجمة. فهناك الأسباب الشخصية، ولكن هناك أيضًا سلسلة الأسباب الاجتماعية التي تعطي للأحداث شكلها. وفى حالة هنري ألبير، ينبغي أن تتضمن عمليات التحليل النفسي والدمج الاجتماعي على الأقل على ثلاثة عوامل لها ملمح اجتماعي واضح.

أولاً: عندما شرع ألبير في مشروع ترجمة نيتشه لم يكن في الواقع مقبولاً من جانب قطاع معين من المحافظين أو النخبويين في الوسط الأدبي في باريس. وقد أكد هوجهيس ريبيل ***Hughes Rebell*** (*1895*) أن الاستقراطيين الذين يحملون فكرًا فرنسيًا– وخصوصًا أولئك الذين يملكون ناصية التعبير الأدبي الفرنسي– هم وحدهم الذين يمكنهم أن يترجموا فليسوفًا أرستقراطيًا مثل نيتشه. وسخر فيتسيفا ***Wyzewa*** (*1896 : 689*) من ألبير بقوله "ترجمان عين نفسه من تلقاء ذاته ورسول مؤمن بالنيتشوية"، مؤكدًا أن أشد المعجبين بنيتشه هم الألمان. وباعتباره دخيلاً على

الألزاس، وألمانيًا حاملاً لثقافة لغوية فرنسية جرمانية، ومحدث نعمة ***Parvenu*** إلى حد بعيد، ومجرد صحافي يمكن ركله في أي وقت، كان على ألبير أن يثبت أنه يستحق مكانًا في عالم الأدب الباريسي. وفي ظل هذا الوضع، فلا ينبغي أن يدهشنا أن نجده يصبح فرنسيًا أكثر من الفرنسيين، حتى ولو من باب الدفاع عن النفس(١).

ثانيًا: هذه العوامل هو أن إبراز كره نيتشه للنساء قد يرجع إلى أن ألبير يستخدم أقوى أوراق اللعب آملاً في أن يكسب رضا نزعة معاداة المرأة التي نجمت عن الفيض المتلاحق من ترجمات شوبنهاور ***Schopenhauer***، تلك النزعة التي كانت تعتبر فلسفة ألمانية شعبية منذ بداية ثمانينيات القرن التاسع عشر. أما فيما يتعلق بالشذوذ الجنسي عند ألبير، فلم يكن ذلك بكل تأكيد شيئًا غير عادي في مجتمع الـــ ***petites revues*** الباريسي حيث كانت الأسماء التي تتردد على لسان كل إنسان تشمل كلاً من بروست ***Proust*** وجيد ***Gide*** والعشرات من أمثال ديس اسينتيس ***Des Esseintes***. ولعل الشذوذ الجنسي قد ساعد الدخيل الألزاسي على الدمج الاجتماعي السريع.

والعامل الثالث هو التناقض الظاهر عند مترجم معادٍ للألمان قادم من منطقة حدودية ثنائية اللغة بالأساس، وهو ما يمكن استنتاجه ليس فقط على ضوء سيكولوجيا الأفراد ولكن على الصعيد السوسيولوجي الحقيقي أيضًا. ويذكر أيوجين فيبر ***Eugen Weber*** (*1979*) أن المنطقة الفرنسية التي كان لديها الشعور القومي وما يناسبه من ارتفاع في النسبة المئوية للمتحدثين بالفرنسية كانت، في أواخر القرن التاسع عشر، هي منطقة الشمال الشرقي على وجه التحديد، المنطقة ذات الكثافة الاستيطانية العالية من جانب البورجانديين التيوتونيين والفرانكيين

(١) يوحي شوكنهوف (Schockenhoff 1986 : 81) بأن هناك سببًا أكثر تعقيدًا لتحيز ألبير. فهناك شاهد على أن نيتشة كان راغبًا بشدة في أن تترجم أعماله إلى الفرنسية ومحبطًا لأن هذا لم يحدث (فقد ظهرت الطبعات الهامة من أعماله المترجمة بعد أن فقد نيتشه سلامته العقلية). وهناك قرينة ضعيفة جدًا توحي بأن ألبير اعتبر، على هذا النحو، الفرنسي المسئول عن جنون نيتشه، وبأن هذا الشعور بالذنب هو ما دفعه إلى التكفير عن ذنبه.

والنورماندين(*) والغزاة المحدثين. لكن السبب في هذا لم يكن بالضرورة عملية تعويض سيكولوجي أحمق من جانب الأصول غير الفرنسية. فالأرجح أن الوعي القومي في المنطقة جاء نتيجة لشبكات الطرق والمياه التي كانت أوسع انتشارًا في الشمال الشرقي أكثر من أي مكان آخر في فرنسا، الأمر الذي يثير أسئلة مادام أنه كان بالشرق مدينة مزودة بشبكات كاملة مثل إستراسبور.

وهكذا دواليك. وفيما يتعلق بالدوافع الذاتية التي يراها الإنسان في سير حياة المترجمين، هناك تقريبًا الكثير من الدوافع ذات الطابع الاجتماعي التي تتيح للعوامل الذاتية أن تترك بصمتها على العالم الاجتماعي العام للمترجمين. ولا يمكن أن يكون أي جانب من هذين الجانبين مفهومًا تمامًا بدون فهم الجانب الآخر؛ فالحياة الخاصة ينبغي ألا تصبح نقاط ضعف قائمة.

المترجمون يمكنهم التنقل

بفضل مادية أجسامهم، يمكن للمترجمين أن ينتقلوا. وبفضل معرفتهم للغات وثقافات أجنبية، يمكنهم في أغلب الأحوال أن يتنقلوا بيسر إلى أبعد مما يمكن أن يصل إليه الكثيرون من أولئك الذين يعتمدون على ترجماتهم. هذا قد يعني أن المترجمين لا تحدهم أبدًا حدود ثقافة أو مجتمع حتى إذا بدوا فرنسيين أكثر من الفرنسيين. وقد يعني أيضًا أن في وسعهم أن يجدُّوا في البحث عن النفوذ باستخدام شبكات في اتجاهين على الأقل. يمكنهم أن يسافروا إلى الخارج ويرسلوا ما يترجمونه إلى المراكز الحضرية الكبرى، كما كان حال المترجمين الأجانب في المدن الحدودية في هيسبانيا القرن الثاني عشر. وأمام المترجمين الخيار في أن يتنقلوا بصورة فردية إلى المدن الرئيسية بحثًا عن مراكز الثروات والاندماج في

(*) التيوتونيون هم الشعب الجرماني أو السلتي القديم، والفرانكيون قبائل جرمانية اجتاحت فرنسا في القرن السادس تقريبًا، والنورمانديون قبائل إسكندنافية. (المترجم)

مؤسسات القوى المسيطرة، كما كان الحال في باريس أواخر القرن التاسع عشر التي افتتن بها هنري ألبير والكثيرون غيره من المقيمين الحدوديين الآخرين. هذان النموذجان المتعارضان قد يؤديان إلى بعض الفرضيات العامة عن الطريقة التي يتنقل بها المترجمون خلال الشبكات. وليسمح لي القارئ أن أستكشف النماذج بشكل مختصر من خلال بعض القصص(١):

جاء المترجمون اللاتينيون إلى إسبانيا القرن الثاني عشر من أنحية كثيرة في أوروبا. أسماؤهم تروي قصصهم: أديلاردس دي بادا *Adelardús de bada* (من باث *Bath*)، وهيرماناس دالماتا *Hermannus dalmata* (الكارنثي *Carinthian* من المحتمل أنه تدرب في شارتر *Chartres*)، وبلاتو تيبورتينوس *Plato Tiburtinus* (من تيفولي *Tivoly*، إيطاليا)، وروبرتوس كيتينينسيس *Robertus Ketenensis* (من شستر *Chester* أو كنت *Kent*)، ورودولفوس بروخنسيس *Rudolfus Brugensis* من بروجس *Bruges*)، ويوهانيس هيسبانيسيس *Johannes Hispanesis* (من سيفيل *Seville*، أو هيسبانيا، أجل هيسباني ولكن من المحتمل جدًا أنه موزاراب أو يهودي متحول)، وهوجو سانكتاليسيس *Hugo Sanctallensis* (من سانتالا *santalla*، ربما هيسباني خالص، فليس هناك معلومة دقيقة)، وربما أعظمهم جميعًا خيراردس كريمونيسيس *Girardus Cremonensis* (من كريمونا *Cremona*، إيطاليا). كل هؤلاء كانوا في شبه جزيرة أيبيريا بحثًا عن المعارف الإسلامية.

في نطاق شبكة القرن الثاني عشر، اتجه المترجمون إلى السفر إلى الخارج إلى البلدان والمدن الحدودية، ثم نقلوا ترجماتهم إلى المدن الرئيسية، خصوصًا تلك المدن التي بها أولى الجامعات الأوروبية. وعلى أية حال، فإن المدن الرئيسية سرعان ما استطاعت أن تراكم رأسمالاً فكريًا ضخمًا لاجتذاب الباحثين والمترجمين إليها لتصبح مواقع للإنتاج المزدوج ثقافيًا. ونتيجة لذلك، هبط دور

(١) الفقرات التالية جاءت في كتاب Translators through History [المترجمون عبر التاريخ]، صفحات ١٩٥،١٩٣-١٩٧.

النقاط الحدودية، حيث تحرك عدد قليل نسبيًا من مترجمي القرن الثالث عشر إلى الخارج بحثًا عن ثروات جديدة. كانت شبكتهم مختلفة في ذلك الحين: بدلاً من محيط يرسل ومركز يستقبل، أصبحوا الآن يعملون بين مركز يرسل ومحيط يستقبل.

ولإخضاع هذا النموذج العام للاختبار، اسمحوا لي الآن أن أنتقل مباشرة إلى القرن التاسع عشر حيث تزاحمت هذه الشبكات دون شك نتيجة التحولات والارتباطات على مر القرون. المراكز ليست مختلفة تمامًا: فمازالت باريس ولندن هي الأماكن الرئيسية للإنتاج الفكري، لكن يتعين علينا أن نرسم مخططًا لسلسلة من المدن مثل برلين وميونخ وفيينا (انظر الشكل ١١ ، الفصل السادس). فالمترجمون يميلون إلى أن يكونوا في المدن المركزية أو الذهاب إليها. وترجماتهم تنتقل إلى الخارج، نحو أطراف المحيط *peripheries* التي غادرها مختلف المترجمين. وفى نطاق هذه الشبكة الثانية، كان يتعين على من يبحث عن نصوص أن يذهب إلى المركز.

الدليل على هذا النمط يمكن الحصول عليه من باب ***Notes from Abraod*** التي كان يتم نشرها في العديد من الدوريات التي كانت تصدر في أنحاء العالم مع نهاية القرن التاسع عشر. وغالبًا ما كان مؤلفو الكتابات، سواء تلك التي يتم نشرها في المدن المركزية أو في المحيط، يعيشون على تداول الأخبار والفضائح، وهذا أو ذاك النوع من الموضة. ولكن أين كانوا وهم يوقعون على ***"Notes from Abroad"*** [كتابات من الخارج] التي كانوا يبعثون بها؟ في الدوريات الفرنسية والبريطانية كانوا عادةً ما يكونون في باريس أو لندن، وفى الدوريات الكائنة في ألمانيا أو روسيا أو المكسيك كانوا غالبًا ما يكونون أيضًا في باريس أو لندن. وكانوا يقيمون في المراكز حيث كانوا يرسلون نحـــو الأطـــراف الأنبـــاء والترجمات التي دائمًا ما كانت منقولة عن ترجمات وسيطة.

وهناك دليل آخر يمكن التوصل إليه عن طريق إجراء استبيان لكافة الثقافات المختلطة في المراكز. وإذا أخذنا مثالا لجماعات المعجبين لم تكن المجموعة التي زارت الشاعر الفرنسي ملارميه ***Mallarmé*** فرنسيين فقط بل كانوا يشملون كتابًا مترجمين بحجم إستيفان جورج ***Stefan George*** وآرثر سيمونز ***Arthur Symons***. ويشمل الأجانب الذين كانوا يكتبون في الواقع باللغة الفرنسية كلاًّ من وايلد ***Wilde*** وإشترندبرج ***Strindberg*** وفيتسيفا ***Wyzeva*** وميلوستس ***Milosz*** وميريل ***Merrill*** وفيلي – جريفين ***Viele-Griffen***، وكذلك سلسلة من الأدباء الأقل بروزًا مثل الإنجليزي هنري دافراي ***Henry Davray*** والإيطالي أدا نيجري ***Ada Negri*** والهولندي سيريبل بايس ***Syriel Buysse*** والدنماركي تايجي مولار ***Tyge Moeller*** والأمريكي أرشاج تشوبنيان ***Archag Tchobanian***، وغيرهم من الكتاب المغمورين. كل هؤلاء كان في وسعهم أن يترجموا من وإلى نخائر النصوص الفرنسية. غير أن المسألة الأهم هي أن الكثير من مترجمي أواخر القرن التاسع عشر السالفي الذكر، خصوصًا المترجمين في الاتجاهين [من وإلى] مثل هنري ألبير، كانوا مستقرين في مركز الشبكة. وحتى أولئك الذين عارضوا قيم باريس نهاية القرن ***fin de siecle paris values*** اتجهوا إلى الإقامة داخل المدينة: كان ماكس نوردو ***Max Nordau***، المجري مولدًا الألماني لغةً، وناقد الانحطاط الحداثي، يقيم في شارع ***Avenue de Villiers*** الرئيسي كما جاء في إحدى حلقات "كتابات من الخارج" بقلم مترجم جواتيمالي فرنسي اللغة – إنريكي جوميث كاريللو ***Enrique Gómez Carrillo*** – الذي كان أيضًا يعيش في باريس والذي زار نوردو وتحدث إليه بالإسبانية، وذلك نظرًا لأن أصول عائلة نوردو تنتهي إلى يهود كانوا يتاجرون فيما مضي عبر حدود هيسبانيا القرون الوسطي (***Gómez Carillo 1921 vol. 11:156-160***).

وبمقارنة شبكة أواخر القرن التاسع عشر بالنمط السائد في القرن العشرين، فإننا نجد أن هناك احتمالين مختلفين على الأقل لحركة المترجمين.

أولاً، لم يول مترجمو القرن التاسع عشر اهتمامًا بالبحث عن النصوص التي اعتبرت عظيمة بسبب قدمها. فلم يكن لديهم وعي بقيمتها المخزونة. وعلى حين أن رحالة القرنين الثاني عشر والثالث عشر تعاملوا مع النصوص الدينية والفلسفية والنصوص الخاصة بالعلوم البدائية، تلك النصوص التي اكتسبت سلطة الزمن، فإن المترجمين الحداثيين كانوا يجدُّون في البحث عن القيم التي كانت جديدة وعابرة ومادة للجدال المثير. هذا معروف تمامًا، لكن له نتيجة هامة: فعلى حين أن مترجمي العلوم البدائية في القرون الوسطى غالبًا ما كانوا يظهرون الولاء للكتاب المعتمدين من خلال درجات مختلفة من الالتزام بالحرفية، كان المترجمون الحداثيون أكثر ميلاً للدفع بالنصوص التي تم إنتاجها على عجل، وقراءتها على عجل، والتي غالبًا ما تكون منتحلة على عجل. كان الزمن زمن الجوهر. فقد كان يتم نشر أعمال روائي مثل زولا بالأسبانية في نفس العام الذي تظهر فيه أعماله بالفرنسية، ولم يكن البعد الجغرافي ليعرقل هذه السرعة بصورة حتمية. وفي سيدني *Sedney*، كتب كريستوفر برينان *Christopher Brennan* نسخه تهكمية عن قصيدة ملارميه *Un Coup de dés* بعد أشهر قليلة من نشرها في باريس عام ١٨٩٧ (انظر *Brennan1981*). ونظرًا لأن الزمن أصبح عاملاً أساسيًا، فإنه يجب أن لا يدهشنا أن تصبح القليل من معايير الترجمة أقل ليبرالية.

ثانيًا، اتجهت القيم الأجنبية الداخلة على مدن مركزية كبيرة إلى تحقيق انتشار سريع حتى أنه لم يتوافر للمترجمين الوقت الكافي للنظر في أي عمل بعينه. ولم يكن هناك نص واحد عظيم يمكن ترجمته؛ لا نص قديم ولا نص حديث. لكن كانت هناك بطبيعة الحال مناظرات متعددة الثقافات حول مناقب كتّاب مثل بودلير *Baudelaire* أو رامبو *Rimboud* أو فاجنر *Wagner* أو نيتشه *Nietzsche* أو إبسن *Ibsen* أو تولستوي *Tolstoy*، هؤلاء الذين ظفروا جميعًا بلحظات من الاكتشاف والاختفاء في الدوريات الفرنسية وأصدائها الفرعية. لكن المناقشات جاءت وذهبت بسرعة شديدة. وأصبحت العظمة نهبًا لتباين الآراء، وبهذا أصبحت كل الأشياء متساوية. وتعامل بعض المترجمين المركزيين مع مصادرهم برعب شديد. وهكذا

عززت الترجمة وضعها كمنهج بين مناهج عديدة لنقل المعرفة. ولعله من هنا جاءت أهمية الاستخدام المتعدد الجوانب للمترجمين، هؤلاء المترجمون الذين كانوا كتّابًا وصحافيين يعملون على سبيل الهواية في مجالات عديدة في وقت واحد.

وإيجازًا لجدال يفتقر إلى إجراء الكثير من الاختبار: فإن التحركية النسبية للمترجمين، مقرونةً مع التوجيهات المتغيرة داخل نطاق الشبكات، يمكن أن تؤثر ليس فقط في الأطر الزمنية التي يتم خلالها إنجاز الترجمات ولكنها يمكن أن تؤثر أيضًا في الطرق التي يعثر المترجمون عن طريقها على وظيفة.

المترجمون قد يطلق عليهم أسماء متعددة

قد يكون من باب التزيد أن أضيف بإيجاز شديد لماذا ينبغي أن نكتب أسماء المترجمين باللغة التي وجدت بها، خصوصًا في حالة أسماء العصور الوسطى.

الواقع أنه قد تحدث أخطاء فظيعة عند نقل الأسماء اللاتينية إلى اللغة الدارجة. فالرجل الذي كنت أدعوه روبيرتوس كيتينيسيس ***Robertus ketenesis*** يصبح أحيانًا روبرت اوف كاستر ***Robert of chaster*** ويصبح أحيانًا روبرت اوف كنت ***Robert of Kent*** وأحيانًا روبرت دي كيتون ***Robert de ketton*** أو روبرت دى ريتينس ***Robert de retines***، مادام أن الاسم اللاتيني ***Ketenensis*** يمكن أن يظهر بأشكال هجائية متباينة (***Castrensis***، ***Retinensis***... إلخ). وبكتابة الاسم بالاتينية، فإننا نحافظ على الأقل أن لا يختلط ***Kent*** بـ ***Chester*** وبقية الأشكال. ونكون آمنين إلى حد ما على حدود معرفتنا.

وقد تتضاعف هذه الأشكال في أحوال كثيرة حينما تكون هوية المترجم بعيدة عن اليقين، خصوصًا عندما تشير سلسلة من الأسماء المنطوقة بنفس الشكل إلى مترجم واحد -أو إلى عدد من المترجمين. المثال التقليدي هو أفندوث ***Avendauth*** الذي درسه ألفيرني ***(Alverny 1964)*** ناسبًا اسمين مختلفين إلى شخصين مختلفين مع أن هذين الاسمين هما الاسمان الواردان في دراسة ليماي ***(Lemay1963:649)***

التي أشير فيها بنفس الاسمين لشخص واحد بذاته (ذلك لأن ليماي يساوي بين أفيندوث ويوهانيس هيسبانينسيس *Johannes Hispanensis*). ومن المستحيل أن نتلافى مثل هذا الخلط إلا إذا كانت لدينا الأسماء الصحيحة للمخطوطات. والأسوأ مـــن ذلك أن الاستخـــدام الفــظ للأسماء الدارجة يمكن أن يوحي بشكل زائف بأنه لا غلط هناك على الإطلاق.

المشكلة تتعلق أيضًا بالطريقة التي نظر بها إلى الشبكات. فعندما كتب مترجمو العصور الوسطى أسماءهم باللاتينية لم يكونوا يفعلون ذلك كرجال إنجليز أو فرنسيين أو قشتاليين أو أيا ما كانت الصفة التي نضيفها اليوم على هذه الثقافات. وعندما درست كلارا فوتس *(Clara Foz 1984,1991)* مترجمين للقرنين الثاني عشر والثالث عشر في إسبانيا، فإن طريقتها في نقل الأسماء إلى اللغة الدارجة سارت متطابقة مع تقسيمها الأول للمترجمين إلى مجموعتين - "إسبانيين" مقابل "أجانب"- حيث أن المترجمين اليهود المتحولين أو غير المتحولين إلى المسيحية اعتبروا إسبانيين (ومن المفترض أن يقال نفس الشيء عن الموزاراب)[1]. قد يكون هذا مفيدًا في النظر إلى إسبانيا متعددة الثقافات، كما يمكن أن يكون مفيدًا في النظر إلى مباراة كرة القدم وربما إلى نظرية النظام، وذلك إذا عرفنا لماذا كان مثل هذا التصنيف ضروريًا. ولكن عندما يكون لدينا مترجم تذكره المخطوطات باعتباره *Dominicus archidiaconus* أو *Dominicus Gundisalvi* الذي أشار إليه معظم المؤرخين باعتباره *Gundisalvi* أو *Gundisalinas* - مع أنهم أطلقوا على *Gundisalvo* *Menéndez pelayo (1880-81,vol. 1:31)* - فلماذا إذن تطلق عليه فوتس الآن *Domingo González* اكرامًا - دون شك - لرئيس إسبانيا الحديثة

(١) لاحظ أن فوتس تجري في بحثها (1991) نفس هذا التقسيم الأولي بين الفرق الوطنية والفرق الزائرة (34)، ثم تقوم في نفس البحث بإجراء تقسيم آخر بين اليهود وغير اليهود (37)، دون أن تبين لماذا تكون هذه الطريقة الثانية في تجزيء الثقافات أفضل من الأولى. لكن واقع أنها أفضل هي حقيقة يتعين، على كل حال، إدراكها جيدًا: فالتقسيم الأول قائم على افتراضات لم ترددها الألسنة؛ ويأتي التقسيم الثاني تاليًا لتحليل عملية الترجمة ذاتها.

ذائع الشهرة؟ إن علم أصول اللغة التاريخي ***Etymology*** يمكنه في الواقع أن يبدأ من ***Gundisalvi*** وصولاً إلى ***González*** ***(Lemay 1963:658)***. لكنها رحلة لم يصنعها المترجم. ويبدو لي، قبل أن نعيد تشكيل الماضي بكاملة على صورة حاضرنا، وقبل أن نتخطى كل المسافة التي قد تجعلنا نفكر مرتين، أن الأفضل هو أن نحافظ بكل السبل على أسماء المترجمين بالصورة التي وجدناها عليها. من فضلكم.

إنها مسألة تتعلق بالتعامل الأمين مع مترجمي الزمن الماضي على الصعيدين الشخصي والثقافي.

الفصل الحادى عشر
الثقافات المزدوجة

أستخدم مصطلح *interculture* [الثقافة المزدوجة] للإشارة إلى المعتقدات والممارسات الموجودة في نقاط تقاطعات أو تداخلات الثقافات، حيث يجمع الناس شيئًا ما من ثقافتين أو أكثر في وقت واحد. وفيما يخصني، فإنه لا يسعني أن أخلط بين الازدواجية الثقافية *interculturality* وواقع وجود ثقافات كثيرة في نطاق مجتمع واحد أو وحدة سياسية واحدة (وهو ما يطلق عليه "التعددية الثقافية *multiculturality*")، ولا بينها وبين واقع أن يكون هناك أشياء يمكن أن تنتقل من ثقافة إلى أخرى (وهو ما يجب أن نشير إليه باعتباره النقل إلى الثقافات الأخرى *crosscultural transfer*). ويمكن تمثيل الفكرة الأساسية من الازدواجية الثقافية برسم بياني على النحو التالي، حيث يفترض أن تكون الثقافة المزدوجة قائمة في الحيز المتداخل بين الثقافة *1* والثقافة *2*:

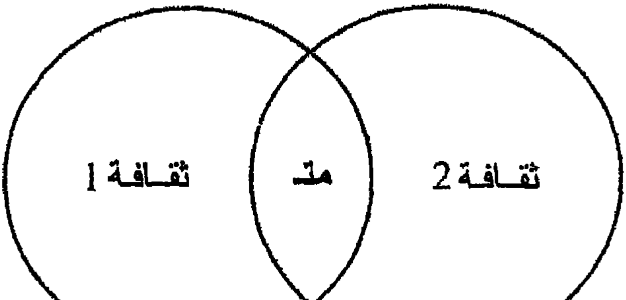

ويمكنك أن ترى أنني قمت بإدخال مترجم رمزي (مت) في الحيز المزدوج ثقافيًا. وهذه فكرة فرضية وليست تعريفًا. وبإجراء قدر من التطوير على هذه الفكرة، فإنها ستصبح تصورًا إجرائيًا، قصة يمكن أن تساعدنا على التفكير بصورة نقدية في القصص الأخرى. لكن الرسم البياني لا يفترض حاليًا إلا أن هناك عددًا غير محدد من المترجمين كأعضاء في الثقافات المزدوجة أو بوصفهم أفرادًا لديهم درجة ما من الازدواجية الثقافية. والتداخل الحادث بين الثقافتين يمكن أن يكون تعبيرًا عن ألمانيا الألزاسية في شباب هنري ألبير، أوطليطلة القرن الثاني عشر عند الوسطاء اليهود والموزاراب، أوجزيرة الفراعنة حيث قام ٧٢ حاخامًا بإنتاج الترجمة السبعينية للتوراة[*]، أومناطق في وسط آسيا حيث نقل ١٧٦ راهبًا من مفسري الأساطير بالتساوي الأقوال البوذية من الهند إلى الصين[١]، أو حتى بروكسل المقام فيها حاليًا أكبر مكتب عالمي دائم للترجمة. أو، بالأحرى، يمكن أن لا يكون لهذا التداخل أساس جغرافي على الإطلاق.

وإذا قمنا بمحاولة تدقيق بعض التعريفات، فإن هذه الفرضية ستصبح قابلة للاختبار بل وصالحة لمختلف الدرجات الوصفية. لكن هدفي هنا هو فقط اختبار الدواعي التي تجعلها هامة. ولذلك فأنا أريد أن أشرح لماذا ينبغي صياغة الفرضية

(*) ويقال أن هذه الترجمة للعهد القديم- من العبرية إلى اليونانية- قد تمت بأمر بطليموس فيلادلفيوس (ثاني بطالمة الأسرة الحادية والثلاثين المصرية) فتمت الترجمة بين عامي ٢٤٧ و٢٢٨ قبل الميلاد. (المترجم)

(١) خلافًا للتعليقات التفسيرية (الواردة في Lkeda 1986)، ذكر لي جون كيشنيك John Kieschnick بالأكاديمية الصينية Academia Sinica أن: "الترجمات المبكرة للنصوص الصينية ترجع إلى القرن الثالث. وقد قام بمهمة النقل سرًا راهب أو راهبان. وسرعان ما حلت محل الترجمات السرية الضيقة النطاق مشاريع للترجمة واسعة النطاق بدعم البلاط الإمبراطوري. وقد ارتبطت هذه الترجمات بجموع ضخمة من الرهبان بلغت المئات أحيانًا. وكان المترجم الرئيسي، أحد الرهبان الأجانب عادة، يقرأ نصًا أجنبيًا ثم يترجم شفاهة إلى الصينية، شارحًا معنى النص في ذات الوقت. وفي ذلك الوقت، كان أولئك الحاضرون يُعطون فرصة لتوجيه الأسئلة للمترجم الرئيسي. وعندما تتم الإجابة على هذه الأسئلة، كان الناسخ يسجل الترجمة" (اتصال شخصي تم في أبريل ١٩٩٧).

واختبارها فضلاً عن تعميم أي نتائج يمكن تعميمها. إن أحد أسباب أهمية ازدواجية الثقافة هو أن المنظرين والمؤرخين يراقبونها بانتظام، لدرجة أنهم يرون أحيانًا أن فرضيتنا لا مجال للتفكير فيها. فلماذا يجب أن يكون ذلك كذلك؟

أين تكمن الثقافات المزدوجة

هناك اتفاق عام، حتى بين النظريين المتباينين جدًا، على أن المترجمين ينتمون لثقافة واحدة فقط، الثقافة المستهدفة [المنقول إليها]. لكن هذا الزعم كما رأينا، لا يتماشى مع إرجاع السببية الغالبة إلى عوامل الجانب المستهدف، ولا مع ردود الفعل المفرطة لأيامٍ كانت فيها السببية كلها محصورة في عوامل الطرف المستهدف. إن النظرية قد تم تحويلها من تطرف إلى آخر. ومن ثم، يصعب أن نجد نموذجًا مقبولاً بصفة عامة ينطبق على منطقة التقاطع في الرسم البياني السابق. إن نظرة موجزة إلى تعليقات ثلاثة نظريين قد تفسر لماذا.

في كلمة جانبية مفيدة جدًا، يشير أندريه ليفيفير *André Lefevere* إلى المترجمين باعتبارهم الموجودين "داخل نطاق حدود الثقافة التي هي ثقافتهم بالمولد أو بالانتماء الاختياري" (*1992a:13*). ولا شك أن الإشارة إلى ناس يغيرون الثقافة فعلاً (من خلال "الاختيار") هو تقدم هائل بين النماذج التي تزعم أن كل شخص يظل حيث ولد بالضبط. لكن لاحظ حرف العطف "بالمولد أو بالانتماء الاختياري"، هذا أو ذاك، مادامت هناك ثقافة واحدة فقط دون سواها ("الثقافة التي هي ثقافتهم"). ووفقًا لذلك، فإن الحدود لها جانبان فقط، وليس ثـمة منطقة وسـط، ولا منطقة تقاطع، ولا حتى لأستاذ مزدوج الثقافة مثل ليفيفير[1]. والمدهش حقًا أن نجد بعد

---

(١) توفي البروفيسور ليفيفير في ٢٧ مارس ١٩٩٦، بعد أن كانت هذه السطور قد كتبت. ومنذ ذلك الوقت، فإن الإشارات الكثيرة التي حظي بها أوضحت تمامًا إلى أي حد كان كتابه مزدوجًا ثقافيًا: فلمنكي مولدًا وأمريكي "بالانتماء الاختياري"، وكان شاعرًا يكتب بالإنجليزية والهولندية، وترجم من وإلى كل من الإنجليزية والهولندية، بالإضافة إلى ألمانية العهد الألماني المجيد Old High=

صفحات قليلة فقط من نفس الكتاب مثالاً واضحًا لازدواجية ثقافية واضحة. يقول ليفيفير: "في فرنسا القرن الثامن عشر، قيل مرارًا وتكرارًا أنه تم نشر العديد من الأعمال الأدبية (والفلسفية) يحتمل أنها كانت محظورة في كل من أمستردام وإستراسبور، أي خارج نطاق سلطة المنظومة الأدبية" (*1992a: 22*). فإذا كنا نزعم أن بعضًا من هذه المطبوعات قد تم إنتاجها فعلاً في أماكن مثل أمستردام وإستراسبور، فهل يتعين علينا أن نظل مصرين على أن الحدود لها جانبان فقط؟ إن الترجمة الفرنسية التي تم طبعها في أمستردام تكون ولا تكون في آنٍ معًا "في نطـاق حـدود" الثقافة الأدبية الفرنسية. إن مفهوم ليفيفير عن المنظومة يبدو أنه لا يلائم هذا الاحتمال(١).

وعلى الرغم من أن لورانس فينوتي ***Lawrence Venuti*** يكتب من منظور مختلف جدًّا، فإنه يزعم أن المترجمين ينتمون إلى الثقافة المستهدفة [المنقول إليها]. يتجلى هذا في شكل هنات طفيفة مثل إيحائه بأن المترجمين الذين يترجمون إلى الإنجليزية في حاجة إلى الدفاع عن "حقوقهم كمواطنين بريطانيين أو أمريكيين" (*1995 : 9*). أما أنا، فأنا أعمل بالترجمة إلى الإنجليزية لكنني لست بريطانيًا أو أمريكيًا. ومن الغريب أيضًا إصرار فينوتي على أن المترجمين ينبغي أن يذكروا القراء عن "الثقافات المتفاوتة التي لا يمكن مد الجسور فيما بينها" (*1995: 306*)، كما لو أن المترجمين لديهم علم بـــ "الجسور التي لا يمكن مدها" دون أن يكونوا قد ذهبوا إلى

=German [من منتصف القرن التاسع حتى نهاية القرن الحادي عشر (٨٥٠ – ١١٠٠)] والألمانية الوسيطة [من بداية القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر] والألمانية الحديثة والفرنسية (وأتقدم بوافر الشكر إلى ثيوهيرمانز Theo Hermans لهذه المعلومة).

(١) وتنبثق مشكلة مماثلة من قانون توبون Loi Toubon الذي يلزم الشركات الفرنسية العامة بأن لا يتعاملون إلا بالعقود المحررة بالفرنسية. فالالتزام بترجمة كافة الصفحات التجارية إلى الفـرنسية زاد بشكـل غير مبـاشر تكاليف التعاقدات الدولية المتعددة الأجزاء بما يصل إلى ٦٠ بالمئة (The Economist 1995: 69). لكن الشركات الفرنسية العامة يمكن أن تتلافى التكاليف المضافة في التعاملات التجارية بعقد صفقاتها خارج فرنسا، موجدة بذلك حيزًا يعتبر داخل المنظومة الاقتصادية الفرنسية من الناحية الفعلية مع أنه خارج السيطرة السياسية الفرنسية.

الجانب الآخر، والأمر الذي يجعلهم هم أنفسهم بمثابة الجسور. لكن مآثر فينوتي تكمن في موضع آخر.

أما خيديون توري *Gideon Toury* فإنه يشبه كلاً من ليفيفير وفينوتي– والآخرين جميعًا تقريبًا– في واقع أنه يعجز عن رؤية الثقافات المزدوجة. إلا أنه يحاول على الأقل أن يكوّن فكرة عن المصطلح، طارحًا نقدًا يستحق تعليقًا أطول قليلاً.

يبدو أن توري يقر بوجود الثقافات المزدوجة لكنه يتراجع بعد ذلك إلى دوائر أكثر راحة، يقول: "في الواقع، هناك، في أفضل الأحوال، سلسلة مختلفة من الثقافات المزدوجة، كل منها يلائم ثقافة مستهدفة بعينها" *(1955: 172n)*. فهو، إذن، يحاول أن يتخيل نقطة التقاطع لكنه غير قادر على أن يتجاوز فكرة أن المترجمين ينتمون إلى الثقافات المستهدفة [المنقول إليها]، إلى نفس الموقع الذي يستقر فيه "الأدب المترجم" أو حتى السمة المميزة لـــ "ثقافة الترجمة"(١).

ومن الممكن افتراض أن ذلك يعني أن المنطقة المتداخلة في الرسم التوضيحي السابق تم احتسابها مرتين، مرة باعتبارها جزءًا من الثقافة *1*، ومرة

---

(١) مصطلح "الأدب المترجم" مستخدم هنا في مقابل المصطلح الألماني Übersetzungskultur [حرفيًا: ثقافة الترجمة]، الذي تمت صياغته كما يبدو في Göttingen لوصف المعايير الثقافية اللازم تطبيقها على الترجمات في نطاق منظومة مستهدفة، والواردة في نموذج Eßkultur، ذلك النموذج الذي يصف الطريقة التي يتنـــاول بها هذا أو ذاك المجتمع طعامه (انظر: feank 1989). واستخدم المصطلح أيضًا بمعنى مختلف بعض الشيء لتوليد تعبيرات مثل تعبير "the great Übersetzungskultur of Renaissance Europe " [المستوى الرفيع لثقافة الترجمة في أوروبا عصر النهضة] الذي يصيغه ماكليور McClure ويصفه بأنه "الجو الأدبي... الذي يتم فيه ليس فقط نقل قصائد بعينها ولكن أيضًا الأفكار الرئيسية والعبارات المجازية والتراكيب الكلامية نقلاً صحيحًا من لغة إلى أخرى، وتتبدل فيه العوامل المؤثرة للغة القرينة cross-linguistic-influences [اللغة المترجم منها] بتأنٍ شديد خلال علاقة بينية تتبادل التأثير" (1991: 186). فإذا ما تم تضييق تصور ماكليور، فإنه قد يصبح وثيق الصلة بمفهوم الازدواجية الثقافية على نحو يبدو معه لموذج Eßkultur الأصلي غير ذلك.

أخرى بصورة منفصلة، كجزء من الثقافة 2. يقول توري، في الواقع، أنه ليس ثمة تداخل من هذا النوع.

لكن هل هناك أي داعٍ إمبريقي محدد لافتراض انتماء مسلم به لثقافة أو أخرى(الثقافة التي هي ثقافة الآخرين)؟ في حالة توري، المشكلة هي أن قبول التداخلات الحقيقية تبطل الكثير من أجزاء نظريته. ومن الواضح جدًّا أنه لم يكن لديه داعٍ قوي لافتراض أن المترجمين "يعملون، أولاً وقبل كل شيء، لصالح الثقافة التي يترجمون إليها" (*1995:12*)؛ بل كان عليه أن ينقح الفكرة الخاصة بأن المترجمين يصبحون في التو واللحظة "أشخاصًا ضمن الثقافة" (*40*)؛ ولم يكن في وسعه أن يحدد المعايير بوضوح على ضوء "مسلك الترجمة داخل الثقافة" (*56*)؛ ولم يكن ثمة داعٍ لرفع الخيار الثنائي الجانب بين المصدر والمستهدف إلى مرتبة "المعيار الأولي" الذي له قدر من القيمة "المنطقية "الخالصة (*57 – 56*)، كما لو أن الأمر لا يتضمن أيديولوجيا [مذهبًا بعينه]. لقد ارتكز توري في الواقع على فكرة أن العالم منقسم إلى ثقافات منفصلة، ليكتشف أن هناك بطبيعة الحال ازدواجية ثقافية حقيقية "لا مجال للتفكير فيها أبدًا"، معلنًا أنه "ما دام أنه لم تتم بلورة ثقافة مزدوجة (افتراضية) إلى كيان منظومي مستقل بذاته(مستهدف!)…. فإنها تشكل حتمًا جزءًا من المنظومة القائمة (المستهدفة!) (*28*). فهل هناك دليل إمبريقي لهذه "الحتمية"؟

عند تحليل الشاهد الإمبريقي على الازدواجية الثقافية– اللافتة المتعددة اللغات التي تطلب من ركاب القطارات الألمانية عدم إساءة استخدام فرامل الطوارئ – يمضي توري مسافات طويلة لتجنب "الاحتمال السخيف بأنها [أي اللافتة] لا يمكن عزوها لأية ثقافة" معلنًا أنه "لا مفر من النظر إلى الترجمة الإنجليزية باعتبارها واقعة في الثقافة الألمانية" (*29*). ويبدو أن توري، في مسعاه لتجنب "ما لا مجال للتفكير فيه" والفرار من "الاحتمال السخيف"، يعتقد أنني بمجرد أن أركب قطارًا ألمانيًّا (في باريس مثلاً)، وأقرأ بالإنجليزية، أصبح بطريقة آلية

مشتركًا في الثقافة الألمانية. فتخيل أنني أضعت كل تلك السنين أدرس الألمانية، مع أنه لم يكن يتعين عليّ إلا أن أركب القطار وأقرأ لافتة إنجليزية! إن ما يخفى على توري هو، بطبيعة الحال، أننا – هو وأنا – وجميع من كانوا في مقصورة ذلك القطار الذي يجوب كل أنحاء أوروبا– تنطبق علينا لحظيًّا على الأقل بعض معايير الثقافة المزدوجة. لكننا رغم أننا مستقرون، لسنا جزءًا من الثقافة المضيفة المستقرة بصورة حتمية.

والمثال الأكثر أهمية هو مثال موسى مندلسون ***Moses Mendelssohn*** الذي يشير توري (***1995:136***) إلى أنه شارك في ترجمة يونج ***Young*** إلى الألمانية والعبــرية معًا. فهــل ينبغي وضـــع منـــدلسون في ثقافة فرعية للثقافة الألمانية، أو فرعية للثقافة العبرية، أو فيهما معًا في آن واحد ولكن في موضعيين مختلفين؟ أجل، فنظرية المنظومات تفضل في الواقع الخيار الأخير، وذلك نظرًا لأن الناس الذين يشملهم هذا الخيار في حاجة لأن يكونوا أكثر من مجرد حاملين لوظائف منظومية: وسوف نجد أن مندلسون يغير الثقافات الفرعية كلما غير اللغات. ولكن، إذا كان لديه جسد مادي، كما يقر بذلك معظمنا، فإن مختلف اللغات والثقافات ستتوحد ماديًا في مكان وزمان واحد بكل تأكيد. ستشكل هذه اللغات والثقافات معًا حدًّا أدنى من الازدواج الثقافي. ومن هنا فقد علقت أهمية على المترجمين الذين لهم أبدان. فوجودهم المادي يعطي مادة أساسية للازدواجية الثقافية.

لماذا لا يريد المنظرون، إذن، أن يتطلعوا إلى ازدواجية ثقافية واقعية؟ القضية لا تتعلق بكل من ليفيفير وفينوتي وتوري فقط بل يمكن اقتفاء أثرها على الأقل حتى فريدريش إشلايرماخر ***Friedrich Schleiermacher*** الذي يشار إليه أحيانًا باعتباره المنظر الأول للترجمة الحديثة (راجع جورج إشتينر: ***George Steiner 1975:237***). لقد خطا إشلايرماخر خطوات واسعة للتأكيد على أن أفضل مترجميه لم يكونوا هجناء ثقافتين (مع أن أفضل مترجميه ربما كانوا كذلك!)؛ لقد أصر على أن المترجمين ينتمون إلى هذا أو ذلك الجانب، على أنه يتعين عليهم أن

يكفوا عن أن يهيموا على وجوهم بلا هدف *"in unerfreulicher Mitte" (1813:63)* وقد ترجمها ليفيفير على أنها *"an unpleasant middle ground" (1977:84)*[1].[المنطقة الوسطى البغيضة]. ومن المسلم به أن بعض المنظرين المحدثين يمكن أن توجه إليهم نفس تهمه النزعة القومية *Nationalism* التي حركت إشلايرماخر. كما أن ليفيفير وفينوتي وتوري، مثل معظم منظري الترجمة، لديهم أسر وماضٍ مهني يتجاوز الأمة فعليًا؛ ولذلك فهم يميلون إلى مناهضة النزعة القومية الفظة. فلماذا لم يسع أي منهم إلى الحصول على متع المنطقة الوسطى؟

ولنلاحظ أن إصرار إشلايرماخر على العلاقة الثنائية– حيث يجب على الناس أن يكونوا إما في هذا الجانب أو ذاك – قد تم توظيفه في صياغة منهجين في الترجمة يستبعد أحدهما الآخر، وذلك بالإصرار على أن المترجم واحد من اثنين: مترجم يضفي الطابع المحلي على النص الأجنبي ومترجم يبقيه على أجنبيته. هذه الثنائية الجوهرية، التي عادةً ما يتم التعبير عنها بوصفها الإخلاص لأحد المستويين، بقيت حية في شكل ثنائيات أحدث مثل ثنائية "شكلي" *formal* في مقابل "ديناميكي" *dynamic (Nida)*، وثنائية "دلالي *semantic* " في مقابل "توصيلي/ تبادلي" *communicative (Newmark)*، وثنائية "كاشف" *anti-illusory* في مقابل *illusory* "موهم" *(levy)*، وثنائية "كافي" *adequate* مقابل "مقبول"*acceptable (Even-Zohar,Toury)*، و"مكشوف" *overt* مقابل "مستور" *covert (house)*، و"وثائقي" *dacumental* مقابل "أداتي/ ذرائعي" *instrumental (Nord)*، و"مقاوم/ عديم الشفافية" *resistant* مقابل "شفاف/ واضح" *transparent (Venuti)*، وربما كان هناك الكثير من هذه الثنائيات، بالإضافة إلى العديد من الاختلافات الظاهرية الدقيقة بين هذه الثنائيات. ويبدو أنه ينبغي على المترجمين أن يتبعوا طريقة أو أخرى ما دام لا يوجد مصطلح وسط

---

(١) لاحظ أن ليفيفير، في ترجمته المختصرة للنص (1992b: 82)، حذف هذه الفقرة وكافة المناقشات التي ذكرها إشلايرماخر ضد الازدواجية الثقافية تقريبًا. ومن الواضح أن ليفيفير لم يرغب في إعادة إنتاج عبارات مثل عبارة إشلايرماخر "كل شخص ينتج عملاً أصليًا في لغته الأم فقط".

يتطابق مع مصطلح المترجمين أنفسهم. إن الطريقة التي يفكر بها المنظرون عن الثقافات تنم بصورة صادقة عن تفاصيل الطريقة التي يصوغون بها خطط الترجمة.

الواقع أنني لم أشعر بأنني أقترف أدنى ذنب وأناقش فيما سبق النقطة التي يتقاطع عندها المترجمون. ولكن يبدو أن هذه الهندسة تخالف التقليد العظيم والمتنوع لنظرية الترجمة. لماذا؟ هل لأن كل الناس قد أدانوا الازدواج الثقافي بشكل يتسم بالتعصب الجماعي الأعمى؟ هل لأن موضوع الازدواج الثقافي لم يصل بعد لمستوى الفكرة الدقيقة؟ أم أن هناك شيئًا ما في الترجمة ذاتها يعزر دنيا الثقافات المنفصلة؟

الترجمات أم المترجمون؟

سؤالي عملي جدًا. هناك على مكتبي الآن نص فرنسي على الجانب الأيسر، ونص ألماني مماثل في الناحية اليمنى (فأنا أتبع تعليمات علم تخطيط الخرائط). ونظرًا لأن من المفترض أن تنتقل الترجمة من جانب إلى آخر، فإنني أدرب عيني على الانتقال من نص إلى آخر. والعودة من جديد، لأنني لا أرغب أن أستبعد أي تبديل أو استبدال ممكن. قراءتي تشبه إلى حد كبير عمليات الترجمة نفسها. فالنصوص قد تتطابق أو تنحرف، لكن التبديات الفعلية لعملية الترجمة تعطيني سلسلة من العلاقات القائمة بين النصين بشكل مباشر. فماذا يكون في المنطقة الوسطى؟ مادمت قد قرأت النصين، فإن هذه المنطقة هي حيز سخيف بحجم المكتب، فراغ تدربت عيناي أن لا تراه وهما تتحركان من جانب إلى جانب. وأظن أن هذا هو الداعي إلى أن قراء الترجمات لا يولون إلا اهتمامًا ضئيلا للمنطقة الوسطى من الازدواج الثقافي. ومن منظور الترجمات، فإن مثل هذه الأشياء ليست أشياء "جديرة بالملاحظة" على الإطلاق.

ما الذي يمثله فراغ سطح المكتب ***desktop emptiness***؟ إنه، بكل تأكيد، حد أو مساحة على الحدود وجدت كنتيجة للاختلاف في التحديد: هنا الفرنسية، وهناك الألمانية، وبذلك يكون ثمة خط فاصل في مكان ما. لا ترى عيناي الخط؛ فالتحليل المعياري للترجمة نادرًا ما يمس الحدود التي تتخطاها الترجمة. لكن الترجمة، بكل تأكيد، تشترط وتعتمد على وجود الخط القائم هناك، في مكان ما بين الفرنسية والألمانية، وبين فرنسا وألمانيا. ومع ذلك، لو لم يكن هناك خط، فهل كان من الممكن أن تكون هناك أي ترجمة؟ أو بصيغة أفضل، لو لم تكن هناك ترجمة، فهل كان من الممكن أن يكون هناك خط؟ ولعله يكون في إمكاننا، بهذه الطريقة، أن نستعرض تاريخ الخط، وقصصًا عن الألزاس واللورين، وربما الموروث الضائع لفرنسا القرن التاسع (***Francia Media***)، وحتى أن نقتفي أثر مترجمين مثل هنري ألبير. هذا تقريبًا هو الطريق الذي بدأت أدرك من خلاله أن ثمة شيئًا هامًّا كان قائمًا في نقاط التقاطع بين الثقافات.

لإدراك المشكلة إدراكًا تامًّا، أبدأ التفكير من وجهة نظر المترجمين البشر الذين من لحم ودم. فإذا كان المترجمون هم نقطة انطلاقنا، فإن الموضوع التاريخي يتضمن دائمًا نوعًا ما من التقاطع. أو أن المترجمين، كفرضية مجردة، هم نقاط التقاطع.

لعله يمكن التوسل هنا بقليل من المنطق. على الصعيد السوسيولغوي، يمتلك المترجمون- بحكم التعريف- أكثر من لغة واحدة. ولاشك أن هناك، في العادة، تسلسلاً هرميًّا في الكفاءات لصالح اللغة الأم. لكن وجود كفاءة في اللغات الأجنبية، أيًّا ما كانت درجتها، لابد أن يوحي، على الأقل، بقدر من الابتعاد عن المراكز أحادية اللغة. وبصفة عامة، يميل المترجمون إلى عدم مشاطرة الناس المعتمدين على ترجماتهم في أفقهم اللغوي، فهم لا يسعهم أن يكونوا مطوقين تمامًا، مع الآخرين جنبًا إلى جنب، في إطار ثقافة مستقلة مستهدفة. وبحكم التعريف، فإنه

ينبغي صياغة المنهج المرتكز على المترجم الآدمي بوصفه علامة البدء في التحرك باتجاه المنطقة الوسطى.

هل ينبغي أن تبدأ الأضواء الحمراء بالوميض عند هذه النقطة؟ كما يعزز دراسة سطح مكتب الترجمات دنيا الثقافات المنفصلة، كذلك تهتم دراسة المترجمين السوسيولغويين بدنيا الثقافات المزدوجة المختلطة بداهةً (حتى قبل أن نبدأ في التنقيب عن الفوارق بين اللغة والثقافة). إننا نتعثر من سلسلة إلى سلسلة أخرى من المزاعم. لكن ليس هذا هو المكان المناسب لطرح هذه المسألة.

لحسن الحظ، ليست الكفاءة اللغوية هي كل شيء؛ فالازدواج الثقافي لا ينبغي مساواته بدرجات من الثنائية اللغوية ***bilingualism***. فمثل هذا الاختزال سيجعل فرضيتنا الأصلية غير قابلة للدحض بصورة كارثية: فإذا قارب كل المترجمين من الثنائية اللغوية، ولم يتضمن الازدواج الثقافي سوى مقاربة الثنائية اللغوية، فإن كافة المترجمين سيكونون في هذه الحالة مزدوجي ثقافة بحكم التعريف، ولا شيء أكثر من هذا يتعين علينا اكتشافه. ولكن هل يتعين علينا أن نقول، مثلاً، أنه نظرًا لأن أوتو فون بسمارك ***Otto von Bismarak*** كان يعرف الفرنسية– حيث تعلم اللغة من سن الثامنة بمساعدة مدرس خصوصي سويسري ***(mitchell 1971:11)*** – فإنه كان كيانًا أصيلاً في الازدواج الثقافي يسوي الخلافات في المناطق الوسطى السعيدة؟ هل كان جميع الألزاسيين المعاصرين لهنري ألبير بحكم التعريف ملتزمين بمعايير الازدواج الثقافي؟ وهل كانوا جميعًا مترجمين؟ إن هذا النوع من التفكير مفيد جدًّا لأهدافنا. فكافة الطبقات الاجتماعية والمناطق الجغرافية، وربما كل كيان آدمي، يمكن تصنيفها بوصفها مزدوجة ثقافيًا إلى هذه أو تلك الدرجة. لكنَّ عالَمًا من هذا النوع سيكون عالَمًا تفكيكيًا للازدواج الثقافي باعتباره لامركزية أولية ***primal decentring***، حيث تتحول الثقافات نفسها تدريجيًا إلى بنيات أيديولوجية زائفة مبنية فوق رمال متحركة من النشاط المزدوج ثقافيًا. وربما تكون هذه فلسفة تحريرية ***liberating philosophy***. لكن إذا أردنا أن يقوم

تاريخ الترجمة بحل المشكلات، وإعطاء صورة للمستقبل، ربما للحصول على قدر من الذهب، فإن الأمر سيتطلب فكرة ملموسة عن الازدواج الثقافي.

المهمة هي تعريف الازدواج الثقافي حتى يمكن ربط المترجمين بصورة سليمة بنقاط التقاطع بين الثقافات، ولكن بطريقة لا تتبعثر معها جهودنا في عالم لا يمتلك شيئًا بقدر ما لديه من نقاط تقاطع بين الثقافات. وأنا لست على يقين من أنني أستطيع أن أقدم حلاً لهذه المشكلة هنا. إن أقصى ما يمكنني عمله هنا هو الإشارة إلى العديد من سبل التجريب.

غرباء لكن موضع ثقة

لقد التمست العون من مختلف أنواع السوسيولوجيا. وربما لا يكون مدهشًا أنني صادفت شيئًا يشبه ذلك النوع من النقد الذي أشرت إليه أعلاه. فالمشروعات الإثنوجرافية(*) الخاصة بالمناطق الحدودية هي، في ذاتها، إلغاء للإثنوجرافيات السابقة للمناطق غير الحدودية. وكما طرح ريناتو روسالدو ***Renato Rosaldo***، فإن "التخوم بين الأمم والطبقات والثقافات" في الإثنوجرافيات التقليدية "كان يتم تحديدها بنوع مثير من التعتيم الهجين" *(1989:209)*. وربما كان هذا التعتيم هو ما كانت عليه الترجمة؛ لكن الاهتمام الحالي بالفواصل الحدودية باعتبارها مواضع لتبادل النقل الثقافي سوف يوفر إطارًا محفزًا لدراسات الترجمة. غير أنني لا أدري ما هي الوجهة التي ستمضي إليها هذه الدراسات. من هم المترجمون المتناثرون داخل هذا الحيز الحدودي؟ وكيف يمكن ربطهم بأي شيء آخر يمكن أن يتصادف وجوده هناك؟

(*) الإثنوجرافيا هي – على الأرجح – نوع من الوصف الميداني لدراسة الإنسان ككائن ثقافي، وهي بذلك جانب إثنولوجي من الأنثروبولوجيا. (المترجم)

في إحدى المراحل توقعت الانطلاق من سوسيولوجيا الغريب، وهو اتجاه تقليدي جدًّا في البحث يُردّ إلى وصف سيميل *Simmel* لـ *der Fremed* [الغريب/ الدخيل] عام ١٩٠٨. وغرباء هذه السوسيولوجيا يميلون لأن يكونوا أفرادًا، مهاجرين في الغالب، يهودًا عتقاء في العادة، أشخاصًا يتنقلون على حواف أعضاء جماعة أو يلقي عليهم القبض بين حين وآخر في المسافة التي تفصل بين ثقافة وأخرى. وهم نادرًا ما يكونون أعضاء في أحد مواقع الازدواج الثقافي الهامة. وفي الواقع، يتم تعريفهم على ضوء انتمائهم إلى جماعات ثقافية حقيقية: يقول سيميل "الغريب هو عضو في الجماعة نفسها، عنصر تتطلب عضويته داخل الجماعة أن يكون خارجها وفي مواجهتها" (*1971:144*). ولكننا لا نصادف عند السوسيولوجيين الذين ساروا على درب سيميل إلا أفكارًا غامضة عن أشخاص سعداء بالعمل والإقامة في إحدى نقاط التقاطع. إن "الشخص الحدودي" **marginal man** أو "الهجين الثقافي" **cultural hybrid** الذي استنبطه بارك **Park**– "الشخص الذي يعيش ويشاطر بحميمية الحياة الثقافية وموروثات شعبين متمايزين" (*1928:891*)- يُنظر إليه باعتباره يعتزم الارتباط بثقافة جديدة دون إحساس حقيقي بالانتماء الفعلي لمكان وسط هذه الثقافة. هذه الرؤية تم تبريرها بكل تأكيد حين كانت الموضوعات الأساسية عند السوسيولوجيين هي المهاجرون في الولايات المتحدة. لكن الموضوع قد تغير. وتحاول الكتابات الأحدث أن تعطي للدخيل موقعًا هامًا نسبيًّا، ولكن موقعًا متحيزًا على الدوام لأحد جانبي الحدود. هارمان **Harman**، على سبيل المثال، يرى أن الدخيل في العصر الحديث "مستكشف 'في وسط' آخرين"، لكنه يؤكد في ذات اللحظة على أن الدخيل "عنصر داخلي يطل على ما هو خارجي" (*1988:7*). إن الكائن السوسيولوجي يظل، إذن، أكثر تحيزًا لجانب على جانب. ربما كان هذا نتيجة لأن عمل شيء مختلف سيتطلب التساؤل بشأن معنى "المجتمع"، وطبيعة الحدود المجتمعية، وبالتالي أحد الأقسام الجوهرية لعلم الاجتماع نفسه. إن سوسيولوجيا الدخيل يعتمد، في الواقع، على نوع من التفكير وثيق الصلة بالطريقة التي يتم بها تطبيق نظرية المنظومات على تاريخ الترجمات. لكن يبدو أنها لا تتناسب بشكل خاص مع تاريخ المترجمين، فهي على الأقل لا تتناسب

على ضوء الدوائر المتقاطعة الموضحة بالرسم. ولاداعي إلى الاعتقاد بأن المترجمين دخلاء بحكم التعريف.

هناك أنواع من علم الاجتماع قد تفتح بابًا لاحتمالات جيدة. ويمكن البحث عن أفكار موحية في تحليل الثقافات المتشاركة، أو سيكولوجيا مكان العمل *workplace*، أو نظريات الممارسة، أو أخلاقيات المهنة. لكن هذا ليس هو المكان المناسب لمتابعة كل هذه الاحتمالات(١). فاسمحوا لي أن أسجل جملة من الآراء التي يبدو أنها واعدة.

النظرية السوسيولوجية لـ "منظومات إبقاء الحدود " ***boundary-maintaining systems*** (وفقًا لـ ***Parsons 1953***) تفترض أن المنظومات تبقي على تخومها بالتمييز بين العلاقات الداخلية والعلاقات الخارجية. وفي أثناء تطويره المبكر لهذه النظرية، أشار ليومان ***Luhmann*** في مرحلة معينة إلى أن أعضاء المنظومة يقيمون علاقات يمكن أن تكون داخلية أو خارجية، لكن"العلاقات الداخلية هي الأكثر استحقاقًا واكتسابًا للثقة من العلاقات الخارجية" (*1968:101*).(٢) وهذا يعني

---

(١) بعض هذه الاحتمالات تساورني من قديم الزمان. فبينما كنت أقلب صفحات مرجع ضئيل للأنثروبولوجيا وأنا طالب، وجدت عن طريق المصادفة نفس شكل الدائرتين المتقاطعتين الذي أوردته في مستهل هذا الفصل. أفيكون هذا هو المصدر الذي نقلت منه الشكل السابق الذكر؟ يذكر الأنثروبولوجي إدموند ليش Edmund Leach (1976: 35) أن منطقة الحدود، التي قد تكون نقطة تقاطع بين أي جماعتين، مكان له "أهمية خاصة، تابو taboo [أحد المحرمات]" وأن "الفواصل المكانية والمؤقتة، المستخدمة فعلاً كحدود، هي في ذاتها حواجز *شاذة وأبدية وغامضة* قائمة على الحافة المقدسة" (الحروف المائلة في الأصل).. فإذا كان المترجمون بمثابة نقاط التقاطع وكانوا، كما يقال، هم علامات الحدود، فإن المرء قد يتوقع أن تكون لشيء من المقدس والمحرم أولوية على مؤسسة الترجمة وتنظيراتها جميعًا. هذا هو الخط الفكري الذي بلوره دوجلاس روبنسون(1996) Douglas Robinson مؤخرًا. إن التقاطع الذي يعتبر الأمر الأكثر إشكالية مبالغ في تحديده وإضفاء الطابع المؤسسي عليه، حيث يتم ذلك بنفس الطريقة التي تجتاز بها سلسلة طقوس العبور rites de passage منطقة الحدود الأنثروبولوجية.

(٢) هناك كتاب أحدث من تأليف ليومان ولكنه، للأسف، أقل ارتباطًا باهتماماتنا الحالية، خصوصًا وأنه يصر على أن المنظومات الاجتماعية وسائل اتصال، ويؤكد أنه لا يمكن أن توجد وسائل اتصال بين المنظومات، بل "إثارة" لا غير (راجع: Luhman 1997:9). ومهما يكن عدد أنصار ليومان الذين قد يتسمون بمثل هذه البصيرة النافذة، فإنني لا أرى ضرورة لتصنيف

أن تخوم المنظومة لا يتم تحديدها بحركة العضوية (انضمامًا وانفصالاً) فقط بل أيضًا بالعلاقات الحميمة، وأحكامها المصدقة عند الإنسان. فكلما كان الموقف منطويًا على شك أو خيانة كلما كان هذا النوع الخاص من الحدود ملحوظًا. وهكذا فإن النظرية تحدد هوية مساحة مقاسة بالدرجات بلا مبالغة في القياس بالأعراف والأيديولوجيات الطقوسية. والتقاطع ذاته ليس في حاجة إلى حدود ثابتة.

ويبدو أن هذه الآراء موحية بشكل خاص حين نتذكر أن القيام بالترجمة عملية موعودة باستمرار بوباء الشك وما يناظره من يقين. لكن المترجمين ليسوا مرتبطين بعلاقات الثقة الخاصة بنصوص أجنبية فحسب[(١)] بل يجب عليهم هم أنفسهم أن يسعوا باستمرار إلى اكتساب ثقة زبائنهم أومستقبلي ترجماتهم. ونظرًا لأن غير المترجمين الذين يعتمدون على الترجمات لا يستطيعون الحكم على عمل المترجمين بطريقة مباشرة، فإنه لابد من الثقة في المترجمين في أغلب الأحيان لأنه ما من طريقة أخرى لإقامة علاقة ناجحة معهم.

إذا كان المترجمون ينتمون إلى ثقافة مزدوجة في أغلب الأحيان، فإن المرء قد يتوقع أنهم غير موثوق بهم، على الأقل من منظور النصوص المترجمة لمنظومات حفظ الحدود. وبذلك، فإن إضفاء الطابع المؤسسي على الترجمة فرض منظومات للحكم والتقييم تؤكد على قيم الأمانة بوصفها قيمًا جديرة بالثقة. وعندما استخدم المصريون في المملكة القديمة تراجمة ***interpreters*** من المناطق الحدودية الجنوبية، فإنهم أعطوا أمراء جزيرة الفيلة – خبراءهم في الشئون الخارجية –

المترجمين باعتبارهم إما "وسائل اتصال" (داخل المنظومة intra systemic) أو "وسائل إثارة" (بين المنظومات intersystemic).

(١) لاحظ أن "الثقة الأولية" initiative trust هي اللحظة الأولى في "الحركة الهرمنيوطيقية" [حركة تفسير النص] عند جورج إشتاينر حيث "كل أشكال الإدراك، وكل أشكال التعبير الإيضاحي، الذي هو الترجمة، تبدأ بعمل من أعمال الثقة" (1975: 296).

اللقب الرسمي "المشرفون على الترجمانات"(*) (*Kurz 1985:218*)؛ وذلك بعد أن كان قد تم بناء حكم هيراركي (تراتبي)، ونظام لصيانة الحدود. وعندما استدعت الضرورة أن يقوم المترجمون من اليهود والموزاراب في إسبانيا العصور الوسطى بدور الوسطاء للنصوص العربية، وضعت الكنيسة والسلطة الملكية من بين الناس أشخاصًا في مناصب المشرفين: اتخذ رئيس دير كلوني مترجمًا من اليهود أو الموزاراب ليعمل ضمن سكرتارية المؤتمنين؛ وعند كبير أساقفة طليطلة كان الباحث الإسباني جونديسالفي *gundisalvi* (جونزاليث *gunzález* عن فوتس *Foz*) يحدد النصوص التي يمكن أن يترجمها اليهود (راجع:*Riet 1972:98*99*n*). وشكل ألفونسو العاشر فرقًا كان فيها اليهود والعرب يعملون تحت إشراف المسيحيين. وفي مجال بحثنا في عصرنا الحديث كان هناك، بالمثل، ما يدعو لأن لا يكون كائن مزدوج الثقافة مثل هنري ألبير في موضع ثقة من جانب معاصريه الباريسيين، تماما كما حدث من جانب المترجمين البلجيكيين الذين ترجموا فاجنر. وفي مواجهة مثل هذه الشكوك، كان من المنطقي أن يقاوم هنري ألبير عدم الثقة ويبدو باريسيًا أكثر من الباريسيين، تمامًا كما أن نتاجًا مزدوجًا ثقافيًا مثل ألفريد إرنست *Alfred Ernest* كان من المنطقي أن يتبنى مبدأ الالتزام النسبي بالحرفية وهو ما عارضه تمامًا كل من الباريسيين والمترجمين الحدوديين لفاجنر.

الازدواج الثقافي ونقيضه

يبدو أن المفارقة *paradox* يمكنها أن تفسر مثل هذه الإستراتيجيات. وهذه هي الفرضية الأساسية: نظرًا لأن الازدواج الثقافي ينطوي على الشك وعدم الثقة، فإنه يتم تصوير المترجمين المزدوجي الثقافة أيديولوجيًا وكذلك إضفاء الطابع

(*) نستخدم كلمة "ترجمان" وجمعها "تراجمة" مقابل الكلمة الإنجليزية interpreter. وقد استخدمنا هنا نفس الكلمة (ترجمان) مقابل كلمة "dragoman"، وفضلنا أن نجمعها جمعًا سالمًا لنحافظ على التمييز بين الكلمتين الأجنبيتين. (المترجم)

المؤسسي عليهم بطريقة تبرر الشك وعدم الثقة. وهكذا فإن الحديث عن الأمانة الكاملة، ذلك الحديث الذي كان له أساس معين في ترجمة النصوص المقدسة، قد تم جذبه إلى أرضية علمانية (*Copeland 1991*). وكلما أصبح الازدواج الثقافي أكثر تطورًا مع ظهور المراكز الحضرية، ليصبح ظاهرة من ظواهر المدنية أكثر منها ظاهرة من ظواهر مناطق حدودية جغرافية، بدت الترجمة شأنًا من شئون الروابط المقدسة. وهكذا، إذا أمكن إبراز أن المترجمين مرتبطون ارتباطًا قويًا بمواقع التداخل الثقافي، يكون من المتوقع أن يؤدي إضفاء الطابع المؤسسي على الترجمة إلى إخفاء أي أثر للازدواج الثقافي. وربما يكون هذا هو السبب في أن نظرياتنا في الترجمة تؤكد على أن المترجمين ينتمون إلى الثقافات المستهدفة.

فهل يمكن دحض هذه الفرضيات؟ إذا قلنا أن كل المترجمين مزدوجون ثقافيًا بحكم التعريف، خصوصًا حين يقولون هم وغيرهم أنهم ليسوا كذلك، فإننا نكون واقفين عند الموقف الكلاسيكي الذي لا يمكن دحضه، نعيد إنتاج تحيزنا مهما تكن الأحداث التي نواجهها. ولا يمكن في الواقع تجنب مثل هذا الموقف إلا إذا التزمنا بتحديد الشاهد الحقيقي على المفارقة، على مستوى الممارسة وعلى مستوى النظرية معًا، وكذلك فيما يخص العلاقة بين الممارسة والنظرية. وينبغي علينا أن نوضح ثلاثة أشياء: أن المترجمين المتميزين مرتبطون ارتباطًا عضويًا بشكل من أشكال الازدواج الثقافي، وأن التمثيل ذا الطابع المؤسسي لهؤلاء المترجمين يخفي ازدواجيتهم الثقافية، وأن هناك ارتباطًا سببيًا بشكل من أشكال النقل من المستوى الأول إلى المستوى الآخر. وحينذاك فقط يمكننا أن ندعي فعلاً أننا نختبر الفرضيات وربما نكتشف شيئًا ما أيضًا.

كيف نبدأ الإجابة عن هذه الأسئلة؟ لقد بدأت فعلاً، بقلب مفعم بالأمل، في طرح مجموعة كاملة من الوسائل المنهجية المناسبة. على المستوى المادي، لابد أن تكون عملية إعادة بناء الشبكات، خصوصًا من خلال الطريقة التدريجية، قادرة على تحديد نقاط التقاطع الثقافي بألفاظ مادية خالصة، وأن يكون بوسعها، بالإضافة

إلى ذلك، أن تفعل ذلك دون اشتراط مسبق بأن تكون الثقافة المزدوجة قد وطدت حدودها، وذلك نظرًا لأن الشبكات التي رأيناها تميل إلى التهرؤ عند الأحرف ولها روابط تضعف أكثر فأكثر كلما ابتعدنا عن النشاط الثقافي الرئيسي. وبالنسبة للعنصر المؤسسي، بما في ذلك العناصر المؤسسية الخالصة بالمعنى السوسيولوجي للكلمة، ماذا عساها تكون النظم ***regimes*** إن لم تكن نموذجًا للأيديولوجيات المولدة للترجمة؟ عندما تتفاوض مجموعات مختلفة حول المعايير والإجراءات التي تعتبر وثيقة الصلة بالترجمة في زمان ومكان محددين، يبدو غالبًا أن هذه المجموعات تقرر الطرق التي يمكن أن تحجب الازدواج الثقافي. فلماذا ينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك؟ لأن أسباب الترجمة، كما ذكرنا، متعددة ومتناقضة، لدرجة أن السببية المادية للازدواج الثقافي قد تصبح متضاربة مع تلك الأسباب الأقوى النابعة من مصالح ثقافة المصدر ***source culture*** [المنقول إليها] والثقافة المستهدفة ***target culture*** [المنقول إليها]. ومن هنا تأتي الأهمية الكبرى لتوضيح الأسس المادية والبشرية للتاريخ. فالازدواج الثقافي، على الأرجح، لا يكون موجودًا إلا هناك.

مهن الازدواج الثقافي بصورة نسق اجتماعي

أشرت منذ قليل إلى الكيان البدني للمترجم باعتباره الأساس المادي لتقاطع مختلف الثقافات. وفي وسعنا أن نحدد مواقع الأيدي والأفواه والأقدام التي تنتمي إلى جانبين في آن واحد معًا. وهناك وضعية جوهرية ***substantiality*** أكثر وضوحًا تتعلق بالأماكن التي يعمل فيها المترجمون، باعتبارها قضية تخص كلاً من الكيانات الفردية والكيانات الجماعية، خصوصًا إن كان من الممكن رؤية الأنساق المهنية في شروط اجتماعية.

ومن الواضح أن الازدواج الثقافي لا يعني أن هناك معسكرات للمترجمين حول الحدود القومية عبر العالم. فالازدواج الثقافي كف منذ زمن طويل عن أن

يكون نتاجًا مباشرًا للتربة. وكما أسلفنا، فإن المدن، وخصوصًا المدن الضخمة في عصرنا، هي الأماكن الأميز حاليًا لنقاط التقاطع الثقافي.

لكن المترجمين ليسوا هم الأشخاص الوحيدون الذين يمكن أن يكونوا في نقاط التقاطع الثقافي الخاصة بهندستهم العمرانية ***urban geometry*** فهم غالبا ما يعملون لصالح أو بجانب وسطاء آخرين مثل الدبلوماسيين والمفاوضين والرحالة والأكاديميين والمعلمين والصحافيين والعلماء والمستكشفين والتجار من كل نوع. وهؤلاء الأشخاص ليسوا بالضرورة عملاء للسلام والتفاهم الدوليين، لكنهم بكل تأكيد يؤدون عملاً بين الثقافات. وقد تشمل قائمة الوسطاء أيضًا أشخاصًا مشبوهين مثل الجواسيس وتجار المخدرات والأسلحة، والعاملين في مجال الترويج السياحي المجردين من المبادئ، وخبراء الإغراق الإيكولوجي ***ecological dumping***، والمنشقين السياسيين، والمستوطنين الأوائل ***hegemonic colonizers***، والقوات الغازية. وفي كل الأحوال، فإن هؤلاء يمكن أن يكونوا جميعًا أشخاصًا يوجدون أعمالاً للمترجمين. ونظرًا لأن الكثير من المهنيين المزدوجين ثقافيًا يعيشون أيضًا داخل الكيانات التي تقوم بعمل الترجمة، فإنهم هم أنفسهم يصبحون أيضًا مترجمين.

الوضع الحقيقي للمهن الوثيقة الصلة بكل حالة يتعين تحديده ووصفه بالتنقيب عن المعلومات في روابط الشبكة. ومن الممكن للمرء أن يستخدم شبكات جاهزة مثل الشبكة الفرنسية الألمانية ***enquête/Umfrage*** لعام ١٨٩٥ حيث كان مجموعة من الباحثين، التربويين، والكتاب ورجال الدولة، وضباط الجيش، والتجار، والمترجمين أيضًا، الفرنسيين والألمان (بالإضافة إلى بعض الأوروبيين "الأجانب")، يُعتبرون مزدوجي الثقافة على الأقل بقدر ما أن لديهم شيء ما يعول عليه يقولونه عن العلاقات الفرنسية الألمانية. وكانت قد عقدت بين هذه الكائنات المزدوجة الثقافة مناظرة، ولكن ليس على مستوى الثقافتين الفرنسية والألمانية كوحدتين كاملتين. كانت النقطة الرئيسية هي أن الوسط الاجتماعي للمترجمين يشمل الأشخاص المرتبطين بعمليات التبادل بين الثقافات المختلفة. إن كان ذلك

كذلك، فإن الأوساط المزدوجة الثقافة (*enquête/ Umfrage*) بوجه خاص قد تحدثنا عن الترجمة أكثر من أي وسط أحادي الثقافة (كالسوسيولوجيا الخالصة لكل من فرنسا وألمانيا في القرن التاسع عشر). هذا هو أحد الدواعي التي تستوجب أن تبدأ شبكاتنا من نقاط التقاطع.

ما سبق سلسلة من الفرضيات؛ قصص مؤثرة ذات قدرة نقدية ليس إلا. فالازدواج الثقافي ينبغي أن لا يصبح عقيدة جامدة في رؤية التاريخ كله. فهو لا يقول أن علاقات الثقافات الأحادية بالترجمة قد انقطعت على حين فجأة. ولا ينبغي أيضًا أن يفترض حتمية أي موضوع معرفي، أو أي دعاوى مهنية أبدية، أو أن "المجتمع مزدوج الثقافة" يعيد إنتاج ذاته جيلاً بعد جيل. وأنا لست على يقين من أن فكرة المجتمع يمكن أن تفسر تاريخ الترجمة لمجرد أن طبيعة القطع المتماثل طويل الأجل لتكرارات الترجمة تميل إلى كبح الثبات الطويل الأجل(1). ويبدو أن المترجمين لا يتعين عليهم أن يعيدوا إنتاج وحدات اجتماعية دبلوماسية أساسية في العواصم الكبرى في العالم، حيث يتم توجيه النشاطات المهنية والاجتماعية بنوع منظم جدًّا من الازدواج الثقافي. وهناك نوع معين من الوحدات الاجتماعية يمكن أن تكون موجودة أيضًا بين التكوينات الأقل تنظيمًا مثل الكتاب الأجانب من أنصار الـ "*moveable feasts*" [الأعياد التي يمكن تغيير مواعيدها] للحداثة الأوروبية، أو مجموعات الأبحاث الدولية الخاصة بمختبرات القرن العشرين، أو علاقات التبادل بين الوكالات الكبرى للترجمة في أوروبا، أو أصحاب المهن الذين يديرون الشبكات الدولية التي تبث لنا التلفزة متعددة اللغات. وبغض النظر عن ثباتهم أو عدم

---

(1) لاحظ أن استخدامي لكلمة "community" [وحدة اجتماعية] هنا يختلف عما يسميه دوريشين "interliterary communities" [الوحدات الاجتماعية المزدوجة الأدب]، فهذه بالأساس مجموعات من آداب قومية متبادلة العلاقة غير مقيدة بأي تقاطع. وعلى أية حال، فإن دوريشين لا يولي أهمية خاصة لظواهر الازدواج الثقافي مثل "الثنائية أو التعددية الأدبية لمجموعات اجتماعية بذاتها"، و"ثنائية أو تعددية المقر لكتاب معينين أو لكتابات معينة" ودور الترجمة الخلاقة بطبيعة الحال (انظر على وجه الخصوص Durišin 1989; 125-137).

ثباتهم، فإن المترجمين يشاركون في كل هذه المجموعات دون أدنى شك، في الوقت الذي يشكلون فيه مجموعاتهم المزدوجة الثقافة. وبدءًا بالمترجمين الأجانب في إسبانيا القرن الثاني عشر وحتى طلاب التبادل الطلابي ومعلمي اللغات الأجنبية في مدارس تدريب المترجمين المعاصرة، ظل المترجمون على الأقل يحومون حول الوحدات الاجتماعية المزدوجة الثقافة. ولقول المزيد، فإننا في حاجة إلى المزيد من المعرفة.

رابط أساسي بديل

دعوني الآن أستجمع شجاعتي للاستفادة من الازدواج الثقافي بصورة أكثر منهجية إلى حد ما. إن معظم نماذج الترجمة تعتبر الحركة من ثقافة المصدر إلى الثقافة المستهدفة الحد الأدنى لرابطتها، بغض النظر عن الجانب الذي يفترض أن يكون فيه المترجم. فيكون الرابط الأساسي الخاص بنماذج الترجمة مشابهًا جدًّا للكلمات التي داخل الدائرتين اللتين أوردناهما في مستهل هذا الفصل:

... الثقافة *1*، المترجم، الثقافة 2...

إن بعض المنظرين يعتقدون أن الثورة حدثت لمجرد أننا ننظر في هذه الأيام إلى الثقافات المستهدفة أكثر مما ننظر إلى المصادر. لكننا نستخدم فعليًا نفس الرابط الأساسي الذي تستخدمه ثقافات المصدر المتميزة. فلم يكن هناك تعديل جذري في الهندسة التحليلية التقليدية. وفي نطاق هذا الرابط التقليدي، فإن تزاوجات أنماط ومستويات مختلفة من الثقافات قد تؤدي عن طيب خاطر إلى طول أو قصر نقاط المغادرة والوصول، وتشير إلى أي مدى شارك أحد الجوانب أو لم يشارك الجانب الآخر، وأين يوجد المترجمون، وفي أي ناحية ينظرون، وهكذا دواليك. غير أن النموذج لا يبدأ من موقع المترجمين؛ فهو لا يمكن أن يعطي الأولوية

للازدواج الثقافي. أما إذا كان موقع المترجم يعتبر موقعًا أوليًا، فإنه يمكننا بالتالي أن نصوغ رابطًا أساسيًا بديلاً على النحو التالي:

... المترجم *1*، الثقافة، المترجم *2*...

هذا يعني أنه، بدلاً من البدء والانتهاء بالثقافات، يمكن للرابط الأساسي وثيق الصلة بتاريخ الترجمة أن يبدأ وينتهي بالمترجمين(١). هذا هو ما يحدث كلما ربطت شبكاتنا مترجمين بمترجمين آخرين (الموزاراب واليهود وعلماء اللاتينية في قشتالة العصور الوسطى)، أو أصحاب نظريات الترجمة بأصحاب نظريات ترجمة آخرين (قرطاجنة وبروني)، أو حتى سياقات مؤسساتية تجتاز الحدود الثقافية (الصحافة الأدبية الفرنسية والألمانية في القرن الحادي عشر). هذا هو ما يحدث أيضًا كلما تظاهرت مثل هذه المجموعات، بصلاتها ببعضها البعض الآخر، بأنها قادرة على أن تبدأ في صياغة نظام للترجمة. وعلى ذلك، فإن حيز نظام الترجمة يخص أولاً وقبل كل شيء الروابط المزدوجة الثقافة التي شكلها مترجمون ووسطاء آخرون بطول تخوم الثقافة المعنية وحولها.

إن إشارتنا إلى المجموعات لها أيضًا وظيفة سلبية مفيدة. لقد رأينا كيف كان بعض الباحثين (وكان مثالنا عن نورد *Nord*) يقارنون مترجمين ومعايير من خلال سياقات منفصلة تمامًا، ثم يستنتجون بكل رزانة أن معايير المترجمين، نظرًا لأنهم

---

(١) فكرتي هنا مأخوذة عن المثال الذي أورده كون (Kuhn 1987:12-15). فعندما ابتكر فولتا Volta البطارية الأولى، يبدو أن خليته، أو الرابط الأساسي كانت عبارة عن اتحاد معدنين مختلفين مع ورق نشاف مبلل يفصل الخلايا. لكن البطارية الحديثة، التي تعمل بنفس الفكرة، لها قطبان معدنيان في نهاية كل وحدة أساسية، وماء داخل كل خلية بدلاً من الخلايا الفاصلة. كان نموذج فولتا ينطلق من رؤية كهروستاتيكية؛ على حين أن النموذج الحديث بدأ كنظرية كيميائية. ومع أن البطارية هي نفسها في كلتا الحالتين، إلا أن المفاهيم التي أتاحتها النظرية الكيميائية كانت ضرورية لتطور لاحق للاختراع. لقد كانت هناك طريقتان للتعامل مع نفس الظاهرة الأولية، ولكن طريقة واحدة هي التي أتاحت تطورات لم تتحها الأخرى.

يعملون بطرق مختلفة، تحدد السمة الثقافية. لكننا إن تمسكنا برابطنا الأساسي، فإن قفزات الفراسخ السبعة ***seven-league jumps*** تصبح غير مقبولة. فالوظيفة الهرمنيوطيقية ل "الثقافة"، تلك الوظيفة التي كان يتعين عليها ذات يوم أن توفر عناصر المقارنة، يتعين عليها اليوم أن تكون قيدًا على المترجمين الذين يمكنهم الدخول في المقارنة. والمعايير والنظم التي نكون بصددها لابد أن تكون مرتبطة بحيــز ثقافي مزدوج واحد قائم على وضعية مادية مشتركة لزمان ومكان معينين. لو لم يكن ذلك كذلك، لما حققنا تاريخاً.

ما الثقافة؟

قد ينزعج بعض القراء من أنني تعرضت للثقافات المزدوجة دون أن أقول أبدًا ما هي الثقافة. فهل هذا خطأ منهجي؟ كلا. إن ذلك يمكن تبريره على أن الثقافات المزدوجة، وفقًا لرابطنا الأساسي المعدل، تسبق الثقافات الأحادية من الناحية المنهجية، بالضبط كما يسبق البدو الرحل مرحلة الزراعة المستقرة. على صعيد المنطق الإجرائي أيضًا، كانت التفكيكية تدفعني على الدوام لأن أنزعج كثيرًا من إعطاء الأولوية للاختلاف مع أن رؤيتي للازدواج الثقافي تنطوي على شيء أكثر ثراءً من الــ ***abstract gramme*** (*) الذي فجر تفسيرات دريدا ***Derrida***. وحيث أن الحياة بدأت قبل أن نلجها، فلماذا إذن لا نبدأ بالدخول فــي صميم المــوضوع ***in media res***، منطلقين مباشرةً من الألفاظ كما نجدها؟ حينذاك سيمكننا أن نستنطق الحواف المتناقضة التي نسعى إليها.

إن الرفض المعلل لإعطاء تعريف استنتاجي لثقافات قائمة بذاتها قد ينظر إليه أيضًا باعتباره خطوة إستراتيجية، لا لتسييل الحقائق الاجتماعية للثقافات ولكن

(*) هنا إشارة إلى كتاب جاك دريدا Grammatologie، والمعنى على الأرجح: علم الكتابة. (المترجم)

للكشف عنها دون أن نحمل الأمر ما لا طاقة لنا به من مزاعم عمياء. وهناك في الواقع دوافع كثيرة للشك في المنظرين الذين يقولون لنا بشكل غير مقنع ما هي الثقافة والذين يقحمون تحليل الترجمة في تفاهات الـ ***Landeskunde*** أو ***civilisation*** أو أيما يطلق على ذلك من ألفاظ إنجليزية تخص دراسة خلفيات الثقافة الأحادية. ولنتجنب المزاعم المتسرعة بشأن الثقافات الأحادية، أقترح أن نترك "الثقافة" بلا تعريف، مثلها مثل المنطقة التي يتعين علينا أن نكتشف فيها الكثير. وبدقة أكثر، يمكن تعريف الثقافات المستقلة بالنقيض، لا كنصوص مصدرية أو كنصوص مستهدفة بل باعتبارها مقاومة لحركة النصوص من ترجمة إلى أخرى، من مُدخل أو مُخرج، تفرض وتشوه اللحظات الاحتمالية الكثيرة للرسائل المتجهة إلى الداخل أو الخارج. فهل كانت الثقافة القشتالية في العصور الوسطى، في منظور تاريخ الترجمة، شيئًا سوى نوع من النشاط الاجتماعي الذي شوه حركة النصوص من العربية للاتينية؟ ألم تكن الثقافة الإسلامية تشوه بالمثل التحركات من اللاتينية؟ كذلك كانت الهيومانية الإيطالية وسيطًا للنقل بين النصوص الكلاسيكية واللغات الدارجة(*) الأوروبية. وهكذا دواليك. فإذا لم تكن هناك ثقافات، لما كان من الممكن أن تكون هناك مقاومة للمرور الحر للمعلومات؛ ولظلت الرسائل على حالها دون تغيير. وعلى ذلك، يمكننا أن نطلب من الثقافات أن تبرهن لنا على وجودها عن طريق نقل النصوص (الكلمات والأفكار والمفاهيم) التي تدخل وتخرج من خلال الثقافات المزدوجة. وبهذه الطريقة، يمكن لتاريخ الترجمة القائم على أساس الازدواج الثقافي أن يحدثنا عن الثقافات وليس عن أي شيء آخر. ولعل أولئك الذين اعتادوا على الارتياب في المترجمين على اعتبار أنهم يشوهون النصوص هم الذين ينظر إليهم بوصفهم مصادر التشويه. إنها لفكرة مثيرة.

(*) اللغة الدراجة (بالإنجليزية: vernacular) هي اللغة القومية التي تجري عليها ألسنة الأمة، ونسميها عندنا اللغة العامية، مع أن العامية (بالإنجليزية: slang) مجرد تعبير واصف للكلمات لبيان وضعها المعجمي من حيث تحقيقها أو عدم تحقيقها لدرجة عالية من الذيوع والاستخدام الواسع وغير ذلك من المقاييس اللغوية، وهي بذلك- أي العامية- ليست منظومة شاملة للغة. وهي أيضًا غير طرائق القول اللهجية (بالإنجليزية: dialects)- المترجم.

أنا لست حياديًا، فمن الصعب أن أدعو لترسيخ ثقافات منفصلة في منطقة مثل أوروبا التي تمزقت أجنابها الجنوبية والشرقية في السنوات الخمس الماضية بدعوى الهوية الثقافية القومية. لكن محاولة رسم صورة الازدواج الثقافي، أو البحث عن بزوره في الماضي، وربما ادخار هذه البزور من أجل المستقبل، ليس معناها أننا ننكر حق وإرادة عالم منقسم إلى ثقافات منفصلة، بل يعني تقديم البدائل. كما أن منهجًا يضع كافة المترجمين في هذا أو ذلك الجانب، لهو منهج عاجز عن وضع تصورات بديلة. وهو منهج لن يبحث عن العلاقات بين الترجمة وضعف سلطة الازدواج الثقافي في الإمبراطوريات الأوروبية، سواء أتعلق الأمر بالجرمانية المقدسة *Holy Germanic* أم بالاتحاد الأوروبي. وهو لن يرى الثقافات المزدوجة باعتبارها مساحات من اللاترجمة، من بدائل الترجمة، ما دام المترجمون ليسوا في حاجة إلى الاعتماد على الترجمات. ولن يقيم وزنًا لفوائد اللغات العالمية. وسوف يفشل غالبًا في إدراك الشبكات، والإنترنت، والمدينة المزدوجة ثقافيًا. وسوف يرفض أن يتصور عالمًا يحتمل أن تكون فيه الثقافات المزدوجة أكثر نفوذًا من الثقافات الأحادية التي تؤدي مهامها حاليًا. إن منهجًا مبنيًا على أساس الازدواج الثقافي في وسعه أن يثير قلقًا داخل أعشاش الزنابير في كل هذه المجالات. ويمكنه، أيضًا، أن يتخيل مدنًا عالمية كمواقع لفض المنازعات بين الثقافات القائمة. جيروساليم [القدس]؟ سراييفو؟ وربما بروكسل؟ وبعيدًا عن الأسباب الواهية، فإن التفكير الجاد بشأن الازدواج يعني تخيل عالم مختلف.

الفصل الثانى عشر

ازدواجية التخصص

يحسن المؤرخون صنعًا حين يذكرون أن الماضي بادَ وانتهى. فكل ما نملكه حقًا هو الحاضر. وأي شيء آخر مادة مكتوبة: الكتب والوثائق، الأشرطة والأفلام، الصور والكلمات البائدة. والمناقشات حول الماضي ليست مناقشات تخص الماضي بالمعنى الدقيق للكلمة، مادام الماضي، بالمعنى الدقيق للكلمة، لا يستطيع أن يجيب من جديد. إن مناقشاتنا تخص الحاضر؛ وقد تم صياغة وممارسة حواراتنا في أتون مصالح الـ "هنا والآن".

ولأن الحاضر له الأولوية، فإننا نادرًا ما نكون محايدين بالنسبة للأماكن التي نمارس فيها حواراتنا. إن مواقعنا المهنية وشبكاتنا تؤدي إلى التأثير فيما نقول، ولمن نوجه حديثنا، ومن يسترق السمع إلينا. ويبدو أن من المهم أننا جميعًا تقريبًا ننتمي إلى مؤسسات أكاديمية من نوع أو آخر، لا ينقصنا لا الأبنية ولا المرتبات ولا الطلبة ولا هياكل النفوذ. ويبدو مهمًّا أيضًا أن تاريخ الترجمة ليس شيئًا مركزيًّا لأي من هذه الهياكل. ولكن هل يهم حقًّا أن لا يجد موضوعنا مقرًّا أكاديميًّا محددًا؟ وهل يهم أن يكون لدينا عدد قليل من الدروس الجامعية المتخصصة في تاريخ الترجمة وعدد قليل جدًّا من أقسام متخصصة في دراسات الترجمة تشمل بشكل آمن برامج التاريخ؟

لا أظن. وبوضوح أكبر، أنا أؤمن بأنه ينبغي علينا أن نقصي تاريخ الترجمة تمامًا عن المواقع المؤسسية القائمة. وإذا ما قدّر لنشاطنا أن يظل مجتزأً ومتناثرًا في خريطة هولمس لدراسات الترجمة، فإنه قد يمكنه أن يقف في مواجهة أسوأ

مساوئ أكاديميينا السياسيين. لتفسير ذلك، أريد أن أناقش بإيجاز وضع الأدب المقارن، وازدواجية التخصص *interdisciplinarity* في دراسات الترجمة، واحتمالات أن يصبح تاريخ الترجمة جزءًا من شيء أكبر، شيء يسمى دراسات الازدواج الثقافي، هذه الدراسات التي يمكنها الاستفادة من عدم وجود هيكل أكاديمي ذي طابع مؤسسي بصورة مطلقة.

مبررات ذاتية للتشاؤم

نظرًا لأنني لا أستطيع أن أدعي إدراك هذه القصة بكاملها، فإن التفسير التالي يعتمد بالضرورة على فكرة من أفكاري الذاتية. ففي الخمسة عشر عامًا الماضية تقريبًا ظللت أعمل في مجال تاريخ الترجمة من خلال سلسلة من المراكز الأكاديمية: قسمان مختلفان تمامًا من أقسام الأدب المقارن، وفريق بحثي عن سوسيولوجيا الأدب، ومعهدان لتدريب المترجمين، ومركز بحثي في الترجمة الأدبية، وقسم لتعليم الإنجليزية كلغة بصورة عامة. والأشخاص الذين أشير إليهم أو إلى أفكارهم أعضاء في سلسلة مشابهة من المراكز الأكاديمية. كل هذه الهياكل الرسمية أتاحت إمكانية إجراء نوع من أنواع تاريخ الترجمة. ومع أن بعض المراكز كان أكثر ترحيبًا من الأخرى، إلا أنها جميعًا فرضت قيودًا.

لنلاحظ غياب علم اللغة في القائمة القصيرة التي ذكرتها من المؤسسات الأكاديمية. ويبدو أن تاريخ الترجمة له صلة واهية بعلم اللغة بالمعنى المعروف للكلمة. ولقد أوليت أنا اهتمامًا طفيفًا للمسائل اللغوية خلال تأليفي لهذا الكتاب. لكن علم اللغة هو، رغم ذلك، الجانب السائد في مؤسسات تدريب المترجمين في إسبانيا، حيث أعمل حاليًا. وفي تجربة مثيرة غير منقطعة الصلة، بحثت في إحدى المراحل عن "التأهيل القبلي" لوظيفة ***maître de conférences*** [للعمل كمحاضر] في فرنسا، وكاتبت المنظومة القومية المعنية التي اضطرتني لأن أتقدم بطلب في إحدى

الفئات الوظيفية العشر، ولا واحدة منها ذكرت الترجمة. وحتى لا أفوّت على نفسي الفرصة، تقدمت لنوعين من الوظائف: لغة عامة وآداب مقارنة (أجل، بصيغة الجمع). ولدهشتي فزت بالوظيفة الأولى ولم أفز بالثانية، ربما لأن كلمة "ترجمة" في كتبي المنشورة قد ارتبطت بصورة آلية بعلم اللغة وليس بمفهوم فرنسي محدد عن الأدب المقارن. وربما كنا نتعامل بنفس الشكل مع علم اللغة أردنا ذلك أم لم نرد.

لنلاحظ أيضًا تجسدات فكرة الأدب المقارن. ففي فرنسا، استكمالاً للحكاية، تم اختزال نوع من الأدب المقارن بصورة تدريجية ليصبح شيئًا مماثلاً للدراسات الخاصة بالمؤلفين، وباستقصاء المصائر والمؤثرات، وخصوصًا تلك الخاصة بالتسميات الثنائية الشائعة في فرنسا. ومن ثم، فإن المنهج العام جدًّا للترجمة، مع التركيز على منطلق سوسيولوجي لا جدال فيه، يمكن استبعاده تمامًا. لكن هناك نوعًا آخر من الأدب المقارن يعمل في اتجاه يمكن أن يجعل مجاله أوسع. مثلاً، كتاب ***Précis de litérature comparée*** [موجز الأدب المقارن] ***(Brunel and chevrel 1989)*** يشمل في الواقع فصولاً عن "الأدب المترجم" و"الأدب والمجتمع". فهل هو يشمل تاريخ الترجمة السوسيولوجية أم لا؟ أو، بالأحرى، هل ينبغي علينا أن نترك الفرنسيين يجادلون كما يحلو لهم؟

الموقف ليس أكثر وضوحًا في تراث اللغة الإنجليزية. وأنا أذكر أنه تم تسجيلي وأنا لما أزل طالبًا في برنامج متسلسل يسمى على التعاقب "الأدب العالمي ونظرية الأدب"، "الأدب المقارن ونظرية الأدب"، "الأدب الإنجليزي والمقارن"، وربما كانت هناك أشياء أخرى غير ذلك، لكنني فقدت الاهتمام بها منذ عهد بعيد. ومما يثير العجب أن نفس البرنامج كان يركز على السيميوطيقا ***Semiotics*** التي سميت فيما بعد علم اللغة ***Linguistics***. وكما توحي الأسماء، فإن ذلك الفرع من الأدب المقارن بقي مفتوحًا لوافدين كثيرين، فشمل مناظرات ما بعد البنيوية،

والماركسية الألتوسيرية، وصلات مع [أنصار] ندّية المرأة(*) *feminism*، وبدايات نظرية ما بعد الكولونيالية *Postcolonial theory* (التي عاودت الظهور في سبعينيات القرن العشرين). إن أي تشكيلة منظمة من الخلطة الناتجة توصف بأنها النظرية الأدبية والثقافية العامة، تلك النظرية التي غالبًا ما تتغاضى عن القيود التصنيفية للأدب ولمناهج المقارنة. لكن الأدب المقارن لم يكن يتعين عليه أن يكون مقارنًا، ولم يكن يتعين عليه أن يكون مقحمًا على الأدب أصلاً؛ لقد كان أي شيء أردنا له أن يكون. فلا أحد اعترض على اشتغالي بالترجمة؛ ولا أحد ألح عليّ بأن أعمل في مجال الترجمة الأدبية على وجه التحديد.

دع هذا يؤكد على نقطة أخرى شديدة التعقيد: نظرًا لأن بعضًا من مراكزنا المؤسسية الأكثر تأثيرًا لها "أدب" بأسمائها، فإن التركيز على النصوص الأدبية قد هيمن تمامًا على تاريخ الترجمة، إلى حد أن الأشكال الأخرى للترجمة تبدو أحيانًا غير موجودة. وأنا أرى أنه لا حاجة بنا إلى الالتفات لهذه المركزية الأدبية. وقد استطعت في أغلب الأحيان أن أكون بعيدًا عن مجال دراسة الترجمة الأدبية في دورات اللغة الفنية *technical language*، وأن أجري دراسات في الترجمة اللاأدبية وأنا أدرس في أقسام الأدب. وأنـــا، في الواقع، أمــزج بين الشيئين لأنني لا أرى داعيًا لأن يكون للفصل بين النصوص الأدبية والنصوص غير الأدبية أولوية إبستمولوجية على كافة الأصناف الأخرى من الترجمة.(١) وهذا يزعج الناس

(*) تعبير "ندية المرأة" هو تعريبنا لكلمة feminism التي يقصد بها المساواة بين الذكور والإناث. (المترجم)

(١) فيما يتعلق برفضي للأدبية البديهية axiomatic literariness، يحضرني درس من جاكوبسون Jakobson الذي كان يرى أن هناك قيمة أدبية في عبارات مثل (I like Ike) [ربما: أنا أحب أيك]. لكن نظرية غاية في الأدبية قد تحط أحيانًا من قدر مؤسسة الأدب. وعلى ذلك، فأنا أعترض على أقوال أندريه ليفيفير الغريبة ضد الدراسات المستقلة للترجمة التي قـــال عنها ذات مـــرة أنه "من غير الممكن أن نميز بين ترجمة أدبية وترجمة لا أدبية، أو ترجمة فنية Technical" (1991: 131، انظر أيضًا:Lefevere, 1981: 46). وفيما يتعلق بي، فإن رفضي القيام بعملية تمييز استنتاجي a priori distinction كان دافعًا قويًا لي للبحث عن دراسات مستقلة للترجمة. ولاحظ أن ليفيفير، بعد رفضه للدراسات المستقلة=

أحيانًا. وقد تعرضت للانتقاد بسبب تركيزي الشديد على الأدب بوجه خاص ولتجاهلي للخصوصية الأدبية. لكن الشيء الوحيد الذي يزعجه هنا هو الثنائية المؤسسية التي تخشى الانفتاح على تاريخ الترجمة.

وبوجه عام، فإنني أرى أن تاريخ الترجمة يأمل في أن يجد أقل قدر مناسب من الهيكلة في علم اللغة أو الأدب المقارن أو الدراسات الأدبية بالمعنى الضيق للكلمة. وهذه المراكز يجب أن يُنظر لها باعتبارها زبائن لبحثنا، ومعها كل أشكال الإقصاء والمفاوضة التي تنطوي عليها مثل هذه العلاقة. إن تاريخ الترجمة ليس في حاجة لأن يكون متطابقًا مع أي برنامج دراسي بعينه؛ فهو يمكن أن يروِّج له في نطاق برامج دراسية عديدة.

تخصص نفتقده

إن لم نكن قلنا وداعًا للأدب المقارن، فإنه ينبغي علينا أن نقول. وقد نصت سوزان باسنيت بكل صراحة على ما كنا نشعر به لمدة أعوام حيث قالت: "الأدب المقارن، كتخصص، كان له شأنه ذات يوم" (*1993 : 161*) هذا أي كلام [بالدارجة: نص نص]. لقد جاءت النهاية في شكل ركود وليس أزمة. فبرامج الأدب المقارن، كما لاحظنا، مثل البرنامج الذي التحقت به وأنا طالب، قد تخلت عن المقارنة الدقيقة للآداب منذ زمن بعيد. ومن ناحية أخرى، فإن الأقسام الأكثر تقليدية، مثل القسم الأمريكي الذي مكثت فيه لمدة عام، أصبحت عاجزة نسبيًا عن الاستجابة للتنظير الجيد الذي يتم في الأقسام المنافسة كالفرنسية، والألمانية أو الإنجليزية أحيانًا. وفي كلا الحالين، قدم الأدب المقارن القليل من الأفكار أو النماذج التي تناسب الطريقة التي تغيرت بها أوضاع الثقافات على المستوى الكوكبي خلال

=للترجمة بعام واحد، شارك في تأليف نص يقول "إن نمو دراسات الترجمة كتخصص مستقل هو قصة نجاح لحقبة الثمانينيات (1980s)" (Bassnett and lefevere 1992: xi).

العشرين عامًا الماضية تقريبًا. إن الكتب المرجعية مازالت تقدم لنا أدبًا قوميًّا هنا وآخر هناك. وهناك نوع من القفز بين الاثنين (أو الثلاثة، أو الأربعة – فالهندسة تظل نفسها).

ما الذي ينبغي أن يحل محل الأدب المقارن؟ أعتقد أن سوزان باسنيت منسوب إليها جوابان. الأول هو موضوعات الدكتوراه المقدمة في جامعة وارويك *Warwick* "دراسات الترجمة، والنظرية الأدبية المقارنة، والأدب المقارن، ودراسات الثقافة البريطانية، ودراسات بريطانية حديثة، ودراسات ما بعد كولونيالية"(١). ترى هل تم تجاهل شيء من الأشياء؟ أنا على يقين من أن كل الأشخاص في وسعهم أن يفعلوا ما يريدون؛ حتى وفي وسع البعض أن يدرسوا تاريخ الترجمة. لكن، أيًّا ما كان ما يدعيه هذا العنوان الضخم فإنه ليس موضوع تخصص.

والجواب الآخر عند باسنيت جواب منهجي وحالم أيضًا. فهي ترى أن الأدب المقارن قد أصبح فرعًا من حقل عريض يسمى "دراسات الترجمة" (في: *Lefevere and Bassnett 1990: 12*، وفي مكان آخر) وذلك لأسباب مختلفة من أهمها أن "الغالبة العظمى من مشاكل الأدب التي لم يستطع أن يحلها الباحثون في مجال الأدب المقارن يحلها الآن أولئك الذين يعملون في مجال دراسات

---

(١) "في السنوات الأخيرة، اشتملت أبحاث الدكتوراه على دراسة في ترجمات القرن الثامن عشر لنصوص شكسبير إلى الإيطالية، وتحقيق لكتاب Constructions of Egypt من تأليف رحالة فرنسيين وإنجليز بين عامي ١٧٩٠ و١٨٥٠، ودراسة عن النظرية والممارسة في الترجمة الأدبية الإفريقية، وتحليل لمقالات Arab feminist writings، ودراسة عن مزاعم تركيا عن القصص البوليسي في القرن العشرين (باللغة الإنجليزية)، ودراسة مقارنة حول كتابات نسائية في النهضة الإنجليزية والفرنسية، وتحليل عن نظريات ما بعد حداثية في الترجمة، وتاريخ الترجمة الإنجليزية لشعر الملايو، ودراسة عن عملية "الأجلزة" Englishing للكتاب المقدس [أي إضفاء الطابع الإنجليزي عليه]، وتحقيق لدراسة عن ترجمة واستقبال نصوص أدبية برازيلية مختارة، ودراسة عن مشكلات ترجمة النصوص المسرحية، وعلى غيرها من موضوعات" (Bassett 1994:35).

الترجمة" (*18: 1991*). فهل يمكن لهذا الطرح القائم من الناحية الظاهرية على تصنيف بارت لعلم اللغة باعتباره فرعًا من السيميوطيقا[1] أن يكون صالحًا لإثارة الغضب؟ أنا لا أفهم هذا في الواقع. فما هي المشكلات المحددة التي حلتها دراسات الترجمة وفشل الأدب المقارن في حلها (بصرف النظر عن مشكلة محاولة الظهور بمظهر جديد وجذاب للطلاب)؟ وماذا ينبغي عمله بكل دقيقة من دقائق الأدب المقارن المشغولة بمقارنة النصوص غير المترجمة؟ وهل ستكون هذه الأشياء داخل الدراسات الجديدة للترجمة أم خارجها؟

هنا تكمن السخرية. إن طرح باسنيت المنهجي لا يكون ذا معنى إلا إذا حُلت مشكلة التمييز بين النص المترجم والنص اللامترجم. ويمكن لهذا أيضًا أن يجعل النتيجة متوافقة مع قائمة وارويك الخاصة بدراسات الترجمة وأي شيء آخر. لكن التمييز بين النص المترجم والنص اللامترجم قد تعرض مرارًا وتكرارًا للهجوم عليه من عدة جوانب: خلال "عملية إعادة الصياغة" التامة التي أجراها ليفيفير (راجع:*1992a*)، وخلال الاتهامات الموجهة ضد تعميم التناص ***intertextuality***، وعن طريق رفض التعريفات المانعة للترجمة كما لو أنها ليست سوى وصفات جامدة. فإذا كنت تعتقد أنه ليست هناك أشياء من قبيل النصوص اللامترجمة، فلابد أن طرح باسنيت سيكون بمثابة خطوة كبيرة إلى الأمام. وقد توافق أيضًا على أن "نمو دراسات الترجمة كتخصص مستقل هو قصة نجاح لحقبة الثمانينيات" (***Bassnett and Lefevere 1992: xi***). أما إذا كنت تعتقد، مثلي- وآخرين، مثل

---

(١) لابد أنني أسأت فهم ما تدعو إليه باسنيت هنا. إن سوسير افترض في البداية أن "علم اللغة ليس إلا جزءًا من علم السيميولوجيا العام" (16 : 1916) وقد قبل بارت (Barthes 1967) هذه العلاقة تقريبًا بالنظر إلى السيميولوجيا (أو السيميوطيقا) باعتبارها translinguistique [علم ما وراء اللغات]، ذلك العلم الذي كان مفترضًا أن يبحث في كافة المنظومات الإشارية ذات الصلة بالقوانين اللغوية (انظر أيضًا: Eco1977: 30). وفي واقع الأمر، فقد كان بارت يحاول أن يستعيد لعلم اللغة سابق نفوذه، وهي خطوة، على قدر ما أعلم، لم يتراجع عنها بعد ذلك. أما عن أصالة طرح باسنيت، فإننا نلاحظ أن كلوبيفر Kloepfer كان قد دعا في وقت سابق إلى أن نظرية الترجمة "تشمل، من الناحية العملية، دراسة للأدب" (36 : 1981).

فرانك *Frank (1992:371)*- أن النصوص اللامترجمة موجودة فعلاً ويمكن وصفها بصورة مستقلة، فإن قصة النجاح المدهشة لحقبة الثمانينيات هذه تبين على الأرجح الحاجة إلى التخصص، وتفسُّخ دراسات الترجمة، وربما جانبًا خاطفًا من الانتهازية الفكرية.

كان التغيير الأساسي هو التوسع الهائل في برامج تدريب المترجمين منذ نهايات الثمانينيات، ذلك التوسع الذي وفر تربة خصبة للوظائف الأكاديمية ولإصدارات دراسات الترجمة، وإذا ما تعين على الأدب المقارن أن يسعى باحثًا لنفسه عن أرض جديدة، فإن دراسات الترجمة هي جائزته الكبرى. وربما كان اهتمام باسنيت ببرامج الاندماج يرجع لهذا. لكنها لم تكن بمفردها. لقد صيغ ما لا يقل عن أربع إستراتيجيات أخرى كطرق للوصول إلى الوحدة المرغوبة.

• مختلف المؤرخين المشتغلين في جماليات استقبال اللغة الألمانية يرون منذ وقت بعيد أن الترجمة هي أحد أشكال استقبال الأدب. وقد لقيت الترجمات أدنى اهتمام بين نصوص يوس *jauss*(*) الأكثر نفوذًا (*1970*، *1977*)، وقد ذكرت بصورة عارضة تقريبًا في كراس جريم ***"reception history" handbook*** الصادر عام ١٩٧٧، لكنها كانت قد حصلت على كامل حقها باعتبارها شكلاً من أشكال الاستقبال في كتاب إشتاكلبرج ***Stackelberg (1972)*** وحازت على أهمية متزايدة من خلال الإصدارات العديدة لمركز جوتنجن لأبحاث الترجمة الأدبية ***Sonderforschungsbereich 309***.(١) وعلى الرغم من أن هذه الإستراتيجية ليست مناقضة على الإطلاق (حيث تعتبر

(*) هانز روبرت يوس (١٩٢١ - ١٩٧٧) أكاديمي ألماني اشتهر بعمله في نظرية الاستقبال (أو التلقي) وفي الأدب الفرنسي الوسيط والحديث. (المترجم)

(١) انظر: the Göttinger Beiträge zur Internationlen übersetzungsforschung schmidt verlag, Berlin; عشرة مجلدات ضخمة من المجلدات التي ظهرت حتى تاريخ كتابة هذا المقال. ويجب أيضًا أن ننظر إلى النجاح النسبي لدراسات الترجمة الأدبية في ألمانيا على ضوء Interkulturelle Germanistik [تقريبًا: الثقافة الألمانية المزدوجة] التي تهدف أساسًا إلى دراسة استقبال اللغة والأدب الألمانيين خارج ألمانيا.

دراسات الترجمة والدراسات الأدبية نشاطات متتامة)، فإن الاهتمام ينصب بكل تأكيد على أشكال الترجمة الأقرب إلى التعليق النقدي أو إلى التعديل بصورة مؤثرة.

• وتبنى رولف كلويبفر *Rolf Kloepfer (1981)* شكلاً موازيًا من التتام عندما تصور أن الخبراء الأدبيين يساعدون المترجمين عن طيب خاطر على فهم النصوص الأدبية، كما لو أن المترجمين عاجزون عن فهم الأدب بأنفسهم.

• واختار ثيوهيرمانز *Theo Hermans (1985)* وآخرون، بدلاً من ذلك، الاحتجاج على النظرة الازدرائية التي وجهها الباحثون الأدبيون التقليديون صوب المترجمين (لكنه لم يذكر مترجمين). لقد كان بوسع دراسات الترجمة أن تدخل على هذا النحو كعنصر جديد بصورة جذرية، ومعارض، وربما علمي في إصراره على عدم التقييم. لكن أحدًا لم يصرخ عاليًا، ربما بفضل تأثير ***Rezeptionsästhetik*** [جماليات الاستقبال]. لقد بدأ الباحثون الأدبيون لتوهم يجرون دراسات الترجمة، ويطلقون على عملية التحول "***shift***" أحيانًا "المنطعف الثقافي" ***Cultural turn***.

• ويمكن العثور على نوع رابع من الإستراتيجيات عند لورانس فينوتي الذي يشهر الهراوات لا دفاعًا عن النصوص التي جرت ترجمتها ولكن نيابة عن المترجمين كجماعة اجتماعية. فالمترجمون يشكلون، على ما يبدو، مهنة مضطهدة. ونظرًا لأن جزءًا من الشكوى من وضعهم يمكن مقارنته بالطرق التقليدية في التفكير بشأن الترجمة، فإن فينوتي يقترح "تدخلاً" ينم عن الشهامة من جانب منظري الماركسية وما بعد الكولونيالية والتفكيكية والتحليل النفسي ونِدية المرأة ***Feminism*** *(1992: 1,6)*؛ وهو خليط يذكرني بشدة بمقرر الأدب المقارن حين كنت طالبًا. لكن لا شيء ينم عن أن المترجمين كانوا بحاجة إلى مثل هذا التدخل في يوم من الأيام. إنها بكل تأكيد نقطة تجانب الصواب. وعلى جاري عادة أنصار النزعة الوصفية، لم يزعج المقاتل المناهض للاستغلال إلا عددًا محدودًا جدًا من الناس. وتظل هذه الإستراتيجية بمثابة الحنطة التي نحملها لطاحونة صناعة بحوث أكاديمية آخذة في الاتساع.

يتم، بصورة متزايدة الاتساع، تصنيف قوائم مثل قائمة جامعة واروبك للدكتوراه، وكذلك حلف فينوتي الخيالي، تحت الفرع الرئيسي "الدراسات الثقافية"، الذي كان بوسعه أن يصبح موقعًا لنشاطات مثل تاريخ الترجمة. وأنا لا اعتراض عندي على هذه اللافتة، فهي يمكن أن تشمل عددًا كبيرًا من التخصصات البينية تتيح لكل أنواع التغير أن تحدث. لكنني لا أتصور أن هذا الفرع الرئيسي هو الفردوس المنتظر. وأرى أن نجاحه النسبي راجع بالأساس إلى تعدد معانيه بصورة مراوغة، وليس إلى أية مزايا تصنيفية.

إن "الدراسات الثقافية" قد تعني تحليل الثقافة الشعبية أو الثقافة الجماهيرية، كما كان الوضع في بريطانيا في حقبتي الستينيات والسبعينيات. وقد تعني التحليل الماركسي للثقافة الطبقية وشذرات منه في تراث رايموند ويليامز.(*) كما أنها قد تعني الدراسة الوضعية ***Positivistic*** للعادات والسمات في ثقافة قومية بذاتها، ربما من ذلك النوع الذي تحب المؤسسات القومية رعايتها (مثل المجلس الثقافي البريطاني). أو هي قد تعني القراءات النقدية العامة لكاتب من نوع هومي بهابها(**) أو المخططات الأكثر تخصصية في السيميوطيقا. ويمكن أن تكون مجرد اسم مناسب يجمع بين الأشياء التي لا يجمعها بشكل عام إلا السخط الثقافي. أم أنها الوسيلة المناسبة بصورة مماثلة لبناء قسم جامعي ضخم غايته الحد من السخط؟ ثم إنها قد تكون أيضًا طريقة للتفكير بشأن المثقفين الذين يعملون في مجال معالجة المعلومات ويملكون الآن قوة اجتماعية حقيقية ولكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بها. وقد تعني أكثر من ذلك.

(*) رايموند هنري ويليامز Raymond Henry Williams (١٩٢١ - ١٩٨٨) عضو بارز في حركة اليسار الجديد، وناقد وروائي وأكاديمي من ويلز ذو ثقافة واسعة. وتعتبر كتاباته السياسية والثقافية والأدبية إضافة هامة للنقد الماركسي في مجال الثقافة والفنون. (المترجم)

(**) Homi K. Bhabha) ١٩٤٩ -) أستاذ للغة الإنجليزية وآدابها بالجامعات الأمريكية ومدير مركز العلوم الإنسانية بجامعة هارفارد، وهو أحد منظري ما بعد الحداثة في الأدب ويتميز أسلوبه بالغموض الشديد. من أصل هندي. (المترجم)

ويفضل هذه المعاني الاحتمالية، فإن مصطلح "الدراسات الثقافية" قد يستحق درجة النجاح المؤسسي: فكل شخص يمكن أن يجد شيئًا إيجابيًّا في المصطلح. لكن هذا المصطلح لا يعد حتى الآن بأي قدر من التوجيه التخصصي أو التوصيف المزدوج التخصص. ومع ذلك، فإن بعض أنواع الدراسات الثقافية قد تكون أفضل ما يمكــن لتاريخ الترجمة أن ينتظره الآن من التركيبة الجامعية، على الأقل حين لا تؤدي القوة الفكرية إلى إرباك الانفتاح الثقافي الناتج؛ ولكن يستحيل القيام بدراسات تاريخ الترجمة في أي مكان آخر؛ ويمكن لتاريخ الترجمة أن يباع لأي شخص في قدرته أن يقايض على أبحاثه مقابل رواتب أو ترقيات أو مركز.

إن المؤسسات الأكاديمية هي زبائننا لا أكثر ولا أقل. والأساس المادي لهذه الرؤية ليس من الصعب العثور عليه: وأنا جالس في مكتب بالجامعة أبحر عبر الإنترنت، تتشكل دراستي لتاريخ الترجمة أولاً من خلال عمليات المقايضة مع أولئك المهتمين الجالسين في المكاتب المماثلة في جميع أنحاء العالم، وثانيًا من خلال مناقشة الموضوع مع الأكاديميين الجالسين بأجسادهم وراء الباب. ولكن، في الأماكن التي تتحدد فيها ميزانيات الأبحاث الجامعية على مستوى فوق مستوى الأقسام، كما هو الحال في إسبانيا، لم تعد مواد البناء التي تملكها الجامعات المتخصصة قادرة على التظاهر بأن في إمكانها بناء منزل.

دراسات الازدواج الثقافي

إذا كان من الأفضل أن نهجر الهياكل المؤسسية لأكاديميينا السياسيين، فإن هذا لا يعني أن عملنا الحالي ينبغي أن يكون بدون توجيه فكري لنوع أو آخر. وكما حاولت أن أبين في هذا الكتاب، فإن في وسع تاريخ الترجمة بل وينبغي أن يكون له قضاياه الخاصة؛ مناهجه الخاصة، وحتى أفكاره بشأن ما عسى أن يكون أو لا يكون تاريخ الترجمة. إن العديد من التخصصات الأخرى يمكن حشدها حول

تاريخ الترجمة؛ وبهذا المعنى، فإننا جميعًا نندرج ضمن تخصص مزدوج واحد، الأمر الذي يفسر دون شك لماذا يمكن القيام بعملنا في أي ركن من أركان العلوم الإنسانية تقريبًا. لكن جوهر تاريخ الترجمة، مثل جوهر الترجمة ذاتها، ينطوي على قيود معينة وربما يتطلع لتطور بعينه في المستقبل.

وبودي أن أعلن، دون تشدد، أن تاريخ الترجمة يمكن أن يصبح أخيرًا شيئًا يتسع بصورة مطردة، ولكن ليس إلى حد أن يصبح لامكانًا على الإطلاق.

إن الرغبة في تجاوز الترجمة نتيجة طبيعية لازدواج التخصصات. ويمكن الآن حشد كثير من الأفكار الرائعة حول هذا الموضوع الوحيد والمحدد جدًّا لدرجة تستحق معها الأفكار شيئًا أفضل. وعلى هذا، فإننا بصدد الإبانة عن شيء أوسع قليلاً. يمكننا أن نفعل ذلك بطريقتين على الأقل. من ناحية، يمكن، كما يجري الآن، توسيع مفهوم الترجمة ذاته ليناسب الموضوع الذي نريد أن نوضحه، وهو الأمر الذي قد يكون من الناحية العملية لا شيء بالمرة. ومن ناحية أخرى، يمكن تحديد ظواهر النصوص المترجمة بدقة ثم ربطها بأي حقول متماسة تستلزم منهجًا فكريًّا مماثلاً. وسيصبح هذا المنهج الثاني هو الطريق الذي تسير عليه دراسات الازدواج الثقافي. إنه منهج يحافظ على التعريف المانع للترجمة، ويسعى إلى تتبع العلاقات التي تؤثر على المظاهر الأخرى للثقافات المزدوجة. كما أنه لا يزال يرتكز على هندسة نقاط التقاطع.

وأنا أكف عن تقديم أي خريطة لدراسات الازدواج الثقافي كما لو أنني قد وضعت قدمي على أرض الميعاد. لكن المرء يمكنه، برغم ذلك، أن يتصور العديد من المسارات المتفرعة عن دراسات الترجمة: أحدها يمر مجاورًا لعملية النقل المادي، وآخر يشق طريقه عبر النظم، والمسارات الأخرى تحاول إدراك السببية المعقدة أو سوسيولوجيا الوسطاء. وأيًّا ما كانت الجسور التي تم العبور من خلالها طوال الطريق، تكون النتيجة صورةً أكثر كمالاً لطريقة تشكل الثقافات المزدوجة، وبالتالي، وبشكل يدعو للتفاؤل، تشكل قدرًا هامًّا من الثقافات. وعلى سبيل المثال،

فإن مهمة القيام بالتفسير الدقيق للترجمات بين اللغتين الفرنسية والألمانية في نهاية القرن التاسع عشر تطلبت مني أن أعرف شيئًا ما عن إضفاء الطابع المؤسسي على الترجمة، وجوهر الدوريات الأدبية والدوريات غير المتخصصة، والأساليب السياسية المتبعة في الألزاس واللورين، وتحالفات أوروبا البسماركية وما بعد البسماركية، والمفاوضات السرية بين فرنسا وألمانيا، والفائدة الإستراتيجية للمصالح الاستعمارية، والقدرات العسكرية النسبية، واقتصاديات إنتاج الفحم، والممولين الدوليين في إستراسبور، وإحصائيات التجارة، وإحصائيات الهجرة، والعلاقات بين الأحزاب السياسية للجناح اليساري، وغير ذلك كثير. وعلى الرغم من أن أي شخص قد يكون قادرًا على التوصل إلى معظم متطلبات هذا المشروع إن كانت لديه الدوافع الكافية، إلا أن الاختصاصيين الذي يعملون بصورة جماعية من خلال علاقات غير رسمية يمكنهم أداء مثل هذا المشروع على أكمل وجه. وبمجرد أن يقوم شخص ما بتغطية كل هذه الجوانب، فإنهم سيستطيعون، بطبيعة الحال، إعطاء تفسير أكثر بكثير من مجرد ترجمات قليلة. وستكون دراسة الترجمات قد أصبحت قسمًا من الدراسة الشاملة لثقافة مزدوجة بعينها. وسيكون تاريخ الترجمة قد أصبح قسمًا من أقسام دراسات الازدواج الثقافي.

هذا لا يعني أن دراسات الازدواج الثقافي تتسع لكل شيء، ولا يعني أيضًا أنها مسئولة عن الكشف عن الازدواج الثقافي في أي مكان. وعندما شرع باحث مثل نيكولاس روند (*1993 Nicholas Round*) في المقارنة بين لاثقافة القشتالية والثقافة الإيطالية لدراسة الترجمة في القرن الخامس عشر، كان هناك شعور حقيقي بأنه يفعل ذلك بوصفه هيسبانيًا، وبأنه يفعل ذلك بشكل جيد جدًا. لقد تعلم الناس كيف يدرسون الثقافات وكيف يقارنونها مع الثقافات الأخرى. لكن التخوم الثقافية هي أقصى ما وصلوا إليه كباحثين، وينبغي أن لا تكون عندنا أي شكوى بشأن هذا الأمر. بل ويمكننا أن نستفيد من نتائج بحوثهم ونصبح من قراء نصوصهم، خصوصًا هوامشهم *footnotes*، بحثًا عن التفاصيل الهامشية *Marginal details*

التي قد تصبح عناصر قصة مختلفة. لكن دراسات الازدواج الثقافي تتطلب، مع ذلك، الإطار الفكري الخاص بها؛ الإطار الواسع الذي يستوعب سلسلة الأنشطة التي يمكن النظر فيها، ولكن الضيق تمـــامًا بحيث يستبعـــد كل شيء يعتبر سمة أو شيئًا مـــركزيًّا لهـــذه أو تلك الثقـــافة. وبافتراض هذا الفارق الجوهري، ينبغي أن لا يكون هناك أي ادعاء بأن أي تخصص أكبر أو أفضل من أي تخصص آخر، تمامًا كما أنه لا ينبغي أن يكون هناك تسلسل هرمي لسمكة كبيرة تبتلع سمكات صغيرة، ولا بين سمكات صغيرة وسمكات كبيرة. إن هذا النوع من ازدواجية التخصص الذي يناسب دراسات الازدواج الثقافي يعني بكل وضوح القيام بشيء مختلف، جنبًا إلى جنب وبالتعاون مع آخرين.

ولحسن الحظ، فإن دراسات الازدواج الثقافي يمكن أن تشمل فقط كل ما أريد عمله في تاريخ الترجمة، وما يزيد عليه. إن تاريخ الترجمة يتطلب، على المستوى النظري، تطوير نظرة جيدة لمعنى التخوم الثقافية ودرجات الانتماء. وعلى المستوى العملي، يمكن أن يتولد مفهوم الازدواج الثقافي من شيء يجب أن يحدث عاجلاً أو آجلاً في معظم برامج تدريب المترجمين حيث يتعين على المترجمين أن يتعلموا ضرورة القيام بشيء أكثر من مجرد الترجمة. وإذا ما نظرنا إلى المترجمين كعناصر نقل متخصصة تعمل في مواقع الازدواج الثقافي، فإنهم هم أنفسهم سيدلوننا في الواقع على مناطق بحث لم يجر إضفاء الطابع المؤسسي النسبي عليها، مستغلين دراسات الترجمة كسوق مؤسسية رابحة، وطارحين الحلول لبعض مشاكلنا التاريخية على الدوام. إن تاريخ الترجمة سيساعد على صياغة ثقافات المستقبل الازدواجية.

المراجع

Allen, Ros (1991) 'Long is Ever. The Cassibellaunus Episode in Three Versions of the 'Brut'', in Roger Ellis (ed) *Translation in the Middle Ages* (= *New Comparison* 12), Colchester: University of Essex, 71-88.

Althusser, Louis (1965) *Pour Marx*, Paris: François Maspero.

Altick, R. D. (1962) 'The Sociology of Authorship. The Social Origins, Education, and Occupations of 1,100 British Writers, 1800-1935', *Bulletin of the New York Public Library* 66: 389-404.

Alvar, Carlos and Angel Gómez Moreno (1987) 'Traducciones francesas en el siglo XV: El caso del "Arbol de batallas" de Honoré Bouvet', in Julio-César Santoyo et al. (eds) *Fidus Interpres. Actas de las Primeras Jornadas Nacionales de Historia de la Traducción*, 2 vols, León: Universidad de León, vol 1: 31-37.

Alverny, Marie-Thérèse d' (1964) 'Avendauth?', *Homenaje a Millás-Vallicrosa*, 2 vols, Barcelona: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, vol. 1: 19-43.

Amit-Kochavi, Hannah (1996) 'Israeli Arabic Literature in Hebrew Translation. Initiation, Dissemination and Reception', *The Translator* 2/1: 27-44.

Appadurai, Arjun (1986) 'Introduction: Commodities and the Politics of Value', in Arjun Appadurai (ed) *The Social Life of Things: Commodities in Cultural Perspective*, Cambridge: Cambridge University Press, 3-63.

Arrojo, Rosemary (1993) *Tradução, Desconstrução e Psicanálise*, Rio de Janeiro: Imago.

Attali, Jacques (1991) *1492*, Paris: Fayard.

Badawi, Adburrahman (1968) *La Transmission de la philosophie grecque au monde arabe*, second edition, Paris: Vrin, 1987.

Badia, Lola (1988) *De Bernat Metge a Joan Roís de Corella. Estudis sobre la cultura literària de la tardor medieval catalana*, Barcelona: Quaderns Crema.

Baker, Mona (1993) 'Corpus Linguistics and Translation Studies. Implications and Applications', in Mona Baker, Gill Francis and Elena Tognini-Bonelli (eds) *Text and Technology. In Honour of John Sinclair*, Amsterdam & Philadelphia: John Benjamins, 233-250.

------ (1995) 'Corpora in Translation Studies: an overview and some suggestions for future research', *Target* 7/2: 223-243.

Balakian, Anna (ed) (1982) *The Symbolist Movement in the Literature of European Languages*, Budapest: Akadémiai Kiadó.

Ballard, Michel (1992) *De Cicéron à Benjamin. Traducteurs, traductions, réflexions*, Lille: Presses Universitaires de Lille.

Ballesteros Beretta, Antonio (1984) *Alfonso X el Sabio*, Barclona: El Albir.

Barthes, Roland (1967) *Elements of Semiology*, trans. A. Lavers and C. Smith, London: Cape (Original: 'Éléments de sémiologie', *Communications* 4, 1964).

Bassnett, Susan (1991a) *Translation Studies*, revised edition, London & New York: Routledge.

------ (1991b) 'Translation and Ideology', *Koiné* 1/2: 7-32.

------ (1993) *Comparative Literature. A Critical Introduction*, Oxford & Cambridge MA: Blackwell.

------ (1994) 'Translation Studies at Warwick - The Intercultural Approach', *In Other Words* 3: 35-37.

Bassnett, Susan and André Lefevere (1992) 'General editors' preface', in André Lefevere (ed) *Translation, History, Culture. A Sourcebook*, London & New York: Routledge.

Beer, Jeanette (1989) 'Introduction', in Jeanette Beer (ed) *Medieval Translators and their Craft*, Kalamazoo MI: Medieval Institute Publications, Western Michigan University.

Benjamin, Walter (1923) 'Die Aufgabe des Übersetzers', reprinted in *Illuminationen. Ausgewählte Schriften*, Frankfurt/Main: Suhrkamp, 1977, 50-62.

Berman, Antoine (1984) *L'épreuve de l'étranger. Culture et traduction dans l'Allemagne romantique*, Paris: Gallimard.

Bihl, Liselotte and Karl Epting (1987) *Bibliographie französischer Übersetzungen aus dem Deutschen 1487-1944. Bibliographie de traductions françaises d'auteurs de langue allemande*, 2 vols, Tübingen: Max Niemeyer.

Blum-Kulka, Shoshana (1986) 'Shifts of Cohesion and Coherence in Translation', in Juliane House and Shoshana Blum-Kulka (eds) *Interlingual and Intercultural Communication. Discourse and Cognition in Translation and Second Language Acquisition Studies*, Tübingen: Gunter Narr, 17-35.

Bourdieu, Pierre (1980) 'Une science qui dérange', interview with Pierre Thuillier in *La Recherche* 112; reprinted in *Questions de sociologie*, Paris: Minuit, 19-36.

Bragt, Katrin van (1989) 'Corpus bibliographique et analyse des traductions. Un programme d'analyse par ordinateur', *Revue de Littérature comparée* 1989/2: 171-178.

------ (1996) *Bibliographie des traductions françaises (1810-1840). Répertoires par disciplines*, avec la collaboration de Lieven D'hulst et José Lambert, Leuven: Leuven University Press.

Brennan, Christopher (1981) *Prose-Verse-Poster-Algebraic-Symbolico-Riddle-Musico-Poematicographoscope. Pocket Musico-Poematicographoscope* (written 1897), facsimile edition, Sydney: Hale & Iremonger.

Brook, Leslie C. (1991) 'The Translator and his Reader: Jean de Meun and the Abelard-Heloise Correspondence', in Roger Ellis (ed) *The Medieval Translator II*, London: Centre for Medieval Studies, Queen Mary and Westfield College, University of London, 99-122.

Brunel, Pierre and Yves Chevrel (eds) (1989) *Précis de Littérature comparée*, Paris: Presses Universitaires de France.

Callahan, David (1993) 'Material Conditions for Reception. Spanish Literature in England 1920-1940', *New Comparison* 15: 100-109.

Caminade, Monique and Anthony Pym (1995) *Les Formations en traduction et interprétation. Essai de recensement mondial* (= special issue of *Traduire*), Paris: Société Française des Traducteurs.

Cancio, Carmelo (1995) 'Être traducteur en France en 1994. Bilan', *Traduire* 165: 4-27.

Cary, Edmond (1963) *Les grands traducteurs français*, Geneva: Georg.

Cherewatuk, Karen (1991) 'The Middle English *Floris and Blauncheflur*, Another Merchant's Tale', in Roger Ellis (ed) *Translation in the Middle Ages* (= *New Comparison* 12), Colchester: University of Essex, 34-70.

Chesterman, Andrew (1994) 'From "Is" to "Ought": Laws, Norms and Strategies in Translation Studies', *Target* 5/1: 1-20.

Clagett, Marshall (1953) 'The Medieval Latin Translations from the Arabic of the Elements of Euclid with Special Emphasis on the Versions of Adelard of Bath', *Isis* 44: 27-28, 38-42.

Comes, Mercè, Roser Puig and Julio Samsó (eds) (1987) *De Astronomia Alphonsi Regis. Actas del simposio sobre astronomía alfonsí celebrado en Berkeley (agosto 1985) y otros trabajos sobre el mismo tema*, Barcelona: Universidad de Barcelona, Instituto 'Millás Vallicrosa' de Historia de la ciencia árabe.

Copeland, Rita (1991) *Rhetoric, Hermeneutics and Translation in the Middle Ages. Academic Traditions and Vernacular Texts*, Cambridge, New York, Port Chester, Melbourne, Sydney: Cambridge University Press.

Coste, Didier (1988) 'Pour une histoire littéraire négative', in Anthony Pym (ed) *L'Internationalité littéraire*, Paris & Barcelona: Noesis, 30-41.

Delabastita, Dirk (1991) 'A False Opposition in Translation Studies: Theoretical versus/and Historical Approaches', *Target* 3/2: 137-152.

Delisle, Jean and Judith Woodsworth (eds) (1995) *Translators through History*, Amsterdam & Philadelphia: John Benjamins/UNESCO.

D'hulst, Lieven (1987) *L'Évolution de la poésie en France (1780-1830). Introduction à une analyse des interférences systémiques*, Leuven: Leuven University Press.

------ (1990) *Cent ans de théorie française de la traduction: de Batteux à Littré (1748-1847)*, Lille: Presses Universitaires de Lille.

Dottin, Mireille (1983) *S comme Salomé. Salomé dans le texte et l'image de 1870 à 1914*, Université de Toulouse - le Mirail.

Dujardin, Edouard (1931) *Le Monologue intérieur*, Paris: Messein.

Duméril, Edmond (1934) *Lieds et ballades germaniques traduits en vers français. Essai de bibliographie critique*, Paris: Champion, Reprint: Geneva: Slatkine, 1977.

Durišin, Dionýz (1989) *Theory of Interliterary Process*, Bratislava: Veda, Slovak Academy of Sciences.

Durling, Nancy Vine (1989) 'Translation and Innovation in the *Roman de Brut*', in Jeanette Beer (ed) *Medieval Translators and their Craft*, Kalamazoo: Medieval Institute Publications, Western Michigan University, 9-39.

Eco, Umberto (1977) *A Theory of Semiotics*, London & Basingstoke: Macmillan.

Economist, The (1995) 'What's the French for cock-up?', *The Economist* 336/7927: 69; translated as 'Chère, si chère loi Toubon', *Courrier international* 252: 5.

Eliot, T. S. (1919) 'Tradition and the Individual Talent', in D. J. Enright and Ernst de Chickera (eds) *English Critical Texts*, London: Oxford University Press, 1962, 293-301.

Even-Zohar, Itamar (1981) 'Translation Theory Today: A Call for Transfer Theory', *Poetics Today* 2/4: 1-7.

------ (1990) 'Translation and Transfer', *Poetics Today* 11/1 (= special issue on Polysystem Studies): 73-78.

Foz, Clara (1987) 'El concepto de Escuela de Traductores de Toledo', in Julio-César Santoyo et al. (eds) *Fidus Interpres. Actas de las Primeras Jornadas Nacionales de Historia de la Traducción*, 2 vols, León: Universidad de León, vol. 1: 24-30.

------ (1991) 'Pratique de la traduction en Espagne au Moyen Age: les travaux tolédans', in Roger Ellis (ed) *The Medieval Translator II*, London: Centre for Medieval Studies, Queen Mary and Westfield College, University of London, 29-43.

Frank, Armin Paul (1989) 'Translation as System and *Übersetzungskultur*, On Histories and Systems in the Study of Literary Translation', *New Comparison* 8: 85-98.

------ (1992) 'Towards a Cultural History of Literary Translation. "Histories," "Systems," and Other Forms of Synthesizing Research', in Harald Kittel (ed) *Geschichte, System, literarische Übersetzung / Histories, Systems, Literary Translations*, Berlin: Erich Schmidt, 369-387.

Frank, Armin Paul and Helga Essmann (1900) 'Translation Anthologies: A Paradigmatic Medium of International Literary Transfer', *Amerikastudien / American Studies* 35/1: 21-34.

Fromm, Hans (1950-53) *Bibliographie deutscher Übersetzungen aus dem Französischen 1700-1948*, 6 vols, Baden-Baden: Verlag für Kunst und Wissenschaft.

Frow, John (1995) *Cultural Studies and Cultural Value*, Oxford: Oxford University Press.

García Yebra, Valentín (1983) *En torno a la traducción. Teoría. Crítica. Historia*, Segunda edición corregida y aumentada, Madrid: Gredos, 1989.

Gargatagli Brusa, Ana (1996) 'La traducción de América', in Miquel Edo Julià (ed) *I congrès internacional sobre traducció. Actes*, 2 vols, Bellaterra: Departament de Traducció i d'Interpretació, Universitat Autònoma de Barcelona, vol. 2: 727-742.

Genette, Gérard (1976) *Mimologiques. Voyage en Cratylie*, Paris: Seuil.

------ (1978) *Seuils*, Paris: Seuil.

Gómez Carrillo, Enrique (1921) *Obras Completas*, Madrid: Mundo Latino.
Grimm, Gunter (1977) *Rezeptionsgeschichte. Grundlegung einer Theorie*, Munich: Wilhelm Fink.
Gutt, Ernst-August (1991) *Translation and Relevance. Cognition and Context*, Oxford: Basil Blackwell.
Harman, Lesley D. (1988) *The Modern Stranger. On Language and Membership*, Berlin, New York, Amsterdam: Mouton de Gruyter.
Haskins, Charles Homer (1924) *Studies in the History of Medieval Science*, Cambridge MA: Harvard University Press.
------ (1929) *Studies in Medieval Culture*, reprint, New York: Frederick Ungar, 1965.
Hausmann, Frank-Rutger (1992) *Bibliographie der deutschen Übersetzungen aus dem Italienischen von den Anfängen bis 1730*, 2 vols, Tübingen: Niemeyer.
Hermans, Theo (1985) 'Introduction. Translation Studies and a New Paradigm', in Theo Hermans (ed) *The Manipulation of Literature. Studies in Literary Translation*, London & Sydney: Croom Helm, 7-15.
------ (1991) 'Translational Norms and Correct Translations', in Kitty M. van Leuven-Zwart and Ton Naaijkens (eds) *Translation Studies. The State of the Art*, Amsterdam & Atlanta GA: Rodopi, 155-169.
------ (1992) 'Renaissance Translation between Literalism and Imitation', in Harald Kittel (ed) *Geschichte, System, literarische Übersetzung / Histories, Systems, Literary Translations*, Berlin: Erich Schmidt, 95-116.
Hernández, Francisco J. (ed) (1985) *Los cartularios de Toledo. Catálogo documental*, Madrid: Fundación Ramón Areces.
Holmes, James S (1972) 'The Name and Nature of Translation Studies'; expanded version in *Translated! Papers on Literary Translation and Translation Studies*, Amsterdam: Rodopi, 1988, 66-80.
Holz-Mänttäri, Justa (1984) *Translatorisches Handeln. Theorie und Methode*, Helsinki: Academia Scientiarum Fennica.
------ (1990) 'Funktionskonstanz - eine Fiktion?', in Heidemarie Salevsky (ed) *Übersetzungswissenschaft und Sprachmittlerausbildung. Akten der I. Internationalen Konferenz*, 2 vols, Berlin: Humboldt-Universität zu Berlin, vol. 1: 66-74.
Horguelin, Paul (1981) *Anthologie de la manière de traduire. Domaine français*, Monreal: Linguatech.
Hosington, Brenda (1991) 'Partonopeu de Blois and its Fifteenth-Century English Translation: a Medieval Translator at Work', in Roger Ellis (ed) *The Medieval Translator II*, London: Centre for Medieval Studies, Queen Mary and Westfield College, University of London, 231-252.
Ikeda, Daisaku (1986) *The Flower of Chinese Buddhism*, New York: Weatherhill.
Jauss, Hans Robert (1970) *Literaturgeschichte als Provokation*, Frankfurt/Main: Suhrkamp.

------ (1977) *Ästhetische Erfahrung und literarische Hermeneutik I*, Munich: Wilhelm Fink.

Jacquart, Danielle (1989) 'Remarques préliminaires à une étude comparée des traductions médicales de Gérard de Crémone', in Geneviève Contamine (ed) *Traduction et traducteurs au Moyen Âge*, Paris: CNRS, 109-118.

Jourdain, Amable (1873) *Recherches critiques sur l'âge et l'origine des traductions latines d'Aristote. Nouvelle édition revue et augmentée par Charles Jourdain*, Paris: Joubert (first edition 1819).

Jurt, Joseph, Martin Ebel and Ursula Erzgräber (1989) *Französischsprachige Gegenwartsliteratur 1918-1986/87. Eine bibliographische Bestandsaufnahme der Originaltexte und der deutschen Übersetzungen*, Tübingen: Max Niemeyer Verlag.

Kalinke, Marianne E. (1991) 'Translator or Redactor? The Problem of Old Norse-Icelandic "Translations" of Old French Literature', in Roger Ellis (ed) *Translation in the Middle Ages* (= *New Comparison* 12), Colchester: University of Essex, 34-53.

Kelly, Louis G. (1979) *The True Interpreter. A History of Translation Theory and Practice in the West*, Oxford: Basil Blackwell.

Keohane, Robert O. (1984) *After Hegemony. Cooperation and Discord in the World Political Economy*, Princeton NJ: Princeton University Press.

Kintz, Jean-Pierre et al. (eds) (1989) *Nouveau dictionnaire de biographie alsacienne*, vol. 15, Strasbourg: Fédération des Sociétés d'Histoire et d'Archéologie d'Alsace.

Kittel, Harald (ed) *Geschichte, System, literarische Übersetzung / Histories, Systems, Literary Translations*, Berlin: Erich Schmidt.

Kloepfer, Rolf (1967) *Die Theorie der literarischen Übersetzung: Romanisch-deutscher Sprachbereich*, Munich: Wilhelm Fink.

------ (1981) 'Intra- and Intercultural Translation', *Poetics Today* 2/4: 29-38.

Krasner, Stephen D. (ed) (1983) *International Regimes*, Ithica: Cornell University Press.

Kritzeck, James (1964) *Peter the Venerable and Islam*, Princeton: Princeton University Press.

Kuhn, Thomas S. (1987) 'What Are Scientific Revolutions?', in Lorenz Krüger et al. (eds) *The Probabilistic Revolution*, 2 vols; vol. 1 *Ideas in History*, Cambridge MA & London: MIT Press, 7-22.

Kurz, Ingrid (1985) 'The Rock Tombs of the Princes of Elephantine. Earliest references to interpretation in Pharaonic Egypt', *Babel* 31/4: 213-218.

Ladmiral, Jean-René and Edmond Marc Lipiansky (1989) *La communication interculturelle*, Paris: Armand Colin.

Lambert, José (1988) 'Twenty Years of Research on Literary Translation at the Katholieke Universiteit Leuven', in Harald Kittel (ed) *Die literarische Übersetzung: Stand und Perspektiven ihrer Erforschung*, Berlin: Erich Schmidt, 122-138.

------ (1989) 'La traduction, les langues et la communication de masse. Les ambiguïtés du discours international', *Target* 1/2: 215-237.

------ (1991a) 'Shifts, Oppositions and Goals in Translation Studies: Towards a Genealogy of Concepts', in Kitty van Leuven-Zwart and Ton Naaijkens (eds) *Translation Studies: The State of the Art*, Amsterdam & Atlanta GA: Rodopi, 25-37.

------ (1991b) 'In Quest of Literary World Maps', in Harald Kittel and Armin Paul Frank (eds) *Interculturality and the Historical Study of Literary Translations*, Berlin: Erich Schmidt, 133-143.

Lambert, José, Lieven D'hulst and Katrin van Bragt (1985) 'Translated Literature in France, 1800-1850', in Theo Hermans (ed) *The Manipulation of Literature: Studies in Literary Translation*, London & Sydney: Croom Helm, 149-163.

Laurenson, D. F. (1969) 'A Sociological Study of Authorship', *British Journal of Sociology* 20: 311-325.

Leach, Edmund (1976) *Culture and Communication. The Logic by which Symbols are Connected*, Cambridge, London, New York, Melbourne: Cambridge University Press.

Lefevere, André (1977) *Translating Literature: The German Tradition from Luther to Rosenzweig*, Assen: Van Gorcum.

------ (1981) 'On "Literary" and "Translation"', *Poetics Today* 2/4: 39-50.

------ (1991) 'Translation and Comparative Literature: The Search for the Center', *TTR* 4/1: 129-144.

------ (1992a) *Translation, Rewriting, and the Manipulation of Literary Fame*, London & New York: Routledge.

------ (ed) (1992b) *Translation, History, Culture. A Sourcebook*, London and New York: Routledge.

Lefevere, André and Susan Bassnett (1990) 'Introduction: Proust's Grandmother and the Thousand and One Nights - The "Cultural Turn" in Translation Studies', in Susan Bassnett and André Lefevere (eds) *Translation, History and Culture*, London: Pinter, 1-13.

Leith, Dick (1983) *A Social History of English*, London: Routledge & Kegan Paul.

Lemay, Richard (1963) 'Dans l'Espagne du XIIe siècle. Les traductions de l'arabe au latin', *Annales Economies, Sociétés, Civilisations* 18/4: 639-665.

Lowell, Robert (1958) *Imitations*, eighth printing, New York: Farrar, Straus and Giroux, 1969.

Luhmann, Niklas (1968) *Vertrauen. Ein Mechanismus der Reduktion sozialer Komplexität*, 3. durchgesehene Auflage, Stuttgart: Ferdinand Enke, 1989.

------ (1997) *Die Kunst der Gesellschaft*, Frankfurt/Main: Suhrkamp.

McClure, J. Derrick (1991) 'Translation and Transcreation in the Castalian Period', *Studies in Scottish Literature* 26: 185-198.

McVaugh, Michael (1974) 'Gerard of Cremona. A List of Translations made from Arabic into Latin in the Twelfth Century', in Edward Grant (ed) *A Source Book in Medieval Science*, Cambridge MA: Harvard University Press, 35-38.

Makdisi, George (1990) *The Rise of Humanism in Classical Islam and the Christian West*, Edinburgh: The University Press.

Margalef, Ramón (1986) 'Variacions sobre el tema de la selecció natural. Exploració, selecció i decisió en sistems complexos de poca energia', in Jorge Wagensberg (ed) *Procès a l'atzar*, Barcelona: Tusquets, 121-139.

Marx, C. W. (1991) 'Problems of Editing a Translation: Anglo-Norman to Middle English', in Roger Ellis (ed) *The Medieval Translator II*, London: Centre for Medieval Studies, Queen Mary and Westfield College, University of London, 253-267.

Menéndez Pelayo, Marcelino (1880-81) *Historia de los heterodoxos españoles*, 3 vols, Madrid: Librería Católica de San José.

Menéndez Pidal, Gonzalo (1951) 'Cómo trabajaron las escuelas alfonsíes', *Nueva Revista de Filología Hispánica* 5/4: 363-380.

Mercure de France / Neue Deutsche Rundschau (1895) 'Une enquête franco-allemande' / 'Die deutsch-französische Annäherung. Eine Umfrage bei Deutschen und Franzosen', *Mercure de France* 14/64: 1-65; 14/65: 235-236, *Neue Deutsche Rundschau* 6/1: 286-312, 412-413.

Mercure de France (1897) 'L'Alsace-Lorraine et l'état actuel des esprits', *Mercure de France* 24/96: 641-814.

Milton, John (1993) *O poder du tradução*, São Paulo: Ars Poetica.

Minnis, A. J. (1988) *Medieval Theory of Authorship. Scholastic literary attitudes in the later Middle Ages*, Aldershot: Scolar Press (first edition 1984).

Mitchell, Allan (1971) *Bismarck and the French Nation, 1848-1890*, New York: Pegasus.

Morgan, Bayard Quincy (1922) *Bibliography of German Literature in English Translation*, second edition, Stanford University Press, 1938.

Mounin, Georges (1965) *Teoria e storia della traduzione*, Turin: Einaudi.

Nord, Christiane (1991a) *Text Analysis in Translation. Theory, Method, and Didactic Application of a Model for Translation-Oriented Text Analysis*, trans. Christiane Nord and Penelope Sparrow, Amsterdam & Atlanta GA: Rodopi.

------ (1991b) 'Scopos, Loyalty, and Translational Conventions', *Target* 3/1: 91-109.

Nordau, Max (1892-93) *Entartung*, 2 vols, Berlin: Carl Dunder.

Norton, Glyn P. (1984) *The Ideology and Language of Translation in Renaissance France and their Humanist Antecedents*, Geneva: Droz.

Paes, José Paulo (1990) *Tradução. A ponte necessária. Aspectos e problemas da arte de traduzir*, São Paulo: Atica.

Park, Robert E. (1928) 'Human Migration and the Marginal Man', *American Journal of Sociology* 33/8: 881-893.

Parsons, Talcott (1953) 'Some Comments on the State of the General Theory of Action', *American Sociological Review* 18: 618-631.

Pascua Febles, Isabel and Ana Luisa Peñate Soares (1991) *Introducción a los estudios de traducción*, Las Palmas de Gran Canaria: Corona.

Ponton, Rémy (1973) 'Programme esthétique et accumulation de capital symbolique. L'exemple du Parnasse', *Revue française de sociologie* 14: 202-220.
Poulle, Emmanuel (1987) 'Les Tables Alphonsines sont-elles d'Alphonse X?', in Mercè Comes et al. (eds) *De Astronomia Alphonsi Regis*, Barcelona: Universidad de Barcelona, Instituto Millás Vallicrosa de Historia de la ciencia árabe, 51-69.
Pound, Ezra (1920) 'Our Tetrarchal Précieuse (A Divagation from Jules Laforgue)', in *Instigations*, New York: Bori and Liverright, 253-263.
Pratt, Karen (1989) 'Direct Speech - A Key to the German Adaptor's Art?', in Jeanette Beer (ed) *Medieval Translators and their Craft*, Kalamazoo: Medieval Institute Publications, Western Michigan University, 213-246.
Proctor, Evelyn S. (1951) *Alfonso X of Castile. Patron of Literature and Learning*, Oxford: Clarendon Press.
Puchala, Donald J. and Raymond F. Hopkins (1983) 'International regimes: lessons from inductive analysis', in Stephen D. Krasner (ed) *International Regimes*, Ithica: Cornell University Press, 61-92.
Pym, Anthony (1992a) *Translation and Text Transfer. An Essay on the Principles of Intercultural Communication*, Frankfurt/Main, Berlin, Bern, New York, Paris, Vienna: Peter Lang.
------ (1992b) 'Shortcomings in the historiography of translation', *Babel* 38/4: 221-235.
------ (1992c) 'The Relations between Translation and Material Text Transfer', *Target* 4/2: 171-189.
------ (1993a) *Epistemological Problems in Translation and its Teaching*, Calaceit: Caminade.
------ (1993b) 'The Historical Failure of Brotherhood in International Cultural Regimes', *History of European Ideas* 16/1-3: 120-130.
------ (1993c) 'The Problem of Sovereignty in Regimes of European Literature Transfer', *New Comparison* 15: 137-146.
------ (1995a) 'Schleiermacher and the Problem of *Blendlinge*', *Translation and Literature* 4/1: 5-30.
------ (1995b) 'European Translation Studies, *une science qui dérange*, and Why Equivalence Needn't Be a Dirty Word', *TTR* 8/1: 153-176.
------ (1995c) 'Resistant Translation Strategies in Robert Lowell's *Imitations* and Ezra Pound's *Cantos*', in Christine Pagnoulle and Ian Mason (eds) *Cross-Words. Issues and Debates in Literary and Non-Literary Translating*, Liège: L3, 159-171.
Quandt, Regina (1987-88) *Schwedische Literatur in deutscher Übersetzung. 1830-1980*, ed. Fritz Paul and Heinz-Georg Halbe, 7 vols, Göttingen: Vandenhoeck & Ruprecht.
Quine, Willard Van Orman (1960) 'Translation and Meaning', chapter of *Word and Object*, Cambridge MA: MIT Press, 26-79.

Quirk, Randolph, Sidney Greenbaum, Geoffrey Leech, Jan Svartnik (1972) *A Grammar of Contemporary English*, London: Longman.
Rebell, Hughes (1895) 'Sur une traduction collective des œuvres de Nietzsche', *Mercure de France* 13: 98-102.
Reiss, Katharina and Hans J. Vermeer (1984) *Grundlegung einer allgemeinen Translationstheorie*, Tübingen: Niemeyer.
Rener, Frederick M. (1989) *Interpretatio. Language and Translation from Cicero to Tytler*, Amsterdam & Atlanta GA: Rodopi.
Richards, I. A. (1924) *Principles of Literary Criticism*, London: Kegan, Paul, Trench, Trubner.
Riet, Simone van (ed) (1972) *Avicenna Latinus. Liber de Anima seu Sextus de Naturalibus*, édition critique de la traduction latine médiévale, 2 vols, Louvain: Peeters.
Robinson, Douglas (1995) 'Theorizing Translation in a Woman's Voice. Subverting the Rhetoric of Patronage, Courtly Love and Morality', *The Translator* 1/2: 153-175.
------ (1996) *Translation and Taboo*, North Illinois University Press.
------ (1997) *Western Translation Theory from Herodotus to Nietzsche*, Manchester: St Jerome.
Romaine, Suzanne (1982) *Socio-Historical Linguistics: Its Status and Methodology*, Cambridge: Cambridge University Press.
Rosaldo, Renato (1989) *Culture and Truth: The Remaking of Social Analysis*, Boston: Beacon Press.
Rosengren, Karl Erik (1968) *Sociological Aspects of the Literary System*, Stockholm: Natur och Kultur.
Round, Nicholas (1993) *'Libro Llamado Fedrón', Plato's 'Phaedo' translated by Pero Díaz de Toledo*, London: Tamesis.
Ruggie, John G. (1975) 'International Responses to Technology: Concepts and Trends', *International Organization* 29/3: 557-584.
Russell, Peter (1985) *Traducciones y traductores en la península ibérica (1400-1550)*, Bellaterra: Universitat Autònoma de Barcelona.
Salama-Carr, Myriam (1990) *La Traduction à l'époque abbaside. L'école de Hunayn Ibn Ishaq et son importance pour la traduction*, Paris: Didier Érudition.
Samsó, Julio (1987) 'Alfonso X and Arabic Astronomy', in Mercè Comes et al. (eds) *De Astronomia Alphonsi Regis*, Barcelona: Universidad de Barcelona, Instituto Millás Vallicrosa de Historia de la ciencia árabe, 23-38.
Santoyo, Julio-César (1987) *Teoría y crítica de la traducción: Antología*, Bellaterra: Universitat Autònoma de Barcelona.
Saussure, Ferdinand de (1916) *Cours de linguistique générale*, ed. Charles Bally and Albert Sechehaye; trans. Wade Baskin *Course in General Linguistics*, Glasgow: Fontana Collins, 1974.
Schaeffer, Louis Edouard (1962) 'Écrivains alsaciens médiateurs entre la pensée

allemande et la pensée française: Henri Albert et Nietzsche, Schuré et Wagner', *Les Lettres en Alsace* 8: 363-368.
Schiff, Mario (1905) *La Bibliothèque du Marquis de Santillane*, Paris: Bouillon.
Schlawe, Fritz (1961) *Literarische Zeitschriften. Teil I. 1885-1910*, Stuttgart: Metzler.
Schleiermacher, Friedrich (1813) 'Ueber die verschiedenen Methoden des Uebersezens', reprinted in Hans Joachim Störig (ed) *Das Problem des Übersetzens*, Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1963, 38-70.
Schlösser, Anselm (1937) *Die englische Literatur in Deutschland von 1895 bis 1934*, Jena: Verlag der Frommannschen Buchhandlung Walter Biedermann.
Schockenhoff, Andreas (1986) *Henri Albert und das Deutschlandbild des Mercure de France 1890-1905*, Frankfurt/Main: Lang.
Séguinot, Candace (1988) 'Pragmatics and the Explicitation Hypothesis', *TTR* 1/2: 106-113.
Simmel, Georg (1971) 'The Stranger', trans. Robert Park and Ernest Burgess in Donald N. Levine (ed) *On Individuality and Social Forms*, Chicago: University of Chicago Press, 143-149 (original in *Soziologie*, Berlin 1908).
Snell-Hornby, Mary (1988) *Translation Studies. An Integrated Approach*, Amsterdam & Philadelphia: John Benjamins.
------ (1991) 'Translation Studies - Art, Science or Utopia?', in Kitty M. van Leuven-Zwart and Ton Naaijkens (eds) *Translation Studies: The State of the Art*, Amsterdam & Atlanta GA: Rodopi, 13-23.
Stackelberg, Jürgen von (1972) *Literarische Rezeptionsformen. Übersetzung, Supplement, Parodie*, Frankfurt/Main: Athenäum.
Steiner, George (1975) *After Babel. Aspects of Language and Translation*, London, Oxford, New York: Oxford University Press.
Steiner, T. R. (1975) *English Translation Theory, 1650 - 1800*, Assen: Van Gorcum.
Steinschneider, Moritz (1904-05) *Die europäischen Übersetzungen aus dem Arabischen bis Mitte des 17. Jahrhunderts*, reprint, Graz: Akademische Druck- u. Verlagsanstalt, 1956.
Störig, Hans Joachim (ed) (1963) *Das Problem des Übersetzens*, Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft.
St-Pierre, Paul (1993) 'Translation as a Discourse of History', *TTR* 6/3: 61-82.
Sudhoff, Karl (ed) (1917) 'Daniels von Morley *Liber de naturis inferiorum et superiorum*, nach der Handschrift Cod. Arundel 377 des Britischen Museums zum Abdruck gebracht', *Archiv für die Geschichte der Naturwissenschaften und der Technik* 8/3: 1-40.
Tarde, Gabriel (1895) *La logique sociale*, Paris: Alcan.
Thorndike, Lynn (1923) *A History of Magic and Experimental Science during the First Thirteen Centuries of our Era*, vols 1-2, London: Macmillan.
Toury, Gideon (1980) *In Search of a Theory of Translation*, Tel Aviv: The Porter Institute for Poetics and Semiotics.

------ (1985) 'A Rationale for Descriptive Translation Studies', in Theo Hermans (ed) *The Manipulation of Literature: Studies in Literary Translation*, London & Sydney: Croom Helm, 16-41.

------ (1991) 'What are Descriptive Studies into Translation Likely to Yield apart from Isolated Descriptions?', in Kitty M. van Leuven-Zwart and Ton Naaijkens eds *Translation Studies: The State of the Art*, Amsterdam & Atlanta GA: Rodopi, 179-192.

------ (1992) '"Everything has its Price": An Alternative to Normative Conditioning in Translator Training', *Interface* 6/2: 60-72.

------ (1995) *Descriptive Translation Studies and beyond*, Amsterdam & Philadelphia: Benjamins.

Van Hoof, Henri (1986) *Petite histoire de la traduction en Occident*, Louvain-La-Neuve: Cabay.

------ (1991) *Histoire de la traduction en Occident. France, Grande-Bretagne, Allemagne, Russie, Pays-Bas*, Louvain-La-Neuve: Duculot.

Vaucaire, Maurice (1907) 'Salomé à travers l'art et la littérature', *La Nouvelle Revue* 46/2: 145-152.

Venuti, Lawrence (1992) 'Introduction', in Lawrence Venuti (ed) *Rethinking Translation. Discourse, Subjectivity, Ideology*, London & New York: Routledge, 1-17.

------ (1995) *The Translator's Invisibility. A History of Translation*, London & New York: Routledge.

Vermeer, Hans J. (1989) *Skopos und Translationsauftrag*, Heidelberg: Institut für Übersetzen und Dolmetschen.

------ (1992) *Skizzen zu einer Geschichte der Translation*, vols 1-2, Frankfurt/Main: Verlag für Interkulturelle Kommunikation.

------ (1996) *Das Übersetzen im Mittelalter (13. und 14. Jahrhundert)*, 2 vols, Heidelberg: TEXTconTEXT.

Vernet, Juan (1978) *La cultura hispanoárabe en Oriente y Occidente*, Barcelona: Ariel.

------ (1984) 'Alfonso X y la astronomía', *Boletín de la Real Academia de la Historia* 181: 349-370.

Weber, Eugen (1976) *Peasants into Frenchmen. The Modernization of Rural France, 1870-1914*, Stanford: Stanford University Press.

Wyler, Lia (1993) 'Public Perception of Translation in Brazil', Paper presented to the 13th FIT World Congress, Brighton.

------ (1995) *A tradução no Brasil. Ofício invisível de incorporar o outro*, Dissertation, Rio de Janeiro: Universidade Federal do Rio de Janeiro, Centro de Filosofia e Ciências Humanas, Escola de Comunicação.

Wyzewa, Théodore de (1896) 'La Jeunesse de Frédéric Nietzsche', *Revue des Deux-Mondes* (4ème période) 133: 688-699.

المؤلف في سطور

أنطونى بيم

- عمل في جوانب كثيرة من دراسات الترجمة من منظور السـوسيولـوجيا النقـدية، ويعمل الآن محررًا لسلسلة تصدر عن دارسان جيروم حول دراسات نظريات الترجمة.

ويقوم حاليًا (وقت ترجمة هذا الكتاب) بالتدريس في جامعة روفيرا في إقليم كاتالونيا (إسبانيا).

- تشمل كتبه المنشورة إلى جانب الكتاب الذي بين أيدينا:

Translation and Text Transfer (١٩٩٢) [حرفيًّا: الترجمة ونقل النص]؛ و***Epistemological Problem in Translation and its Teaching*** (١٩٩٣) [حرفيًّا: مشكلات إبستمولوجية في الترجمة وتدريسها]؛ و ***Pour une éthique du traducteur (1997)*** (١٩٩٧) [حرفيًّا: من أجل أخلاقية المترجم].

المترجم في سطور

علي كلفت

- كتب وترجم ونشر العديد من الأعمال القصصية في الدوريات المصرية والعربية.
- ساهم في ترجمة ومراجعة عدد من الكتب في مجالات مختلفة.

وشارك الأستاذ خليل كلفت في ترجمة كتاب "عالم جديد".

وشارك الأستاذ محمد فاضل في إعداد قاموس إلياس للكمبيوتر والإنترنت (إنجليزي/ عربي).

- ساهم في ترجمة ومراجعة وإعادة صياغة العديد من مقالات موسوعة الكتاب العالمي (السعودية).
- حرر عشرات الكتب والعديد من الأعمال الموسوعية، أشهرها موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية تأليف د. عبد الوهاب المسيري (٨ أجزاء).
- يقوم حاليًا بإعداد مصنف معجمي حديث لألفاظ اللغة العربية.
- له أبحاث لغوية منشورة على نطاق ضيق، وأخرى في طور الإعداد؛ أهمها: "حرف العلة؛ ماهيته وأثر أجهزة النطق في تحويره: مفهوم جديد لظاهرة الإعلال والإبدال في صرف اللغة العربية. يأخذ بفكرة أحادية حرف العلة وليس تعدديته".

التصحيح اللغوى : محمـد المـصـرى
الإشـراف الفنى : حـسن كـامـل

بادئًا من الفكرة الخاصة بأننا ينبغي أن نوجه أسئلة ذات أهمية معاصرة- وبأن تلك "الأهمية" ذاتها يجب أن يتم تعريفها أولاً- يشرع أنطوني بيم في دحض الكثير من التصورات السائدة في وقتنا الحاضر عن تاريخ الترجمة، مفترضًا، بين أشياء أخرى كثيرة، أن موضوع هذا التاريخ ينبغي أن يتناول المترجمين بوصفهم بشراً، وأن الباحثين مرتبطون بموضوعهم ارتباطًا ذاتيا، وأن المنظومات الثقافية قائمة على أساس الإرادة الاجتماعية، وأن المترجمين يعملون في مواقع الازدواج الثقافي، وأن نموذج التعاون عن طريق التفاوض يمكن تطبيقه على الطريقة التي يعمل بها المترجمون بين الثقافات. والمنهجية المقترحة استدلالية على نحو بارز، فهي تبين الأساليب الإمبريقية المختلفة التي يمكن تطويرها وتطبيقها: هناك رسوم بيانية عن اختيار المادة الفهرسية، التعريفات العملية، الإحصائيات المضللة، بناء الشبكات والنظم، أمثلة واضحة من العصرين الوسيط. والحديث، بالإضافة إلى ملاحظات تتعلق بمشكلات عملية مثل مشكلة تمويل الأبحاث. وبرغم أن محور اهتمام هذا الكتاب هو المناظرات التاريخية، فإنه يطرح بل يبتكر مناظرة معاصرة؛ فآراؤه تسعى ليس فقط إلى إحياء الدراسة التاريخية للترجمة، ولكنها تسعى أيضا إلى فتح آفاق رحيبة